

دكتور صلاح فضل

تأثير الثقافة الإسلامية

في

الكويت والخليج العربي

دار الشروق

تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي

دكتور صلاح فضل

الطبعة الثالثة

دار الشروق

القاهرة ١١ السليح حواء خسي - هاتف ٧٧٦٥٧٨ - ٧٧٦٥٨٤ - برعيا شروق - تليفون 93091 SHOROK UN
 سكرات ص ب ٧٦ - A - ٢١٥٥٩ - ٨١٧٦٥ - ٨١٧٦٢ - برعيا شروق - تليفون 20175 LE SHOROK
 SHOROK INTERNATIONAL 316/318 REGENT STREET LONDON W1 UK TEL 6372743/4 TELEX SHOROK 267786

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من حق القارئ أن يعرف منذ الوهلة الأولى أن موضوع التأثير الإسلامي في الكوميديا الإلهية للدانتي ليس وليد اليوم ، وإن كانت هذه أول مرة يعرض فيها بشكل واف باللغة العربية . ففي أوائل هذا القرن نبت في مخيلة عالم إسباني ضليع أمضى عمره في معايشة التراث العربي والذخائر الإسلامية أن ما يحفل به هذا التراث من صور الدار الآخرة وأدب المعراج يكمن وراء أنضج وأقوى أثر أدبي أوربي في العصور الوسطى وهو ملحمة دانتي الخالدة ، فعكف عشرين عاما يعالج مصادره ويبحث طرائقه حتى أخرج نظريته في هذا التأثير نموذجاً منهجياً في الدراسات المقارنة المحكمة ،

وكانت مفاجأة مذهلة لأبناء الثقافة الأوروبية ، فجز عليهم أن يعترفوا بالدين للثقافة العربية الإسلامية . مرحلة عطائها الحبيب ، ونشبت معركة علمية حادة بين هذا الباحث المتمكن « أسين بالاثيوس » ومن اكتسبهم نظريته من أنصار وبين من ينكرون ذلك العطاء . وبعد ثلاثين عاماً من تاريخ بدء الجدل الساخن اكتشفت وثيقة دامغة تؤيد النظرية وتقطع السبيل على حجج منكريها .

كان ذلك على وجه التحديد عام ١٩٤٩ . ومن ثم أصبحت القضية من أهم منجزات الأدب المقارن في القرن العشرين .

ومع ذلك فإن المشكلة لم تدخل كاملة إلى المكتبة العربية حتى الآن ، فلم تترجم هذه الدراسات مع شلة حاجتنا إليها ونحن نواصل لمناهج الأدب المقارن في جامعاتنا ، ولم تعرض نتائجها بما تستحقه من عناية وإحاطة مع

أنها تعطينا لنا دفعة قوية من الثقة المدعومة بالبراهين العلمية في ثقافتنا القومية وتحفزنا إلى الاعتزاز الواعي بتراثنا وتساعدنا على التخلص من حساسية المتخلف الذى يخشى عواقب الاتصال الفكرى على أصالته ، مع أنه شرط جوهرى لتغذيتها ولانمائها ،

ولئن كان هناك علماء مصريون قد أسهموا بمجهودهم النبيل في تنوير القارئ العربى وإضاءة بعض جوانب هذه القضية له فإن ذلك قد تم في إطار دراسات جامعة لما يناظرها من قضايا مشابهة ، وقد آن الأوان كى نفرّد لكل موضوع بحوثه المستقلة الوافية ، وتدعوه كى يدخل بكامل حجمه إلى لغتنا العربية حتى ينهمر في معيننا العلمى ويحدث أثره المنشود في وجداننا القومى .

ويطيب لى في هذا التقديم أن أشير إلى أهم هذه الدراسات ، لا على سبيل نقد المصادر ، وإنما من قبيل التحية والتنويه والاعتراف بفضل السبق والريادة ،

ولعل أول مصدر عربى مبكر عرض لتأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية عقب نشر الترجمة الانجليزية لكتاب « أسين بالاثيوس » عام ١٩٢٦ كان كتاب الأستاذ عبد اللطيف الطيباوى الذى صدر في القاهرة عام ١٩٢٨ بعنوان « التصوف الإسلامى العربى : بحث في تطور الفكر العربى » وقد عالج هذه القضية المقارنة - كما يقتضى سياقه - في فصل يقع في ست عشرة صفحة بعنوان « ابن العربى ودانتي » قدم فيه عرضاً مركزاً للكتاب الذى « أقيم على طريقة تحليلية علمية يكفى أن نقول فيها إن الرأى العام عدها من عجائب التأليف » - فشرح المؤلف مباحث الكتاب الأربعة التى تناولت أولاً روايات الإسراء والمعراج كمصدر للكوميديا والتراث الأدبى والصوفى عند المعرى وابن عربى ، ثم حلل بعض العناصر الصوفية كما وردت في « الفتوحات المكية » موضحاً مشابقتها لأجزاء الكوميديا ، وبحث في القسم الثالث الأفاصيص النصرانية والأساطير الأوربية التى كانت شائعة في العصور الوسطى قبل دانتي وكانت بدورها مستقاة من مصادر عربية إسلامية ، وفي

القسم الرابع وهو على حد تعبير الأستاذ الطيباوى « أهم أقسام الكتاب وأدقها بحثاً وأقواها حجة » رجح المؤلف انتقال تلك الأفكار الإسلامية إلى أوروبا المسيحية عامة وإلى دانتى خاصة بوسائل متعددة من تجارة وحركة حجيج وحروب صليبية ونشاط تبشيري ، وحلده أهم مواقع التقاء الثقافات حينئذ ، وهى صقلية (التى نقل اسمها سيسيليا) وبلاط ملوكها ، ثم اسبانيا خاصة فى طليطلة وقرطبة وإشبيلية على مدار عدة قرون .

وقد نبه الباحث إلى أن المستشرق الفرنسى الأستاذ « بلوشيه » كان أول من أشار إلى أصل الكوميديا الإسلامى والتمسه فى التراث الفارسى لكنه عجز عن إثبات ذلك بالبرهان ، حتى جاء « أسين بالاثيوس » بنظريته المنهجية المدعمة ، وأخذ الأستاذ الطيباوى فى شرح الملابس التاريخية والثقافية التى ترشح وتبرز فكرة التأثير ، فوضح أن دانتى كان معجباً بالثقافة الإسلامية وقد مكنته وسائل اتصال أوروبا بالإسلام من الاقتباس منها والتأثر بها « فإذا ثبتت أسبقية الآداب الإسلامية لغيرها وبالتالى دانتى ، وانضحت المشابهة بين هذه الآداب وما جاء به الشاعر الفلورنسى ، وأمكن القول بانتقال هذه الأفكار فقد اتصلت الحلقة دون انقطاع ، وإذن فنظرية أصل الألعبوة (يقصد الكوميديا) الإسلامى أمر لا يمكن جحده » .

ويبدو أن هذا العرض الذى كتب منذ ما يربو على نصف قرن ، وقدم المشكلة للقارئ العربى لأول مرة فيما نعلم كان يتجه إلى دارمى التصوف بصفة خاصة ، واعتمد على الترجمة الانجليزية المختصرة التى حلفت منها أبيات دانتى والنصوص الإسلامية الواردة فى أصل كتاب « أسين بالاثيوس » ، فاهتم فى المقام الأول بتاريخ الأفكار طبقاً لمنظوره الفلسفى ، وأغفل بقية النواحي الفنية التصويرية التى حفل بها الكتاب المعروض ، كما أنه بطبيعة الحال وقف التعريف بالمشكلة عند هذه المرحلة المبكرة ،

وفى عام ١٩٥٣ م نشر أستاذنا المرحوم الدكتور غنيمى هلال الطبعة الأولى من كتابه الفذ « الأدب المقارن » الذى جمع فيه مادة علمية ضخمة يمكن أن تتوزع على عدد كبير من الكتب والدراسات المفصلة ، وقد قام

فيه المؤلف بجهد كبير في تأصيل مناهج الأدب المقارن وتخطيط ميادينه طبقا لمنظور المدرسة الفرنسية ، وأشار إلى كثير من إنجازاته وقضاياها بتركيز شديد بغية رسم معالمه وتحديد مناهجه في الجامعات المصرية والعربية .

وقد عرض لقضية التأثير الإسلامى فى الكوميديا الإلهية فى نطاق الحديث عن الملحمة كجنس أدبى تضافرت الآداب المختلفة على إنمائه وتطويرة ، فوضعت القضية منذ ذلك الوقت فى إطارها الملائم ، كما كان قد نشر فى اسبانيا وإيطاليا حينئذ نص وثيقة المراجع التى قدمت الدليل الحاسم على صدق النبوة الأولى ، فعرض غنيمى هلال فى خمس صفحات موجزاً لتاريخ الموضوع وأشار إلى أهم تطوراته ونتائجه ، والتقط بضعة مشاهد من وثيقة المراجع كأمثلة عامة موضحاً عمق تأثيرها فى الكوميديا الإلهية بعد أن قدم ملخصاً لها أبرز فيه طابعها الدينى الرمضى ، ووعد بأنه سيعالج « هذه المسألة الهامة بالتفصيل فى كتاب آخر » ولكن القدر أعجله عن إتمام هذا المشروع وغيره من المشروعات الواعدة الوفيرة التى ألمح إليها وترك لتلاميذه مهمة إنجازها . على أن ما تميز به هذا المفكر الجامعى الطموح من قدرة هائلة على الاستقصاء ، وروح طليعى وثاب ، وإيمان متوهج برسائله العلمية النقدية لم يلبث أن احترق به قد جعل مهمة تلاميذه شاقة من بعده ، فقد يصيهم الإحباط إذا ما سموا بأنظارهم إلى أفقه دون أن تكون لهم أجنحته ، فلا يبقى أمامهم إلا المغامرة الجسور ، وحسبهم المحاولة المخلصة للدروب .

وبعد قرابة عشر سنوات قدم الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى ، أغزر المعاصرين إنتاجاً وأوفرهم مادة ، كتابه الجامع « دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى » فملخص فى عشر صفحات بعض جوانب المشكلة التى تشغلنا ، وركز على المرحلة الأخيرة منها ، معتمداً على الدراسة التى كتبها الباحث الإيطالى « انريكو تشيرونلى » عند نشره لوثيقة المراجع .

ثم أورد الدكتور بدوى حديثاً مطولاً من الفتوحات المكية ، استغرق أربع صفحات ، عن مواقف الحشر الخمسين التى يبلغ طول كل منها ألف

عام ، ومرادفات الحساب يوم القيامة ، بحجة أن « هذا الوصف المفصل الدقيق لمرحلة الأعراف نجد له نظائر عديدة ومطابقة (أى عند دانتى) يأخذ أسين فى بيانها » والواقع أن « أسين بالاثيوس » اعتمد - كما سنرى - على نصوص أخرى فى التراث الإسلامى أقرب إلى الروح الملحمى التصويرى عند دانتى ، ولم يقف كثيراً أمام هذا الحديث بالرغم من قراءته المتأنية المستوعبة لجميع فصول الفتوحات ، لأنه لا يقدم له مادة تتسق مع هدفه المقارن ؛ إذ أن الأعراف عند دانتى ليست - كما يقول الدكتور بدوى - « طريقاً منزلقاً وعقبات يصعب اجتيازها وصخرة عالية جداً » وليست هذه نقطة الضعف الوحيدة فى عرضه الذى يتسم بالتسرع وعدم الثبوت ، وكان الأحرى بمن فى مثل علمه وإحاطته وأستاذيته أن يكون أكثر منهجية ودقة ؛ فهو يقول عن الباحث الإسباني الآخر « مونيوت سندينو » إنه « نشر فى نفس السنة - سنة ١٩٤٩ - الترجمات الثلاث : الأسانية واللاتينية والفرنسية مع مقدمة وتعليقات (ويورد فى الهامش اسم البكتاب بالإسبانية) فزادت هذه النشرة إذن على نشرة تشيولى بنشر الترجمة الإسبانية ، ولكنها لا تحوى تلك الشواهد والنصوص الخطيرة التى نشرها تشيولى » .

ومن الواضح أن الدكتور بدوى لم يطلع على كتاب « سندينو » اللهم إلا إطلالة عجولة على عنوانه فحسب ؛ لأنه لا توجد بين يلى الباحثين هذه الترجمة الإسبانية ، بل هى مفقودة مع الأصل العربى ، حتى ليظن بأنها كانت مجرد مسودة للترجمتين اللاتينية والفرنسية طرحت بعد استخدامها ، وكل ما فعله (سندينو) أنه قام بتلخيص واف للوثيقة ، وعرضها باللغة الأسبانية الحديثة - وهذا ما أفدت منه فى عرضى - وهى تختلف عن القشتالية القديمة التى ترجم النص إليها أولاً .

ثم يشير الدكتور بدوى إلى تلخيص (بدرو باسكوال) لنص المعراج فى كتابه عن (الطائفة المحمدية) فيذكر أن (تشيولى) نشره فى نصوصه ،

ويغفل أن (سندينو) فعل أيضاً نفس الشيء ونشره ضمن وثائق أخرى تكشف عن شيوع قصة المعراج لدى المؤلفين الأوروبيين في العصر الوسيط. والواقع أن كتاباً مثل (دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي) في طموحه واتساع ميدانه لم يكن ينتظر منه أن يكون أوفى أو أشمل في عرضه للقضية التي تشغلنا ، إذ أنه يقدم في حيز محدود ما تنوء به المجلدات الطوال ، فيضطر إلى أن يقتطف من هنا وهناك . معتمداً على بحوث الآخرين فيوجزها دون نسبة أحياناً إن ضاق المقام ودون تثبت أحياناً أخرى إن أعجله الوقت ، ومن ثم يقع في مثل الهنات التي ذكرناها . لكنه يظل مفيداً في تقديم صورة بانورامية مجملة لكثير من القضايا الحيوية الحظيرة .

ثم أصدر الأستاذ الدكتور ابراهيم عبد الرحمن كتابه القيم « دراسات مقارنة » عام ١٩٧٥ ، فأورد فيه فصلاً محكماً بعنوان « الأصول الإسلامية للكويميديا الإلهية » تناول فيه أيضاً تاريخ المشكلة ، ولكنه عرض أهم عناصرها بدقة شديدة وتوازن كبير ، ثم أخذ في عقد مقارنة علمية خصبة بين الرموز الدينية والاجتماعية عند دانتي ونظائرها في رسالة الغفران للمعري ، مبرزاً الطابع الداني والمستوى الفني لهذه الرموز ، وكيف كانت تتكيف لدى كل من الشاعرين بالمناخ الثقافي والسمت الحضارى لعصره ، وقد أوضح الدكتور ابراهيم عبد الرحمن أن التشابه بين دانتي والمعري يشمل فلسفة أثرهما وشكلهما الفني معاً ، وأورد عدداً من الأمثلة التي تشهد على ذلك . وإذا كان « أسين بالاثيوس » قد كتب بعد تحليله العميق للعناصر الإسلامية لدى دانتي يقول : « إن الشاهد التاريخي أو الوثيقة المكتوبة — في حالة وجودها — سوف تبرهن على التأثير الذي تؤكد الوقائع والنصوص ، لكنها لن تضيف إليه أى قدر من قوة الإقناع العلمى المنبثقة من شواهد هذا التأثير قبل أن يكتشف دليله التاريخي » فصدمت بنوعه ، واكتشف بوثيقة المعراج الشاهد التاريخي ، لكنه بالفعل لم يضيف كثيراً إلى قوة الإقناع العلمى التي تميزت بها بحوثه ، إذا كان الأمر كذلك فيما يتصل بالمعراج فلإن رسالة

الغفران بمظاهر التشابه العميقة التي أُلح إليها الدكتور ابراهيم عبد الرحمن تنتظر بدورها الشاهد التاريخي الذي يثبت نقلها كاملة أو ملخصة إلى إحدى اللغات الأوربية في العصر الوسيط لتتم به دورة هذا التأثير الخلاق وتكتمل قرائنه .

أما آخر بحث جاد في هذا الموضوع فهو كتاب الدكتور رجاء جبر الذي صدر عام ١٩٧٧ بعنوان « رحلة الروح بين ابن سينا وسنائي ودانتي وأراد فيه - على حد تعبيره - أن يتقدم بالبحث خطوة في هذا المجال ، فتناول علاقة الكوميديا الإلهية بالمصادر الشرقية التي عاجلت الرحلة إلى العالم الغيبي علاجاً فلسفياً صوفياً ؛ خاصة منظومة « سير العباد إلى المعاد » للشاعر الفارسي سنائي الغز توي (١١٣١/٨٥٢٥ م) المتأثرة بدورها برسالة حي بن يقظان لابن سينا . على أن هذه الخطوة - كما يشرح بأمانة الباحث نفسه - سبق أن تقدم بها المستشرق الإنجليزي (أرنولد نيكلسون) في بحث نشره عام ١٩٤٣ بمجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعنوان « رائد فارسي لدانتي » وانتهى إلى نتيجة علمية موثوق بها ؛ وهي أن تفصيلات المشابهات بين الأثرين تحمل على الاعتقاد بأن هناك مصدراً مشتركاً للشاعرين ، وهو المادة الماثلة في الروايات الإسلامية عن المعراج ؛ إذ ليس ثمة دليل على أن هذه المنظومة قد نقلت إلى إحدى اللغات الأوربية بطريقة تسمح باطلاع دانتي عليها ، بالإضافة إلى صعوبتها واستغلاق رموزها قبل أن تكتشف شروحها ، وبوسعنا أن نقول إن الزميل الكبير الدكتور رجاء جبر قد نجح في أهدافه التي وضعها لبحثه الدقيق وهي : -

- إثارة الاهتمام بدور ابن سينا الأدبي بجانب دوره كفيلسوف .
 - إلقاء مزيد من الضوء على فكر الشاعر الفارسي سنائي .
 - تنمية موضوع التلاق بين الآداب الإسلامية والعالمية .
- يبد أن هناك بعض الملاحظات اليسيرة التي لاتنقص من قدر بحثه ولا

أهميته ، منها أنه اعتمد في عرضه للمعراج أبي يزيد البسطامي على نشر مجلة « إسلاميكيا » الإنجليزية وكان الأجلر به أن يعتمد على النشرة العربية الموثقة التي أصدرها ضمن مكتبة الآداب الصوفية الأستاذ الدكتور على حسن عبد القادر بالقاهرة عام ١٩٦٤ . كما أنه عمد إلى تقديم ملخص مطول نسبياً للكوميديا الإلهية لا تدعو إليه الضرورة بعد الترجمة المتقنة الدقيقة النموذجية التي أثنى بها المرحوم الدكتور حسن عثمان المكتبة العربية بأجزاء الكوميديا الثلاثة بجميع شروحها وهوامشها وتعليقاتها ، وبأليات كل عيون الأدب العالمي تحظى بجزء من مثل هذا المجهود ، وكان الأولى بالدكتور رجاء أن يصرف همه إلى تقديم ترجمة كاملة لمنظومة سنائي التي تقع كما يقول في ثمانمائة بيت لا أكثر ، فيضيف بهذا جديداً حقاً إلى الأدب العربي ، ويضع ما تبقى من وثائق موضوعنا بين يدي القارئ ، ولازلت آمل أن يقوم في المستقبل بذلك

هذه - في تقديري - أهم الدراسات التي تعرضت للمشكلة ، وهي تتراوح في جملتها - كما رأينا - بين إشارات موجزة لتاريخ القضية أو محاولات مختصرة لتعميق بعض جوانبها ، لكن القارئ العربي يظل بالرغم منها في حاجة إلى الإلمام بصورتها متكاملة ؛ إذ أنه صاحب التراث الذي أثمر والأدب الذي أنجب .

من هنا نشبت ضرورة هذا البحث الذي حاول أن يستوعب بشكل مباشر المادة العلمية المقارنة التي استخدمت في الدراسات الأوربية ، ويطلع على نصوصها العربية الأصلية ، ثم يقدم إعادة ترجمة وعرض لوثيقة المعراج التي أصبحت البرهان الأخير في القضية . ويبحث عن نماذج لنظائرها في التراث متفرقة حتى يعثر عليها مجتمعة .

وقد تطلب هذا معايشة حميمة لعناصر التراث الإسلامي وأدب المعراج والدار الآخرة في كتب الرقائق الدينية والتاريخ والموسوعات الثقافية الشاملة أملا في الوصول إلى أصل المخطوطة العربي ، وإذا كان هذا لازال مستعصياً حتى الآن فلنأني أدعو جميع المشتغلين بالفكر الديني والفلسفة والأدب المقارن

أن يجدوا معنى في البحث عن هذا الأصل ، وأعدهم بأن صحبة هذا التراث بما يخزنه من ثروة أدبية وروحية هائلة ؛ إذا اقترنت بالتوتر الثقافي واليقظة المنهجية ، كفيلة بأن تفتح فيه آفاقاً جديدة شديدة الخصب ؛ خاصة في عناصره المتقدمة المستمرة .

وقد كان الخيار المائل أمامي في هذا البحث هو التركيز على أحد الجانبين في دراسة مصادر دانتى الإسلامية : إما جانب الأفكار ، وإما جانب الصور ؛ إذ أنه لا مفر عند تحليل الحدود الفاصلة بين الآداب المختلفة من فك هذه الوحدة المشتبكة في البنية الأدبية وعزل جزئياتها وإن أفقدها ذلك كثيراً من خصائصها .

وإذا كانت الأفكار بطبيعتها - كما يقول نقاد الفكر - أقرب إلى أن تكون محدودة في صيغها المجردة وحلولها الميتافيزيقية وامتداداتها المباشرة مما يكاد يقصرها على قليل من المقولات (الأمهات) التي تصير جميعها عن نفس الطبيعة العقلية للإنسان فتتشابه بقدر ما تتوافق الظروف التاريخية وتلتقي قوى التجريد البشرية ؛ فإن الصور باعتبارها انعكاساً محدداً للأشكال الواقعية وتجسداً مناظراً للمحسوسات في كثرتها وتغيرها واختلاف نماذجها أعز على التوافق العفوي غير المقصود ؛ إذ كيف يستطيع الإنسان أن يتمثل مسبقاً الإمكانات المختلفة لتشكيلات الصور التي لا حصر لها ، وتراكيبها اللانهائية التي يستطيع الخيال الإنساني أن يبدعها خلال محاكاته للواقع الشديد الثراء والتغير ؟

وكيف نتوقع أن تولد من بين هذه الاحتمالات الهائلة للصور والرموز الممكنة للعالم الآخر مثلاً مجموعات مركبة متجانسة ، ومتطابقة في كثير من خصائصها دون أية علاقة تربط بينها ؟ خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن مبدع أحد الطرفين إنما هو عقلية فردية لشاعر عظيم تبلورت لديه رؤية عصره وقومه ، ومبدع الطرف الأسبق إنما هو الخيال الشعبي الذي اشتركت في إثرائه وتنميته معطيات دينية وثقافية في غاية التعقيد والأصالة ، مما لا يمكن لفرد كائناً من

كان أن يصوغ مثله عمره القصير . ومن هنا فإن إيقاع هذه الدراسة قد اختار أن يضغط على المشاهد والصور باعتبارها الأداة الفنية في التأثير والوسيلة الضرورية لضمان أدبية الدراسة .

ولا يسعني في ختام هذه الكلمة إلا أن أتقدم بأخلص الشاء وأجمل التقدير لجميع من أعانوني في إتمام هذا البحث ، وأخص بالذكر منهم أستاذنا العالم الجليل الدكتور عبد العزيز الأهواني الذي تفضل بإعازتي بعض النسخ الخطية للمعراج ، وأستاذي وصديقي الدكتور أحمد هيكل الذي تكرم بإعطائي نسخته النادرة من الكتاب الذي يضم وثيقة المعراج ، ولكل الأصدقاء والزلاء الذين لقيت من حذبهم ورعايتهم ماعمر قلبي بمزيد من محبتهم والعرفان بصنيعهم الجميل .

والله ولي التوفيق ،

دكتور صلاح فضل

المعادى في أغسطس ١٩٧٩

فهرس المواد

١٢- ٣	مقدمة
١٨- ١٥	فهرس المواد :
٤٢- ١٩	مدخل للموضوع .
٢١	مشكلة الأدب المقارن اليوم
٢٩	الفرق بين التأثير والتقليد
٣٦	تاريخ الموضوع
١٠٥- ٤٣	عوامل التأثير ومستوياته :
٤٥	منابع الثقافة المؤثرة
٥٢	مرحلة العطاء العربي
٥٥	مدرسة الترجمة في طليطة
٦٠	ترجمة كتاب معراج محمد
٦٣	قنوات تسربها إلى دانتي
٧٠	اشترك المصادر وتعدد المستويات
٧٢	رسالة للغفران والوسائل العامة
٧٨	التشابه في حوادث خاصة
٨٤	تحليل العناصر الصوفية
٨٩	كيمياء السعادة لابن عربي
٩٤	ملامح الاتفاق مع دانتي
٩٨	بين سنائي ودانتي
٢٢٢-١٠٧	التحليل المقارن لأجزاء الكوميديا الإلهية :
١٢٩-١٠٧	النار الإسلامية في جميع دانتي :
١٠٩	تصور الأعراف .
١١١	البناء الهندسي للجميع ،

١١٥	على باب النار
١١٩	من مشاهد العذاب
١٢٧	إبليس وعذاب الزمهرير .
١٣١-١٥٩	رحلة المطهر
١٣٣	وصف عام
١٣٩	الاغتسال الرمزي
١٤٢	صور من عذاب المطهر
١٤٨	الفردوس الأرضي
١٥٥	لقاء العروس
١٦٠-١٩٩	بين جنة الإسلام وفردوس داني : موقع الفردوس وشكله صور من الفردوس :
١٧٥	١ - المراقبة
١٧٦	٢ - اللقاءات
١٧٨	٣ - الهداة
١٨١	٤ - نقش على الباب
١٨٢	٥ - مهرجان الأضواء والأناشيد
١٨٦	٦ - ما لا يوصف
١٨٩	٧ - صورة النسر والديك
١٩٢	٨ - صورة الثلج والنار
١٩٢	٩ - رؤية الكون مصغراً
١٩٤	١٠ - الورد الطوباوية وشجرة طوبى
٢٠٠-٢٢٢	نعم الرؤية الإلهية :
٢٠٠	لباب الفردوس

٢٠٥	رواية المتصوفة
٢١٠	اختلاف الدرجات
٢١٣	صور الدوائر
٢١٧	تدرج المتعة والرضا القنوع
٢٢٠	الرواية في وثيقة المعراج
٢٢٥ - ٢٧٦	- عرض وثيقة معراج محمد .
٢٧٧ - ٣٨٤	- نماذج من نظائرها في المأثورات .
٣٨٥ - ٣٩٢	- فهرس المراجع العربية والأجنبية .

مدخل للموضوع

- مشكلة الأدب المقارن اليوم
- الفرق بين التأثر والتقليد
- تاريخ الموضوع

مشكلة الأدب المقارن

عند الإطلاع على ميدان الأدب المقارن اليوم يبدو للباحث أنه يمر بأزمة دقيقة نتيجة لتطور مناهج البحث واختلاف مدارسه من ناحية ولنمو نظرية الأدب وتفرع مفاهيمها من ناحية أخرى . على أن ظروفنا الخاصة المتميزة في العالم العربي تجعلنا أكثر حساسية في علاج هذه القضايا نظراً لحاجتنا الشديدة إلى دخول هذا الميدان مسلحين بوسائله المنهجية ونظرياته العلمية أولاً ثم الإفادة من جميع طرقه ومدارسه وتكييفها لتلائم مع حاجتنا القومية ثانياً . وقد نرى أنفسنا مضطرين إلى تأصيل البديهيات والإلحاح على المبادئ الأولى للعلم في مواجهة نزعات بعض كاتبيننا إلى الاستسهال والاسترسال دون التخرج والتثبت الضروريين . وقد يكون من صالحنا نتيجة لذلك أن نتمسك بمفهوم تجاوزته بلاد أخرى دون أن نغفل لإنجازاتهم وإضافاتهم ؛ أي أننا نقف على بينة من أمرنا ونختار ما يسهم في دفعنا حثيثاً إلى طريق العلم على وعى وبصيرة دون تمذهب منقول .

فالأدب المقارن في أقوم تعريف له اليوم هو العلم المنهجي الذي ينشد دراسة روابط التشابه والقرابة والتأثير بين الأدب ومظاهر المعرفة الإنسانية الأخرى ، أو بين النصوص الأدبية نفسها ، مما قد يبدى والوهلة الأولى متباعداً في الزمان أو المكان ، بشرط أن تنتمي إلى لغات أو ثقافات عديدة ، حتى ولو كانت تدين لتراث مشترك واحد . وتنحو هذه الدراسة إلى وصف ظواهر الالتقاء الأدبي وفهمها وتذوقها بأكبر قدر من التعقيد والاستبصار ، مما يجعلها تتخذ منهج الوصف التحليلي والمقارنة المنظمة التي لا تلغى للفروق بين الأشياء ، بل تبرزها وتوثقها كظواهر أدبية تقوم بين اللغات والثقافات المختلفة استجابة لعوامل تاريخية ونقدية وفلسفية . كل هذا يهدف النفاذ إلى فهم الأدب ووظائفه الحيوية في خدمة الروح الإنسانية العام (١) .

(١) انظر : Pichois Claude. Rousseau, Andre, M. « La littérature Comparée » Trad. Madrid 1969. P. 93.

يبد أن هذا المفهوم قد تعرض فى الآونة الأخيرة لتقد متواصل من قبل أنصار الاتجاهات الحديثة فى النقد الأدبى ونظرية الأدب من أطلق عليهم اسم المدرسة الأمريكية من ناحية ، ومجموعة البنائين ودعاة منهج اجتماعية الأدب من ناحية أخرى ، ويجدر بنا أن نعرض بإيجاز تفرضه طبيعة الدراسة التى نقدم لها لأهم هذه المقولات .

ولعل أكبر من تزعم الحملة ضد النظرة التقليدية فى الأدب المقارن ونبه على خطورة المنهج الوضعى القطعى الذى تحتل به هو الكاتب الموسوعى «رينيه ويليك» الذى ندد بمحاولة بعض الباحثين قصر الأدب المقارن على دراسة العلاقات الخارجية بين الآداب المختلفة ، مما ينفى إلى التركيز على المظاهر السطحية للأدب والعناية بكتاب الدرجة الثانية فحسب ، فلا تشغلهم سوى الترجمات ويوميات الرخالة ومذكرات الوسطاء ، مما يجعل الأدب المقارن مادة تابعة لغيرها ، تبحث فى مصادر بعض الكتاب الأجنبية ، وتقصر عن الإحاطة بجوانب عبقريتهم الحقيقية ؛ إذ أن الأعمال الفنية التى تستحق هذه التسمية ليست مجرد مجموعة من التأثيرات والمصادر ، وإنما هى تراكيب كلية تختلف جذرياً عن موادها الأولية الغفل التى قد تعزى إلى بعض العناصر الخارجية ، وتكون أبنية جديدة ذات خصائص مختلفة ومتميزة .

ومن هنا فإن التأثيرات لا يمكن أن تشرح وجود الأعمال ذاتها ولا حتى أهم ما فيها طبقاً لقوانين السببية الحتمية ، وإنما تمثل فحسب إضاءة لبعض العناصر التى تخضع لعمل الخيال المبدع الحر ، وتكتسب قيماً جديدة ودلالات مستحدثة ، مما يجعل دراستها فى واقع الأمر فرصة — للمعرفة ما يدين به كاتب لآخر — وإنما على العكس من ذلك لاختبار جوانب الأصالة والإبداع فى آثاره الفنية (١) .

(١) أنظر : Wellek, Rene. « Concepts of criticism » Trad.

ينبغي إذن أن نرفض تطرف بعض الدارسين الذين يظنون أنهم قد بلغوا المدى في تفسير الظواهر عندما يعثرون على بعض السوابق الأدبية ، ويتصورون أنهم قد وضعوا أيديهم على علة الإبداع وسببه المولد ، بينما لا يتجاوز صنيعهم في نهاية الأمر أن يكون إقامة مجموعة من الاحتمالات المفسرة التي قد تشير فحسب إلى الطريق الصحيح لفهم العمل وتعمق جوانبه المختلفة . ومن هنا فإن هذه الآراء لا تغلق باب الدوااسات المقارنة وإن دعت إلى إعادة النظر في أهدافها ومناهجها ، إذ لا تتخذ موقف الرفض الكلي الذي عرف به من قبل الناقد الحمالى الإيطالى « بينديتو كروتشي » في مطالع تبلور الاتجاهات المقارنة ، عندما كان يرى أن كل أثر فى كبير يتميز بأصالة مطلقة ويختلف طبقاً للملك كلياً عن غيره من الآثار ، بل إن بعض الآثار المتوسطة أو الضعيفة مهما كانت ناقصة تختلف في تركيبها اختلافات جوهرية عن مادتها الأولية ، وهى لهذا متفردة متميزة تماماً تقوم وحدها دون إمكانية إقامة أى صلات بينها وبين ما يعتبر مصادرها الأولى (١) ، وقد ساد هذا الرأى خارج فرنسا فى الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن ، وتأثرت به إلى حد كبير مدرسة النقد الجديدة الأمريكية ، لكنها لم تصل إلى درجة الرفض الكلى للأدب المقارن ، بل عمدت إلى محاولة استبعاد الطابع الوضعى الغائى منه بتعميق مفهوم الأصالة ونقد طبيعة التأثير . كما قللت من أهمية شرط الالتقاء التاريخى لإجراء الدراسة المقارنة ، وهو الشرط الذى ألحت المدرسة الفرنسية على اعتباره أساسياً لمشروعية البحث المقارن ، وهو المشغول إلى حد كبير عن تحويل الدارس فى هذا الفرع إلى محقق جنائى يستقصى أسباب التأثير ويبحث عن الأدلة المادية له كأنه جريمة ، فإذا عثر عليها أصدر حكماً قضائياً قطعياً دون أن يأخذ فى اعتباره أن الأدب لا يخلق من عدم ، وأن الناذح السابقة لا فضل لها لذاتها ، وأن عمليات الإبداع من التعقيد

(١) أنظر : Weisstein, Ulrich, «Introduccion a la literatura :

Comparada » Trad. Barcelona 1975. p. 171

والتشابك والثراء بما يجعل وجود نموذج سابق ليس حاسماً في شرحها ولا بيان قيمتها الفنية الخاصة . وقد عقدت منذ الستينات عدة مؤتمرات دولية للتوفيق بين هذين الاتجاهين في الأدب المقارن : الاتجاه الذى يلغى شرط الالتقاء التاريخى ، والاتجاه التقليدى الذى يعتد به أصلاً للبحث المقارن .

ويبدو أن الطريقة المثلى للإفادة من الوعى النظرى والحذر المنهجى لكل من الفريقين هو التمييز بين مرحلتين حاسمتين في تاريخ الإنسانية ، المرحلة القديمة التى كان المكان فيها عنصراً غالباً على فرض عوامل العزلة والانفصال بين الشعوب ، والمرحلة الحديثة التى انتصر فيها الإنسان على المكان باختراعه لوسائل الاتصال الحديثة التى تلغى المسافات وتجعل الكرة الأرضية كأنها بيت حائلى صغير ، فإذا كان الفرض الملائم لطبيعة المرحلة الأولى أن الأصل هو العزلة بين الثقافات والآداب ما لم يقيم الدليل على الاتصال التاريخى فإن الفرض الملائم للمرحلة الثانية هو عكس ذلك تماماً ، إذ أنه من الصعب أن تثبت عزلة أى أديب فى العالم يستطيع أن يدير جهاز راديو فى حجم الكف ليسمع نبض إنسان آخر فى الطرف المقابل من العالم ، فالأصل اليوم هو الاتصال ، والعلاقة التاريخية قائمة بالقوة ، وليس هناك مبرر لوضعها كشرط للبحث المقارن فى الآداب المعاصرة ، أما فى الآداب الكلاسيكية القديمة فلا زلنا محتاجين إلى وضع هذه الضوابط المنهجية حتى لا يتحول الأدب المقارن إلى ميدان مفتوح للموازانات الفجة والتقابلات المفتعلة التى لانفيد البحث العلمى فى شئ .

أما بالنسبة للتطور الذى لحق بنظرية الأدب فى الآونة الأخيرة ، وكان من ثماره قدر كبير من التحفظ النقدي تجاه الأدب المقارن فإن أبرز مظاهره تتجلى لدى دعاة اجتماعية الأدب من ناحية والبنائيين من ناحية أخرى . فيرى « جولدمان » مثلاً أن القول بتأثر كاتب ما بكاتب آخر لا يحل مشكلة الإبداع ، بل يقتضى منا — من الوجهة النفسية والاجتماعية خصوصاً — جهداً آخر

لتفسير سبب هذا التأثير ومداه ، ولماذا خضع الكاتب لهذا التأثير دون سواه ، مما يتطلب جهداً تحليلياً للعوامل الاجتماعية والفردية المركبة ، وعلى أية حال فإن الخصائص الجمالية الكبرى للآعمال الفنية تعتبر بلورة لروى جماعية نستحيل استعارتها بطريقة خارجية من آداب أخرى ، وإذا استعيرت بعض أساليبها وعناصرها الجزئية فإن بنيتها الجديدة تختلف حتماً عن البنية الأولى مما يجعل القول بالتأثير لا يشرح شيئاً بقل ما يحتاج بدوره للشرح والتعليل (١) على أن بعض علماء اجتماعية الأدب يولون الظواهر المقارنة عناية فائقة لقياس الفروق الدقيقة العميقة بين المجتمعات على المستوى الثقافى ، فهم يتخذون المشابه ذريعة لمعرفة الخلافات ، خاصة إذا أدت إلى التفسير الخاطئ لبعض الأعمال الأدبية فى أوساط جديدة وتأويلها بشكل ينحرف بها عن معناها الحقيقى الأصلى . ويطلقون على هذا النوع من التفسير اسم « الخيانة الخلاقية » ، فهى خيانة لأنها تضع العمل الفنى فى إطار نظام جديد من الإشارات اللغوية والثقافية غريب عن نظامه الأصلى ، وهى خلاقية لأنها تنهب إمكانات لاكتساب معان جديدة لا تقل أهمية وإبداعاً عن معانيه الأولى ، ويضربون مثلاً على ذلك قصة « روبنسون كروز » « لدانييل دى فو » التى كتبت لتمجيد الحركات الاستعمارية فى بداياتها المبكرة واحتشدت بالمغامرات العجيبة التى كانت محمية للناس عندئذ كوسيلة فنية لتحقيق هذا الغرض ، لكنها الآن قد أصبحت قصة من أدب الأطفال ، تصححهم وتلهيهم بعد أن فقد الاستعمار مبرراته ولم يصبح يوسع أحد أن يدافع عنه بطريقة جدية . بينما نجد أن قصة أخرى وهى « أليسيا فى بلاد العجائب » التى كتبها « لويس كاول » للصغار أساساً قد أصبحت مطابقة لدوق القارئ الناضج الكبير ولم تعد من أدب الأطفال (٢) ، فعلماء اجتماعية

(١) انظر الفصل الخامس بآراء جولدمان فى اجتماعية الأدب من كتابنا « منهج الواقعية فى الإبداع الأدبى » القاهرة ١٩٧٨ ص ٢٣٨ وما بعدها .

(٢) أنظر : Escarpit, Robert. « Sociologia de la literatura » Trad Buenos Aires. 1962. P. 150.

الأدب يلتقطون هذه الخيوط والتحويلات ليدرسوا من خلالها تطور الرؤية الفنية والاجتماعية لدى الأجيال والأوساط المختلفة في عوالمه ونتائجه ، وهي دراسة تختلف إلى حد كبير عن مفهوم الأدب المقارن التقليدي ، إذ تشده إلى دائرة الدراسات الإنسانية الثقافية العامة ودلالاتها الاجتماعية ،

وقد تراوح موقف البنائيين بين الرفض الأول لأهمية قضايا التأثير الأدبي الذي لا يمكن أن يتم بطبيعة الحال إلا في نطاق الجزئيات والمواد الأولية التي لا تمثل نظاماً ولا بنية عامة ، وأخذ النقاد مجدداً يبحثون داخل النظرية البنائية عما يدعم الدراسات المقارنة على أساس أن الأدب المقارن هو الذي وضع في مقابل التفكيك الجزئي المتكاثر للآداب المحلية اتجاهات إلى التوحد العالمي الذي ينحو إلى الاعتداد بالقواعد العامة للفن والشعر ؛ إذ أن هذا التوحيد ينبغي البحث عنه أيضاً على ضوء النظريات النقدية التي تنشأ الكشف عن البنية الفردية والاجتماعية ، فتنوع الظواهر الأدبية الذي لا يحصر له لا يستبعد ضرورة العثور على المبادئ التي لا غنى عنها لفهمه (١) .

ومن الناحية المنهجية فإن بوسع الأدب المقارن أن يستلهم من المنظور البنائي روح العلم والبحث عن النظام في الدراسات الفنية ، فعليه أن يبدأ بالوصف الدقيق القائم على الملاحظة ثم يحدد الموضوعات والمواقف والأشكال وطرق الأداء ، حتى إذا شرع في تصنيفها كشف عن مظاهر التشابه والاختلاف بين الناس والعصور وأبرز تعدد الأنساق وخصائص الأنماط المختلفة في الصيغ المقترنة ، وإذا كانت البنائية تعتمد على التحليل والتركيب فإن الأدب المقارن يستفيد بشكل منهجي حاسم من أدواتها المرفقة في عمليات التحليل والتركيب هذه ؛ وبدلاً من أن تصبح البنية عائقاً في المقارنة تتحول إلى وسيلة قياسية باللغة الحدودي في توضيح مدى التأثير وشموله للعنصر والوظيفة

(١) انظر : المصدر السابق عن الأدب المقارن لصاحبه :

اولأحدهما فحسب ، على اعتبار أن المغزى الأخير لهذه البنية - إن كان ثمة مغزى أخير- يظل في حدود المنطقة الخاصة لكل عمل أدبي تعز على الانتقال المقصود الذي يحيلها إلى مجرد تقليد .

على أن من النتائج الإيجابية لنظرية البنائية تأصيل فكرة أساسية مفادها أن البحث الأدبي يحتاج قبل كل شيء إلى ضرورة تحديد مجال دراسته ومحاوره المركزية ، فينبغي أن يتميز عن دراسة تاريخ الأفكار والتصورات والمشاعر الدينية والسياسية التي كثيراً ما تختلط به وتحل محله . وكثير من كبار الباحثين في الأدب - خاصة في مجال الأدب المقارن - لاتعنيهم دائماً الجوانب الأدبية المحضة بقدر مايعنيهم تاريخ الأفكار والتحويلات والخصائص القومية وغير هذا من العناصر الثقافية العامة . وهم لذلك غالباً مايتوسعون في مفهوم الدراسة الأدبية ليجعلوا منها مرادفاً للتاريخ الإنساني بأكمله ، لكن البحث الأدبي يحتاج إلى ضوابط منهجية تشده دائماً إلى الإصرار على دراسة الأدب كوجه متميز من الأنشطة الإبداعية للإنسان ، وتجعله يقيم مملكته الخاصة حول العناصر الأدبية البحتة طبقاً لتصورات جمالية تحدد طبيعة الفن والأدب ، وعندئذ يدور البحث الأدبي على أعمال محددة ، ويصبح من الضروري لنا أن نعتزف بأننا نتطرق إلى جوانب هامشية عندما نتعرض لدراسة حالة المؤلف النفسية أو حالة القارئ الاجتماعية . وأنه ينبغي لنا أن نعود إلى اعتبار العمل الفني كبنية مركبة من مجموعة من الرموز لأداء جملة من الدلالات تختلف أساساً عن عمليات المؤلف الذهنية عندإبداعها وعمما يمكن أن تخضع له من مؤثرات لاتشرح سوى مادتها الأولية فحسب ، وعلى هذا الأساس توجد « قفزة كونية » بين نفسية المؤلف والعمل الفني ، بين الحياة والمجتمع من جانب والأثر الجمالي من جانب آخر (١) .

على أنه قد يصبح من الضروري للباحث في مرحلة خاصة من التحليل

(١) أنظر كتاب « ويليك » المشار إليه قبل عن مفاهيم النقد ص ٢١٩ .

أن يقفز بالذات هذه القفزة النوعية التي يتصورها البعض مستحيلة التحقيق ،
ويظل القدر الذي نستطيع الاستفادة به من هذه التحفظات في الأدب المقارن هو
الحرص على اصطفاء العناصر الثقافية ذات التأثير الفعال في تشكيل البنية الفنية
وعزل الإشارات المفروزة والمشابه السطحية توطئة لتعميق الوعي بالسمات
الجمالية الأصيلية في الأثر الفني المدروس . كما تدفعنا هذه التحفظات إلى
القصص في نسبة المكاسب والانتصارات الفنية للعمل المؤثر نتيجة لسبقه الزمني
فحسب ، وافترض مجرد التوافق العفوي في الحلول المعروضة نتيجة إيجابية ،
ونحن أحوج ما نكون إلى التدرع بهذا الروح خاصة في موضوع مثل تأثير
الثقافة الإسلامية في واحدة من قمم الإبداع الأدبي الأوربي في العصور الوسطى
لما يثيره عادة من حماس قد يؤدي إلى المبالغة التي تحجب الرؤية السليمة أو
التمادي في نزعة الفخر القومي من دون محاولة للفهم المتأن لقيمة العناصر
بجوار البناء الكلي الشامخ .

الفرق بين التأثير والتقليد

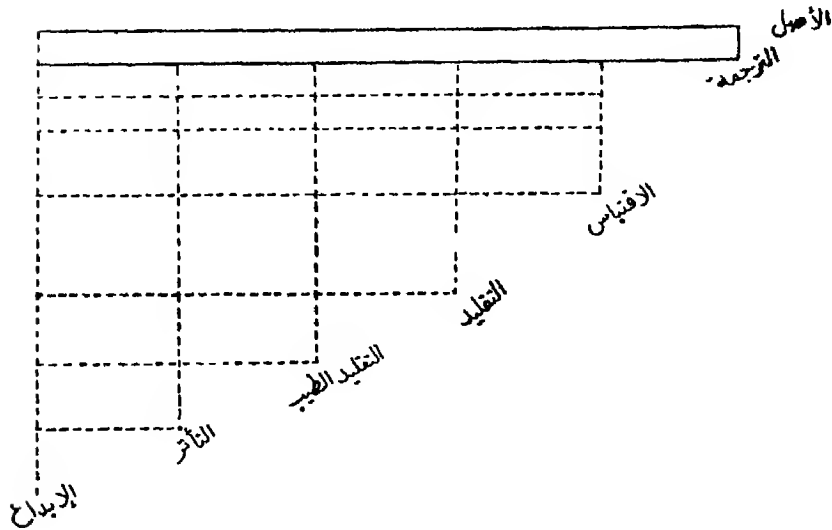
ينبغي أن نميز بطريقة حاسمة بين ظاهرتي التقليد والتأثير ، وحتى إذا تمثلت نتائج هذا التأثير في نوع من الاستجابة الواعية فإنها تنفذ ببطء واستلهاً وتنوير ، ولا تأخذ الطابع الشعوري المنتظم الذي يتسم به التقليد ويجعله خاضعاً لعوامل مرضية يتوفر على دراستها علم النفس ، أو اجتماعية تدخل في نطاق قانون العقوبات .

وربما كانت هناك بعض الظروف التاريخية التي تفرض على أمة ما استيراد كل شيء قبل أن تتمكن من جنى الحصاد القومي المحلى ، لكن هذا يقتصر على حالات استثنائية موقوتة تزول بزوال أسبابها ، وكما يقول بعض الباحثين فإن الشعوب لا تثري على أساس القروض الشكلية ، وإنما اعتماداً على استصفاء المبادئ التي تجدد حياتها الفكرية وامتصاصها بروية وتمهل ، وعندما يحدث تماس بين حضارتين مختلفتين ، ويبتل ريق شعب بحلاوة الآخر فإن المزيج الذي يتكون منهما لا يدانيه شيء في قوته المخصصة الخلاقة ، لكن عندما يقتصر الأمر على مجرد التقليد فإنه لا يثبت من ذلك سوى الأزهار الصناعية المفتعلة (١)

ومن الضروري أن ننطلق عند تحليل عمليات التأثير من حقيقة بيئية وهي أن المرسل لا يظن عادة إلى دوره كمؤثر . كما أن المتلقي لا ينتبه إلى فعالية العناصر التي يحتفظ بها ، وإن كان أهم استثناء يعرض لنا في هذا الصدد يتمثل في أتباع المذاهب والمدارس الأدبية ؛ إذ أنهم غالباً ما يكونون على وعى تام وإحساس واضح بالتبعية بين الزعماء والأنبياء ، مما ينحدر بهؤلاء الأخيرين إلى مرتبة التقليد . ومن هنا فإن أدق تحديد للفرق بين المصطلحين هو اعتبار التأثير تقليداً لاشعورياً واعتبار التقليد تأثراً واعياً محسوباً ، ويقع كل منهما في مرحلة تتدرج على مساحة كبيرة تتقدم الترجمة

(١) انظر نفس المصدر السابق عن الأدب المقارن تأليف Pichois . y

الحرفية في جانب وتنهى عند الأعمال الفنية الخلاقة في جانب آخر ، هذه الأعمال التي لا يقتصر عطاؤها على التجديدات المتصلة بتجاربها وأبقيتها فحسب ، وإنما تشمل كذلك بقية جوانب الإبداع التي لا ينقص من قيمتها وجود نماذج سابقة عليها ومنظور إليها بشكل ما في تكوينها ، ويظل هناك ملمحان أساسيان يميزان بين مختلف المراتب والمستويات ، أحدهما لا يمكن ضبطه بدقة إذ يتصل بالقصد والنية وشعور الكاتب بما يفعل وإعياً أو غير واع ، والثاني متعلق بمدى ثراء التجارب التي تتدخل في إمداده بالحلول التي يوفق إليها ، وكلما اتسع نطاق هذه التجارب كان أثره أقرب إلى الإبداع منه إلى الاحتذاء . ويمكن تمثل هذه القضية بالرسم التقريبي التالي : -



ويشير الخط الأفقي إلى الأعمال السابقة على العمل المدروس كما يشير الخط الرأسي إلى العناصر الذاتية للمؤلف التي تعتمد على الانتقاء والاختيار ، ومعنى هذا أن الترجمة تأخذ في اعتبارها أساساً عملاً واحداً تتوافر على أدائه فحسب ، أما الاقتباس فينظر إلى جملة أعمال أخرى يكتيف النموذج الأصلي طبقاً لها ويستعمل قدرأ أكبر من العناصر الذاتية ، والتقليد - مع أن الخط فيه لا يزال متصلاً - إلا أنه أكثر اعتماداً على العنصر الشخصي للمؤلف ، وهكذا حتى نصل إلى مرحلة الإبداع التي يتم فيها توظيف أكبر قدر من

العناصر الشخصية في نفس الوقت الذي يستفاد فيه بأعلى نسبة من السوابق الأدبية والفنية بطريقة واعية متمثلة ناضجة مقتدرة .

ويلاحظ أن الحد المسنون الدقيق الذي يفصل بين الأصالة والتقليد لم يفقد خطورته في تاريخ الأدب على مر العصور ، ففي العصر الكلاسيكي كانت محاكاة الأقدمين تتمتع بقدر كبير من التقدير والاحترام ، بينما رفضت الرومانتيكية والمذاهب التالية لها هذه المحاكاة رفضاً قاطعاً ، إلا أن طريقة السرقات الأدبية كتقليد واع لنموذج سابق دون الإشارة إليه واقتطاع شيء من إنتاج الغير وادعاء ملكيته : كل هذا قد اعتبر شيئاً معيباً مهيناً في جميع العصور ، ومن ثم فإن من الوظائف الأولى للدراسة المقارنة تحديد الفروق المميزة بين السرقة وإعادة البناء الخلاق على أساس رفض الظاهرة الأولى واتخاذ الثانية موضوعاً للأدب المقارن في محاولة للكشف عن جوانبها الأدبية والفنية ومعرفة العوامل التي أدت إلى تخلفها بهذا الشكل دون غيره .

وقد نستطيع التعرف على طبيعة التأثيرات الأدبية الحمودة من خلال تصورها كعمليات مرهقة مستسرة يتولد فيها عمل ما بفضل جملة من الأعمال الأخرى وعبرية المؤلف الخاصة ، وإذا كان هناك من النقاد من ينكر عملية التأثير هذه ويحسبها مهمة غامضة بالقدر الذي ينبغي فيه إسقاطها من حساب الدارس فإن بعض المبدعين الكبار الذي رزقوا رؤية نقدية واضحة وعميقة قد حاولوا الكشف عن طبيعة هذا التأثير ومداه . ونضرب مثلاً لذلك ما يقوله واحد من أكبر أدباء ونقاد عصرنا الحديث وهو «البوت» الذي سنستشهد بآرائه في موضوعنا المباشر أيضاً إذ يقول :

إن الكاتب يتميز بحساسية شديدة في تلقي الخوافز المتمثلة في إعجابه بكتاب آخر ، بل إن هذا الإعجاب قد يصبح شعوراً عميقاً بالقرابة أو بوجود نوع من العلاقة الخاصة الحميمة بينه وبين أحد أسلافه الغابرين ، وقد ينبثق في داخله هذا الشعور فجأة كشعاع خاطف أو يتكون ببطء عقب معايشة طويلة ، ولكنه ربما أضحى في نهاية الأمر لوناً من التأزم الداخلي ، خاصة عند هؤلاء الأدباء الشبان الذين تراكم لديهم مشاعر مستعارة تبلغ من

قوتها حدا تمارس فيه تأثيراً محولاً خطيراً على شخصياتهم ، بما يصحب ذلك عادة من حيرة حقيقية لا محيص عنها ، وإذا كانت علاقاتنا الواقعية الشخصية بالحياة وبالأخرين تمثل مكوناتنا الحسمة فإن هذا النوع الآخر من الصلات الأدبية لا يقل عنها نفاذاً إلى أعماقنا ؛ بحيث يستحيل له أن يمحى في نهاية الأمر . ولأنليلث حينئذ أن ندرك أننا لانقلد أحداً آخر ، وإنما عانينا في أنفسنا تغييراً كبيراً ، وما نبدعه حينئذ إنما هو من صنع هذا الكاتب الجديد ، فنحن لم نقترض من أحد ، بل تيقظنا وأدركتنا صورة الحياة بهذا الميلاد المفاجيء الذي جعلنا من حملة لواء التقاليد العريقة» (١) .

هذا المفهوم العميق لنظرية التقاليد في الأدب هو الذي يجعل منها عاملاً لميلاد جديد ومساعداً على اكتشاف الإمكانيات الخاصة ورباطاً في نهاية الأمر بين الأجيال والآفاق المختلفة ، والشاعر العظيم يضرب بجذوره في هذه التقاليد بقدر ما يخلق منها كيانات جديدة .

فاذا اتضح الأمر على هذا الضوء أدر كنا أن حظ الأديب من الدراسات المقارنة يتسق مع قامته الفنية إيجاباً وسلباً ؛ فكلماً أعطى لإنتاجه فرصة أوسع لتحليل مكونات التقاليد السابقة كان شاهداً على عظمتة واقتداره في جمل لوائها وكان لإنتاجه أدخل في تكوين الأعمال التالية له . وأكثر فعالية في تاريخ الأدب المحلي والعالمي .

وموضوع هذه الدراسة هو فنان إيطاليا الأكبر «دانتى أليجيرى» وتأثره العميق بالنواث الإسلامية عند كتابته للمحمته الخالدة «الكوميديا الإلهية» بأجزائها الثلاث ، ومن هنا يجدر بنا أن نقدم لمحة موجزة عن قيمة دانتى في الثقافة العالمية ومدى تأثيره فيمن لحقه من أدباء الغرب خاصة حتى تتضح لنا أبعاد هذا التأثير من جانب وتنتفى أية شبهة تقلل من شأنه من جانب آخر ، ولن نفيض في الحديث عنه اكتفاء بالمقدمات الثلاث التي كتبها مترجمه العظيم إلى اللغة العربية الدكتور حسن عثمان الذي ارتفع على

(١) T. S. Eliot. «To criticize The Critic. Trad. : انظر : Madrid 1907. P. 112.

بوة دانتي بإخلاصه وترهبه وتوفره على تقديمه بشكل لانظير له فى تاريخ الترجمة الحديثة إلى اللغة العربية (١) .

أما عن تأثير دانتي فى الآداب الأوروبية فيرى كبار النقاد أنه لا يمكن أن يقتصر على مواقع محددة ومشاهد معينة يتسنى للباحث أن يشير إليها قائلا : « هاكم ما استفاده الأدباء منه » ، كما أنه لا يتصل بطبيعة تفكيره وآرائه وفلسفته وأبفته الدينية التى تقوم عليها الكوميديا الإلهية ، بل إن تأثيره الأدبى الحقيقى يمكن التماسه فى الجوانب التالية :—

أولاً : إذا كان هناك حفنة من كبار الشعراء العالميين الذين يمكن مقارنتهم بدانتي فإن أحداً منهم لا يرقى إلى مستواه فى دراسته المأنية العميقة لفن الشعر ولا فى ممارسته كصناعة واعية دقيقة ، وإدراك هذه الحقيقة كفىل بأن يعد فى حد ذاته درساً بالغ التأثير فى الشاعر الحديث طول حياته ، ولعل أهم ما يمكن إستخلاصه من ذلك هو أن دانتي يعلم الشعراء أن يكونوا خدماً للغة لاسادة عليها ؛ بمعنى أن لا يثقلوا عليها بما لا يستطيع أن ينتفع به أجدسواهم ، بل يعطونها روحاً عندما يكتشفون جميع إمكاناتها وينقلونها للأجيال التالية أكثر نماء وصفاء ودقة . على أن الشاعر العظيم حقيقة يجعل الشعر أكثر صعوبة على من بعده ، وهذا هو الثمن الذى تدفعه أى لغة .

ثانياً — أن دانتي فى تقدير هؤلاء النقاد لا يضاهيه أى شاعر آخر فى الآداب العالمية المعروفة من حيث سعة معينه وتنوع العواطف التى يعبر عنها كأنه كأنه سلم موسيقى كامل لا تفلت منه أية نغمة . وعندما يستخدمون هذه الصورة فإنهم يشيرون بذلك إلى أن الشاعر العظيم لا يتلقى الأحاسيس ويميزها بطريقة أوضح مما عدها من الناس فحسب ، بل إنه يتلقى الألوان والأصوات بكل ذبذباتها التى تند عن غيره من عامة الناس ، مما يجعل مساعدته ضرورية لهم كى يستوعبوا جميع مراتبها ودرجاتها ،

فإذا كان فى الأدب الإنجليزى مثلاً شعراء دينيون فإنهم بالمقارنة مع

(١) أنظر : مقدمات الجحيم والمطهر والفردوس وملحقاتها للدكتور حسن عثمان ، دار المعارف بالقاهرة .

دانتي لا يحسبون سوى « شعراء متخصصين في الدين » ، أما هو فإنه أكبر شاعر « ديني » دون أن يكون في ذلك انتقاص من عالميته . ففي الكوميديا الإلهية نجد تعبيراً تاماً عن كل ما يمكن للإنسان أن يكون جديراً بممارسته من تجارب ومشاعر دينية ابتداء من اليأس الأليم إلى الروثة الإلهية نفسها ، لهذا فهي تذكر الشاعر دائماً بواجبه في البحث عن كلمات وصيغ جديدة تؤدي ما لم يتم التعبير عنه من قبل في محاولة لالتقاط هذه المشاعر الهاربة التي يصعب على الناس تجريبها لأنه ليس لديهم كلمات من أجلها ، كما أنها تذكر المبدع الرائد الذي يذهب إلى ما بعد جدو الوعي العادي للناس أنه لن يستطيع العودة لإخبارهم بما شاهد إن ظل قابضاً بشدة جرفية على الواقع الذي يألّفونه .

فرسالة الشاعر إذن كما حققها دانتي هي أن يحمل قومه على إدراك وفهم ما ليس قابلاً للفهم والإدراك ، مما يتطلب منه استخدام وسائل لغوية وتصويرية فذة ويجبره على تنمية اللغة وإثراء دلالاتها وحملها على أداء أقصى ما يمكن لها أن تؤديه . وعندئذ يصبح من الممكن التعبير عن مجموعة أغنى وأخصب من العواطف والمشاعر . وهذا بالذات ما فعله دانتي بلغته وباللغات الأوروبية الأخرى ، إذ أنه يتميز عن جميع كبار الشعراء الأوروبيين بأنه أكثرهم أوروبية وأقلهم إقليمية ، بالرغم من أنه كى يصل إلى هذه الدرجة لم يتخل عن مذاقه المحلي الخاص ، بل إنه ليس هناك من هو محلي أكثر منه ، ولا ينبغي أن ننسى أن هناك من الإشارات في أشعار دانتي ما يند عن أي قارئ ليست الإيطالية لغته الأم . إلا أن القارئ الأجنبي لا ينتبه إلى الدقائق التي تخفى عليه بنفس الحدة التي تحدث له عند قراءة غيره من كبار الشعراء ، فإيطالية دانتي تصبح لغتنا في اللحظة التي نبدأ قراءته فيها ، إذ تصبح وسائله التعبيرية وإنجازاته في إيقاظ حساسيتنا لتلقى صيغته اللغوية دروساً على كل منا أن يأخذها بجدية بالغة ويحاول تطبيقها على لغته القومية الخاصة .

على أن من العلامات المميزة لكبار الأدباء أن تقييم تأثيرهم يستغرق حيوات طويلة ، فليس بوسع أحد أن يقوم به دفعة واحدة ، بل نجده

ينمو في كل مرحلة من مراحل نضجه ، حيث يصبح أقرب إلى فهمه واستيعابه ، كما يحدث في الآداب الغربية مع أمثال هوميروس وفرجيل ودانتي وشيكسبير .

ويعنى « إليوت » في تحديد ما يعنيه دانتي بالنسبة له قائلا إنه لا يمكن الانحصار على ما استخدمه من أبياته لإثارة بعض مشاهده وعقد صلة ما بين الجحيم والحياة المعاصرة « ولعل قراء قصيدتي « الأرض اليباب » يدكرون الرؤية التي قدمتها لموظفي المدينة المزدحمين على جسر لندن عند خروجهم من محطة السكة الحديدية في طريقهم إلى مكاتبهم مما أثار البيت التالي :

« لم يدرك بخلدني أن الموت قد أتى على كل هؤلاء الناس »
كما عمدت إلى أبيات دانتي وغيرها عن قصص ، وحتى يدرك القارئ إشاراتي وتضميناتي وضحيتها بملاحظات هامشية . وبعد عشرين سنة من الأرض اليباب « كتبت مشاهد أخرى توازي أناشيد الجحيم والمطهر في أسلوبها ومحتواها معا بنفس القصد الذي رميت إليه من قبل ، وهو إثارة لون من التوازي في ذهن القارئ عن طريق التضاد بين الجحيم والمطهر من جانب والمشهد المذهل الناجم عن غارة جوية مدمرة من جانب آخر ، لكن الطريقة كانت مختلفة ، فلم يكن بوسعى تضمين شيء من أبيات دانتي وإنما اتخذت بعض عباراته بشيء من التوسع والتحرر » (١) .
فإذا كان هذا هو دين كبار شعراء الغرب لدانتي ومدى تأثيره فيهم فلأن تحليل ما يدين به بدوره لثقافتنا العربية والإسلامية يكشف عن مدى اتصال التراث الإنساني وتشابك علائقه ، ويدفعنا إلى أن نكون أكثر حرية في الأخذ من هذا التراث اليوم دون أدنى حساسية ، كما يدفعنا إلى مراجعة فهمنا لطبيعته الأصالة التي لا يمكن أن تعنى العزلة السطحية وإدارة الظاهر للإنجازات الإنسانية بل تعنى أن نأخذ بقدر ما نطبق الهضم والتمثيل والاستيعاب والابداع .

(١) أنظر : نفس المصدر السابق لإليوت ص ١٦٩

تاريخ الموضوع

إذا كان اكتشاف التأثير الاسلامي في الكوميديا الالهية من أنجح موضوعات الأدب المقارن المتصل بالعصر الوسيط في الغرب فإنه يتمتع لدينا بأهمية خاصة باعتباره نموذجاً واضحاً للعلاقة بين العالمين العربي والأوروبي في وقت كانت الحضارة الاسلامية فيه متفوقة دائمة معطاءة ، وليس من السهل توثيق هذا التفوق في الوقت الراهن ، إذ أن عصور الجهل والتخلف والتبعية قد ثبتت في الاطار العالمي صورة مهينة للإنسان العربي وثقافته اليوم ؛ حيث يلقي الحاضر ظلاله البغيضة على الماضي ويكاد يطمس معالمه .

ولم نكن نحن في بداية نهضتنا في موقف يسمح لنا بالتصدي لهذه القضايا ، فلم نتمرس بعد بمناهج البحث الموضوعي ، ولم نتعمق في تحليل مكونات الثقافة الغربية حتى نفرز ما يخصنا فيها ، وكنا نكتفي بالأخذ المندesh النهم ، كما لم تكن لدينا حينئذ رؤية تاريخية مستوعبة تسمح لنا بأن نطل واثقين على مجريات التطور الثقافي العالمي ونشير إلى واقعنا فيه .

بيد أنه كان هناك شعب آخر مرشح للبدء عنا في أداء هذه المهمة . شعب تجمعنا به صلات عميقة مركبة تبدأ من ذروة التوحد والاندماج وذوبان الشخصية خلال عصور طويلة وتنتهي إلى أشد حالات الكره والتنافر والانفصال الذي يأتي في قوته مساوياً لدرجة الحب والانصال ، هذا الشعب هو الشعب الإسباني الحالي ، حفيد العرب الأندلسيين وورث حضارتهم . وقد أدرك مؤرخو الشخصية القومية الاسبانية أنها مزيج قد تكون خلال ثمانية قرون من العناصر العربية الغالبة والأقلية اليهودية والأوربية المتطلعة للتغلب ، وأدركوا أن محاكم التفتيش وأقصى اضطهاد

عنصرى شاهده التاريخ الوسيط لم يكونا سوى تعبير رهيب عن حالة انفصام فى الشخصية ، ومن هنا فإن القطيعة كانت من دلائل الحب ، حب الذات والثورة على النفس .

والآن فان هناك تاريخاً مشتركاً بيننا وبينهم يبلغ طوله ثمانمائة عام كانت الأندلس فيها تنطق العربية وتدين بالإسلام . ولم يخرس اللسان العربى فجأة عام ١٤٩٢م بسقوط غرناطة ، ولم يكف الناس هناك عن إيمانهم بالإسلام عند تولى الملوك الكاثوليك الحكم ، بل ظلت الثقافة العربية الإسلامية تحفر تياراتها القوية فى وجدان الناس حتى بعد أن تمسحوا إلى اليوم . وهم لذلك عندما يدرسون إنتصارات هذه الثقافة فى الميدان العالمى يشبتون بذلك تفوقهم القومى ويردون بذلك على بعض أنصار الفكرة الأوروبية الذين يزعمون بأن حدودها تقوم عند جبال البرانس لنفى اسبانيا من نطاقها الحضارى وإن كانت تقع فيها جغرافيا ، يردون بانتمائهم إلى حضارة أخرى كانت أزهى وأرقى ، ويثبتون لأوربا أنها مدينة جزئياً فى نهضتها إلى الحضائر العربية الإسلامية التى نبتت فى الأندلس وترعرعت فى طليطلة وقرطبة وإشبيلية وغيرها من عواصم الحضارة الوسيطة وانتقلت منها إلى المراكز الثقافية فى فرنسا وإيطاليا وإنجلترا وألمانيا وبقية أنحاء القارة العجوز .

فإذا كانت إسبانيا قد قامت بلور الوسيط فى البث الحضارى قديماً فإن علماءها فى العصر الحديث قد توفرت لهم الدوافع القومية والأدوات المنهجية للكشف عن مختلف مظاهر هذه الوساطة بكثير من الأناة والدقة والموضوعية ، وكان أنجح نموذج لهذا هو موضوع التأثير الإسلامى فى دانتي الذى استقطب من اهتمام الدارسين فى الغرب أكثر من أى موضوع مقارن آخر بينما لانكاد نعرف عنه هنا - فى موطنه الأصلى - سوى إشارات متناثرة ،

وكان أول من أثار هذا الموضوع - بقدر من النبوة الجريئة - هو

المستشرق الأسباني أسين بالاثيوس « Asin Palacios » (١) في المحاضرة التي ألقاها عام ١٩١٩ م أمام المجمع اللغوي الملكي في أسبانيا بمناسبة اختياره عضواً فيه والتي تلخص فيها موجزاً لنظريته ، ثم لم يلبث أن نشرها في نفس هذا العام . واستمر بعد ذلك بدأب لا يقدر عليه سوى الرهبان العلماء بجمع النصوص وينظم المواد ويتابع المقارنة حتى نشر بحثه مرة أخرى عام ١٩٢٧ بعنوان « دانتى والإسلام » فلقى صدى ضخماً في الأوساط العالمية ، وشرع كثير من العلماء في ترجمته للغاتهم أو نشر ملخصات وافية له ، فنشرت ترجماته إلى الإنجليزية والفرنسية ، ولم يستطع الناشر الإيطالي أن يواجه المناخ العدائي للبحث فلم يجزؤ على نشر الترجمة الإيطالية التي قام بها

(١) نظراً لأهمية صاحب هذا الاكتشاف تقدم ترجمة موجزة لحياته . ولد « ميجل أسين بالاثيوس » بمدينة سرقسطة بوسط أسبانيا عام ١٨٧١ ، وتتلذذ على أكبر أستاذهين للدراسات العربية والإسلامية في أسبانيا حينئذ وهما « ويبيرا » و « كوديرا » ، ثم حصل على الدكتوراه في الدراسات الإسلامية عام ١٨٩٦ برسالة عن « الغزالي متكلماً وزاهداً ومتصوفاً » . وفي عام ١٩٠٣ تولى رئاسة قسم الدراسات العربية والسامية بجامعة مدريد المركزية ونشر في العام التالي بحثه الرائد الخطير عن « تأثير ابن رشد في فلسفة القديسين توماس الإكويني » . وعندما فتحت له الأكاديميات العلمية أبوابها كانت أولى محاضراته في جميع العلوم الإنسانية والسياسية عام ١٩١٤ عن « ابن مسرة مؤسس المدرسة الفلسفية الأندلسية » وأولى محاضراته في المجمع اللغوي عن موضوع بحثنا بعنوان « تراث البحث الإسلامي في الكوميديا الإلهية » وعندما دخل مجمع التاريخ عام ١٩٢٤ تحدث عن « ابن حزم القرطبي أول مؤرخ للأفكار الدينية » . وتابع بعد ذلك دراساته في مختلف مناحي الفكر والفلسفة والثقافة الإسلامية وصلتها بالفكر الغربي في المصور الوصلي ، وأسس مجلة « الأندلس » التي تزال تصدر حتى الآن وتعتبر من أهم المجلات التي تعنى بالتراث العربي الأندلسي في أوروبا ، كما أنشأ المعاهد المتخصصة في الدراسات العربية والتابعة للمجلس الأعلى للبحث العلمي في مدريد وغرناطة . وتخرجت على يديه كوكبة من كبار المستشرقين أمثال « جونزاليث باليشتيا » و « جارتيا جوميث » وغيرهم وتتابعت دراساته وكتبه عن الفكر العربي والإسلامي حتى توفى عام ١٩٤٤ .

أنظر مقدمة الدكتور عبد الرحمن بدوي لترجمة كتابات أسين بالاثيوس عن ابن عربي - القاهرة ١٩٦٥ ومقال الدكتور طاهر مكي عن أسين بالاثيوس في عددهاليل الخاص بالمستشرقين يناير ١٩٧٦ .

« Benedetto Neri » واكتفى بنشر ملخص لها وقد عرض أسين بالاثيوس في هذا البحث أهم المصادر الإسلامية وحللها بمنتهى الدقة والموضوعية ، ثم كشف عن مشابهاها التي لا تخطيء بالبنية العامة للمحمة دانتي وبالتفاصيل الجزئية والمشاهد الخاصة مما يستحيل أن يكون بمحض الصدفة . ثم شرع في بيان احتمالات وصول العناصر الإسلامية إلى دانتي عن طريق عدة فروض ووسائل ، إلا أنه لم يتمكن من إثبات هذه الصلة التاريخية فاستعاض عنها بحشد هائل من المقارنات الدقيقة المرفقة بين الكوميديا الإلهية وعيون التراث الإسلامي .

وأثارت نظريته وبراهينه معاً معارضة محمومة لدى بعض الدارسين ، خاصة من الإيطاليين الذين عز عليهم أن يعترفوا بهذا الدين الكبير ، متلرعين بحجج واهية لانقف أمام الهيكل المنطقي الحبار الذي أقامه الباحث ، مثل قول أحدهم « إنه كى نتقبل تأثر دانتي بالتراث الإسلامى بهذا الشكل لابد أن نفترض أنه قد وصل في تعمقه إلى درجة اعتناق الإسلام » (١) . مما يعد خلطاً شديداً بين الموقف العقائدى والتأثر الأدبى ، ومع ذلك تصدى الباحث لكل الاعتراضات بالتنفيذ والتحليل ، وتجمع لديه من ذلك كتاب آخر ألحقه بالكتاب الأول ، واستطاع أن يثبت أن دانتي قد أفاد من التراث المتصل بالحياة الآخرة في الإسلام دون أن يعرف اللغة العربية « عن طريق الترجمات الشفوية والكتابية التي ما زالت مجهولة لدينا » وكان ذلك بمثابة نبوءة صائبة لما تم اكتشافه بعد ذلك بأعوام قليلة . إذ تبين وجود جملة مخطوطات لترجمة أكمل قصة عن المعراج المحمدى في مكتبات « بودليانا » في « أكسفورد » والمكتبة الوطنية « فى باريس ومكتبة الفاتيكان بـ إيطاليا وغيرها من دور الكتب الأوروبية .

وعندئذ قام كل من الباحث الإسبانى « مونيوت سندنو » والباحث

(١) أنظر : Sanchez-Albornoz « EL Islam de España y el occidente » Madrid 1974. P. 215.

الإيطالى « إنريكو تشيرولى » بنشر الترجمات اللاتينية والفرنسية لوثيقة « معراج محمد » فى نفس الوقت دون اتفاق مسبق عام ١٩٤٩ . واعتبرت هذه الوثيقة هى الدليل الحاسم الذى كان ينقص نظرية « أسين بالاثيوس » فى تأثير التراث الإسلامى على دانتي ، وعرف العالم من هذه الوثيقة أن ملك أسبانيا ألفونسو العاشر أو العالم قد أمر طبيباً يهودياً يعمل فى بلاطه ويدعى « إبراهيم الحكيم » بترجمة قصة المعراج الإسلامية من العربية إلى الأسبانية القشتالية عام ١٢٦٣ ، وأن هذه الترجمة كانت أصلاً لترجمة أخرى إلى اللاتينية والفرنسية قام بها مترجم وموثق إيطالى كان يعمل فى نفس البلاط وهو « بونا فينتورا دى سينا » فى العام التالى أى ١٢٦٤ م . قبل أن يولد دانتي بسنة واحدة .

وأثبت المستشرق الإيطالى « تشيرولى » أن أجزاء من هذه الترجمات قد دخلت فى كثير من مجموعات المخطوطات التى انتشرت فى أوروبا عامة ، وإيطاليا خاصة فى هذه الفترة ، وأن بعضها محفوظ فى مكتبة الفاتيكان حتى الآن ، وأنها كانت كفيلاً بشيوع قصة الإسراء والمعراج فى جمع الأوساط الثقافية الأوروبية فى عهد دانتي ، مما يقطع سبيل أى شك فى صحة نظرية « أسين بالاثيوس » ويقدم الحجة الدامغة التى كانت تنقصه ، ويشرح كثيراً من جوانب التأثير التى التمس لها هذا العالم مصادر يصعب تصور إطلاع دانتي عليها من دقائق الفلسفة والتصوف والفكر الإسلامى (١) ، ومع ذلك فإن مقارناته لاتزال تحتفظ بقيمتها ، وسنعمد عليها إلى حد كبير فى هذا البحث ، لأن اكتشاف وثيقة لايلغى إمكانية اكتشاف وثائق أخرى ، بل يزيد بها ، ولأن مصادر دانتي لايشترط أن تكون مباشرة ، بل ربما كان أعمق التأثير هو الذى يتسرب إليه عن طريق وسطاء لايشك فى قوة علاقتهم

(١) انظر : Cerulli, Enrico • Libro della Scala • e La questione delle fonte Arabo— Spagnola de le Divina Comedia» Vaticano. ١٩٤٩ .

بالفكر الإسلامى وقوه تأثيرهم فى الثقافة الأوربية مثل القديس « توماس الإكوينى » وغيره . ثم لأن النموذج التحليلى الذى قدمه « أسين بالاثيوس »^١ يعد درساً فى البحث المقارن ينبغى لنا أن نتأمله عند ارتيادنا لهذه الآفاق .

أما أصول المخطوطات التى عثر عليها فى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا الكتاب « معراج محمد » فأهمها ما بلى : —

١ — مخطوطة أكسفورد بمكتبة « بودليانا Bodleiana » تحت رقم ٥٣٧ ، وتقع فى إحدى وخمسين صفحة من القطع الكبير وتحتوى على ترجمة قصة المعراج إلى اللغة الفرنسية .

٢ — مخطوطة المكتبة الوطنية فى باريس برقم ٦٠٦٤ وتقع فى مائة وست وعشرين صفحة من القطع الكبير ، كتبت على عمودين مثل المخطوطة الأولى ، وتحتوى على الترجمة اللاتينية لنفس كتاب « معراج محمد » .

٣ — مخطوطة الفاتيكان التى تتضمن نفس الترجمة اللاتينية لقصة المعراج ، وهى برقم ٤٠٧٢ فى مكتبة الفاتيكان بروما (١) .

٤ — كما عثر الباحثون بعد ذلك على عدة مخطوطات أخرى فى إيرلاندا وغيرها من البلاد الأوربية ضمن مجموعات من المخطوطات التى تعود إلى نهاية القرن الثالث عشر أو بداية الرابع عشر طبقاً لتحقيقات الدراسات .

وقد لوحظ أن الترجمة الإسبانية الأولى للقصة مفقودة ؛ فلم يعثر الباحثون سوى على النصين اللاتينى والفرنسى ، مما جعلهم يميلون إلى الاعتقاد بأن النص الإسلامى كان مجرد مسودة وضعت طبقاً لمنهج مدرسة طليطلة فى الترجمة ليعمل عليها المترجم الإيطالى الذى لا يعرف العربية كما سنعرف فيما بعد أما

(١) أنظر : Sendino, José Munoz «La Escala de Mahoma» Traduccion del Arabe al Castellano, Latin Y Frances, Orde-
nada Por Alfonso X El Sabio» Medri d 1949 P. 3-9.

الأصل العربي لهذه القصة فلا أثر له في تلك المكتبات . وليس من الطبيعي أن نتوقع تداوله مع النصوص اللاتينية والفرنسية ، كما أنه لا يتطابق مجتمعا مع نصوص المعراج المتداولة في التراث الإسلامي الآن ، مما يدفعنا إلى الظن بأنه كان قصة شعبية فولكلورية منتشرة في المغرب ولأندلس ، تستقى جميع عناصرها من المأثورات الإسلامية ولا تلتقى مع إحداها بدقة ، ولم يعثر حتى الآن على أصل هذا النص العربي ، وسنقدم عرضاً مسهباً له في نهاية هذا البحث مع تحقيق لمصادره ، لكن هذا لا يغير من جوهر القضية في شيء ؛ فالقصة عربية إسلامية لا شك في أصلها ؛ إذ أنها تعرض كترجمة صريحة ، وليس من شأن هذا النوع من القصص أن يكون معلوم المؤلف أو موثق الإسناد ، فهو أدخل في باب التراث الشعبي ، وبنقلها إلى اللغتين اللاتينية والفرنسية — وهما أهم لغات العصور الوسطى وأكثرها تداولاً — أصبحت بجميع عناصرها في متناول دانتى مما أعطى لنظرية « أسين بالاثيوس » البرهان التاريخي الذي كان ينقصها وجعل القضية بعد ذلك مسلماً بها ومفروغاً منها في الأوساط العلمية والأدبية في العالم كله .

عوامل التأثير ومستوياته

- منابع الثقافة المؤثرة .
- مرحلة العطاء العربي .
- مدرسة الترجمة في طليطة .
- ترجمة كتاب معراج محمد .
- قنوات تسربها إلى داني .
- اشتراك المصادر وتعدد المستويات .
- رسالة الغفران والوسائل العامة .
- التشابه في حوادث خاصة .
- تحليل العناصر الصوفية .
- كيمياء السعادة لأبن عربي .
- ملامح الاتفاق مع داني .
- بين سنائي وداني .

منابع الثقافة المؤثرة :

إن أشهر تعريف علمي للثقافة هو الذي كتبه « تايلور » في نهاية القرن الماضي وتداوله الباحثون من بعده حتى الآن ، على أساس أن الثقافة إنما هي كل معقد متشابه يشمل المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق ، والقوانين والعادات ، وجميع مظاهر الخلق التي يبدعها الإنسان ويكتسبها في مجتمع من المجتمعات . ومن هنا فإن الآداب سواء كانت رسمية أو شعبية ، والمعتقدات سواء كانت دينية أو أسطورية ، مسجلة كتابة أو متداولة شفاهاً ، كل ذلك يدخل من باب الثقافة الواسع العريض ، وقد تعرض مفهوم الثقافة منذ ذلك التاريخ لكثير من البحث والمراجعة والتحييص ، فنوقشت قضية هامة هي :

هل تتمثل الثقافة في مجموعة من الأفكار التجريدية فحسب أم أن لها وجوداً مادياً ملموساً أيضاً ؟ فمن يتمسك بالطابع الفكري للثقافة يرى أن الأفكار قوة محرّكة للإنسان في سلوكه الفردي والجماعي ، وهي التي تحدد نوعية ثقافته ، فليست الثقافة إذن سوى ظاهرة عقلية ، ليست أدوات مادية أو سلوك يمكن وضعه تحت المراقبة والتجريب ، فإذا كان الهندي الأحمر مثلاً يرقص بطريقة خاصة شعائرية فلن هذا ناجم عن فكرة معينة في رأسه عن الرقص وطقوسه . ومن يتمسك بشمول الثقافة للمظاهر المادية يعيب على أصحاب الاتجاه الأول عدم الإعتداد بواقعية الثقافة بالقدر الكافي نتيجة للطابع التجريدي الذي يقصرونها عليه ، ويرى أن الثقافة غالباً ما تتمثل في شكل ما ؛ أي أن لها تجسيدات مادية محددة ، فالفنون اليدوية والأدوات الحضارية تعبيرات متعينة عن خبرات ثقافية خاصة (١) .

(١) أنظر : Tylor, Koeber Malinowski, White, y Goodeno-
 ugh . en « El Concepto de Cultura : Textos Fundamentales »
 Trad. Barcelona 1975. P. 141 - 142.

وحسبنا أن نقف عند هذا الحد في تحديد مفهوم الثقافة لنرى أن المؤثرات الإسلامية في الكوميديا الإلهية ذات طابع ثقافي شامل ، فهي لا تقتصر على نصوص أدبية بذاتها ، ولا على الأفكار الدينية المعتقد بها ، بل تخللها عناصر فولكلورية شعبية ، لعب خيال الناس فيها دوراً هاماً وأشبعها بقدر كبير من المبالغة والتحرر .

وعندما حلل « أسين بالاثيوس » العناصر التي دخلت في تركيب الكوميديا الإلهية لدانتى من الثقافة الإسلامية أرجعها في مجملها إلى مجموعتين أساسيتين :

١ - مجموعة الأحاديث النبوية التي تفصل حوادث الإسراء والمعراج ، وتتخذ محوراً لها الآية الكريمة « سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا » (١) فيما يتصل بالإسراء ، كما تتخذ محوراً لها فيما يتصل بالمعراج الآيات الكريمة « ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (٢)

على أنه يقسم هذه المجموعة من الأحاديث إلى حلقات مختلفة ، أولها مستقاة من كتاب « كنز العمال في ثبوت سنن الأقوال والأفعال » للهندي ، وهى من روايات البخارى ومسلم ، أما الحلقة الثانية فهي رواية ابن عباس للإسراء والمعراج كما سافها الخازن في كتابه « تفسر القرآن الجليل المسمن لباب التأويل في معاني التنزيل » ،

ويستقى الحلقة الثالثة من الروايات التي ساقها الطبرى في « كتب جامع البيان في تفسير القرآن » . ومن هنا نرى ان معيار التقسيم ليس مدى

(١) سورة الإسراء : الآية الأولى .

(٢) سورة النجم : الآيات ١٤ - ١٩ .

صحة الرواية والوثوق بها ، لأن كتب التفسير تخطط بين الروايات القوية والضعيفة ، بل مدى ما تقدمه كل رواية من مادة صالحة للمقارنة من جانب ، وبعض الاعتبارات العملية المتصلة بما كان تحت يده من مصادر إسلامية من جانب آخر . وغنى عن الذكر أن المنظور الذى يتخذه الباحث في هذا الصدد ليس منظوراً دينياً يدفعه إلى تحرى الدقة في الرواية والتثبت من صحتها ، فلهذا مجاله ورجاله ، وإنما هو منظور ثقافى مقارن ، يعتمد بالمادة في جملتها ، بكل عناصرها وأبعادها ، بل يرى أن القدر الذى ابتدعه الخيال الشعبي منها وأضفى عليه مسحة أسطورية أو رمزية أحفل بالعناصر التى ينبغى تحليلها وتصنيفها بالطرق العلمية الحديثة طبقاً لمناهج علم الفولكلور . إذ أن النص يكتسب أهميته في هذا السياق من مدى شيوعه وانتشاره وتداول الناس له ، وهم أكثر احتقالاتاً بما يرضى نزعاتهم إلى رواية القصص الخيالى المغرق وأشد حرصاً على ترويح الأساطير منهم على تحرى الدقة ، وبوسع الباحث في الأنثروبولوجيا الثقافية أن يتكئ على هذه المادة ليحلل دلالتها التاريخية والاجتماعية والانسانية ، فيدرس ارتباط الروايات المختلفة بالبيئة التى نجمت منها مثلاً ، فليست كلها لإسرائيليات من صنع اليهود وكيدهم للدين كما يقال في تاريخ الفكر الإسلامى عادة ، بل تتمثل فيها شواغل اجتماعية وتاريخية محددة ، من صنع الشعب نفسه ، أو المعبرين عنه ، فالحديث المنسوب إلى ابن عباس عن الإسراء والمعراج مثلاً ، والذى تتتابع طبعاته الشعبية في القاهرة كل عام أوعدة أعوام يلاحظ فيه اختمار كثير من العناصر الثقافية المصرية الخاصة ، فهى تحمل طابع الفترة التى ابتدعت فيها ، وحرص الواضع على تأويل التراث الدينى وفقاً لرويته المميزة ، ويكفى أن نقرأ مثلاً هذه الفقرة من مشاهد الحميم منه « ورأيت نساء معلقات بشعورهن في شجرة الزقوم والحميم ، يصب عليهن فتهرى لحومهن ، فقلت : من هؤلاء يا أخى جبريل ؟ قال : هؤلاء النساء اللاتى كانوا (!!) بشريون الأدوية ويتعاطون الحبوب

حتى يقتل أولادهم خوفاً من مطعمهم ومشربهم وتربيتهم (١) ونرى أن واضح هذه الرواية لا يتورع عن إضافات مستحدثة تنمى بوضوح إلى عصر تحديد النسل وتعاطى الحبوب من أجله ، وتم عن اهتمام الشعب بترية الأولاد إلى جانب ماكلهم ومشربهم ، مما يدل على أن عمر هذه الرواية لا يتجاوز عقداً أو عقدين من السنين ، كما نلاحظ ضيقه بنون النسوة - على عادة المتحدث المصرى اليوم - وتخلصه منها في بعض الأحيان ، ثم التزامه بها في بعضها الآخر محاولة لإضفاء طابع الأصالة والفصاحة على روايته .

ولذا كان النقد الداخلى للنص يفيد الباحث الدينى - إلى جانب وسائله الأخرى في الجرح والتعديل - في تحديد مدى صحته فإنه يفيد الباحث الأنثروبولوجى في تحديد المناخ الثقافى للبيئة التى نبت فيها وتحليل العوامل الاجتماعية التى شكلته بهذه الصورة وأياً ماكان الأمر ، فإن روايات الإسراء والمعراج ، خاصة بما أضيف إليها على مر العصور من زيادات وإضافات ، تمثل المجموعة الأولى من العناصر الثقافية التى مارست تأثيراً كبيراً مباشراً على دنى في تصوره وصياغته للكوميديا الإلهية .

٢ - أما المجموعة الثانية التى حللها « أسين بالاثيوس » فتتكون من بعض الأعمال الأدبية والنصوص الصوفية ، أهمها رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، وفصل من موسوعة ابن عربى الكبرى « الفتوحات الملكية » بعنوان « كيمياء السعادة » يحكى فيه قصة محازية عن معراج بعض المريدين والفلاسفة . وبالرغم من أن هذه النصوص لم يثبت حتى الآن أنها قد ترجمت بصفة مباشرة إلى اللغات الأوروبية إلا أن الباحث يلتزم أدلة عديدة وبراهين مختلفة على توافقها فى المحتوى مع كثير من ملامح « الكوميديا الإلهية » مما يعتبر دليلاً موضوعياً على التأثير غير المباشر يمكن الاعتماد على

(١) أنظر : الإسراء والمعراج للإمام ابن عباس . مكتبة الجمهورية بالأزهر - بدون تاريخ ص ٢١ .

مشروعيته ربما يقوم دليل تاريخي ثابت ، وهذا قريب مما يسمى الآن بمنهج « التقاطع الثقافي » في المقارنات المعاصرة . ويعززه أيضاً أن دراسة هذه النصوص تكشف عن علاقتها بالفكر المسيحي وتأثيرها فيه مما كان له صداه عند دانتي . وسنرى عند دراسة نماذج من هذه النصوص أنها استخدام متطور لعناصر التراث التي تبث أنها مصدر مباشر لدانتي مما يبرر تحليلها كمصادر فرعية تنتمي إلى نفس مجال التأثير بالأصل المشترك (١) .

٣ - وبعد وفاة « أسين بالاثيوس » بعدة سنوات ، نشر الباحثون في إسبانيا وإيطاليا - كما أشرنا من قبل - مخطوطة الترجمة اللاتينية والفرنسية لقصة المعراج ، وهي تقع في خمس وثمانين فصلاً ، وتحتوي على أكبر رواية موسعة ومستوعبة لمعظم العناصر الثقافية التي لوحظت عند دانتي دون معرفة مصدرها ، مما أكد النظرية الأولى وأعطاهما الدليل التاريخي الثابت وتعد هذه القصة إذن المنبع الثقافي الأول الذي استقى منه دانتي تصوراتهِ عن البناء الهندسي للفردوس والجحيم ومجمل المشاهد المتصلة بالعالم الآخر طبقاً لرواية الشعوب الإسلامية ، وهي كفيلة وحدها بشرح كل المشابه التي حللها « أسين بالاثيوس » وحدث بأصلها الإسلامي ، وإن كانت لا تنجب نظريته في تأثير النصوص الأخرى ، خاصة عن طريق الروايات الشفهية والوسائل الوسيطة المتعددة .

ويتضح نتيجة لذلك أن المادة الثقافية التي تقارن بالكوميديا الإلهية تنتمي إلى مجالات وأعمال متعددة ، ولا تنتم بخصائص فنية أو تركيبية موحدة ، فهي أشقات من المأثورات القصيرة ، والروايات المطولة المتضامة ، يتميز بعضها بطابع ديني تقليدي ، وبعضها الآخر بروح صوفية مغرقة في حالات الوجد والإشراق ؛ أو بطابع اغوي وأدبي واضح ، ويقوم النموذج

(١) أنظر : Asin Palacios. Meguel « La Escatologia Musulmana en La Divina Comedia » Madrid 1961. P. 425-443.
(م ٤ - الثقافة الإسلامية)

الأخير منها بتجميع هذه الأشئات وصهرها من منظور شعبي خيالى فى حكاية متشعبة الاتجاهات ، غنية بالصور والتفصيلات ، لكن تنقصها وحدة فلسفية أو فكرة مركزية أم

ومقارنة هذه المادة المتناثرة بعمل فى متكامل ، ذى إطار ملحمى متين ، ونسق أدبى منظم ، وبنية قوية محددة ، وفلسفة دينية مركزة كما هو الحال فى الكوميديا الإلهية ، يصعب أن يتم على أساس بنائى ملتزم ، نظراً لاختلاف المستويات ، ولا مفر إذن من أن يعتمد على مجرد تحليل العناصر وتقابل المضمون والصور . وإذا كان التركيز على شكل العمليات الفكرية ، وعلى العلاقات الى تربط الجزئيات المختلفة والنظام الذى تتابع وفقاً له قد جعل الكلام عن المضمون يتقهقر الى مركز متأخر فى دراسات الأنثروبولوجيا الثقافية (١) ، فإنه قد أصبح أقل قيمة وغناء فى دراسات الأدب المقارن ، إذ أن طبيعة الأدب أو أدبيته على حسب التعبير النقلى الحديث تتمثل فى أنساق الصياغة وصور الفكر وأبنية الأعمال نفسها ، مما يجعل مسئولية الباحث مضاعفة فى التركيز على تحليل العناصر المكونة للعمل الأدبى والتأسي مصادرها التى أفادت فى تشكيلها بهذا النسق دون غيره ، واعتبار الآراء والمشاكل الفكرية والفلسفية مجرد مادة تترشح إلى المرتبة الثانية من الأهمية . لكن ينبغى أن نأخذ فى اعتبارنا أننا لانجرى مقارنة تعتمد على إقامة الأنماط والطرز بين المجتمعات المختلفة ، سواء ارتبطت تاريخياً أم لم ترتبط ، للوصول إلى تعميمات تفيد فى عمليات المسح الثقافى الشامل ، ولا نقوم بتحليل وصفى خالص للعناصر الثقافية الإسلامية المتجانسة طبقاً لمنهج يتائى منظم ، فإن هذا ليس هدف دراستنا تلك ، بل نحن ملتزمون بمقارنة أدبية بين أثر واحد لمؤلف معروف من ناجية وتراث شعبي متكاثر

(١) أنظر : علم الفولكلور : دراسة فى الأنثروبولوجيا الثقافية للدكتور محمد الجهورى القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٧٧ ص ١٣٢ وما بعدها .

متعدد الدرجات من ناحية أخرى ، مما يجعل البحث عن النظم والأنسقة واستخلاص المعنى العام للبنية أمراً غير ميسور في مثل هذه الظروف .

وكل ما نستطيع أن نحرص عليه أن لا يكون إدراكنا لاختلاف المستويات بين مادة الثقافة الإسلامية وبنية الكوميديا الإلهية عائقاً دون إفادتنا من روح المنهج والتقدم في تحليل العناصر المكونة لكل من الجانبين ورصد العلاقة بينهما دون مبالغة في التفسير أو قصور عن تقدير العمل المدروس .

مرحلة العطاء العربي :

عرف دانتى بنهمه الشديد للمعرفة ، وتعلقه بجميع مصادرها ، وقد أجمع كبار المفكرين الأوربيين فى عصره مثل «ألبيرتو ماجنو» و«روجر بيكون» و«رايموندو لوليو» على تفوق الثقافة العربية ، مما أبْقَظَ فى نفسه رغبة ملحّة فى الاطلاع عليها ، فنجدّه يسير من طرف خفى فى إحدى رسائله المسماة «De Vulgar eloquio» إلى اللغة العربية وما تتميز به من دقة التعبير وعظيم الفائدة للعلماء . وعندما يذكر رسول الاسلام محمداً صلى الله عليه وسلم فى الكوميديا الالهية يخضع بطبيعة الأمر للمبادئ المسيحية فى تقييمه ، ولكنه يبرهن على معرفته بالعلاقة الوثيقة الحميمة التى كانت تربطه بصهره وابن عمه على بن أبى طالب ، وهى علاقة كانت مجهولة فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى ، كما يبرهن على تقدير خاص للفلاسفة المسلمين مثل ابن سينا وابن رشد فيضعهم فى الأعراف بالرغم من عقيدتهم عنده . وهناك إشارات إسلامية أخرى فى آثار دانتى إلا أنها لا تخرج عما ذكرناه . وفى منطق العصر الذى كتبت فيه قد يكون إغفال الذكر ، أو رد الفعل العدائى . دليلاً على التمثيل والأخذ فى الاعتبار كذلك .

ويرى بعض الباحثين الغربيين أنه ربما كان اطلاع دانتى على فلذات هامة من التراث الإسلامى ، ومعرفته بتصور المسلمين لحال العالم الآخر هما الدافع الأساسى عنده لتقديم رؤية مسيحية غربية لهذا العالم يعارض بها الرؤية الإسلامية ، مدفوعاً بروح العصر العام فيما يسمى فى الأدب المقارن بالتأثير العكسى (١) . إلا أنه يبدو من ملامح الاتفاق ، والبعد عن الجدل الدينى ، والاستغراق فى عالم الملكوت السماوى ، ونقد المجتمع الفلورنسى ، يبدو من كل ذلك أن همه الأكبر لم يكن معارضة الإسلام ولا نقده ، بل نقد الحياة المسيحية نفسها ، مما يجعل هذا الفرض بعيداً عن الصواب ، وكل

(١) أنظر : المصدر السابق عن الإسلام والغرب لمؤلفه : Sanchez-Albornos

ما يمكن المجازفة به في هذا الصدد هو أن معرفته بالتراث الإسلامى للعالم الآخر قد زكت في نفسه هذا الإطار بالذات ، وحفرته إلى اتخاذ نموذج الرحلة إلى عالم الغيب قالباً فنياً لعمله ؛ خاصة عندما بهرته المشاهد الإسلامية بما تحفل به من تنظيم دقيق وصور فنية ، ولم تكن محاكاة النماذج القديمة شيئاً معيياً في عصر دانتى ، بل كانت قانون الكلاسيكية العام وروحها الغالب ، تكتسب بها الأعمال الفذة لوناً من مشروعية الوجود وتبرير النهج ، والكوميديا حافلة إلى جوار ذلك بكثير من العناصر الهيلينية الميثولوجية ومفعمة بلب الروح المسيحية مما يجعل احتواءها على تلك الفلذات الإسلامية أمراً دقيقاً لا بد من تحويره وتغيير معالجه .

وعندما نبدأ في تحديد الطرائق التي وصلت من خلالها هذه العناصر الثقافية الإسلامية إلى دانتى ينبغي أن لا نغفل الإشارة المركزة إلى جملة مظاهر الاحتكاك الحضارى العام بين أوروبا والعالم الإسلامى ، وفي مقدمتها الحركة التجارية المكثفة التي أخذت ابتداء من القرن الثامن الميلادى تنشط بين أوروبا ومختلف المناطق الإسلامية في أسبانيا وشمال أفريقيا وسوريا ومصر والشرق الأقصى . ثم حركة الحجيج التي كانت تتم أحياناً في جماعات كبيرة إلى الأراضي المقدسة مع كل ما تتطلبه من خانات وفنادق ومستشفيات ومعابد فى الطريق ، ثم الحروب الصليبية وما أدت إليه من إنشاء إمارات مسيحية يحكمها الأوروبيون فى قلب الشرق الأوسط ، ثم موجات التغلغل الدينى على كلا الجانبين . بيد أن مجال الاحتكاك الأكبر كان بلاشك هو تلك البلاد التي جمعتها بالعالم المسيحى حدود جغرافية ومناطق مشتركة فى معايشة سلمية وحربية طويلة الأمد ، مثل صقلية والأندلس ، حيث تمت بالفعل أكبر عمليات الاحتكاك الحضارى المثمرة .

ففى صقلية اختلطت أبعد العناصر الأوربية عن التجاور الجغرافى مع العالم العربى ، مثل الدانماركيين والسويديين والإنجليز وغيرهم خلال قرنين من الزمان تم على إثرهما - وبعد عديد من الغزوات والحروب والتحالفات - تكوين مملكة صغيرة أصبحت فى القرن الثالث عشر مركزاً إسلامياً للإشعاع

والتأثير الثقافي ، ينشر العلوم والآداب العربية في جميع أنحاء أوروبا والعالم الغربي عامة .

أما المركز الآخر - وهو اسبانيا المسلمة - فيعتبر بلا شك قمة التغلغل العربي الإسلامي في أوروبا الذي استمر ظاهراً للعيان زهاء ثمانية قرون ، ومر بمراحل عديدة لعبت فيها الحضارة الإسلامية دوراً رائداً في بعث الثقافات الغربية وتلقيحها بأهم العناصر التي أدت باعترافهم إلى التعجيل بأسباب النهضة الأوروبية وفتح أبواب العصر الحديث ، وما زالت مكونات هذه العناصر هدفاً للدراسات العلمية التحليلية حتى الآن (١) . سواء منها ما يتصل بالعلوم الطبيعية أو بالآداب والفنون .

ولما كانت الترجمة هي الوسيلة الكبرى لانتقال التراث الإسلامي عامة ، والمتصل بمجال بحثنا الآن ، إلى العالم الغربي ، وكانت الوسيلة التي اطلع داني عن طريقها على الثقافة الإسلامية فإن علينا أن نبرز الدور الذي قامت به الأندلس في هذا الصدد بشكل منقطع النظير في تاريخ العصور الوسطى ،

(١) أنظر مثلاً : Vernet, Juan : « La cultura Hispanoárabe en Oriente Yoccidente ». Barcelona 1978.

مدرسة الترجمة في طليطلة :

كانت طليطلة من أولى القلاع الإسلامية الكبرى التي سقطت في الأندلس عام ١٠٨٥ م ، وانحسر بهذا المد العربي وأخذ ينكمش إلى الجنوب ، لكن جسارته كانت لاتزال تدهش العالم الأوربي حينئذ ، فلم نكد هذه المدينة تعود إلى أبلدهم حتى خف إليها الناس يودون لو عرفوا سر التفوق الإسلامي الواضح في مختلف الجوانب . وأبقت شروط تسليم المدينة على جميع حقوق الغالبية المسلمة فيها التي ظلت تعايش الأقليات المسيحية واليهودية المصطبغة بدورها بصبغة الثقافة العربية . ولم يلبث أن انضم إليهم من هاجر من أهل قشتالة المسيحيين الإسبان ومجموعات من الفرنسيين الذين قدموا من وراء جبال البرانس يبتغون مغنم سريعة في المملكة المسيحية المتوسعة ، كما صعد إلى طليطلة بعض يهود الجنوب ممن ساورهم القلق من تشدد المرابطين في شمال أفريقيا وخطر ذلك على روح التسامح الإسلامي السائد في الأندلس . كل هذا جعل من مدينة طليطلة ملتقى حقيقياً للأديان الثلاثة ، ومعرضاً منظماً للثقافة العربية في قلب الإمارات والممالك المسيحية الإسبانية . وكان الصراع لايزال حينئذ ذا صبغة سياسية نظيفة لم تكدره الأحقاد ، ولم يفقد الإسلام هيئته في قلوب جيرانه ، فأبقى المغيرون على العالم الهامة للمدينة بمساجدها وأسواقها دون تغيير جوهرى لفترة طويلة . وكانت القوانين التي شرعت لها تقضى بضرورة عودة المهاجرين إلى أوطانهم الأصلية حالما تستقر الأوضاع فيها مع ترك حامية صغيرة مسلحة لحراستها ، أى أن البنية الاجتماعية فيها لن تعاني من اهتزازات عنيفة .

لكن الكنيسة لم تلبث أن أخذت في دعم موقفها الفكرى بتعيين أساقفة جدد كانت جنودهم تضرب إلى خارج الإمارات القشتالية الإسبانية ، فأخذوا في محاولة تمسيح هذا المجتمع بقوة ، فتحول المسجد الجامع في المدينة إلى كاتدرائية ، ولهجت في شوارعها ألسنة كثيرة غير عربية ، وأخات تتكون على سطح الحياة فيها حركة عنيفة تنبئ عن احتكاك ثقافى متصاعد

تمثل في مظاهره الأولى في ازدهار أكبر مدرسة للترجمة في العصور الوسطى زرعت أعلامها في مفترق الطرق بين العالم الإسلامي الشرقي والمسيحي الغربي ، وهي مدرسة طليطلة .

ويعزو بعض الباحثين الفضل في قيام هذه المدرسة في القرن الثاني عشر إلى شخصية دينية هي « دون رايونديو » أسقف المدينة ، بما كان يسبغه على مجموعات المترجمين من عطف وتوجيه ، وما كان يمنحهم من جوائز مادية وتشجيع أدبي ، بينما يرجح المحققون اليوم أن نشأة حركة الترجمة في طليطلة لاتدين لشخص بذاته ، بل تعود في أساسها إلى الظروف التاريخية والاجتماعية والثقافية للمدينة التي أخذت تموج حينئذ بالباحثين عن التراء المادى والفكرى . وأخذ بعضهم يعكف على ترجمة مخلفات العرب والإسلام إلى لغاتهم الحديثة أحياناً وإلى اللاتينية الأم أحياناً أخرى دون أن يكون هناك زعيم واحد يرمى هذه الحركة أو يوجه القائمين بها في اختيارهم .

وقد شملت هذه الحركة مختلف العلوم والمعارف ، فقام « خوان دى سيبييا : Juan de Sevilla » مثلاً بترجمة كثير من المؤلفات في علم الفلك من العربية إلى اللاتينية في منتصف القرن الثاني عشر وصل عددها إلى ٣٧ كتاباً من بينها لوحات الزرقالى ، كما نشطت الترجمات الفلسفية إلى حد كبير ، فبدأ « جونديسالفو : Gundisalvo » في عام ١١٣٨م بترجمة آثار الفارابى وما وراء الطبيعة والشفاء لابن سينا والمقاصد للغزالي وغيرهم من الفلاسفة المسلمين ، وأسهم بعض اليهود مثل ابن جبريل وابن داود بدور فعال في ترجمة كثير من الكتب الهامة في الفلسفة والعلوم والطب (١) .

وبرزت في الثلث الأخير من هذا القرن نفسه شخصية « جبراردو كرىمونا » أكبر مترجمى هذا العصر وأغزرهم إنتاجاً ، وقد استعان في بداية الأمر ببعض العرب العارفين باللغة اللاتينية ، مثل شخص يدعى غالب ،

(١) أنظر : تراث الإسلام : تصنيف شاخى وبوزورث وترجمة الدكتور حسين مؤنس والدكتور إحسان صدق العمى . الجزء الأول . نشر الكويت ١٩٧٨ .

ثم لم يلبث أن أتقن بنفسه العربية ، وعكف على ترجمة ملخصات وشروح أرسطو التي قام بها الفلاسفة العرب ، وكتب الطبيعة والفلك والرياضة والطب والكيمياء التي ألفوها أو ترجموها عن اليونان مما أصبح ثروة هائلة في يد الأوربيين في العصور الوسطى .

ولعل أهم ما يميز هذه الحركة النشطة الفعالة أنه قد أسهم فيها مترجمون من جميع أنحاء أوربا ، فقد جاء من إيطاليا « أفلاطون دي تيفولي Platon de Tivoli » و « هوجو دي سانتالا Hogo de Santalla » ومن ألمانيا « هيرمان Hermann » ومن هولندا « رودولفو دي بروخاس Rodolfo de Brujas » ومن بريطانيا « ميغيل اسكوتو Miguel Escoto » بالإضافة إلى عدد كبير من المترجمين الفرنسيين ، وأخذ بعضهم يعمل في مجموعات تتكون من أحد المستعربين ، وغالباً ما كان يهودياً ، وأحد اللاتينيين المختصين بالترجمة ويشرف عليهما العالم المعنى بهذا الكتاب أو ذاك . وقد حفظ التاريخ كثيراً من الترجمات التي تمت في هذه الفترة وانتقلت إلى جميع المراكز العلمية في أوربا وأخذت حظها من الشيوخ باعتمادها للدراسة في هذه المراكز .

ولا مفر أمامنا من الاكتفاء بهذه الإشارات ؛ إذ لا يتسع المجال للافاضة في استقصاء الأعمال التي أنجزت ترجمتها في هذه الفترة ، خاصة وأن البحوث المتتالية المتخصصة لانزال تثري من الرصيد الجغرافي المتصل بالموضوع مما يستدعي الإحالة إليها (١) .

(١) نقدم فيما يلي موجزاً ببلجيوجرافيا لأهم الدراسات التي تعرضت لدراسة طليطة في الترجمة خلال العقود الأخيرة فحسب ، يحلين بالنسبة للدراسات الكلاسيكية على التثبيت الوافي الذي أورده « سانشيت ألبورنوس » في كتابه الوارد في نهاية القائمة : —

— Thorndike: «A Catalogue of Incipits of Mediaeval Scientific Writings» . Cambridge 1937 . =

وشهد النصف الثاني من القرن الثالث عشر وصول هذه الحركة إلى قمة ازدهارها في عهد ألفونسو العاشر ملك قشتالة الذي كان يسمى بالعالم لاهتمامه الشخصي الكبير بحركة الترجمة المنظمة ، وإسهامه في وضع موسوعات تاريخية وعلمية ، وكان يختار بنفسه أهم الآثار التي ينبغي ترجمتها ، ولا يكتفى بأن تم هذه الترجمة إلى اللغة اللاتينية ، بل يصر على أن تشمل القشتالية الرومانسية وغيرها من اللغات الأوروبية العامية حينئذ . كما لم يكن يكتفى بالترجمين الإسبان ، بل يجند كل من يستطيع من أنحاء أوروبا للعمل الثقافي في بلاطه ، وأنشأ في مرسليليا معهداً للدراسات بمعرفة « الرقوى » الفيلسوف المسلم ، ثم نقل هذا المعهد إلى إشبيلية . وأخذ شكل مجموعات الترجمة يتحدد في عهده أيضاً على طريقة ثلاثية تتكون من فقيه عربي ورايين يهودى وقسيس مسيحي ، حتى يتحروا الدقة والعمق في تصور ونقل معطيات الثقافة الإسلامية ، وكان الجهد الفذ النبيل الذي بذله هذا الملك حاسماً في تهيئة قدر هائل من التراث الشرقي الإسلامي للتأقلم في الغرب ، وألف

-
- Bedoret: «Les Premières traductions toledans de Philosophie» = Revue Neo - Scolastique de Philosophie XLI. 1938.
 - Millas Vallicrosa : « Las traducciones orientales en los manuscritos de la Biblotica de la Catedral de Toledo. Madrid. 1942 .
 - D, Alverny : «Deux traductions Latines du Coran au Moyen-Age. En Archives d'histoire doctrinale et litteraire du Moyen-age. 1947-1948.
 - Menendez Pidal : « Espana Y la Intruduoion de la ciencia arabe en occidente ». 1955.
 - Vernet, Juan : « La Cultura Hispanoarabe en Oriente Yoccidente ». Barcelona 1978.
 - Sanchez - Albornos. « EL Islam de Espana Y el occidente ». Madrid. 1975. P. 192.

بنفسه أغاني كانت تعد من أقدم روائع الشعر الغنائي الديني ، وأشرف على تحرير المدونة الأسبانية الأولى في التاريخ ، وشجع على نشر أعمال مستقاة من النسخ العربية مثل كليله وذمنة والسندباد التي برهنت على خصبها في القصص والأقوال الماثورة الأسبانية اللاحقة . ومن بلاطه عرف الغرب الأعمال العلمية لابن بطرابط وإقليدس وبطليموس وجالينوس وغيرهم من العلماء في الترجمات العربية ، ومؤلفات الخوارزمي والتباني والفرغاني وابن سينا والرازي والبطروجي والزرقالي ، وقاض العلم العربي على أوروبا وملاها خصباً فكانت جميع القرون الوسطى المتأخرة مشبعة به (١) .

وهكذا أخذت تشكل في أذهان المفكرين الغربيين صورة للعالم الإسلامي بوصفه مهذاً لفلاسفة عظام ؛ بعد أن ترجمت موسوعة ابن سينا العظيمة « كتاب الشفاء » واستطاع علماء اللاهوت والفلاسفة أن ينقلوا إلى المسيحية ما كان يذكره ابن سينا فيها عن الحضارة الإسلامية ، فشلاستخدام « روجر بيكون » من أجل تفخيم منصب البابا ما ذكره ابن سينا عن الإمام الإسلامي ، وأصبح كبار المؤلفين المسلمين الذين كان اكتشافهم قوة تجديدية في الفكر الغربي أصبحوا يتمثلون ويهضمون بصورة تلميحية ويدمجون ضمن الثقافة العامة ، وخلال عدة قرون كانت كتب ابن سينا وابن رشد والرازي تعاد طباعتها ويعلق عليها وتعتمد باعتبارها نصوصاً أساسية للدراسة في المؤسسات العلمية ، ويستشهد « رودنسون » بفقرة من حكايات كاتربري على مدى ذبوع هذه الأعمال ؛ إذ قابل المؤلف طبيباً — يمثل عصره — لا يعرف الكتاب المقدس جيداً ، لكنه :

كان يعرف جيداً . أعمال الرازي وابن سينا

وابن رشد والدمشقي (٢)

(١) أنظر : الفصل الذي كتبه المستشرق الإيطالي جابر بيلي في كتاب تراث الإسلام المشار إليه ، ترجمة د . محمد زهير السهوري ص ١٥٤ .
(٢) أنظر : المصدر السابق ص ٥٢ .

ترجمة كتاب معراج محمد :

كلف الملك ألفونسو العاشر طبيبه إبراهيم الطليطى بأن يترجم من اللغة العربية إلى القشتالية الأسبانية كتاب « معراج محمد » فأخذ هذا على عاتقه مهمة القيام بهذه الترجمة متبعاً تقاليد مدرسة طليطلة العريقة ، ولما كانت الترجمة الفرنسية التي نقلت عن الأسبانية قد تمت عام ١٢٦٤ طبقاً لما ورد فيها فإن الذى يستنتج من ذلك أنه لا بد أن يكون قد فرغ من الترجمة الأولى عام ١٢٦٣ على أكثر تقدير .

ونفس هذا الطبيب العالم اليهودى هو الذى قام بعد ذلك بترجمة كتاب ابن الهيثم « فى هيئة العالم » إلى الأسبانية حوالى عام ١٢٧٠م ، ثم لم يلبث أن نقل إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوروبية . وهو الذى قام أيضاً بترجمة كتاب « الأسطرلاب » للزرقالى من العربية إلى الأسبانية ، ثم نقل بعدها إلى إلى اللاتينية والإيطالية .

وعلى أساس الترجمة الأولى الإسبانية لكتاب « معراج محمد » قام مترجم إيطالى كان يعمل رئيساً لسجلات ألفونسو العاشر وكاتباً له وهو « بوننا فيثتورا دى سينا » بترجمته إلى اللغتين الفرنسية واللاتينية ، وهما الروايتان اللتان لا تزالان موجودتين فى المكتبات الأوروبية حتى الآن . أما الصياغة الإسبانية الأولى فقد فقدت مع الأصل العربى الذى لم يكن يعينهم الاحتفاظ به بعد نقله إلى لغاتهم كما أشرنا من قبل .

أما لماذا اختار الملك العالم هذا النص بالذات من التراث الثقافى الإسلامى ليترجمه لأشهر اللغات الأوروبية الحية فى عصره . فإن هذا يقتضى أن نورد عدة أمور من أهمها : —

أولاً : أنه يقع ضمن دائرة اهتمامه الكبرى بترجمة عيون الفكر والعلوم العربية إلى اللغة الإسبانية ، وإذا كانت هذه الدائرة تشمل — كما رأينا — علوماً متنوعة مثل الرياضيات والفلك والطب والكيمياء وعلوم النبات والطبيعة والفلسفة والآداب فإن هذه القصّة تنتمى إلى النوعين الأخيرين .

ثانياً : أنه كان يعد موسوعة تاريخية هامة عن تاريخ العالم كله عامة ، واسبانيا بصفة خاصة ، وقد صدرت هذه الموسوعة بالفعل بين عامي ١٢٦٨ و ١٢٧٢م ، ولاشك أن مثل هذه الواقعة الخطيرة في حياة بني الإسلام عليه السلام تستلقت نظر المؤرخ فيبحث لها عن المصادر المطولة المستفيضة ويجهزها للاستعمال بالترجمة والإعداد ، ثم قد يحدث أن يكتفى بتلخيصها بعد ذلك كما حدث بالفعل في هذه الحالة .

ثالثاً : لكن يبدو أن السبب الحاسم في ترجمة هذه القصة المليئة بالعناصر الأسطورية كان كما ورد في المقدمة اللاتينية التي كتبها « بونا فينتورا دى سينا » « كى يعرف الناس حياة وتعاليم محمد وما فيها من مبالغات خرافية (!) فيثبت إيمانهم وتمسكهم بالمبادئ والحقائق المسيحية » (١). أى أنها قد استخدمت سلاحاً في حرب الأديان التي كانت قد اشتعلت في تلك الفترة كخلفية أيديولوجية للصراع الطويل المير بين العالمين المسيحي والإسلامي ، خاصة على أرض الأندلس .

وبعد ثلثا المؤرخون عن أن الكتاب اللاتينيين قد أخذوا يوجهون اهتمامهم نحو حياة محمد دون أى اعتبار للدقة ، فأطلقوا العنان « لجهل الخيال المنتصر » كما جاء في تعبير بعضهم (٢) . فكان محمد في عرفهم ساحراً هدم الكنيسة في أفريقيا وفي الشرق عن طريق السحر والخديعة ، واستعملت أساطير من الفولكلور الشعبي ومن الأدب الكلاسيكي ومن القصص البيزنطية عن الإسلام وحتى من المصادر الإسلامية بعد تشويه باطل من قبل المسيحيين الشرقيين ، كل هذه الأشياء استخدمت لتزيين الصورة الموجهة أساساً إلى العامة ، ولقد قدر لهذه الصورة أن تزداد زخرفاً في الكثير من الأعمال الأدبية ، فقد

(١) أنظر : Munoz Sendino, Jose «La Escala de Ma homa» op. cit. P. 16.

(٢) أنظر : R.W. Southern : «Western Views of Islam in the Middle Ages» Cambridge. 1962.

نقلا عن « تراث الإسلام » الجزء الأول ص ٣٤ .

اختلطت الروايات المحضة التي كان هدفها الوحيد إثارة اهتمام القارئ على نسب متفاوتة بالعرض المشوه للعقيدة التي ألهبت حقد العدو ، ووصلت الملاحم إلى أعلى ذرى الابتكارات الخيالية ؛ إذ اتهم المسلمون بعبادة الأوثان ، وهم الذين رموا المسيحيين بتعدد الآلهة والشرك .

ويبدو أن الكتب العلمية والفلسفية الحادة التي كانت تترجم حينئذ من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية قد أخذت تفتن جمهور المثقفين بالحضارة الإسلامية مما اضطر رعاة هذه الحركة إلى إدماج مثل هذه النصوص الدينية التي يراد منها التقليل من شأن الإسلام كدين والتهوين من خطر زعيمه كرسول بإظهاره في شكل أمطوري مشوه ، وهذا بالذات ما ضمن لترجمة المخطوط الذي نتحدث عنه ذيوياً وشهرة في جميع الأوساط ؛ إذ كان من المستحيل أن تولد هذه الترجمة في ظل الظروف العدائية التي نبتت فيها ثم لاتذيع بأقصى سرعة إلى جميع أنحاء العالم المسيحي ، لأن موضوعها ، وهو حياة رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم كان بالغ الدقة والحساسية بالنسبة لمصير حرب الأديان المشتعلة حينئذ .

قنوات تسربها إلى دانتي :

أما الطرق التي يحتمل أن تكون هذه الترجمة قد سلكتها للوصول إلى دانتي فهي متعددة ومفتوحة ؛ وتعود إلى جملة عوامل ثقافية وسياسية ودينية ، نوجز القول فيها على النحو التالي :

إذا كانت حركة الترجمة عامة هي أقوى الشواهد على وصول النشاط الثقافي إلى ذروته استجابة لشعور الأوساط العلمية في الغرب بضرورة استيعاب العناصر الإسلامية فإن المشاركة الإيطالية في هذا النشاط هي التي تفتح المسارب لاطلاع دانتي على ثمراته . ومن أهم الشخصيات الإيطالية التي أثبتت البحوث الحديثة تعاونها في بلاط ألفونسو العاشر ؛ إما كترجمين من الأسبانية - وربما العربية - إلى اللاتينية ، وإما كخبراء في الشؤون القانونية والإدارية إلى جانب أعمالهم في الترجمة نذكر الأسماء التالية : -

Buenaventura de Sena	١ - بوينا فينتورا دي سينا
Gil de Thebaldis.	٢ - جيل دي ثيبالديس
Juan de Mesina.	٣ - خوان دي ميسينا
Juan de Cremona.	٤ - خوان دي كريمونا
Pedro de Reggio.	٥ - بدرو دي ريجيو
Maestro Jakobo.	٦ - مايسترو جاكوبو

وكان بعضهم كثير التردد على إيطاليا ؛ خاصة فلورنسيا موطن دانتي ، وسينا وروما وبولونيا وبارما ، مما يفتح الطريق لوصول الترجمة إلى إيطاليا في وقت مبكر يسمح للشاعر الكبير بالاطلاع عليها ،

وقد صاحب هذا النشاط الثقافي للعلاقات بين أسبانيا وإيطاليا نشاط آخر سياسي لا يقل عنه توهجا وخصوبة ؛ إذ أنه على إثر نشوب النزاع حول

الإمبراطورية الألمانية التي كانت تشمل قطاعات عريضة من الأقاليم الإيطالية أخذ اتصال ألفونسو العاشر بإيطاليا يتكشف وتعدد طرائقه ، فلا تكاد تهدأ حركة السفراء القادمين إليه من إيطاليا - ومنهم العلماء والشعراء ورجال الدين - . حتى تشط حركة مبعوثيه إليهم . ومن أهم هذه السفارات سفارة « برونيو لاتيني Brunetto Latini » الذي أوفد من قبل الحزب الحاكم في فلورنسيا عام ١٢٦٠م إلى ألفونسو العاشر ليحرب له عن تأييد هذه الولاية وجاراتها في إيطاليا لتنصيبه امبراطورا لألمانيا واستحقاقه للقب « ملك الرومان » .

ولكن انقلاباً سياسياً يحدث في هذه الأثناء في فلورنسيا يحول بين لاتيني وعودته إلى إيطاليا مباشرة ، مما يجعله يذهب إلى فرنسا ويمكث فيها ثمانى سنوات قبل أن يتمكن من الرجوع إلى موطنه . وفي هذه الأثناء يكتب كتابه الشهير « الكنز » شعراً في البداية عام ١٢٦٢م ثم نثراً مطولاً موسوعياً عام ١٢٦٦م ، ويضمنه جملة من المعارف والعلوم العربية التي استقاها من بلاط طليطلة ومن قراءته للمادة المعدة لموسوعة ألفونسو العاشر خلال إقامته التي امتدت شهوراً في اسبانيا .

ومن الثابت تاريخياً أن لاتيني كان أستاذاً لدانتي ومعلمه الأول ، وأن العناصر العربية التي تمثلت في الكنز كانت من أشد ما لفت دانتى إلى الثقافة العربية والإسلامية ، وأن اهتمام لاتيني كشاعر مثقف بالترجمات الفرنسية - مع ملاحظة أنه كتب الكنز أولاً بالفرنسية ثم ترجمه هو نفسه للإيطالية - واللاتينية للتراث الثقافى الإسلامى يجعل من المحتمل أن يكون قد حمل معه إلى إيطاليا مسودة للترجمة التي قام بها مواطنه الإيطالى لقصة المعراج بعد أن حصل عليها وهو في فرنسا ، خاصة وأن كتابه الذى وصنع في فرنسا قد ترجم فوراً إلى الأسبانية وأرسل إلى بلاط ألفونسو العاشر : مما يدل على أن تبادل الترجمات وسهولة تداولها كانا يسمحان بذلك ، ويجعل بعض الباحثين يؤكد أن معارف لاتيني من الثقافة الإسلامية تمثل الحد الأدنى لما

وصل إلى دانتى بصفة موثقة لاريب فيها (١). وهى معارف تم فى شعره الرمزى والمجازى عن محاكاته لبعض العناصر الوصفية التى وردت فى قصة المعراج، مما يرجح اطلاعه عليها .

أما القناة الدينية فتبدأ من مطالع المرحلة الإسلامية فى حياة الأندلس ؛ إذ كان هناك ولع خاص بالسيرة النبوية الشريفة ، واهتمام كبير بمجموعات الأحاديث التى تروى تفاصيل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسرعان ما سرت عدوى هذا الاهتمام - لأسباب مختلفة - إلى الأقليات المسيحية التى كانت تعايشهم فى طليطلة وقرطبة وغيرهما من العواصم الأندلسية ، وظهرت آثار ذلك كما أشرنا فى الحرب الدينية التى شنها القسس على الإسلام فى العصور الوسطى ، ومن أهمهم شخصية « بطرس الموقر Peter the Venerable » ١٠٩٤ - ١١٥٦م رئيس رهبان دير كلونى « فى فرنسا الذى قام بدور نشط فى مقاومة الإسلام ، فجاء إلى اسبانيا عام ١١٤١ ليطالع عن كثب على مصادر الإسلام ويتعرف على أعمال مدرسة طليطلة للترجمة ، وجمع ثلثة من المترجمين بأجر وكلفهم بترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية ، ثم ضمها إلى مجموعة من الكتابات المضادة التى تشمل :

- ١ - تمهيداً موجزاً ضد الإسلام ورسائله من وجهة النظر المسيحية .
- ٢ - ملخصاً لحياة رسول الإسلام وخلفائه .
- ٣ - سيرة مطولة عن حياة الرسول وأحاديثه ومخبراته .
- ٤ - عرضاً لمبادئه وشريعته « الزائفة » .
- ٥ - ترجمة القرآن .
- ٦ - خطاباً موجهاً من مسلم إلى مسيحي يحاول إقناعه بالإسلام .

(١) Zingarelli : « La Vita, I tempi e la opera de : Dante en « Storia Letteraria de Italia » Milan 1931, p. 271.

نقلا عن كتاب « مونيوت سدينو » المشار إليه من معراج محمد .
(م ه - القناة الإسلامية)

٧ - رد المسيحي عليه رافضاً حججه وناقضاً لنظريات الإسلام .

ثم لم تلبث قصة المعراج أن ضمت بعد ترجمتها إلى هذه المجموعة التي أخذت تذيب بسرعة باللغة في أنحاء أوروبا ، وإن كان الجدل الديني الذي تحتويه - كما يعترف بذلك المؤرخون اليوم عديم الفائدة ، لأنه يستهدف مسلمين خرافيين لا وجود لهم كانوا يبادون بسرعة على الورق ، بينما يبدو أن الهدف الحقيقي إنما كان تزويد المسيحيين بحجج تثبت إيمانهم في مواجهة النهضة الدينية والعقلية في الشرق الإسلامي .

وعندما وقع قسيس آخر يدعى « سان بدرو باسكوال » في الأسر وحمل إلى بلاط غرناطة المسلم عام ١٢٩٩م تسربت إلى يديه نسخة خطية من هذه المجموعة وعلق عليها بخطه ؛ الأمر الذي يدل على أن وصولها إلى إيطاليا - معقل المسيحية والبابوية - ووقوعها في يد دانتى كان أيسر وأقرب من ذلك ، وهذه هي نفس المجموعة التي وجدت في الفاتيكان وباريس وإنجلترا وغيرها من البلاد الأوروبية ، ويرجح هذا الاحتمال أن « سان بدرو » هذا قد مر بفلورنسيا وظل بها فترة طويلة عندما كان دانتى يقوم بتأمل خطته ووضع تصميمه للكوميديا الإلهية ، مما يجعل الباحثين لا يستبعدون أن يكون هو القناة التي تعرف دانتى من خلالها على القصة الإسلامية ، ويؤكد ذلك أنه أورد في كتابه « تفنيد مزاعم الطائفة المحمدية » قصة المعراج بالتفصيل ؛ وهو كتاب اشتهر في جميع الأوساط المسيحية الأوروبية وكان في متناول دانتى (١) .

ويتصل بهذا العامل الديني الوساطة اليهودية في العصور الوسطى ؛ فإذا كان المترجم الأول لقصة المعراج « ابرهام الحكيم » يهودياً ، والمترجم الثاني لها إلى اللاتينية إيطاليا كان في خدمة الفونسو العاشر ، فقد يكون في ذلك

(١) انظر المصدر السابق عن « معراج محمد » لمؤلفه : Munoz Sendino

تلخيص للطريق الذي يحتمل أن تكون القصة قد سلكته إلى دانتى نفسه ، فمن الثابت تاريخياً أن اليهود في القرن الثالث عشر الميلادى بالذات قد قاموا بدور حيوى ونشط فى نقل عيون الثقافة الإسلامية والعربية إلى مناطق متعددة من حوض البحر الأبيض المتوسط عن طريق سلسلة من المراكز الدراسية فى قطلونية باسبانيا وإقليم بروفنس بفرنسا وصقلية وبعض الأقاليم الإيطالية .

وساعد على هذا الدور عاملان هامين فى ذلك الوقت هما :

١ - الانقسام اليهودى إلى مجموعات التلموديين والقبالة من جانب وأنصار الميمونيين من العقليين الأرسطيين من جانب آخر ، بما تبع ذلك من تعدد المراكز للدفاع عن آرائهم وفلسفاتهم .

٢ - اضطهادهم وطردهم من جنوب فرنسا وانتشارهم فى إسبانيا وجنوب إيطاليا قبل أن يطردوا نهائياً بعد العرب من إسبانيا إثر سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ م ، وقد أدى هذا الاضطهاد فى القرن الثالث عشر إلى كثافة حركة التنقل اليهودية حتى لم يستقر من علمائهم ومترجميهم أحد فى بلد واحد طيلة حياته .

وبالدراسة المتأنية للأوساط الثقافية التى كان يتحرك فيها دانتى أمكن للباحثين أن يحددوا مجموعات من أصدقائه اليهود ، خاصة « إمانويل بن سالومو » و « بندرو إسبانو » و « حيليل دى فيرنا » ممن كانوا على علم بقصة المعراج كما يتضح من بعض مؤلفاتهم الشعرية من ناحية ، وتاريخهم الدينى والفلسفى من ناحية أخرى ، ويستنتج الدارسون من ذلك أن هذا العنصر اليهودى ربما كان من أوسع القنوات التى حملت لدانتى أفكاراً إسلامية مفصلة عن الإسراء والمعراج ، وأنها كانت - فى أغلب الظن - هى التى قامت بدور الوسيط ونقلت إليه الترجمة اللاتينية للقصة بعد إتمامها فى إشبيلية (١) ،

(١) أنظر : نفس المصدر السابق ص ١٨٤ .

وإلى جانب هذه القنوات الرئيسية تجدر الإشارة إلى بعض الطرائق الفرعية التي يحتمل أن تكون القصة قد سلكتها إلى دانتى . ومنها بعض المصادر التاريخية التي قدمت عرضاً موسعاً للقصة مثل الفصل الخامس من كتاب « تاريخ العرب : Historia Arabum » للمطران « رودريجيث خيمينث دى رادا » الذى كتبه فى طليطلة فى القرن الثانى عشر ويضم بعض روايات المعراج . وهو تاريخ تداولت نسخاً منه جميع الأوساط الثقافية فى أودبا فى ذلك العصر .

وكذلك فإن كتاب ألفونسو العاشر الموسوعى عن « أخبار عامة فى تاريخ إسبانيا » يضم موجزاً لقصة المعراج كان من الميسور لدانتى بأن يلم به كما أشرنا من قبل .

ومن هذه الطرائق أيضاً ما يتصل بإمكانيات وصولها بالرواية الشفوية - وكانت لها أهميتها البالغة لإبان العصور الوسطى - عن طريق التجار والمثقفين الإيطاليين الذين قدموا إلى إشبيلية بإسبانيا فى الفترة التى شهدت ذبوع المعراج ، أو عن طريق بعض الأسرى المسلمين الذين حملوا إلى « توسكانا » فى ولاية « بيسا » بإيطاليا ، أو عن طريق شعراء التروبادور الإيطاليين الذين كانوا ينتقلون من بلاط ألفونسو العاشر إلى بقية مناطق إسبانيا المتاخمة للإمارات الإسلامية ، أو عن طريق بعض أصدقاء دانتى من الحجيج الذين كانوا يذهبون إلى « سانتياجو » بإسبانيا مثل « جيدو كافالكاتى » وغيره ، أو من المثقفين العلماء باللاهوت المسيحى المطلعين على خبايا التاريخ الإسلامى مثل « راموندو لوليو » ومن على شاكلته ،

وإذا كان دانتى قد ولد فى مايو سنة ١٢٦٥م بعد عام واحد من ترجمة قصة المعراج فى إسبانيا ، ثم كتب جزءاً من الكوميديا الإلهية عام ١٣٠٧ وأكملها على أرجح تقدير بين عامى ١٣١٤ و ١٣١٩م أى بعد مضى خمسين سنة على هذه الترجمة ، وإذا كانت قنوات التوصيل بهذا القدر من الاتساع والتعدد وتضافرت جميع العوامل لهيئة المناخ الملائم للتأثير ،

ثم قام هناك توافق تام بين كثير من عناصر الأثرين فأننا ندرك حينئذ قوة الأسباب التي تجعل المفكرين الإيطاليين أنفسهم يقولون : « اليوم لم يعد هناك مجال لأي شك في هذه الحقيقة » ، وهي أن كتاب المعراج الذي كان يوسع العالم اللاتيني الاطلاع عليه بلغتين أوروبيتين ، إن لم يكن بثلاث ، ما كان ليبقى بعيداً عن متناول دائتي ، وإلا كان أمراً خارجاً عن المنطق المعقول ، وهكذا يتأكد لنا اليوم أن نظرية أسين بالاثيوس قد أصبحت فوق مستوى النقاش . إن القضية لم تعد قضية إمكان اطلاع دائتي على المصادر العربية . وإنما هي قضية حقيقية ينبغي التسليم بها (١).

(١) انظر : Della Vida, Levi: Nuova luce sulle fonte islamiche della Divina Commedia en Al-Andalus 1949 p 407

وأنظر : أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية - القاهرة ١٩٧٠ . فصل الأدب إعداد د. سبيل القلماوي ومحمود علي مكي ص ١١٨ .

اشترك المصادر وتعدد المستويات :

تعد دراسة تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية للدانتى من قبيل دراسة المصادر في الأدب المقارن ، ذلك لأننا نعمل على واحدة من عيون الآداب العالمية ونبحث عن مصادرهما في الثقافات الأجنبية المعاصرة لها أو السابقة عليها . وقد يشترط للاعتداد بهذه المصادر أن تكون ذات قيمة أدبية فنية أو قيمة فكرية فلسفية تضمن لها تأثيراً فعالاً في مكونات العمل المدروس لا مجرد قلنس من الاشتراك العفوى في الموضوع أو بعض الأفكار . ومن هنا فإن دراسة السوابق الأدبية والصوفية تكتسب أهمية خاصة في هذا السياق كمدخل لبحث بقية جوانب هذا التأثير .

وبالرغم من أن كلمة « السوابق » وصحفتها قد تلقى ظلاً بغيضاً على الدراسة المقارنة وتوحى بتجريم التأثير إلا أننا نستعملها هنا بالمعنى التاريخي البحث للإشارة إلى الحالات السابقة على الكوميديا الإلهية التي أفادت من قصة الإسراء والمعراج الإسلامية وأقامت منها هياكل أدبية أو صوفية ذات كيان متماسك ، بغض النظر عما إذا كان لهذه الحالات من علاقة توليدية مباشرة بالملحمة الإيطالية أم لا ، وسنرى أن هذه العلاقة ليست مستحيلة في إطار التبادل الثقافي العام في العصور الوسطى ، وإن لم تكن ثابتة من الوجهة التاريخية ولم يرق عليها دليل موثق كاف حتى الآن ، إلا أنه من الناحية المنهجية لا بد أن نؤكد على أمرين سبق أن ألمحنا إليهما :

١ - أن واقعة التأثير تثبت بمجرد رصد ملامح التشابه التفصيلية التي يستبعد أن تقوم بمحض الصدفة ، حتى ولو لم نستطع كشف كيفية وطرق وقوع هذا التأثير بالوضوح الكافي ، وحسبنا في هذا الصدد أن لا يكون هناك مانع مادي أو تاريخي حاسم يحول دون إمكانية وقوع هذا التأثير ، أى أنه مادام التأثير ممكناً فإن براهينه تكمن حينئذ في تطابق المادة وتناظر الأصول والتفصيلات ، أما لو اعترف الكاتب بتأثره بعمل معين ، أو شهد عليه أحد معاصريه ،

ثم لم نعثر في إنتاجه على دلائل هذا التأثير الموضوعية فان اعترافه حينئذ يظل بلا جدوى ويصبح من قبيل النوايا التي لم تتحقق أو لم ترق إلى مستوى التأثير ذى النتائج الفنية الحسنة .

٢ - أنه قد ثبت من الوجهة التاريخية استقاء دانتي من المنبع الأساسى لهذه الصبغ الأدبية والصوفية - وهو تراث الإسراء والمعراج - بما لا يدع مجالاً للشك ، ويرر بالتالى الإعتداد بهذه السوابق التى تمثلت فيها خصائص جمالية وفلسفية لانبث أن نرى نظائرها عند دانتي ، مما يدعونا إلى تحليل العلاقة بين المجالين على أساس اشتراك المصطلح وتعدد الصيغة والمستوى ، وتؤدى المقارنة حينئذ دورها فى إضاءة النصوص داخليا وتعمق فهم مكونات الحميمة .

رسالة الغفران والوسائل العامة :

والأثر الأدبي الإسلامي الأكبر الذى صاغ ملحمة المعراج أوائل القرن الحادى عشر الميلادى هو رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى التى تعد من أنضج نماذج الثقافة العربية ، إذ لو طبقنا عليها المعيار النقدى المعترف به الآن عالمياً عن الأعمال التى توصف بأنها كلاسيكية - لا تلك التى تنتمى إلى مذهب الكلاسيكية الأوربى المعهود - وإنما تلك التى تمثل عنصراً فاعلاً فى تراثها وتعد من عيونه لوجدنا أن شرطى هذا الوصف هما :

توفر النضج الأدبى واللغوى والأخلاقى للأمة التى ينهض فيها كاتب كلاسيكى من ناحية وضرورة ارتكازه على عصور أدبية سابقة عليه من ناحية أخرى (١) .

إذا طبقنا هذا المعيار على المعرى لوجدنا كاتباً عربياً كلاسيكياً من الطراز الأول ، فقد أصابته اللغة العربية وآدائها من النضج قبله قدرأ عظيماً جعله شغوفاً بهما حريصاً علىهما ، وكان هذا ماحداً به إلى وضع رسالة الغفران كنموذج فى يستفيد من إطار الرحلة إلى الحياة الآخرة ليقدم فيضاً من البحوث اللغوية والأدبية التى كانت شغله الشاغل فى هذا الأثر ، كما أن تعدد العصور السابقة عليه وقدرته على تمثيلها ومحاولة تجاوزها مع الفهم العميق لتراثها - حتى أنه كان يسمى ديوان المتنبى « معجز أحمد » كل هذا قد أتاح له فرصة كبرى لتأصيل نظراته فى لغة الأدب وابتداع أطرجديدة أثرت الثقافة العربية بقدر ما جددت من أنسجتها وأضافت إلى محصلتها ،

فلذا أخذنا فى المقارنة بين رسالة الغفران والكوميديا الإلهية وجدنا أننا أمام رحلة للعالم الآخر تتميز بخلوها من عناصر الخوارق والمعجزات التى تحفل بها روايات الإسراء والمعراج عادة ، فباستثناء الفكرة الأساسية للرحلة

(١) أنظر : T.S. Eliot. "What is a Classic" Trad. Barcelona

— التي تقع في نطاق المعجزات — تَمْضِي الحوادث بعد ذلك على نسق أقرب ما يكون إلى منطق الحياة المألوف ، فالمسافر عند أبي العلاء ليس نبيا ولا وليا ولا من كبار الأبطال ، ولكنه مجرد إنسان هادئ يقترب الذنوب ويسعى في الأرض ، مثله في ذلك مثل دانتي بطل الكوميديا الإلهية ، كما أن الشخصيات التي تقوم بالأدوار الثانوية الأخرى ليست في معظمها من الأنبياء ولا الأولياء والقديسين ، وإنما هم أناس عاديون منهم المؤمن والكافر مثل الذين نَجدهم أيضاً عند الشاعر الإيطالي. وعلى هذا فإن الخاصية الإنسانية الواقعية الأرضية في الكوميديا الإلهية تجدد سابقها الأدبية الكبرى عند شاعر المعرفة العربي .

ولكى يحقق أبو العلاء الهدف المزجج من رحلته ذات الصبغة الأدبية والمغزى الديني معا يبتدع حيلة فنية مؤداها أن يلتقي البطل المسافر «ابن القارح» في الجنة أو في الجحيم بعدد هائل من الشخصيات المختلفة في أعمارها وظروفها وجنسها وعقيدتها ، وإن كان معظمهم ينتمي مهنيا إلى مجال محدد هو الاشتغال بالعلم والأدب . وهذا معناه أن مؤلف الرحلة قد ملأ حجرات الفردوس وكهوف الجحيم بعدد ضخم من الرجال والنساء المسلمين والمسيحيين والجاهليين ، الشرفاء والوضعاء ، الأغنياء والفقراء ، والشباب والشيوخ ، لكنهم جميعاً تقريباً أدباء وشعراء وعلماء ، لأن أهدافه الرئيسية من رحلته كان هو إجراء أون من النقد الأدبي واللغوي ، بالإضافة إلى هدف آخر ثانوي هو مقاومة الفكرة السائدة لدى علماء الكلام في عصره عن تضيق حظيرة الدين بفكرة أخرى عن رحمة الله التي وسعت كل شيء ، فجميع شخصيات المعرى تقريباً واقعية تماماً ومن الثابت أنها كانت موجودة تاريخياً ومشهورة في الأدب العربي بأكمله ، بل إن بعضها معاصر لأبي العلاء نفسه وشديد القرب منه ومن حياته .

على أن نوزجها مكانيا في الجنة أو النار بتمييز بخاصية بارزة ، إذ يلتقاهم المسافر في الجنة وهم جماعات صغيرة تلتقي في حلقات تدور كل منها حول

جنس أدبي معين ، فهناك علماء اللغة وهناك الشعراء المغنون والهجاءون وشعراء الرجز . أما في الجحيم فهم على العكس من ذلك يبدون له أفرادا مشتتين أو معزولين عن غيرهم . وسواء كان المسافر في الجنة أو في الجحيم فهو الذى يبادر من يلقاه بالسؤال عن شخص يود أن يراه ، وقد يظهر له هذا الشخص فجأة دون أن يسأل عنه ، وعادة ما يشيرون له إلى مكانه في الحالة الأولى ، أما في الحالة الثانية فكثيراً ما لا يستطيع المسافر أن يتعرف على محدثه للوهلة الأولى لما انتاب ملامحه من التغيير ، مما يجعله مضطراً لسؤاله عن اسمه . فإذا تبادل أطراف الحديث مع أحد من أهل الجنة أو النار كان موضوع الحوار الرئيسى دائماً حول مسألة غامضة أو مثيرة في أعمالهم الأدبية والشعرية : وليس من النادر أن نجد إشارة إلى واقعة في حياتهم الخاصة تتصل بفضائلهم أو ذنوبهم أو فقره من أشعارهم توضح المصير الذى انتهوا إليه في العالم الآخر .

ويتميز المعيار الذى يعتمد عليه المؤلف لوضع شخصياته في الجنة أو النار بالسعة والرحمة واللفظ وتحرر النظرة ، مما كان يصطدم بلا شك بمعتقدات الفقهاء الذين يرون في دخول أناس معروفين بكفرهم أو فسوقهم الجنة زندقة لا تغتفر . فالمعري إذن كان يحتمل إلى ميوله وأهوائه الأدبية ليسلم بعض الأرواح إلى الجنة أو النار كما يتراءى له شامتا فيهم أو أسفاً عليهم ، معرباً في كل حالة عن رفقه بهم أو سخريته منهم أو غبطته لهم طبقاً لظروف كل موقف ورأيه الشخصى في أبطاله .

ونفس هذه الوسائل الفنية التى استخدمها المفكر الإسلامى هى التى تظهر مرة أخرى فى الكوميديا الإلهية ، حيث يستخدمها دانتي لأغراضه وخطته التى كانت أشد طموحاً وأبعد مدى مما رأيناه عند المعري . فكان الشاعر الإيطالى قد وسع من المجال الذى شقه من قبله الشاعر الإسلامى متجاوزاً الحدود الأدبية البتة التى وقف عندها الأول ليضع في نفس الإطار تقريباً أسطورة أعظم وأثرى في تفاصيلها ودلائلها ، إذ تتضمن رواية المؤلف للكون

والوجود ، ولا تقتصر على الأفكار اللغوية والأدبية ، بل تشمل جملة معارفه وعلوم عصره ، فالكوميديا الإلهية في واقع الأمر تعد موسوعة هائلة لجميع علوم العصر الوسيط ، واستعاراتها التعليمية هي في نفس الوقت مجاز خلقي وسياسي وديني ، وبهذا فهي تعتبر رسالة جامعة تتعرض لتاريخ البشرية عموماً ولما كانت عليه إيطالياً والإمبراطورية المسيحية في القرن الثالث عشر على وجه الخصوص . أى أنه إذا كان المعري قد انتهج لنفسه خطة الكشف عن معارفه الأدبية واللغوية وأحكامه النقدية على كبار الشعراء فإن دانتى ترك في ملحمة ملخصاً لمعارفه العلمية والتاريخية وتجاربه الدينية والسياسية بشكل موسوعي يكاد يستغرق كل ما عرف به عصره .

ومن هنا نجد أن عدد شخصيات دانتى أكبر بكثير من عدد شخصيات المعري ، ويضاف إلى هذا التفوق العددي تنوع الشخصيات عند الشاعر الإيطالي ، لأن الطبقات الأدبية التي يعتمد عليها المعري قد أصبحت عند دانتى طبقات اجتماعية ، فشخصياته التاريخية والأسطورية تنتمي إلى جميع المستويات وقد صورت كلها بطريقة واقعية حية . وتبدو الأرواح لدانتى في الفردوس وهي متجمعة في طوائف ، بعكس ما نجد في الجحيم منعزلة متفرقة ، كما نجد أن حلقات الأجناس الأدبية التي وجدناها عند المعري تقابل عند دانتى الحلقات التي تتكون في كل سماء من رجال الدين تارة والفرسان المحاربين أو القضاة أو أهل الصوامع تارة أخرى ،

وكما رأينا في رحلة أبي العلاء نجد أن الحوار عند دانتى يسير على نفس النسق ؛ فلما أن يسأل المسافر محدثه عن المكان الذي يمكن أن يلتقي فيه بروح فلان ، ولما أن تظهر له الروح فجأة على غير موعد دون أن يسأل عنها ، وفي كلتا الحالتين فإن محدثيه يشيرون له إلى بغيته ، أو يصبح من العسير عليه أن يتعرف على شخصيته لتبدل ملامحه فيسأله عن اسمه ،

وإذا كان اختلاف التصميم والهدف في كل من الأثرين يجعل الحوار الذي يعقده دانتى أكثر تنوعاً في موضوعاته وثراء في تفاصيله من الأثر

العربي الذي يكاد يقتصر على القضايا الأدبية واللغوية، فإن كلا منهما يحتوي على إشارات محددة للحياة الدنيا ووقائعها، كما أننا لانعدم في محاورات دانتي - خاصة في الجحيم والمطهر - ما يتصل بالحياة الأدبية والفنية لمحدثيه من شعراء وموسيقيين؛ مما يقدم لنا وجوه شبه عديدة وموجية بما رأيناه عند المعري من قبل؛ وبكفى أن نستعرض - مع أسين بالاثيوس - بعض الأمثلة على ذلك:

- ١ - يتعرف دانتي على المايسترو « برونيتي لانيبي » الذي تهمر عليه أمطار النصار ويحدثه عن وقائع من حياتهما، ويزوده « لانيبي » ببعض أسماء رفاقه؛ ويوصيه بعمله الموسوعي الكبير « الكنز » (١)،
- ٢ - يلتقي دانتي في المطهر بالموسيقار الفلورنسي « كاسيلا » ويطلب منه أن يترنم بالأغنية التي ألفها دنتي نفسه ووضع « كاسيلا » موسيقاها (٢).
- ٣ - يتعرف الشاعر « سورديلو » على فرجيل ويشيد بأشعاره (٣).
- ٤ - يتحدث الرسام « أوديزيس » مع دانتي عن تاريخ الفن الإيطالي ويشيد ببعض شعرائه (٤).

كل هذه الأمثلة - وكثير غيرها مما لاسبيل إلى حصره - يؤكد أن الطابع الأدبي الذي تميزت به رسالة الغفران، والذي أضفى على التراث الديني للمعراج سمة أدبية وفنية هو نفس الطابع المميز للكوميديا الإلهية ككلحمة فنية قبل أن تكون موسوعة دينية أو أخلاقية مجازية.

كما يتفق دانتي مع أبي العلاء في معاني التسامح وسعة الأفق في معاملة الأرواح؛ إذ يتصور دانتي نجاة أبطاله من عذاب الجحيم ومنهم الشعراء

(١) انظر الجحيم - النشيد الخامس عشر

(٢) انظر: المطهر - النشيد الثاني.

(٣) انظر نفس المصدر النشيدان السادس والثامن

(٤) انظر: نفس المصدر للنشيد الحادي عشر.

والوثنيون والمسلمون وغيرهم ، فيضع في المطهر قبصر وسقراط وأفلاطون وأرسطو وفرجيل وشيشرون وسينيكاً إلى جوار ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين الأيوبي ، ثم يرقى ببعض هؤلاء إلى الجنة ويبقى الآخرون في المطهر ، كما نجد أن ميوله وأهواءه السياسية تحدد أيضاً إدانته لبعض رجال الكنيسة من عصره وإدخالهم نار السعير ومنهم بابواب وأمراء مسيحيون ساء مصيرهم عند دانتى لالعقيدتهم الدينية وإنما لممارستهم للأعمال العامة على غير هواه ؛ كما أن مشاهد الجنة والعذاب تثير عند الشاعر الإيطالي نفس المشاعر التي أثارها من قبل عند أبي العلاء المعرى من رقة وإعجاب أو سخرية وغضب طبقاً لكل حالة من الحالات ،

التشابه في حوادث خاصة :

وإلى جانب هذه الملامح العامة التي يلتقي فيها دانتى مع المعرى هناك بعض الحوادث الخاصة التي يصل فيها التشابه إلى درجة التطابق ، بالإضافة إلى بعض الملامح المحددة الأخرى . فمن قبيل النوع الأول ما نجده في رسالة الغفران من لقاء ابن القارح بحوريتين من الحور العين ، بهره جمالهما ، فيقبل على كل واحدة منهما يترشف رضا بها ، ويتمثل في حسنهما بأبيات لامرئ القيس ، فيستغربان في الضحك ، وتقول إحداهما : أتدرى من أنا يا على بن منصور ؟ فيقول : أنت من حور الجنان اللواتي خلقهن الله جزاء للمعتقين . فتقول : أنا كذلك بإنعام الله العظيم ، على أنى كنت في الدار العاجلة أعرف بمحملونة وأسكن في باب العراق بحلب ، وأبي صاحب رخي ، وتزوجني رجل يبيع السقط ؛ فطلقني لرائحة كرهها من في ، وكنت من أقبح نساء حلب ، فلما عرفت ذلك زهدت في الدنيا الغرارة وتوفرت على العبادة فصيرني ذلك إلى ما ترى .

وتقول الأخرى : أتدرى من أنا يا على بن منصور ؟ أنا توفيق السوداء التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد ؛ وكنت أخرج الكتب إلى النساخ ؛ فيقول : لا إله إلا الله . لقد كنت سوداء فعدت أنصع من الكافور (١) .

فلو تفاضينا عن أسلوب المعرى الساخر في هذه الواقعة لوجدنا شباها بعيداً بينها وبين بعض الوقائع عند دانتى ، مثل لقائه مع « بياسينا » في المطهر ؛ ومع « بيكاردا دوناتي » الفلورنسية في سماء القمر ، ومع « كوينزادى بادوا » في سماء الزهرة ؛ حيث تنعى أولاهن - مثل حملونه - حظها التعميس وشقاءها في حياتها الزوجية ؛ وما تبدو عليه « بيكاردا » من جمال رائع وحسن فتان يدهش دانتى لأنها لم تكن كذلك

(١) انظر : رسالة الغفران لأبي العلاء ، تحقيق الدكتور عائشة عبد الرحمن . دار المعارف

أبداً في الحياة الدنيا مثل توفيق السوداء . وكلهن يتقدمن إلى دانتى ويلتكن له أسماءهن في الدنيا وموطنهن كي يشبعن فضوله ويثرن عجبه بنفس طريقة الغفران .

ومن قبيل هذا النوع من التشابه كذلك لقاء ابن القارح بآدم عليه السلام في الجنة ؛ حيث نرى أن موضوع الحديث الرئيسى بينهما هو اللغة الفطرية الأولى التي كان يتحدث بها أبو البشر ؛ فيقول آدم : إنما كنت أنكلم بالعربية وأنا في الجنة ؛ فلما هبطت إلى الأرض نقل لساني إلى السريانية فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت . فلما ردني الله سبحانه وتعالى إلى الجنة عادت على العربية (١) .

كذلك يلتقي دانتى في السماء الثامنة بآدم ؛ حيث يكون موضوع الحوار الرئيسى بينهما هو أيضاً اللغة التي كان يتحدث بها أبو البشر خلال إقامته في جنة الأرض (٢) . هذا مع اختلاف اللغات التي يعزوها دانتى إلى آدم عن تلك التي ذكرها المعري بطبيعة الحال .

وعندما يعود ابن القارح من الجحيم تلقاه الحورية المكلفة بخدمته فتلومه برقة على تأخره ، وتصحبه في نزته بين حدائق الجنان وأها ضيبي الفردوس ، وهذا نفس ما تفعله الحسناء « ما تيلدى » مع دانتى حيث تلقاه باسمه عاتبة عند دخوله غابة الفردوس الأرضى ، وتجيّب على أسئلته بلطف ومهارة ، ويمضى في نزته معها حتى تقع عينه على كوكبة من الحسان اللاتي يحطن بحبيبته « بياتريش » وهي تهبط من السماء للقائه ، كما وقعت عين ابن القارح من قبله على كوكبة مماثلة من الحوريات وهن يحطن بحبيبة امرئ القيس التي خلّد ذكرها في أشعاره (٣) .

(١) انظر : نفس المصدر ص ٣٦١ .

(٢) انظر : الفردوس ، ترجمة الدكتور حسن عثمان ، النشيد السادس والعشرون ،

أبيات ٧٩ - ٩١ .

(٣) انظر : رسالة الغفران ص ٣٧٣ .

وتمضى الرحلة التي يقوم بها ابن القارح إلى الجحيم على نفس الوتيرة التي تسير بها رحلة دانتي بالرغم من إتجاهها العكسي؛ فدانتى يزور الجحيم قبل الفردوس ، أما ابن القارح فينتقل من الجنة إلى الجحيم ، وعندما يشرع دانتي في السير يجد الطريق أمامه مسدوداً بثلاثة وحوش : نمر أرقط وأسد وذئب ، وعندما ينجح في اختراق هذه المخاطر يلتقى بفرجيل رائد الشعراء الكلاسيكيين وأمير الملاحم (١). أما المسافر المسلم في رسالة الغفران فإنه يلتقى أولاً قبل أن تعترضه العقبات « بنحشور » ملك الجان الذي ينشده طرفاً من أشعاره الملحمية ، وعلى ملخل الروضة التي تسكنها أرواح الجان لتقى ابن القارح بالعقبات التي تسد أمامه الطريق ، وتمثل في أسد يفترس بقار الجنة وإبلها ، دون أن تأذى الفريسة بظفر ولاناب ؛ بل تجد من اللذة مثلما يجد . وذئب يقتنص ظباء الجنة فتعود بالقدرة لما كانت عليه (٢). وقد جهد شراح دانتي ومفسروه في تأويل المعنى المجازى لهذه العقبات وما ترمز إليه تلك الوحوش من دلالات خلقية أو سياسية ، ولكنهم لم يفتنوا - قبل أسين بالاثيوس - إلى أن السابقة الأدبية الكبرى التي تتمثل في رسالة الغفران تعرض اثنين من هذه الوحوش وتضفي عليهما دلالة ميثولوجية تتصل بالسيرة النبوية وترتبط بنوع من الحيوانات المتوحشة المضادة التي تقف على طرف النقيض مع الحيوانات الأخرى الموالية التي حدثت الرسول واعترفت بمعجزاته . وكأن دانتي قد أفاد من هذه الوقائع في رسالة الغفران وأدب المعراج والسيرة النبوية، وأضاف إليها النمر الأرقط ليصل بالوحوش المجازية إلى رقم خاص ثلاثي .

أما النوع الثاني من المشابه المحددة التي لا تصل إلى درجة التطابق بين الكوميديا الإلهية ورسالة الغفران فنوجز من أمثله التي ذكرها أسين بالاثيوس ما يلي :

(١) انظر : الجحيم لدانتي ، الأناشيد ١ - ٤ .

(٢) انظر : رسالة الغفران . ص ٣٠٦ .

١ - يعبر المسافر المسلم الصراط الذي يقضى إلى الجنة على ظهر جارية من جوارى السيدة فاطمة الزهراء فتحمله وتجاوز به كالبرق الخاطف ، بعد أن كان لا يستمسك ويتساقط عن يمين وشمال (١). مثلما يعبر دانى وفرجيل الممر الذي يصل بين الحلقتين السابعة والثامنة على متن « جيريون » (٢). وكان ابن القارح قد عرج إلى السماء متعلقاً بركاب فاطمة الزهراء التي تطير في الهواء مثلما استعان دانى في صعوده بحبيبته وهاديته بياتريش التي قادته إلى عالم الملكوت الأعلى .

٢ - يرفض الشاعر العربي « بشار بن برد » الإجابة عن أسئلة ابن القارح ويصيح به عندما يلح عليه : يا هذا دعنى من أبا طيبك فلانى لمشغول عنك (٣). ومثل هذا الموقف يمر به دانى مع « بوكادجى أماتى » الذى يرفض الإجابة عن أسئلته ويودعه أيضاً بمثل تلك العبارات الساخطة (٤).

٣ - يطلع بطل الغفران فى الجحيم فىرى إبليس وهو يضطرب فى السلاسل والأغلال ، ومقامع الحديد تأخذه من أيدي الزبانية فيدور بينهما حوار طريف يسأله إبليس خلاله عن اسمه وصنعتة ، وعندما يعرف أنها الأدب يقول له : « بش الصناعة ، إنها تهب غفة من العيش لا يتسع بها العيال ، ولأنها لمزلة بالقدم وكم أهلكت مثلك » (٥). ثم لا يتورع وهو فى تلك الحال عن محاولة إغوائه وتشكيكه فى دينه بسؤاله عن أهل الجنة وصنيعهم مع الولدان المخلدين .

وشبيه بهذا - بصفة عامة - ما نجده عند دانى فى وصفه للعملاق النارى « إلفياق » الذى يلقاه عند انتقاله من الحلقة الثامنة إلى التاسعة من

(١) انظر : رسالة الغفران ؛ ص ٢٦٠/٢٦١ .

(٢) انظر : الجحيم النشيد السابع عشر .

(٣) انظر : الغفران ص ٣١٣ .

(٤) انظر : الجحيم النشيد ٣٢ .

(٥) انظر : الغفران ص ٣٠٩ .

حلقات الجحيم وما يدور بينهما من حوار وإن كان لا يصل إلى سخرية المعرى اللاذعة (١)

ومهما كانت المشابهة الجزئية محدودة فإن المهم في سياقنا هذا هو أن أبا العلاء المعرى قد استثمر أدب المعراج وتراثه الفنى لكتابة أثر فنى خالده يفيد من إطاره العام فحسب ويصب فيه خلاصة لمعارفه اللغوية وهمومه النقدية ، تاركاً لخياله المبدع أن يقيم عوالم شائقة للنن والعلم والسمر في الحياة الأخرى ، فقدم بهذا أكبر سابقة أدبية في العصور الوسطى للكوميديا الإلهية التى التقطت بدورها أدب المعراج وصاغت منه ملحمة دينية مستوعبة لجميع العناصر التى غذتها بها الثقافات العالمية .

ولقد أثبتت في الفترة الأخيرة مشكلة المصادر اليونانية المحتملة لرسالة الغفران (٢) وتحول الحوار إلى ما يشبه الصراع بين دعاة التأصيل القومى من جانب وأنصار النزعة العالمية من جانب آخر ، ويبدو أن نقطة الضعف الجوهرية في نظرية ارتباط الغفران بالتراث اليونانى هي القول - دون استقصاء علمى كاف - بتخلو المصادر الإسلامية من كثير من صور المعرى في رسالته ، والقفز منها إلى الميثولوجيا اليونانية وآدابها مباشرة اعتماداً على الظن فحسب ، مع أن تحليل هذه العناصر يؤدى إلى إرجاعها لمكونات الثقافة الإسلامية بسهولة ويسر (٣) ، وتظل الخطوة التالية التى لا بد منها هي الدراسة المنهجية للعلاقة التاريخية القديمة بين الحياة العربية والثقافات المتاخمة لها ، وتحليل مدى أصالة العناصر الميثولوجية التى دخلت في نسيج التراث الشعبى للأمة الإسلامية بمناهج علم الفولكلور الحديثة -

(١) انظر : الجحيم - النشيد ٣١ .

(٢) انظر : على هامش الغفران للدكتور لويس عوض دار الهلال بالقاهرة ١٩٦٦ .
أباطيل وأسما للستاذ محمود شاكر ، القاهرة ١٩٦٥ .

(٣) مثل الشهاب فى الجنة ، والتحولت المعروفة فى التراث الإسلامى بسوق انصور ، النساء والجور من شجر وجميع الواردة فى كتب الرقائق الإسلامية ، وأشجار الصفصاف وغناء الحور العين .

على أن قضايها التأثير والتأثر في الأدب المقارن ينبغي أن تعالج بروح علمي يقيم الفرض ويدرس بموضوعية ما يؤيده أو ينفيه ، فإذا ما انتهى إلى نتيجة لا تتعسف ولا تلوئ النصوص ولا تجد الدليل في غير مظانه تقبلها بطيب خاطر وسعة صدر .

ولئن كانت البحوث المقارنة لم تثبت حتى الآن صلة تاريخية مباشرة بين المعري ودانتى فإن وجود التراث الإسلامى المتصل بالإسراء والمعراج كمصدر مشترك واحتمال اطلاع دانتى على ترجمة أو ملخص لرسالة الغفران وتوافق بعض المشاهد والمواقف كل هذا يصلح للنهوض بهذا الفرض وطرحه كسؤال لا يزال يلتمس الأدلة اليقينية في البحوث المقارنة في المستقبل .

تحليل بعض العناصر الصوفية :

استنبت الخيال الشعبي لدى المسلمين كثيراً من الصور الأدبية والفنية حول الإسراء والمعراج ، متزيذاً على النصوص الدينية الثابتة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة بقصص نثرية وقصائد شعرية تنسب فيها أحاديث مطولة للرسول عليه الصلاة والسلام ولجبريل وحوارهما مع سكان السماء والملكوت الأعلى ، بل وينطق فيها من لاهياة له من المخلوقات مثل للعرش الإلهي وبعض معالم السماء والجنة ، حتى تكون ما يمكن أن يسمى بأدب المعراج وظهرت بعض الدراسات التحليلية له .

وقد أنصبب الصوفية هذه القصص بدلالات روحية عميقة وأصبح من تقاليدهم وضع قصص معراج خاصة بهم ، خاصة الأدب الفارسي الذي تقوم عراقتة وأصالته على أساس التصوف الإسلامي حيث يجمع بين فنون الدين والفلسفة ويفيض بأداب رفيعة من مثل « سير العباد إلى المعاد » لسنائي الذي شرح فيه رجوع النفس من عالمها المظلم الذي سقطت فيه إلى أصلها الإلهي ومقرها الأخير كما مندرس فيما بعد .

والذي يهمننا الآن هو التنويه بتأثير المعراج في هؤلاء المتصوفة الذين « حلقوا بهذه القصة في العوالم ، وطافوا بخيالهم في الآفاق . واستلهموا من روحها فيضاً وحكمة ، نذكر منهم أبا يزيد البسطامي - الذي عاش في القرن الثالث للهجرة أو التاسع الميلادي - - ومعراجه الذي نسج فيه على منوال المعراج النبوي وجعله أنموذجاً لحاله ومقامه وقصده إلى الله في رؤيا منامية بديعة » (١)

ولكن النموذج الأوفى لهؤلاء المتصوفة نجده عند محي الدين بن عربي الذي توفي عام ٦٣٨ هـ أي في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد وضع عدة كتب ومؤلفات ذات صلة وثيقة بالإسراء والمعراج مثل « كتاب الإسراء إلى المقام الأسمى » وكتاب « مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار

(١) نظر مقدمة كتاب المعراج للقشيري للدكتور علي حسن عبد القادر ، القاهرة ١٩٦٤

الإلهية ، وكتاب « نغزلات الأملاك في حركات الأفلاك » وكلها تستقى من الفيض الصوفي ، وتقدم رؤية خاصة للمعراج ترتكز على الحقائق الروحية كدلالة أخيرة للظواهر الحسية ، ويهمن أن نسوق نموذجا شعريا موجزا لهذه الرؤية الرمزية ورد في كتاب ابن عربي المسمى « الإسرا إلى المقام الأسمي » أو « الإسرا إلى مقام الأسرى » على اختلاف المخطوطات ، قبل أن نعرض للقصة النثرية ، وفيه يقول : -

لله در عصابة سارت بهم	نحب الفناء لحضرة الرحمن
قطعوا زمانهم بذكر حبيبهم	وتخلقوا بسرائر القرآن
ورثوا النبي الهاشمي المصطفى	من أشرف الأعراب من عدنان
ركبوا براق الحب في طلب المنى	وسروا لقدس النور والبرهان
وقفوا على حاجر الصفا فأتاهم	لبن الهدى من منزل الفرقان
قرعوا أسماء جسومهم ففتحت	أبوابها فبدت لهم عينان
عين تبسم ثغرها لما رأت	أبناءها في جنة الرضوان
وشمالها عين تحدر دمعها	لما رأتهم في لظى النيران
كملت صفاتهم العلية فارتقوا	عن سكرة الإيمان والإحسان
للذات كان مصيرهم فحباهم	بشهودهم عينا بلا أكوان
وصلوا إليه وعابنوا ما أضمرُوا	من غيب سر السركا لأعلان
سبحانه وتقدسست أسماؤه	وعن الزيادة جل والنقصان

فالشاعر الصوفي يتمثل تجربة المعراج الروحي للحضرة الإلهية كمنهج يستقى منه صوره الفنية بطريقة تربط بين الواقع المادي من ناحية والوسائل الخلقية التي تقود إلى معاينة الأسرار من ناحية أخرى ؛ فهم يقطعون المسافات المكانية والزمانية بالذكر . ويركبون براق الحب ، ويقفون على حاجر الصفا حتى يصلوا إلى الصورة المركزية المكثفة حيث يقرعون سماء الجسوم بالمعانة والتطهر حتى تفتح لهم الأبواب ، وتنطلق أرواحهم منعقة من برائن المادة وقبود الطبيعة فتصل عن طريق الكمال والإيمان إلى درجة الإحسان والشهود ، فإذا قارنا هذه المراحل بالمستويات المجازية للكوميديا الإلهية

كما صرح بها ذاتي نفسه - وجدنا تشابها واضحا بين الحالتين : إذ أن الشاعر الإيطالي قدر صدد وراء أبياته ثلاثة مستويات دلالية . أولها مجاز شخصي وثانيها مجاز خلقي معنوي ، وثالثها روي صوفي بالإضافة إلى المعنى الحرفي الأول ، فيقول في رسالته الشهيرة إلى « كان جراندي دي لاسكالاه » .

إن المعنى المقصود بهذا المؤلف - أي الكوميديا - ليس معنى واحدا فحسب ، بل إنه يمكن أن يعد مؤلفا متعدد المعاني ، فالمعنى الأول هو المعنى الحرفي الذي يدل عليه اللفظ ، ثم يليه المعنى الذي يمكن أن يحتمله اللفظ ، سواء كان رمزيا أو خلقيا أو روحيا (١) . ويطبق ذاتي هذه التفسيرات على ما جاء في التوراة بشأن المزمور الذي يتناول خروج بني إسرائيل من مصر ففي المعنى اللفظي يعني هذا خروج بني إسرائيل من مصر في زمن موسى ، وفي المعنى الرمزي قد يقصد بذلك خلاص البشرية كلها على يد المسيح - كما عند المسيحيين - وفي المعنى الخلقي قد يدل هذا على تحول الروح من بؤس الخطيئة وأحزانها إلى حالة النعمة ، وفي المعنى الروحاني يمكن أن يدل ذلك على انتقال الروح المباركة من قيد الفساد في هذا العالم إلى رحاب الحرية والمجد السرمدي (٢) وهذه المعاني الصوفية الثلاثة يمكن أن تعد كلها معاني رمزية إذ أنها تختلف عن المعنى اللفظي الأول .

أي أن الكوميديا الإلهية - طبقاً لهذا الفهم - تعبر مجازي عن حياة ذاتي الشخصية وعن خلاص البشرية ، فدانتى نموذج للانسان الذي أضله الجهل وأعتمته الشهوات ، لكنه يستطيع أن يتحرر من عبودية الشر بهداية من عقله وفضل من الله تعالى ، وذلك عن طريق التطهر والتوبة من الذنوب ، هذا التطهر الذي يرمز إليه بالرحلة إلى الجحيم والمطهر . وعندما

(١) انظر: مقدمة ترجمة الفردوس للذكتور حسن عثمان . دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٩ .

ص ١٨/١٧

(٢) نفس المصادر السابق ، ص ١٨ .

يظفر بهذا الكمال الخلقى يصعد - عن طريق التأمل وبنعمة من الله - إلى السعادة الخالدة التي تتمثل في لذة الاستمتاع بروية الذات العلية .

فدانتى إذن - مثل المتصوفة المسلمين عامة وابن عربى بصفة خاصة - يستخدم معراج الإنسان إلى السماوات ليرمز به إلى الدراما الصوفية للتجديد الأخلاقى للأرواح بالإيمان والكمال والصلاح (١) .

وقد كان دانتى يتصور الذات الإلهية على أنها نور الأنوار ، وأن الأشعة المنبعثة منها تختلف شدة وضعفاً تبعاً للقرب من المصدر الإلهى ، وأن الخلق ليس إلا انبثاقاً لهذا النور ، وهذا هو التصور الاشراقى الذى نادى به الفلسفة الأفلوطينية المحدثه والذى لم يعرف فى الغرب إلا عن طريق الفلاسفة والمتصوفين العرب ، ابتداء من ابن مسرة الأندلسى إلى أن وصل إلى ذروته عند ابن عربى . وقد وصل تأثيره إلى كبار أتباع القديس أوغسطين فى العالم المسيحى حتى عمر دانتى نفسه .

ويرى « أسين بالاثيوس » أن هناك تشابهاً بين بعض أعمال دانتى الأخرى مثل « مجموعة الأغاني Cancionero » وديوان ابن عربى الهام « ترجمان الأشواق » وأن هذا القرب هو الذى يشرح أصل تيار الشعر الغنائى الإيطالى المسمى بالأسلوب الحلو الجديد Dolce Stil nuovo إلى جانب بعض المؤثرات العربية الأخرى التى انتقلت عن طريق شعراء التروبادور مما أدى إلى فتح جايده فى الغزل الأوروبى ينظر فيه إلى المرأة - لا باعتبارها غرضاً للمتعة الجنسية - وإنما بنظرة روحية نبيلة مما ينم عن تأثير الشعر العذرى والصوفى الإسلامى اللذين قدما من المشرق أو صيغا فى الأندلس .

ويرجح بعض الباحثين المحدثين اليوم أنه إذا لم يثبت حتى الآن اطلاع

(١) انظر : Asin Palacios, Miguel. "La escatologia Musulmana en la Divina Comedia" Madrid 1961, P.79.

دانتي على بعض مؤلفات ابن عربي بصفة مباشرة فإن كثيراً من مجموعات المخطوطات ، التي كانت شائعة في عصره ، والتي كانت تقدم ترجمات من العربية إلى اللاتينية لفوائد هامة من التراث الإسلامي كانت تحتوي على فقرات مطولة لبعض فلاسفة الإشراق المسلمين المتأثرين بنظريات ابن عربي ، وأن المرجح اطلاع دانتي عليها وتأثره بها ، الأمر الذي تؤكد له المقارنات الموضوعية التي أجريت على أعماله (١) .

(١) انظر : Sanchez – Albornoz, Claudio. “EL Islam de Espana y el Occidente“. Madrid 1974. P.218.

كيمياء السعادة لابن عربي :

على أن أهم نص صوفي أثر عن ابن عربي ولوحظت وجوه الشبه القوية العديدة بينه وبين الكوميديا الإلهية هو الفصل الذي ورد في « الفتوحات المكية » تحت عنوان « كيمياء السعادة » (١) ويهمننا أن نعرض ملخصاً موجزاً له لنشير إلى مناهج المقارنة منه .

يرى ابن عربي أن الأرواح عندما يجمعها خالقها بالأجسام تنحو إلى معرفة جوهر بلاديتها وهو الحق فتبحث عن الطريق الذي يقودها إلى ذلك الهدف . وهنا تأتينا رسل الله الذين اختارهم من زمرة البشر فيتقدمون لهدايتهم كي تصل إلى معرفة الخالق وتحصل بذلك على سعادتها . فتقبل بعض الأرواح برضى وحبور هداية الرسول ، وترفض أرواح أخرى عونه بحجة أنها لا ترى له فضلاً عليها ولا سمواً في درجات المعرفة عنها ، وبالتالي فإن الأرواح الأولى تتبع هداية السماء ، بينما تكتفى الأخرى بأنوار العقل الطبيعي ،

وهنا تبدأ الحكاية المجازية الصوفية ، وبطلاها مسافران ينتميان إلى هذين النوعين من البشر : أحدهما عالم بالشرعية والآخر فيلسوف عقل ، وهما يشقان طريقهما في وقت واحد إلى الله تعالى . وترمز المراحل الأولى للرحلة - قبل الصعود إلى المعارج السماوية - إلى كمال الأرواح وسعادتها الطبيعية بالتربية وكبح جماح العواطف وقهر شهوات الجسد ، وفي تلك المراحل الأولى تكاد تلتقي الفلسفة مع الشريعة التقاء تاماً في التعاليم ، وهكذا يتمكن كل من المسافرين ، أحدهما بهداية العقل والآخر بنور الإيمان من التحرر من تأثير العواطف الضارة ونيل الروابط التي توثقهما إلى الأرض .

وعند هذه النقطة يبدأ المعارج السماوي باجتياز نفس المراحل التي مر

(١) انظر : الفتوحات المكية لحي الدين بن عربي . طبع دار صادر بيروت بدون تاريخ المجلد

بها الرسول صلى الله عليه وسلم في معراجيه ، وهى سبع مراحل تتمثل في السماوات السبع الفلكية . سماء القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل . ويصل الراحلان الرمزيان إليها بنفس السرعة : أحدهما وهو الفيلسوف على مركبه الخاص أو براقه الذى يرمز للعقل ، والثانى وهو المؤمن على جناح النور والنعمة الإلهية . لكنهما وإن وصلا معاً إلى أبواب السماوات يختلفان فيما عدا ذلك . فلا يستويان في الحفاوة التى يلقيانها ولا في الفائدة التى يجنيانها ، فتابع الشريعة يحتفى به الملائكة المعتمدون في السماوات التى يزورها ، بينما يضطر الفيلسوف إلى البقاء بعيداً عن رفيقه ، وبدلاً من تبادل الحديث مع رسل الله عليه أن يكسفى بالتعامل مع العقول التى تحرك الأفلاك السماوية - طبقاً لنظريات الأفلوطينية المحدثة - وتقوم هى نفسها على خدمة الأنبياء . ههنا الفرق فى المعاملة بين المسافرين يملأ تابع الشريعة بالجلد والغبطه ويفعم الفيلسوف بالحزن والألم ؛ إذ يرى على بعد مظاهر تكريم صاحبه ولا يستطيع التعرف على الأسرار العليا التى يكشفها الأنبياء لرفيقه . وبالرغم من أن الفيلسوف لا يظل ضائعاً تماماً في السموات السبع ، إذ تتولى العقول التى تقطن كل سماء تعليمه وإطلاعه على المشاكل الطبيعية أو الفلكية التى تتوقف على تأثير كوكبها الطبيعى في الظواهر التى تطرأ على العالم الأرضى ، إلا أن سعاداته تتضاءل عندما يرى أن تابع الشرع يجد حلولاً لجميع هذه المشاكل الفلسفية في تعاليم الأنبياء بطريقة أسمى وأوضح وأبسط مما يتيح العلم الطبيعى ، هذه الحيلة القصصية اللذكية تسمح لابن عربى أن يدخل في سياقه المجازى قسطاً وافراً من مبادئ الشخصيه كعالم دينى ذى طابع موسوعى في فلسفته الكلامية وعلوم الباطن التى يتبحر فيها ويصوغها في شكل خطب أو رسائل يلقيها الأنبياء . وقد تبدو هذه الخطب أحياناً مجملة مركزة ، وأحياناً أخرى مسهبة مطولة على حسب ما يقتضيه الموقف .

ففى سماء القمر يقوم آدم عليه السلام بتعليم تابع الشرع التأثير الخلاق للأسماء الحسنى ، الذى يتمثل عند ابن عربى في نماذج المخلوقات ويقابل

العلل الغائية في الفلسفة . ويشرح له الظواهر الطبيعية في محيط القمر وتغير العناصر المادية وأجزائها ، ونمو وغذاء المخلوقات الحية وتناسل السلالة البشرية . فإذا رأى الفيلسوف الذى يستقى تعاليمه من العقل المقيم في القمر أن هذه الظواهر من تأثيرات السماء الفلكية الأولى وجد تابع الدين تفسيراً مقنعاً لها فيما يلقيه له آدم عليه السلام من بركات أسماء الله الحسنى باعتبارها نماذج الخلق ومبادئ ذات قوى حقيقية عند ابن عربى .

وفي السماء الثانية بينما يستقبل الكاتب - أى عقل عطار - الفيلسوف يجد عالم الدين في استقباله أنبياء الله ابني الحالة عيسى ويحيى عليهما السلام فيشرحان له أسرار إعجاز القرآن كدليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويورد ابن عربى هنا تفسيراً في غاية البراعة ونفاذ البصيرة لاختلاف القرآن عن الشعر ، إذ أن مناط الرسالة هو البيان والتفصيل والشعر محله الشعور والتركيز والإجمال ، ثم يتحدث على لسان النبيين الكريمين عن المعجزات بصفة عامة وعن الخواص التي تتميز بها بعض الكلمات فتصبح ذات قيمة تنبؤية خاصة ؛ وعن سر كلمة كن الخلاق ، وعن النفس الإلهي الذي تلتج عنه المخلوقات من العلم ، وعن التوالد الطبيعي بعد ذلك . كما يشرح عيسى - وهو روح الله وكلمة منه - لتلميذه الطريقة السحرية للمعجزات التي قام بها من شفاء المرضى إلى إحياء الموتى بإذن الله . فكل هذه الظواهر التي تشمل التوالد الطبيعي والبرء والبعث تأتي من السماء الثانية وتتحقق في بعض درجاتها بأمور طبيعية ، لكنها كمعجزات للسيد المسيح تخضع لكيمايته الخارقة ، أما إذا حدثت بصفة عادية فإنها ترتبط حينئذ بالعلة الغائية الكامنة في عقل عطار . ولا يستطيع الفيلسوف أن يتعلم خلال إقامته في هذه السماء سوى تلك الفكرة الأخيرة المتصلة بالعلوم الطبيعية فحسب .

ويسير الأمر على هذا النسق في بقية السماوات ، حيث نجد هذا الفرق دائماً ماثلاً في طبيعة وقيمة كل من المعرفتين ، واختلاف الفائدة التي يجنيها كل من المسافرين . فنفي سماء الزهرة يشرح النبي يوسف عليه السلام نظام

العالم وجماله وفن الشعر وتأويل الأحلام، وفي سماء الشمس يشرح إدريس سبب تعاقب الليل والنهار والنتائج الصوفية العديدة المترتبة على هذه الظاهرة . وفي سماء المريخ يلتقى نبي الله هارون خطاباً مطولاً عن حكم الشعوب وأسسها موصياً تابع الدين أن ينجح إلى الرفق والرحمة في تطبيق الشريعة السماوية ، تحقيقاً للمعيار السياسى الربانى الذى يعتمد على الرحمة دون النقمة . وفي سماء المشتري يشرح موسى في محاضرة مطولة فكرة وحدة الوجود الصوفية منطلقاً من موضوع معجزة العصا التى تتحول إلى حية تسعى وتلقف ما يأتبه السحرة أمام فرعون ، وشارحاً كيف أن الأشكال والأعراض هى وحدها التى تتغير فى الكون ، أما الجوهر والقوام فإنه دائماً نفس الشيء الثابت . وفي النهاية - فى سماء زحل - نجد إبراهيم متكئاً على حائط البيت المعمور يشرح لتابع الشرع الذى يجلس أمامه مشكلة اليوم الآخر . بينما نجد الفيلسوف حزينا مكتئباً مستوحشاً داخل حجرته المظلمة ينتظر انتهاء هذا الشرح حتى يحاول الاقتراب من إبراهيم أبى الأنبياء ليظهر ندمه على سلوكه ورغبته الخارفة فى اعتناق الإسلام والتمتع بنور الإيمان المعجز ، لكن إبراهيم ينحيه جانباً ويدخل مع المتدين إلى البيت المعمور ،

وهنا يبدأ الجزء الثانى من المعراج حيث يخرج تابع الدين ويستأنف رحلته وحيداً إلى الملكوت الأعلى بدون رفيقه الذى يؤمر بأن يظل فى مكانه لا يبرحه . ومراحل هذا الجزء التى لا يرقى إليها الفيلسوف ذات طبيعة روحية صوفية محضه ، فهو يصعد أولاً إلى سلوة المنهى ، وهى شجرة ترمز ثمارها إلى أعمال المؤمنين الصالحة وتجرى من تحتها أربعة أنهار صوفية ترمز إلى التوراة والإنجيل والزبور ، ورابعها وهو أعظمها ومنبعها يرمز إلى القرآن الكريم . ومن هنا يصعد إلى سماء الكواكب الثابتة التى لاتقبل الفساد حيث يراها أهلة بالآلاف الأرواح الملائكية والأولياء ، فيطوف على مساكنهم حيث يشهد ما أعد الله لهم من التعيم المقيم . وعندما يدخل آخر

السموات الفلكية - وهى السماء ذات البروج - تنكشف للمؤمن أمرار جميع ظواهر الفردوس السماوى . ثم لا يلبث أن يصل إلى الكرسي ويعرف سر الرحمة والعدل الإلهيين وأسرار الخلود فى الدار الآخرة . ثم يغمره الضوء المنبثق من العرش الإلهى بهائه ، وتحرك الموسيقى المنبعثة من السموات شغاف قلبه حتى يستغرق فى دھول عميق ، فاذا أفاق ارتقى إلى سدة العرش الذى يعد رمزا لجلال الله وعظمته ، ويحيط به خمسة ملائكة وثلاثة أنبياء هم آدم وإبراهيم ومحمد . فيتعلم منهم المؤمن خلاصة سر الكون وحقائق العالم المادى المرقومة على اللوح المحفوظ .

ومنذ ذلك الحين فإن المراحل الباقية تصبح كلها روحية مثالية ، فيصعد المسافر فى خطفة أخيرة إلى رحاب عالم الهيمن ، وهو العالم المخلوق من العماء فى مرتبة المقادير عند الهيولى التى تعد رمزا للمادة الأولى وأصلا لوحدة الوجود . وفى رحاب ضبابها يستغرق المسافر فى دھول لا يلبث أن يقوده إلى أن يتأمل بالتدريج جميع الأسرار المعجزة للذات الإلهية وصفات كمالها ، مما يتوج فى نهاية الأمر بالروية العظمى .

ثم يأخذ التابع فى الهبوط بحثا عن رفيقه الفيلسوف فيعودان إلى العالم الأرضى ، ويسارع الفيلسوف إلى اعتناق الدين الإسلامى حتى ينعم بالتأملات الروحية والمشاهد الصوفية التى حرم منها خلال معراجه ، وحتى يرى إلى روية مالم يتسن له رؤيته .

ملاحم الاتفاق مع دانتي :

وهناك جوانب متعددة تتشابه فيها هذه القصة الصوفية الرمزية مع ملحمة دانتي الشعرية، خاصة على ضوء ما ذكرناه من تعدد معاني الكوميديا الإلهية ، فكل من المفكرين يعتبر الرحلة رمزاً للحياة المعنوية للأرواح البشرية . هذا العالم ، حيث ابتلاهم الخالق سبحانه وتعالى كي يستحقوا السعادة الأخرى التي تتمثل في الرؤية الإلهية . على أن أحدا لا يستطيع عندهما أن يصل إلى هذه السعادة إلا بمعونة خارقة هي علوم الدين ، لأن الفلسفة البحتة وإن كانت صالحة لهداية الإنسان في المراحل الأولى لرحلته الروحية — أى خلال ممارسته للفضائل الخلقية والعقلية — إلا أنها لا تستطيع أن ترقى به إلى سماء الفردوس ، رمز الفضائل الدينية التي لا يمكن الوصول إليها بدون النعمة النورانية العليا .

ولكن الفرق الواضح بين كل من المجازين هو أن ابن عربي يفترض مسافرين مختلفين : الفيلسوف وتابع الشرع ، كى يبرز بشكل قوى واضح القضية الأساسية التي تهدف إليها قصته المجازية ، بينما يفترض دانتي أن هناك مسافراً واحداً يتبع مرشدين على التوالي . فرجيل ثم بياتريش اللذان يرمزان بدورهما إلى الفلسفة وعلوم الدين .

وهناك فرق آخر وهو أن فرجيل رمز الفلسفة لا يهتدى دانتي في صعوده إلى السماوات الفلكية التي يرقى إليها الفيلسوف في القصة الإسلامية ، ولعل هذا يرجع إلى التصور الكوني لابن عربي الذي يرى أن الكواكب تنتمى إلى العالم الطبيعي المادى وتدخل في نطاق المجال الطبيعي للتأمل الفلسفى . وهذا التصور — نظر الباحثين الغربيين أنفسهم — أكثر تماسكاً وأشدّ خضوعاً للمنطق من تصور الشاعر الإيطالى الذى شغله تمجيد بياتريش كشخص حقيقى عن دقة دورها في الرمز الأدبى (١) .

(١) انظر : كتاب «أسين بالاثيوس» المشار إليه من قبل . ص ٨٥-٨٦ .

لكن هذه الفروق لا تلبث أن تتضاءل عندما نلاحظ أن دانتى وقد تدرب على يد فرجيل فى أول مراحلہ أصبح بوسعه عند عروجه بقيادة بياتريش أن يمثل فى شخصه الانجائين معاً : اتجاه الفيلسوف بما اكتسبه من خبرة فى رحلته وما تلقاه على يد فرجيل من تعاليم ، واتجاه تابع الدين بما يستلهمه من قيادة بياتريش الحالية ، ومن هنا يلاحظ أن دانتى فى بعض المراحل يتأمل بعقله كفيلسوف مسائل كونية وفلكية مفكراً بنفسه بطريقة مستقلة عن بياتريش وعن الملائكة الطوباويين الذين يلقاهم فيشرحون له دائماً مسائل ما فوق الطبيعة من وجهة نظر دينية صوفية .

وهذا هو نفس ما رأيناه عند الفيلسوف والمؤمن فى معراج ابن عربى عبر السماوات الفلكية ، فالأول يستطيع أن يعرف فى كل سماء الظواهر الكونية المنبثقة من خصائصها الطبيعية ، بينما يتلقى المؤمن تعاليم الأنبياء التى تشمل جميع الخصائص الطبيعية وتتوج بالمعرفة النورية الخارقة التى تنبعث من التعاليم الدينية الروحية والصوفية .

وإذا كان البحث حتى الآن قد لمس العلاقة الوطيدة بين قصة ابن عربى المجازية وملحمة دانتى فى الخطوط العامة والروح التى تكمن خلف الكلمات ، فإن هذه العلاقة لا تلبث أن تتعزز ببعض الملامح التفصيلية الجزئية . من ذلك ما نراه فى جحيم دانتى من أن المذنبين يمشون فى مأواهم أو مقرهم من النار لا يبرحونه إلى الأبد ، بينما نرى الصالحين فى الفردوس وأهل الجنة يهبطون من غرفاتهم العليا حيث يتم تقديمهم إلى دانتى وهم موزعون على طبقات السماء الدنيا لاستقبال القادم وإعطائه صورة حية مجسمة لمراتب الجنة ودرجات النعيم المتعددة . وعندما يصعد دانتى إلى ملكوت أعلى يفترض أن الصالحين قد عادوا كل إلى مقره فى الجنة ، لكنه لا يلبث أن يلتقى بهم مرة أخرى مجتمعين فى سماء النجوم الثابتة . ونفس هذه الحيلة استخدمها من قبله ابن عربى فى قصته المجازية عن المعراج ، فالأنبياء يتقدمون لاستقبال المؤمنين موزعين على مدارج السماء لتحيته وتكريمه

والخفاوة به ، ولكنه عندما يصل إلى السماء الثابتة يراهم عندئذ مجتمعين كما يرى قرب العرش الإلهي ثلاثة أنبياء ، منهم آدم الذي سبق أن لقيه في السماء الأولى ، وإبراهيم الذي كان معه في السماء السابعة .

والمعيار الذي يحتكم إليه دانتى في توزيع الأرواح على السماوات المختلفة هو معيار فلكي أخلاقي ، ففي كل سماء تسكن الأرواح التي تأثرت في سلوكها خلال الحياة الدنيا بالكوكب الذي تنتمي هذه السماء إليه ، وبالتالي فإنها تستحق درجة النعيم والتمجيد التي تعادل مستوى سمو هذه السماء . ونفس هذا المعيار هو الذي نراه في قصة ابن عربي المجازية ، فالأنبياء لا يقطنون السماوات العليا بالترتيب الزمني لرسالاتهم ، فإذا كان آدم في السماء الأولى فلان إبراهيم في السماء السابعة ، موسى وهارون - وهما أخوان - يقطن كل منهما في سماء ، وعيسى في سماء ثانية . وعلى ذلك فلان الأنبياء يقيمون طبقاً لدرجتهم في سلم التشريف الإسلامي.

بالإضافة إلى ذلك فإن كل سماء لا تأخذ رقماً عديداً كما يحدث في جملة قصص المعراج ؛ بل تسمى باسم الكوكب الذي يقطنها ؛ وبهذا تقوم علاقة وثيقة بين السماوات الفلكية والأنبياء المقيمين بها كما يحدث في فردوس دانتى تماماً ؛ وإن كان معنى هذه العلاقة غير محدد بدقة في جميع الأحوال ؛ إلا أنه يعني شيئاً ما بصفة دائمة ، مثل أنرى يوسف - وهو المشهور بجماله وعفته - يقيم في كوكب « فينوس » أو الزهرة ، وموسى - وهو مشرع بنى إسرائيل وقاهر فرعون - يقيم في سماء المشتري أو « جوبيتر » قاهر الطغاة ، وعيسى - وهو كلمة الله وروح منه - يقيم في سماء عطار دروسول الآلهة ورب الفصاحة .

وحتى ما يؤخذ أحياناً على دانتى من جنوحه في الكوميديا الإلهية إلى استعراض معلوماته مما يتنافى مع الروح الفنى ويكاد يحيلها إلى رسالة علمية مطولة مستخدماً وسيلة أدبية مباشرة هي خطب بياتريش المستفيضة أو أحاديث من تلقاهم في السماء عن الفلسفة والتصوف والفلك وغيرها من علوم

العصور الوسطى ، كل هذا نجد سوابقه عند ابن عربي في قصته المجازية التي تمتلئ بالخطب الطويلة عن المشاكل الفلكية والصوفية والفلسفية .

فاذا أضفنا إلى التوافق في الموضوع والحدث والهدف المجازي والشخصيات الأساسية والثانوية والهيكل المعماري للسموات الفلكية ، والطريقة التربوية والحيل الأدبية التي تستخدم لوضع معارف شعوب بأكلها في أعمال أدبية ، إذا أضيف إلى كل ذلك التوافق في الأسلوب المركز المكثف ، الصعب إلى درجة الإلغاز في بعض الأحيان ، الذي يتميز به كل من العاملين اللذين يعدان من أشد الأعمال الفنية احتواء على روح النبوة المستسر واحتئالا بحالات الكشف والاستبصار ، أمكننا أن ندرك جيدا لماذا يعتبر النقاد المقارنون رحلة ابن عربي في القرن الثالث عشر النموذج الإسلامي الذي اقتبس من دلالات المعراج الرمزية وتمثل العلوم السائدة في الحقل الفلسفي ليقدم رؤية متكاملة لعالم ما وراء للطبيعة وموقف الإنسان منه ؛ ويقوم هذا التوافق بين ابن عربي ودانتي دليلا موضوعيا على وصول أهم فلذات التراث الإسلامي للشاعر الإيطالي وعمق استجابته لها ونفاذه إلى دقائقها الفنية والفلسفية . مما سيتأكد تباعا في التحليل المقارن لأجزاء الكوميديا الإلهية بالتفصيل ، وحضور عناصر عديدة أخرى من تصورات وصور ابن عربي فيها باعتباره أكبر مؤلف صوفي في المغرب العربي الإسلامي - وربما في المشرق أيضا - كان بوجوده في الأندلس مركز إشعاع تنتشر منه وبه كثير من العناصر المضيئة في هذا التراث .

بين سنائي ودانتي :

وهناك تجربة صوفية أخرى تنتمي للأدب الفارسي قورنت بالكوميديا الإلهية ، وهي منظومة « سير العباد إلى المعاد » للشاعر الفارسي الكبير سنائي (١) ولم تكن هذه أول مرة تنسب فيها تأثيرات شرقية في دانتي إلى الأدب الفارسي ، بل إن المستشرق الفرنسي « بلوشيه » قد كتب في مطلع هذا القرن مقالا (٢) قارن فيه ما نقل في رسالة بهلوية عن رحلة قام بها زاهد زرادشتي يدعى « أرتاك فيراز » إلى العالم الآخر حيث رأى مشاهد الثواب والعقاب بما ورد في كتاب دانتي ، ولكنه لم يستطع أن يبرهن على هذا التأثير بالدليل العلمي حتى جاء « أسين بالاثيوس » بنظريته ، إلا أن فضل « بلوشيه » يتمثل في الانتباه للآداب المشرقية كمصادر لدانتي في رحلته ، ومجمل قصة القديس « فيراز » أنه أجلس على سرير مخصص لأصحاب الروى والكشف ، محوطا برجال الدين ، ثم أعطى كأساً من شراب مسكر ، سقط بعدها في نوم عميق ، وحينئذ أخذت روحه تتجول في العالم الآخر ، لتشهد عمليات الثواب والعقاب التي تجري للموتى ، ويقود الزاهد في رحلته الروحية المنامية مرشدان هما الملاك « سروش » الموكل بحفظ جماعة المؤمنين بالليل ، والملاك « آنور » الموكل بالنار المقدسة ، إذ يشرحان له ما فعل هذا أو ذاك من المذنبين أثناء مقامه في الدنيا ولماذا يعذب بهذه الطريقة ، ومع أن هذه الرحلة تذكر القارئ بالفكرة العامة للكوميديا فإنها لا تتقارن بها من ناحية الشكل الشعري ولا الإطار الملحمي ، فضلا عن عدم قيام أية صلة تاريخية بينهما ، إلا أنها تعد فحسب مصدرا

- (١) ولد في غزنة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وتوفي عام ٥٢٦ هـ - ١١٣١ م. ويعتبر أول الشعراء المتصوفين الثلاثة العظام ممن كتبوا المثنويات في إيران وثانيهم فريد الدين العطار وثالثهم جلال الدين الرومي - انظر : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ، تأليف براون وترجمة الدكتور إبراهيم الشواربي ، القاهرة ١٩٥٤ .
- (٢) كان عنوان مقاله « Les Sources orientales de la Divine Comédie » ونشر في باريس عام ١٩٠١ ضمن كتاب « الأدب الشعبي لكل الأمم » . انظر « التصوف الإسلامي العربي » لعبد اللطيف الطيباوي ، القاهرة ١٩٢٨ ص ١١١ و « أسين بالاثيوس » ص ٤٤٧ .

أوليا لعدد من الآثار الأدبية الفارسية التي أفادت منها ومن موضوع المعراج ومزجته بالروايات الإسلامية مثل ما فعل سنائي والطار والكرمانى (١) .

أما منظومة « سير العباد إلى المعاد » فهي ذات أسلوب صوفي رمزي، يصور فيها سنائي الفكرة الفلسفية التي تقول بأن الكائنات تمضي في حركة دائبة نحو اتجاهاين : فهي تجيء من الله وفيضه على العقل الكلي ثم الأنفس الجزئية ثم تعود من جديد إليه متحررة من الكثرة صاعدة نحو الوحدة .

والبناء العام للمنظومة التي تقع في ثمانمائة بيت يقوم على أن النفس تحكى قصة نزولها إلى الأرض بناء على الأمر الإلهي « اهبطوا منها » فتلقها مربية عجوز قديمة قدم الفلك وصنعت لها أكسية مختلفة الألوان ، وهذه إشارة إلى الأرض وتطور الخلق فيها في التحول من النفس النباتية إلى الحيوانية وفي التحول من دم إلى نطفة إلى علقة حتى كسيت لحما . وبعد ذلك وضعته هذه المربية في حجرة لها ست جهات وأربعة أقسام وخمسة أبواب يملؤها شيطان ذو سبعة رؤوس ، وهي رمز للجسم الذي يتكون من العناصر الأربعة وتسيطر عليه القوى الحيوانية وهو مزود بالحواس الخمس ، وتمضي النفس قائلة إن المربية عرضتها أثناء ذلك على الأفلاك التسعة لمدة تسعة أشهر ثم أرسلتها آخر الأمر إلى مدينة أيها ، وعملية الإرسال هذه هي الميلاد ، أما المدينة فهي العالم الذي يوصف بطريقة رمزية تجسد تغيره . ودور هذه النفس في مرحلتها الحيوانية مزدوج ، فهي تتلقى من العالم العلوي أنواره وتدبر العالم السفلي ، ومن التضاد القائم بين هذين الدورين تنشأ مشكلتها ، فهي إما أن تسمو إلى أعلى كما تدعوها الفطرة وإما أن تنحط إلى أسفل كما تجذبها قوى الطبيعة (٢) .

وتظل حائرة بينهما حتى يلوح لها وسط الظلمة كائن نوراني على

(١) انظر : « رحلة الروح بين ابن سينا وسنائي ودانتي » للدكتور رجاء جبر ، القاهرة - بلون تاريخ ص ٩ ومايلها .

(٢) انظر لهذا المرض كله كتاب الدكتور رجاء جبر السابق الذكر من صفحة ١٨ إلى ٣٩ وحذا لو كان قد ترجم المنظومة بأكملها لثرى الأدب العربي

صورة شيخ حكيم يجمع إلى الطبيعة الروحانية الشكل الإنساني البهي الوقور ، فهو « متقدم السن ولكن أكثر طراوة من الحياة ، هرم ولكنه أشد نضارة من الربيع الجديد » وهو رمز للنفس العاقلة ، جاء إلى العالم بأمر من أبيه ، أى العقل الكلى ، ومن ثم كان عليه أن يبقى مكروها مغتربا في هذه التربة ذات الهواء الفاسد ، إلا أنه يحن إلى منبته . ولهذا يجب عليه أن يعمل على فراق هذه الحياة الدنيا بسرعة ، فيقترح رحلة يصحب فيها النفس أو الإنسان إلى عالم أجمل وأكمل ، حيث لا قبح ولا تغير ولا فناء . وينبه رفيقه على وعورة الطريق وصعوبة الرحلة ، ويعرض عليه أن يكونا معاً أثناء الرحلة كلا متكاملين : الإنسان أو الرجل يمثل القوة التى تحمل ، والشيخ يمثل العين التى ترى . ويقبل الرجل ما عرضه عليه الشيخ فيشرعان في الرحلة « جاعلا للشيخ من رأسه هودجا ومن روحه مسكنا » .

ويمران بمحلة مراحل ، فتبدأ رحلتهما بالعناصر الأربعة التى يتركب منها الإنسان فى الفلسفة القديمة وهى التراب والماء والهواء والنار . وفى عالم العناصر يمر الرجل بصنوف الرذائل التى تنتمى إلى كل عنصر مجسدة على شكل هوام وحيوانات وبشر ، ومرور الإنسان بها بمثابة التخلّى عنها والتطهر منها ، أى إن رحلة العناصر نوع من المطهر والجحيم معا ، فهى بالنسبة للرجل مطهر يصبح بعده جديرا بالارتقاء إلى مرحلة الفلك ، وبالنسبة للكائنات التى تجسم الرذائل جحيم مقيم . وعند مرورهما بعنصر التراب يريان قطعان الذئب والكلاب والخنازير التى تمثل الشره ، ومجموعة من البشر منحية إلى الأمام ومشيتها إلى الوراء كأنها السرطان تمثل البخل ، وأفعى ذات أفواه ووجوه متعددة تزدرد ما أمامها تمثل الحسد ، وكلما فزع الرجل واضطرب سارع الشيخ إلى تهدئته وإدخال الطمأنينة إلى قلبه ، فهو ينظر مثلاً بعينين كالزمرد إلى الأفعى فتعشيها وتنسحب تجر وراءها ذيلها كأنما تكنس به الطريق . ثم يشاهد مجموعة من الشياطين عيونها فى أفتيتها ووجوهها كحوافر الحصان وقلوبها مثل حلوق التماسيح مليئة بالأسنان تجسم البغض ، ثم مجموعة من البشر كأنهم الغربان والقرود التى ركبت لها رؤوس القطط وأذئاب الكلاب يرمزون لرديلة الطمع بطريقة فنية تشكيلية .

ثم يصل الرجل ومرشده إلى شاطئ بحر يمثل بطبيعة الحال عنصر الماء ،
فيفزع الرجل من اتساعه ولكن شيخه يشجعه على عبوره ، شارحاً له أن
أول ما ينبغي أن يفعله كى ينجح فى اجتيازه هو أن يترك على الشاطئ كل
ما يمت إلى عالم التراب بسبب ، أى أن عليه أن يتخلص من رذائل كل
عنصر يمر به كشرط لمواصلة السير . ولما كانت رذيلة الكسل فى رأى
القدماء تنتهى إلى عنصر الماء فإن أول ما رآه المسافرين فى البحر جماعة
صغار السن غافلون عما يحوطهم غفلة الغصن عن الريح التى تحركه ،
فاقدوا العقل ولكن بلا وجد ، ويخيل إلى الرأى أنهم يقظون بينما هم
مستغرقون فى الذهول كالأرنب البرى الذى ينام مفتوح العينين ، وكذلك
يرى الرجل داخل الماء تماسيح ضخمة كالجبال تقتل الحاكم الذى يمثل
العقل الإنسانى وتأسر محدثه وهو اللسان وهى رمز للغفلة .

ويخرجان من الماء فيفزع الرجل من اتساع الفضاء أمامه ويطلب إلى
المرشد أن يصرف النظر عن محاولة عبور الهواء - العنصر الثالث - ولكنه
يشجعه ويقول له إن الخيال يستطيع أن يقوم بدور الخنازير وأن بوسعه أن
يرد كل شئ من عناصره إلى أصله حتى يندفع بخفة ويسر إلى هدفه ،
ويشرح له أن حاكم إقليم الماء هو القمر ، كما كان حاكم التراب هو كوكب
زحل الذى ينظم الحياة على الأرض ، ويتوزع حكم إقليم النار بين عطارد
والشمس ، وعندما يصلان إلى هذا الإقليم الأخير يشاهدان مجموعة من
السحرة الذين يرسمون صوراً شيطانية وهم يعملون بالقطران المغلى، ويرمزون
للقوى الغضبية الشريرة فى الإنسان .

ويصل السائحان إلى حدود عالم الأفلاك بعد اجتياز عالم العناصر ؛
فيفصران أشعة الفجر تراءى من وراء التلال ، يرى الرجل نفسه وقد ارتد
بصيراً بعد أن كان لا يرى فى الظلمات سوى الأشباح ؛ وتميز عيناه على
البعد برجاً شامخاً وبوابة عظيمة من « المينا اللازوردية » حيث ينتهى حد
الزمان ويبدأ عالم الأبدية عند الأفلاك التى تعد وسيطاً بين عالم الكون والفساد
وعالم الملكوت . ويتحدث الرجل بعد أن حلت عقدة لسانه عن مشاهداته

في الكواكب يرى في كل منها نموذجاً من البشر ، ففي القمر يرى الزنادقة ، وفي عطارد يرى المقلدين ، وفي الزهرة يرى الدهريين ، وفي الشمس يرى المنجمين وعبدة الكواكب ، وفي المريخ يرى أرباب الظن والفلاسفة ، وفي المشتري وزحل يشاهد المرائين والمعجبين بأنفسهم .

وعندما ينتهي عالم الأفلاك يبدأ عالم الملكوت الروحي وهو يمثل المرحلة الثالثة والأخيرة من الرحلة ، والنماذج التي يقابلها فيه صوفية تتفاوت فيما بينها بدرجة القرب من الله ، فكلما تقدم الرجل وشيخه أبصرا مجموعات أنقى وأكثر استغراقاً في التأمل والملاحظة للذات الإلهية . ففي فلك البروج يريان طائفة من مقلدي الصوفية ، وفي فلك الأفلاك الروحانيون وهم في صحبه النفس الكلية ، يليهم الكروبيون والسالكون ثم أهل التوحيد ، وهؤلاء الثلاثة في صحبة العقل الكلي على تفاوت في درجاتهم ومراتبهم طبقاً لقرّبهم منه . ثم تبدأ في هذه الدائرة الحجب والأستار الثلاث القريبة من الحضرة الإلهية ، وعندئذ ينتاب الرجل تحول هام إذ يكف عن الرغبة في التوقف ويصر على مواصلة السير نتيجة لما بلغه من نضج روحي حتى يصبح هو الشيخ نفسه ، ويودع طفولته بعد أن تخلص من أصله ومادته ، ويتخذ طريقه وحده يطوف أحقاباً طويلة حول الأستار العالية حتى يصل إلى درجة الفناء ويبقى حائراً بلا عين ولا قلب حتى يرق من أمامه في هذا العلو نور بهي يتعكس على « خرق » الصوفية ، ولا يستطيع التقدم نحو الحضرة أكثر من ذلك فيعود أدراجه من حيث أتى لأنه لم يتحرر من التكليف وما زال أسير عالم الصورة .

وقد قام الباحثون المحدثون بتحليل أهم عناصر هذه المنظومة وقارنوها في أصلها بقصة حى بن يقطان لابن سينا الذي تأثر به سنائي فأخذ عنه فكرة تصوير العقل على هيئة شيخ تبدو عليه نضارة الشباب ، وفكرة التعريف بآييه الذي هو العقل الكلي ، وفكرة الاستجابة والقبول لنصيحته ، ومع أن نص سنائي أغنى من قصة ابن سينا من حيث قوة الخيال وجرأته وتعدد الصور والرموز إلا أن ابن سينا هو صاحب التشبيهات التي تجسم مختلف

القوى في حيوانات ضاربة وصاحب الأفكار الفلسفية الرئيسية التي لم يقتصر تأثيرها على سنائي بل تعداه إلى عامة المتصوفة (١) .

أما علاقة سنائي بدانتي فهي فرض طرحه عام ١٩٤٣ م المستشرق الإنجليزي « نيكلسون » في بحث بعنوان « رائد فارسي لدانتي » (٢) وعقد فيه صلة موضوعية بين منظومة « سير العباد إلى المعاد » والكوميديا الإلهية ، وتلقف باحث مصري حاد هذه الإشارة وتمكن بتعمقه في أدب سنائي الصوفي أن يقيم موازنات تفصيلية بين الأثرين ، مع اقتناعه بأن هذه المشابهة في الجزئيات تعود إلى وجود المصدر المشترك بينهما بمعناه الواسع ، ويتمثل هذه المرة في التراث الأرسطي الإسلامي بوجه عام ، مبتدئاً بالإغريق ، وماراً بابن سينا وابن رشد وتوماس الإكويني ، مستفيداً من الأفلاطونية المحدثة ومن قصص المعراج معا ، ويمكن لإجمال أهم نتائج هذه المقارنة الموضوعية فيما يلي :

— الاتفاق في الخطة العامة للرحلة ، فهي تبدأ في سير العباد بعالم العناصر الذي يشبه الجحيم في الكوميديا من حيث كونه أصلاً للذائل ، كما أن جحيم سير العباد هو في الوقت ذاته بمثابة المطهر لبطل الرحلة ، وعالم الأفلاك في سير العباد يمثل الأعراف في التصور الإسلامي حيث يصف فيه الشاعر نماذج من البشر الخاطئين ، ويمثل مرحلة وسيطة بين عالم الكون والفساد من ناحية وعالم الملكوت الذي يقابل فردوس دانتي ويقتصر مثله على النعيم الروحي بما يحفل به من أنوار وجلال من ناحية أخرى .

— فكرة التطهر — وهي موضوع الرحلة الثانية في ملحمة دانتي — تلتقي

(١) انظر : المصدر السابق للدكتور رجا جبر ص ٥٥ ومايليها .

(٢) انظر : Nicholson. R.A. "A Persian Forerunner of Dante" Journal of The Bombay branch of the royal Asirtic Society. سنة ١٩٤٣ مجلد ١٩ .

إذن مع ما رأيناه في سير العباد ، فحارس المطهر يرسم على جبهة دانتي سبع خاءات رمزاً للخطايا السبع ؛ وتمحى بصعود جبل المطهر بالتدرج ، وهذه بعينها فكرة الانتقال عبر العناصر عند سنائي حيث كان ينظر الرجل تدريجياً بانتقاله من عنصر إلى آخر مع اختلاف طرق التعبير بطبيعة الحال . ولئن كان دانتي في الجحيم يتأمل الشخصيات التي عايشها ويستمد صورها من التاريخ القديم والمعاصر له فإنه في المطهر والفردوس يعيش تجربة التطهر ذاتها كبطل سير العباد ، فإذا تحول في بداية الفردوس من مقام البشر إلى مقام إلهي عجز عن التعبير عنه فإن نظير هذا إما حدث عند سنائي حينما تحول بطل رحلته في بداية مرحلة الأفلاك من الزمان إلى الأبدية وأصبح ممنوعاً عن الموت والفناء ، ثم لم يلبث قرب نهاية الرحلة أن صار هو الشيخ نفسه واستغنى عن المرشد والدليل .

— ولقاء دانتي بفرجيل يشبه لقاء الرجل بالشيخ المرشد عند سنائي ، ففي كل من الموقفين توجد الظلمة والحيرة والخوف من الطريق والوحوش وعبارات التشجيع المتكررة التي ترد على لسان فرجيل إذ يبحث دانتي على مواصلة السير ويدخل الطمأنينة إلى قلبه لا تختلف عن مثلتها في سير العباد .

— وصور المعذبين من السحرة والعرافين الذين انتوت رؤوسهم بينما أخذوا يسرون إلى وراء عند دانتي تشبه صورة البخلاء عند سنائي كما تشبه نظائرها المشتركة في المراج كما سيأتي ، والكسالى عند سنائي يحدقون في الماء ببلاهة وبلاوعي وهم في جحيم دانتي يتهدون تحت الماء ويملاونه بالفقايع عند السطح ، وعند سنائي في إقليم النار هناك «سحرة ثملة من الجحيم والقطران وبأيديهم حرا ب وسيوف فارية» وعند دانتي توجد شياطين مسودة الوجه تتسلح بخطاطيف تمنع بها الآثمين من الطفوف فوق سطح القطران المغلي كما سنشير فيما بعد .

وبالرغم من هذه الملامح المشتركة بين سير العباد المكتوب في بداية القرن الثاني عشر والكوميديا الإلهية المكتوبة في بداية القرن الرابع عشر فإن الدارسين يردون تفسيرها الوافي إلى وجود المصلح المشترك بين الأثنين وهو التراث الفلسفي والديني الإسلامي بالإضافة إلى تشابه الروح الشعري وتلاقى الفكر بين الأدبيين العظمين وتجلي قدرتهما في الاستخدام الرمزي للصور والأخيلة ،

التحليل المقارن لأجزاء الكوميديا الالهية

النار الإسلامية في جحيم دانتي

- تصور الأعراف ،
- البناء الهندسي للجحيم ،
- على باب النار ،
- من مشاهد العذاب ،
- إبليس وعذاب الزمهرير ،

تصور الأعراف :

كان أول مكان يزوره دانتي في العالم الآخر هو الذي يطلق عليه « الليمبو » أى الأعراف ، وهى منطقة تقع فوق الجحيم مباشرة ، أى أنها البهو الذى يقضى إليه . وهى تنقسم إلى شطرين : أولهما ما يلي الجحيم ، وتسكنه أرواح الأطفال ومن ماتوا دون أن يعملوا خيرا أو شرا ، أى الذين عاشوا - على حد تعبير دانتي نفسه - دون خزي أو ثناء . وهم مختلطون بتلك الزمرة الطالحة من الملائكة الذين لم يكونوا ثائرين ولا مخلصين لله عند عصيان إبليس (١) .

أما الشطر الثانى فهو يتكون من سهل عميق تحف به الأشجار كأنه غابة محاطة سبع مرات بأسوار عالية ومحمية من حولها بجدول جميل ؛ بها سبعة أبواب تفتح على مرعى ذى خضرة نضرة ، وفيها تسكن أرواح من ماتوا على الفطرة قبل الأديان . وأرواح الحكماء والفلاسفة والأبطال ممن لم يعتنقوا المسيحية عند دانتي بالرغم من نبلهم وحكمهم . وذلك مثل فلاسفة وأبطال اليونان والرومان وبعض عظماء الإسلام مثل ابن سينا وابن رشد وصالح الدين ، ولا يعانى جميع هؤلاء من العذاب سوى الحرمان من الجنة ، دون أن يمسهم شئ من الجحيم ، فألمهم الأكبر هو أنهم يعيشون معلقين فى شوق لا يحدوه أمل .

ولما كان الفكر المسيحى وثقاليدته يخلوان تماما من مرتبة الأعراف هذه ، حتى إن اسمها نفسه لم يوجد إلا فى عصر دانتي ، ويخلوان من أية إشارة محددة لموقعها وشكلها ، فإن مصدر دانتي الوحيد فى تصورهما يصبح هو الثقافة الإسلامية التى أفاضت فى الحديث عن الأعراف ابتداء من

(١) انظر : الجحيم لدانتي ؛ ترجمة الدكتور حسن عثمان ، دار المعارف ، النشيد الثالث ،

القرآن الكريم . وطبقاً للتحليل اللغوي نجد أن الأعراف قبل الإسلام كان معناها الحجاب أو حافة الشيء أو عرف الديك ، وحصصها القرآن الكريم لهذا المكان المتميز من الدار الآخرة . كذلك نجد أن كلمة « لمبوس Limbus » في الاستخدام الكلاسيكي تعنى الحافة أو الشاطئ ، ولم تستخدم للدلالة على هذه المرتبة في الدار الآخرة إلا في القرن الثالث عشر ، خاصة عند دانتي في الكوميديا الإلهية (١) . وقد تفتنت كتب الثقافة الإسلامية في رسم صورة شائقة للأعراف ، فهو حينما سور له باب بين الجنة والنار ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . أو واد عميق خلف جبل مرتفع تجري فيه الأنهار وتنبث منه الأشجار الباسقة ، له عرف كعرف الديك . كما أن له سبعة أبواب في روايات أخرى تفصله عن الجنة ، أما أصحاب الأعراف في الإسلام فهم قوم استوت حسناتهم بسيئاتهم بحيث تجاوزت بهم الأولى عن النار وقصرت بهم الأخرى عن الجنة ، أو هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لأبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة ، أو هم قوم صالحون فقهاء علماء لكن فيهم عجب وكبرياء فعدا بهم عن إدراك مراتب الصالحين . كما أن منهم الأطفال ومؤمنو الجن وبعض الملائكة من الذين لا ثواب لهم ولا عقاب عليهم ، والعذاب الوحيد الذي يعانيه سكان الأعراف هو شوقهم إلى الجنة وحرمانهم منها ، إذ لم يدخلوها وهم يطعمون (٢) . وكل هذه العناصر تتطابق مع ما رأيناه عند دانتي ، مما لا يفسره إلا احتمال واحد هو استقاء الشاعر الإيطالي من معين الثقافة الإسلامية .

(١) انظر : Asin Palacios, Miguel. "La Escatologia Musulmana en la Divina Comedia,, Madrid 1951. P. 126.

(٢) انظر : مختصر تذكرة الإمام القرطبي للإمام عبد الوهاب الشعراني. طبع صبيح بالقاهرة عام ١٩٦٨ . ص ٩٢ وما بعدها .

البناء الهندسي للجحيم :

يجمع الباحثون على أن كل أوصاف الجحيم الواردة في العهد القديم والأدب الكلاسيكي وفي العصور الوسطى الأولى - أى السابقة على دانتي - كانت أوصافا بسيطة مهمة لالون لها، ولا تشبه بحال تلك الصور الغنية المجسمة التشكيلية الواضحة التي رسمها دانتي للجحيم ، حتى إن بعض هؤلاء الدارسين قد أخذ على عاتقه مهمة استقصاء مظاهر فقر هذا التراث الغربي في فترة أطلقوا عليها - خاصة « فوسلير Vossler » ما قبل تاريخ الكوميديا الإلهية . وذلك لشرح أصالة دانتي في ابتكاره لصور الجحيم . بيد أنه عندما اكتشف تأثير الثقافة الإسلامية فيه أدرك الباحثون أنها هي المصدر الحقيقي الذي نهل منه دانتي كثيرا من أوصافه، دون أن يظعن ذلك بالطبع في مدى أصالته أو يقلل بأي شكل من قيمته .

ولنبدا بالتصميم المعماري للجحيم ، فإذا كان القرآن الكريم لم يحدد موقع وشكل الجحيم فإن عناصر السنة والتراث قد تكفلت بذلك ، فهي تضع الجحيم - مثل دانتي - تحت القشرة الأرضية ، وهو عبارة عن هوة سوداء مظلمة في باطن الأرض تصل من العمق في بعض الروايات إلى درجة أنك لو ألقيت فيها بحجر لم يصل إلى القاع إلا بعد سبعين عاما . ومدخل الجحيم في الروايات الإسلامية التي تتعرض لتحديده يقع في القدس ، مثله في ذلك مثل ما نجد في الكوميديا الإلهية ، بل هو على وجه الدقة خلف الجدار الشرقي لمعبد سليمان . كما يقوم خط عمودي من القدس يفضى إلى أعلى حيث الجنة ، في لون من وحدة التصور المعماري للعالم الآخر في كل من الروايات الإسلامية والكوميديا الإلهية، ثم تنحدر طبقات الجحيم في أعماق الأرض وهي التي يعبر عنها في النصوص الإسلامية بأبواب الجحيم ، والمقصود بها - كما جاء شرح ذلك في بعض الروايات - أنها أدرك ودرجات بعضها فوق بعض، فقد روى عن الإمام علي بن أبي طالب

أنه سأل أصحابه : كيف أبواب جهنم ؟ فقالوا : هي مثل أبوابنا هذه يا أمير المؤمنين ، فقال لا . هي هكذا بعضها فوق بعض (١) .

ولعل أكبر مؤلف إسلامي حاول أن يرسم بدقة التخطيط التفصيلي للجحيم طبقاً للتصور الصوفي هو ابن عربي ، حيث يقدم لنا هذا التصور على أساس أنه هوة سحيقة مكونة من سبع درجات دائرية هي : سجين والحطمة واللاظي وسقر والسعير والجحيم وجهنم . ولكل درجة نوع خاص من المذنبين تبعاً للجرم الذي اقترفوه وللعضو البدني الذي استخدم في ارتكابه ، وهي على الترتيب البصر والسمع واللسان واليدان والبطن والفرج والقدمان . ومعنى هذا أن تقسيم النار إلى درجات يقوم على معيار خلقى يشبه نظيره عند دانتي في الكوميديا الإلهية ولا يعتمد على أساس عقائدي صرف . بل نجد ابن عربي يمزج المعيار الخلقي بالعقائد عند ما يقسم كل درجة إلى دركات ومنازل وخوفاط طبقات لعقائد المذنبين . وعلى هذا فإن كل درجة تنقسم إلى شطرين : الأول خاص بمقتدر في الذنوب الحسية التي تمارس بعضو بدني معين ، والثاني خاص بمرتكبي الذنوب الباطنية وهي الشرك والكفر والكذب والنفاق . وقد بلغ هذا التقسيم من الوضوح والدقة عند ابن عربي إلى الحد الذي حوله فيه إلى رسم هناسي في مجموعة من الدوائر المتداخلة (٢) .

وعندما أخذ شراح دانتي في مطالع هذا القرن في توضيح مراتب الجحيم عنده برسوم هندسية كانت المفاجأة كبيرة عندما تبين التطابق الشديد بينه وبين ابن عربي ، مع فارق واحد وهو أن درجات الجحيم عند الشاعر الإيطالي عشرة ، بينما هي سبع درجات في التراث الإسلامي ، إلا أنها دوائر

(١) انظر : نفس المصدر السابق . ص ١١٢ .

(٢) انظر : الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي . طبع دار صادر بيروت - المجلد

الثالث . ص ٤٢٦ .

متداخلة بنفس الطريقة التي تضيق بها كل دائرة عما تسبقها وتعمق عنها ، كما أن نظام « الإسكان » في هذه الدوائر يشبه إلى حد كبير ما وجدناه عند ابن عربي من قبل .

فالقدر المشترك إذن بين دانتى والتراث الإسلامى فى التصور المعمارى للجحيم هو أنه تحت سطح الأرض توجد هاوية ضخمة على شكل قمع حافته إلى أعلى ، وهو عبارة عن طبقات أو درجات مستديرة كل منها خاص بعقوبة ذنب أو مهياة لرتبة من مراتب المعذبين ، وكلما هبطنا إلى أسفل وجدنا من ثقلت ذنوبهم واشتدت عقوبتهم ، وتنقسم هذه الطوابق إلى أقسام فرعية طبقا لمراتب الذنوب الأخلاقية . وقد كان بوسع دانتى أن يعدد من الطوابق ما شاء دون أن يحصرها فى رقم صغير تتفرع منه أقسام ثانوية ، لكنه فضل متابعة النموذج الإسلامى الذى يقسم الجحيم إلى طبقات عامة تحتوى على تقسيمات أخرى فرعية تخدم الهدف الأخلاقى ، وهذا ما سماه شراح دانتى بالبناء الأخلاقى للجحيم ، وهو مستقى كما نرى من الروايات الإسلامية .

وقد قامت فى سبيل القبط الجازم بالتأثير الإسلامى فى دانتى فى هذا الصدد عند بداية القول بذلك عقبة صغيرة ، وهى أن بعض قصص المعراج الشائعة تضع الجحيم فى السماء الثالثة بينما تضعه الكوميديا الإلهية تحت الأرض ، لكن إذا أخذنا فى الاعتبار أن بعض قصص المعراج الأخرى تضع الجحيم تحت الأرض مثل قوله : « فانطلق بى حتى أتى إلى مالك خازن النار ، فقال : يا مالك ، ربك يأمرك أن ترى محمداً صلى الله عليه وسلم ما أعد لأعدائه . قال انتظر يا محمد قلت نعم ، ففتح الباب فاذا أنا أنظر إلى واد تحت بيت المقدس يقال له وادى جهنم وإذا فيه من العذاب الشديد ما يذهب العقول .. الخ » ، (١) وإذا أضفنا إلى ذلك أن قصة « معراج محمد »

(١) انظر : مخطوطة مجهولة المؤلف لقصة الإسراء والمعراج بدار الكتب المصرية فى

مجموعة تحت رقم ١٩٩٣ . ١٤٤٠ .

المترجمة ، وهى منبع التأثير المباشر - تضع الجحيم فى نفس موقع جحيم دانتي (١) أدركنا أن الصعوبة وهمية لقيمة لها ، فعندما يصف الأرضين السبع - وكلها عند الجحيم - يقول إنه تحت الأرض الأولى توجد أرض أخرى كلها من نار وسكانها وبحارها وأسماكها من نار كذلك . وعندما تأخذ هذه القصة أيضاً فى الوصف التفصيلي للجحيم فى الفصل الواحد والسبعين فإنها تضعه فى قلب الأرض أو الأرضين السبعة وكلها تقع تحت أرضنا البشرية ، وسابع أرض هى مقام إبليس . وهكذا ينطبق التخطيط الطوبوغرافى للجحيم عند دانتي على نظيره وأقرب ما يرتبط به من التراث الإسلامى ، لافى أسسه العامة فحسب ، وإنما فى تقسيماته المفصلة التى تجعل لكل نوع من الذنوب درجة من العذاب . وحتى فى أسماء طبقات الجحيم أو أبوابه نجد تطابقاً شديداً بين ماورد فى قصة «معراج محمد» مع نموذج دانتي ، إذ تقوم هناك سلسلة من العناصر الطبيعية من جبال وأنهار وآبار وبحور ووديان وقلاع مما كان يعبره دانتي فى مسيرته عبر درجات جهنم . ولم يسبق لأى ثقافة معروفة أن قدمت نموذجاً مكتملاً غنياً له مثلما قدمت الثقافة الإسلامية . فلدانتي يطلق أسماء محددة على قلاع الجحيم مثل مدينة « ديتى » ومنطقة « ما ليو بلجى » ذات الحفر العشرة الحزينة ومنطقة « قابيل » وكل منها يتميز إما بحجب سحيق أو واد أليم أو غابة مليئة بشجر الزقوم بنفس الطريقة التى وصفت بها جهنم فى التراث الإسلامى إذ أخذت أسماء محددة مثل حطمة وسعير وسقرو مسجين والهاوية وامتلات كل واحدة منها بأنواع خاصة من المذنبين وأهل النار ، مما يؤكد العلاقة الداخلية بين هذه التصورات بطريقة موضوعية لا تدع مجالاً لنسبتها إلى مجرد التوافق والصدفة .

(١) انظر : عرض قصة معراج محمد فى آخر الكتاب ؛ الفصلين ٥٤ و ٦١ .

على باب النار :

جاء في بعض روايات التراث الإسلامى للمعراج أن عفریتا من الجن اعترض طريق الرسول عليه السلام بينما كان فى طريقه إلى زيارة النار ، وكان العفریت ممسكا بعصا غليظة مشتعلة ، وسد السبيل أمام الرسول محاولا الهجوم عليه ومطاردته ، ولكن جبریل يطمئن الرسول ويعلمه صلاة إذا تلاها أطفأت نار العصا وأحبطت خطر العفریت ، فتقال الدعوات ويخفى العفریت بعد أن تطفأ شعلته ويخر لفيه (١) وكذلك بينما كان دانتى يمضى إلى الوادى الخامس من الجحيم مع فرجیل اعترض طريقهما شيطان أسود وحشى الحركات ، وتقدم نحو دانتى يسعى سعياً حثيثاً وعلى كاهله خطاطيف مدببة وبصحبته مجموعة أخرى من الشياطين لمطاردة الشاعرين ، ولكن فرجیل يطمئن دانتى ويلتفت نحو رئيس الشياطين تالياً بعض الكلمات الآمرة التى سرعان ما تكسر غلواء الشيطان ، إذ يفهمه أنه قد أتى بأرادة السماء ليقود دانتى فى هذه الرحلة « وعندئذ كفكف من غلوائه وترك الخطاطيف تسقط إلى قدميه » (٢) .

ومن ناحية أخرى إذا قارنا لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم بخازن النار وحارسها بالمشاهد النظرية عند دانتى وجدنا الشبه واضحاً بينهما : فالرسول يلقي « ملكاً عظيم الخلق قد خلق من نار جالساً على كرسى من نار وهو يقطع حبالا من نار . . فقلت . يا جبریل . من هذا ، قال . مالك خازن النار أدن منه وسلم عليه ، فدنوت منه وسلمت عليه فأم أر فى الملائكة أعظم منه خلقه كالح الوجه شديد البطش ظاهر الغضب لو أشرف على أهل الدنيا لما توا . . فجزعت منه لقلّة تبسمه ، قال جبریل : لا خوف عليك ، هذا الملك خلق من غضب الجبار منذ خلقه الله تعالى ما ضحك وما تبسم ،

(١) انظر : قصة الإسراء والمعراج للعلامة نجم الدين الغزالي ، مكتبة الجندی بالقاهرة عام

١٩٧٠ . ص ٣٣ .

(٢) انظر : الجحيم ، ترجمة الدكتور حسن عثمان ، النشد الحادى والعشرين ، أبيات

١٠٥/٢٣/٢٢

يزداد غضبه في كل يوم على من ليس في قلبه رحمة ، ينتقم من العصاة
والجبارين وأهل الكباير . فقلت يا مالك : اكشف عن أطباق جهنم لأنظر
إليها ، فقال : لاتستطيع النظر إليها ، وإذا النداء : يا مالك لاتخالف له
أمراً ، فعند ذلك فتح له باب جهنم مقدار خرم الإبرة فخرج منها وهج
ودخان لودام ساعة لأظلمت السماوات والأرض .. (١) وكذلك نرى في
الكوميديا الإلهية أن الحارس « مينوس » المكفهر ينكر على دانتى رغبته
في ولوج النار وزيارة وديان الجحيم ، وتتطابق أوصافه مع مالك في هذه
الرواية العربية ، فهو متقد مثل الحمرة ، ورفضه جاف وغاضب على من
يريد رؤية زبائنه ، والأمير الحاسم الذي يصدر إليه من أعلى فيحطم
مقاومته العنيدة هو الذي ينهى الموقف . والنموذج الآخر للمالك عند دانتى
هو الملاح « كارون » الذي يقف فوق المستنقع المكفهر وحول عينيه حلقات
من لهب ويقول له ولفرجيل ، لن أقود كما إلى الضفة الأخرى في الظلمات
الأبدية عند النيران والجليد ، ولن تعبوا إلى الجحيم ، فيرد عليه فرجيل
بحسم ناقلاً إليه الأمر الإلهي : « لا تغضبين يا كارون ، هكذا أريد هنالك
حيث يجب أن يفعل ما يراد ، ولا تسلى على ذلك مزيداً ، فينطفئ غضبه
ولا يملك إلا أن يمتثل (٢) .

ويتكرر هذا المشهد المزدوج عند دانتى في أماكن عديدة ، وكأنه
مفتون بالنموذج الإسلامي فلا يفتأ يكرره في زيارته الأخرى لطبقات الجحيم
فمثلاً عند دخوله الحلقةابعة نجد أن « بلوتون » الحارس هو المكلف
بأداء نفس الدور الذي قام به كل من مينوس وكارون من قبل ، فهو يزجر
دانتى بصوته الأجاج ، ولكن فرجيل يهدىء روعه ويقول له :

(١) انظر : حديث الإسراء والمعراج لابن عباس . نشر مكتبة الجمهورية بالأزهر .

(٢) انظر : الجحيم ، الترجمة المشار إليها ، النشيد الثالث ، الأبيات من ٨٢ - ١٠٠ .

لا يؤذيك خوفك ، فمهما يكن له من قوة فلن يمنعك من هبوط هذه الصخرة .

ثم يتجه إلى ذلك الوجه المنتفخ ويقول له :

للك الويل بما يكتنه صدرك من غضب .

إن ذهابنا إلى الأعماق ليس دون سبب ، هكذا أريد في العلياء (١) وفي الدائرة الخامسة نجد « فيلجياس » أولاً ثم الزبانية الذين يحمون أبواب مدينة « ديتى » ثانياً يكررون نفس المشهد ويخضعون لنفس الأمر . وفي مشهد آخر نجد أن ملاكا من السماء هو الذى ينقل الأمر الإلهى ويتولى تنفيذه بأن يفتح الباب بضربة من صولجانه .

وعندما يضع دانتى قدميه في الدائرة الأولى من الجحيم يهتز السهل المظلم ببركان عنيف وتبعث النار ريحا عاتية تبرق بضوء قرمزى اللون يذكرنا على التو بما ينبعث من ثقب الإبرة من وهج ودخان في رواية ابن عباس التى ذكرنا طرفا منها آنفا ، لكننا لا نكاد نمضى إلى الطبقة الأولى من الجحيم ، طبقا لرواية « معراج محمد » حتى نجد طبقة أهل الكباثر ، حيث نرى سبعين بحرا من نار ، وعلى شاطئ كل بحر مدينة من نار ، في كل مدينة سبعون ألف بيت من نار في كل بيت سبعون ألف صندوق من نار ، وقد حبس الرجال والنساء في تلك الصناديق مع الحيات التى تنهمهم والعقارب التى تلدغهم وهم فيها يستصرخون . ولا نتوقع بطبيعة الحال أن نرى نفس الصورة في جحيم دانتى . ولكننا نلاحظ أنه عندما يصل إلى شواطئ بحيرة « استيجيا » يرى فرجيل أسوار المدينة الجهنمية التى يحكمها « بلوتون » والتى ترتفع شاهقة ، فيميز دانتى بوضوح أبراجها التى تبدو كأنها مآذن وهى تشرئب من أعماق الوادى ، لونها أشقر داكن شديد التوهج كأنها خارجة لتوها من

(١) نفس المصدر السابق ، النشيد السابع ، الأبيات من ١-١٠ .

النار . فالنار الأبدية التي تستعر بداخلها تصيغ المدينة بلونها الأحمر ، فهي إذن مدينة من نار مثل التي رأيناها في الرواية العربية . وداخل جدرانها يلاحظ كل من فرجيل ودانتى أن المدينة كلها كما لو كانت مقبرة رهيبة أهله بآلاف التوابيت التي تشبه الصناديق ، وأغطيها مرفوعة وتنبعث منها ألسنة اللهب والصرخات القاسية ممن يتعذبون فيها (١) .

وهناك تفصيل صغير عن خطوات سكان الجحيم وكيف أنها تمضى دائما نحو الشمال . وقد جهد شراح دانتى في إضفاء المعاني المجازية والرمزية على هذه الجزئية ، وفاتهم أن التراث الإسلامى هو الذى أوحى لدانتى بها ، فأهل النار هم أهل الميسرة والمشامة في النصوص الإسلامية ، وكان ابن عربى يقول بأن أهل النار ليس لهم يمين ، كما أن أهل الجنة ليس لهم يسار ، ويعتمد الصوفى المسلم في ذلك على نص قرآنى هو قوله تعالى : « نورهم يسعئ بين أيديهم وبأيمانهم » لأن السعئ مشئ ، وإنما قال « بأيمانهم » على حد تفسير ابن عربى لأن المؤمن في الآخرة لا شمال له ، كما أن أهل النار لا يمين لهم (٢) .

(١) انظر : نفس المصدر السابق ، النشيد التاسع ، الأبيات ١١٥ - ١٣٠ .

(٢) انظر : الفتوحات المكية لابن عربى ، الجزء الأول ، صفحة ٤١٢ ، وكتاب « أسين بالاثيوس » صفحة ١٤٩ . والآية رقم ٨ من سورة التحريم .

من مشاهد العذاب :

يلتقى دانتي في الدائرة الأولى من الجحيم بمرتكبي خطايا الجسد وهم يتعرضون للعاصفة الجهنمية التي لا تهدأ أبداً ، والتي لا تكف عن الدوران بهوائها الأسود ، ونفس هذه العاصفة السوداء هي التي نجدها في التراث الإسلامي ، وهي امتداد للريح المشتوم الذي أهلك الله به قوم عاد عندما كذبوا نبيهم هود. وإذا قارنا بعض التفاصيل الدقيقة في المصادر الإسلامية عن هذه الريح استطعنا أن نلمس وجوه الشبه القوية بينها وبين ما ورد عند دانتي ، من ذلك ما جاء في قصص الأنبياء وقارنه الباحثون بعبارات من دانتي على الوجه التالي :

من الجحيم لدانتي

من قصص الأنبياء

- | | |
|--|---|
| فهب العاصفة الجهنمية بهوائها الأسود | ١ - فساق الله السحابة السوداء التي اختارها |
| ريح متقدة بالنار | ٢ - رأيت ريحا فيها كشهب النار |
| ريح مضنية أليمة | ٣ - ربح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء |
| هواء خبيث | ٤ - الريح العقيم |
| ترهقهم وهي تدور بهم | ٥ - فتحملهم وتدفعهم حتى هلكوا |
| تقودهم في الفضاء بعنف لا يهدأ | ٦ - وتطير بهم الريح بين السماء والأرض |
| تقودهم هنا وهناك إلى أسفل وإلى أعلا لا يحدوهم الأمل في | ٧ - فجعلت الريح تدخل تحت الراحد منهم فتحمله ثم ترمي |

به فيندق عتقه (١) الراحة (٢)

لكننا إذا اكتفينا بما ورد في قصة «معراج محمد» المترجمة وجدنا في الفصلين الرابع والخمسين والثالث والستين وصفاً تفصيلياً للريح العقيم القاسى العنيف وتشبيهه بالمرأة التى لاتلد، وهو ينطلق تحت الأرض البشرية يعذب به الله المذنبين فى الجحيم، أى فى نفس المكان الذى يقابل الدائرة الأولى عند دانتي، مما يكفى فى حقيقة الأمر لشرح مصادر دانتي الإسلامية فى هذا المشهد، ويفنى عن اللجوء إلى القصص القديم ومقارنة الصور الجزئية التى كان يقوم بها «أسين بالاثيوس» لربط دانتي بالتراث الإسلامى قبل اكتشاف المخطوطة المترجمة.

وفى الدائرة الثالثة من الجحيم يرى دانتي صنوف العذاب التى يسامها المتكبرون واللوطيون، وهى تشبه إلى حد بعيد نظيرها فى التراث الإسلامى فهم يسرون بلا توقف بطريقة دائرية بينما تهطل عليهم أمطار النار فى ندف كبيرة وتساقط بطيء كما يتساقط الثلج على المرتفعات دون رياح (٣). وهكذا يسقط عليهم الوهج الأبدى الذى أشعل الرمل وهم عراة يرفعون أيديهم البائسة كى تبعد النار عن جسامهم دون جدوى، ويكتشف دانتي متعجباً أن أحد هؤلاء المعذبين هو صديقه وأستاذه «برونيتى لاتينى» وقد أنضجت وجهه النار، فبأخذ فى الحديث إليه وهو يمشى معه فى مسيرته الدائرية، ويتذكر دانتي ما لأستاذه عليه من جميل النصيح والتوجيه بينما

(١) انظر: كتاب قصص الأنبياء المسمى بالعرائس لابن إسحق الثعلبى، طبع مكتبة ابن شقرن بالقاهرة، بدون تاريخ. ص ٣٨.

(٢) انظر: الجحيم، النشيد الخامس، أبيات متفرقة، وكتاب «أسين بالاثيوس» ص ١٥١.

(٣) انظر: الجحيم لدانتي، الترجمة المذكورة من قبل، نشيد ١٤، أبيات ٢٨-٢٩ وما بعدها.

يراه مع ثلة من القساوسة والأدباء وذوى الشهرة يلهثون فى سعيهم تحت
وابلى الجحيم جزاء ما اقترفوه من لأثم .

وإذا عدنا إلى التراث الإسلامى وجدنا نظير هذا العذاب ، خاصة فى
أقوال المفسرين عند شرحهم للآية الكريمة « يرسل عليكم شواظ من نار
ونحاس فلا تنتصران » (١) ومناقشاتهم لهذه النار الماطرة هل تكون بدخان
أم لا ، ثم فيما ورد من أحاديث عن عذاب العلماء الذين لا يعملون بعلمهم
وكيف أنهم يدورون فى النار ما لهم راحة ولا فترة ، فإذا لقى أحدهم ممن
تتلمذ عليهم وسألهم كيف يعانون من هذا العذاب وقد نجوا هم بفضل تعليمهم
ردوا عليهم بأنهم كانوا لا يعملون بعلمهم ، أو كما ورد فى البخارى من
حديث « يجاء بالرجل يوم القيامة فيطرح فى النار فيدور فيها كما يدور
الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون : أى فلان ، أأنت كنت
تأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فيقول كنت أمر بالمعروف ولا آتية وأنهى
عن المنكر وآتية (٢) » ثم يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به مافي بطونهم
والجلود ، بنفس الطريقة التى وجدناها عند دانتى فى هذه الدائرة . وإذا
راجعنا قصة « معراج محمد » المترجمة وجدنا أن عذاب اللوطيين فيها يتمثل
أيضا فى انهمار أمطار من نار على جسامهم تحيلها إلى تراب ثم يعاد خلقها
من جديد لتصل دائما سوء العذاب ، أو يتمثل فى حجارة كبريتية ضخمة
يلقى عليها طير أسود يشبه الطير الأبايل الذى قذف قوم لوط بحجارة
من سجيل ، فتلتقى فى عذابهم صور شديدة القرب من التى رأيناها عند
دانتى فى هذه الدائرة الثالثة .

وهكذا كلما تابعنا مشاهد العذاب فى الجحيم وجدنا تطابقا واضحا
فى الأوصاف التفصيلية وترفنا على مزيد من وجوه استفادة الشاعر الإيطالى

(١) سورة الرحمن ، آية رقم ٣٥ .

(٢) انظر : مختصر تذكرة القرطبي للامام الشعرائى ، ص ١٢٣ .

بالتراث الإسلامى ، فنقرأ مثلاً من قصة المعراج هذا المشهد : « ثم نظرت فرأيت أقواما مشافريهم كشافري الكلاب والإبل ، والزبانية تجمعهم بمقامع من حديد متوهج ، وتدخل الحيات من أفواههم فتقطع أحشاءهم وتخرج من أدبارهم ، فقلت : من هؤلاء ؟ ، قال : الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً ، ثم نظرت وإذا يقوم بطونهم كأمثال الجبال تضطرم بالحيات والعقارب ، كلما هم أحدهم أن يقوم سقط على وجهه من عظم بطنه ، قلت : من هؤلاء ؟ : قال : هم أكلة الربا في الدنيا » .

تلك الصور وغيرها نراها في جحيم دانتي عندما يصف عذاب الجشعين والصوص في طبقات متعددة من الجحيم ، مثل قوله :
يطلق المطر عوامهم كالكلاب ذوى المشافر المتوحشة ، وقد احمرت عيونهم وتدلّت بطونهم الكبيرة .

ورأيت هناك حشداً من الأفاعى العجيبة الأنواع حتى ليهرب دمي لذكرها . وعلى الكتفين وخلف الرأس من هذا اللص استلقى تنين مفتوح الجناحين يحرق كل من يلاقيه . ثم انهالت عليه هراوة هرقل بمئات الضربات (١)

ثم نقرأ أيضاً في الروايات الإسلامية هذا الوصف : « ثم نظرت فرأيت أقواما يستغيثون من العطش فنأتيتهم الزبانية بأقداح من نار ، فإذا تناوّلوا سقط لحم وجوههم من حرها ؛ فإذا شربوها قطعت أمعاءهم وخرجت من أدبارهم » (٢) .

فنجد أن هذا يعادل عذاب المزورين في الجحيم العاشر من الحلقة الثامنة عند دانتي حيث يقول :

(١) انظر : الجحيم ، ترجمة الدكتور حسن عثمان ، الأناشيد ٦ و ٢٤ و ٢٥ في مواضع متفرقة .

(٢) : رواية ابن عباس للأسراء والمعراج ، الطبعة المشار إليها ص ١٦ .

« ورأيت واحدا كان يبدى صورة الطنبور من الاستسقاء الثقيل الذى جعله يبقى شفتيه مفتوحتين كما يفعل المحموم عندما يدبر إحداهما إلى الذقن والأخرى إلى أعلى بفعل العطش .. وليكن عذابك فى عطش يشقق لسانك وماء كربه يجعل بطنك هكذا حجابا أمام عينيك .. فإذا قلت واأسفاه أشهى قطرة ماء فإن القنوات الباردة تجعلك تشعر بجفاف يفوق السقام الذى ينزع من وجهك اللحم (١) » .

ونمضى كذلك فى قراءة الرواية الإسلامية فنجد هذه الصورة :
« رأيت رجالا ونساء معلقين بالسنتهم بكلايب من نار ولهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم ، قلت : من هؤلاء؟ قال : الذين يشهدون الزور ويمشون بالنيمة ويقعون فى أعراض الناس » فتذكر تلك الصورة التى بدأ عليها بعض المحدثين فى النشيد التاسع والعشرين من جحيم دانتي وقد ترقش جسدكم بالقشور من الرأس إلى القدم ، وانها لوا على جلودهم بالأظفار ينزعون قشورها وجربها كما تفعل السكين بزعانف الأممك .

كذلك نرى من مشاهد العذاب فى الرواية الإسلامية هذه الصورة :
« ثم رأيت رجالا ونساء يعذبون فى النار ، قد قام عليهم زبانية بمقامع من حديد ، كلما استغاثوا يطعنونهم برماح من نار فى بطونهم ويضربونهم بسياط من لهب ، فلم أر أحدا من أهل الكباثر أشد عذابا منهم ، فقلت : من هؤلاء؟ قال : الذين عقوا والنسيم . ثم رأيت أقواما تدبجهم الزبانية بسكاكين من نار ، كلما ماتوا عادوا كما كانوا ، قلت : من هؤلاء؟ قال : الذين يقتلون النفس التى حرم الله ظلماً وعلواناً » فإذا ما تصفحنا وجوه العذاب فى جحيم دانتي قابلنا نظير هذه الصور ، خاصة فى الحب الخامس من الحلقة الثامنة حيث رأى الغارقين فى بركة من القطران المغلى ، كلما طفا المحدثون فيها إلى السطح ضربتهم الشياطين بمئات الخطاطيف الحديدية كى يغمسوا وجوههم وجسومهم وسط القطران الملتهب ، وفى الحب التاسع حيث رأى مبتورى الأعضاء بالسكاكين القاطعة ومجدوعى الأنف

(١) أنظر : الجحيم ، نفس المصدر ، النشيد ٣٠ ، أبيات متفرقة .

حتى أسفل الحاجبين ، ومن لم تكن له سوى أذن واحدة ، ومن فقئت عينه ، ومن قطع لسانه في حلقه ومن بترت يداه وهو يرفع ساعديه في الهواء المظلم حتى لوث الدم وجهه ، وأخيراً رأى جذعاً من غير رأس ، فأمسك الرأس المقطوع من الشعر فكلمته ، إذ بعثت فيها الحياة مرة أخرى لتذوق مزيداً من العذاب (١)

كما يبدو أن عذاب المنافقين عند دانتى في الوادى السادس من « المالبولجى » شديد الشبه بنظيره في التراث الإسلامى ، فهم قوم يعلوهم الطلاء ويدورون كثيراً بخطى بطيئة وهم يبكون ، ويدو على سيماهم الإعياء والوهن ، ويرتدون عباءات مذهبة من الخارج حتى لتخطف الأبصار ، لكن باطنها كله من رصاص شديد الثقل . ونفس هذه الصورة نجدها في التراث الإسلامى في مجال الحديث عن عذاب البخلاء وكيف أنهم يمضون يوم القيامة خافضى الرؤوس تحت ثقل كنوزهم التى ادخروها في الحياة .

وكذلك عند الحديث عن الكفار عموماً وكيف أنهم سيلبسون سراويل من قطران وتغشى وجوههم النار ، وفي قصة « معراج محمد » المترجمة نرى هذا اللون من العذاب على وجه التحديد في الفصلين الثامن والحمسين والسابع والسبعين حيث توصف الأحجار الكبريتية التى تربط في رقبة المذنب ويلقى معها في نار جهنم فتتقد به في شعلة واحدة تخطف بلهيبها الأبصار ولبس أحد عقارب جهنم المذنبين بسبعين جلد يبلغ سمك كل جلد سبعين ذراعاً وحشو ما بين كل جلد وآخر آلاف الحيات الصغيرة التى تعضه وتنهشه ، وهذا هو نفس العذاب الذى يصفه دانتى في الوادى السابع من « المالبولجى » حيث تطارد اللصوص أعداد رهبة من الزواحف المتوحشة تمسهم وتبت السم في أجسادهم حتى تتحلل ثم تماسك مرة أخرى ليدوقوا سوء العذاب . ومع أن أسين بالاثيوس قد ذهب يلتمس

(١) انظر : الجسيم ، الترجمة المشار إليها ، الأنشودة ٢٨ أبيات من ٢٢ - ٨٢ .

نظير هذا العذاب في ثنات متفرقة من عناصر التراث الإسلامى إلا أننا تجده مجتمعاً في نص قصة « معراج محمد » المترجمة .

وعندما وصل دانتى إلى بعض وديان الجحيم وجد أقواماً يمضون باكين صامتين قد التوت اعناقهم بين الذقن وأول الصدر ؟ إذ استدار وجههم للخلف وكان عليهم أن يسيروا إلى الوراء بعد أن امتنع عليهم النظر إلى الأمام وانقلبت أوضاعهم حتى بلل بكاء الأعين منهم قناة الردفين وأصبح كتفهم هو صدرهم فهم ينظرون إلى الوراء ويسرون إلى الخلف (١) . وقد أدهش هذا اللون من العذاب شراح دانتى فأشادوا بأصالته المطلقة وعام وجود أى نظير له من قبل ، دون أن يفتنوا إلى أنه تكرار لصورة قرآنية إسلامية في قوله تعالى « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها » (٢) إذ أنها كما ورد في تفسير الطبرى : أى نجعل وجوههم من قبل أفبتهم فيمشون القهقري ، ونجعل لأحدهم عينين في قفاه فيمشون على أعقابها وقد تحولت وجوههم إلى ظهورهم .

نقدم دانتى مع فرجيل قاصدين منطقة الحلقة أو الدائرة التاسعة ، فظن دانتى أنه رأى أبراجاً عالية ولكن رفيقه أوضح له أن ما رآه ليس أبراجاً بل هم جماعة من المردة حول شاطئ البئر أو الحب ، وتبين دانتى أجسامهم عند اقترابه منهم ، فرأى أحدهم - وكان ذا حجم ضخم - من الرأس إلى سرة البطن ، وهو نمرود ملك بابل الذى ورد ذكره في العهد القديم ، ثم رأى « إفيالتس » المارد الذى ثار على « جوبيتير » في الميثولوجيا اليونانية و « أنتيوس » الذى لم يثر على الآلهة ولذلك طلب منه فرجيل أن يحملهما إلى الدائرة التاسعة ، فحملهما المارد بيديه كأنه برج

(١) انظر الجيم ، الترجمة المشار إليها ، النشيد العشرون ، الأبيات ٧ - ٢٤

(٢) سورة النساء الآية ٧ .

كبير وهما حزمة صغيرة ، ثم وضعهما برفق في دائرة يهوذا وارتفع كسارية في سفينة (١) وقد تفنن دانتى في وصف هؤلاء المردة ، فبدأ له وجه أولهم وهو نمرود ضخماً طويلاً كقبة كنيسة القديس بطرس في روما ، وتناسب معه سائر عظامه حتى يبلغ الجزء الظاهر منه ثلاثين شبراً كبيراً ، ومعنى هذا أن قامة ذلك المارد تبلغ ٤٣ ذراعاً على الأقل طبقاً لتقدير الشراح (٢).

وبالرغم من أن شخصيات المردة هذه لها سوابقها في الثقافة الإغريقية والمسيحية لكنها لا تضعها في الجحيم ، ويظل التراث الإسلامى هو المصدر الوحيد الذى يضع هؤلاء المردة بأحجامهم الضخمة ورءوسهم الى تشبه القباب العظيمة وطولهم الذى يبلغ فى بعض الروايات إثنين وأربعين ذراعاً أيضاً فى الدرك الأسفل من النار ، وهو يصفهم بهذه الضخامة كما جاء فى تذكرة القرطبي مثلاً من «باب تعظيم جسم الكافر فى النار وكبر أعضائه بحسب أنواع كفره» أى لكى ينيح الفرصة كى يقع عليهم أكبر قدر من العذاب . ويخص منهم نمرود كنموذج للكبرياء الممقوتة والتسلط والجبروت ولذا يقرنه دائماً بإبليس ويجعلهما أشد الناس عذاباً فى الآخرة (٣).

(١) انظر : الجحيم من الترجمة المذكورة ، الشيد ٣١ ، أبيات متفرقة .

(٢) انظر : كتاب أسين بالاثيوس المشار إليه من قبل ص ١٦٣ .

(٣) انظر : نفس المصدر السابق ص ١٦٣ .

إبليس وعذاب الزمهرير :

صنف واحد من العذاب هو الذى سلط على سكان الدائرة التاسعة من الجحيم وهو العذاب بالبرد الشديد ، حيث رأى دانتى بحيرة كان لها من التجمد صورة الزجاج لا الماء ، وقد انغمس في ثلجها الملعبون حتى ازرقق ألوانهم وتجمد الدمع على خلدودهم من قسوة الزمهرير وتشوهت وجوههم من أثره فتساقطت آذان بعضهم وأصبح الآخرون في شكل الكلاب .

ومعروف أن العذاب بالبرد لا نظير له في التراث المسيحى مما حير شراح دانتى ، لكن عند تأمل التراث الإسلامى نجد أن القرآن الكريم يصف أولاً الجنة بأنها « لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً » (١) وبناء على ذلك فإن المفسرين قد ملأوا الجحيم بالنوعين من الحرور والزمهرير . ويرى الجاحظ في كتاب « الحيوان » أن الفرس نظراً لتقديسهم النار لم يتصوروا عذاب الآخرة إلا من البرد الشديد احتراماً للنار من ناحية واستجابة لطبيعتهم كسكان مناطق جبلية أشد ما يخيفها هو العواصف الثلجية من ناحية أخرى ، وأياً ما كان الأمر فسرعان ما وضعت الأحاديث التى توضح كيفية العذاب بالبرد مثلما ورد في التذكرة أن « بعض الصحابة سأل : وما زمهرير جهنم يا رسول الله ، قال : جب يلقى فيه الكافر فيتمزق من شدة برده بعضه من بعض » . ولم يكن دانتى بحاجة إلى أن يطلع على هذه المصادر الإسلامية كى ينقل فكرة العذاب بالزمهرير ، فقد سبقت إليه مكتملة في قصة معراج محمد ، في الفصل الستين عند الحديث عن الزمهرير الذى يعصف بمنزل إبليس في الجحيم ،

وكم كانت غريبة هيئة إبليس في الكوميديا الإلهية وقد استقر في الدرك الأسفل من النار باعتبارها امبراطور العالم الأليم ؛ وقد لقبه دانتى وقد خرج بنصف صدره من الثلج ونبتت في رأسه ثلاثة وجوه ومن تحت كل منها خرج جناحان كبيران ليست بذات أرياش ، بل في صورة جناحي الخفاش ،

وأخذ يحركهما حتى خفقت عنه ثلاثة أرياح ، وبكى بست أعين فتقاطر على أذقانه الثلاث الدمع والرغوة الدامية ، وفي كل فم من أفواه الثلاث أخذ يعض بأسنانه أحد الخونة الآثمين وهم « يهوذا وبروتس وكاسيوس » . ولكن أعجب ما في أمر إبليس هو أنه على ضخامته الهائلة لم يكن منتصب القامة بل كان مزروعاً رأساً على عقب بعد أن ألقى من السماء مطروداً من رحمة الله . واستطاع دانتى أن يتزلق من فوق شعيرات فخذ الغليظة كدرجات السلم حتى وصل مع هاديه إلى ثغرة من صخرة عبر كهف طبيعي ذى أرض وعرة يعوزها الضياء ، ومنها نفذا إلى مركز الأرض حتى وصلوا إلى النصف الثانى للكرة الأرضية حيث الضياء والسماء والنجوم (١) وبالرغم من اعتماد هذا الوصف على كثير من العناصر الكلاسيكية والمسيحية إلا أنه مفعم بالتفصيلات التى لم يجد الشراح لها مصدراً سوى عبقرية دانتى الشخصية .

ولا ينقص من هذه العبقرية فى شئ أن يلتمس الباحثون فى التراث الثقافى الإسلامى مصدراً لكثير منها . فعذاب إبليس بالثلج والزمهرير كما قلنا شائع فى هذا التراث ، فهو أولاً أشد الخلق عذاباً لأنه هو الذى سن الشرك ومعصية الله ، ثم إن الزمهرير هو الذى يقابل النار ، ولما كانت نشأة إبليس من النار فإن عذابه يصبح بالزمهرير الذى يناقض ما هو الغالب عليه فى أصل خلقه على حد تعبير ابن عربى فى فتوحاته . وصورة هبوط إبليس بهذا الشكل الغريب لها سوابقها أيضاً فى هذا التراث أيضاً حيث ورد فى بعض كتبه : « ثم بعث الله من تحت العرش ملائكة فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه ، إجمدى يديه فى المشرق والأخرى فى المغرب باسطين قابضين على قرار الأرضين حتى ضبطها ولم يكن لقدميه فى الهواء موضع قرار » (٢) أى أنه مقلوب أيضاً رأساً على عقب .

(١) انظر الجحيم - ترجمة الدكتور حسن حنّان - الأناشيد ٣٢-٣٣-٣٤

(٢) انظر : قصص الأنبياء المسى بالعراس للعلامة . ص ٢١

فاذا رجعنا إلى قصة « معراج محمد » التي يرجح اطلاع دانتي عليها وجدنا أن مقام إبليس في الأرض السابعة ، وهو هناك موثق في أغلاله منذ عصيانه لله تعالى ، حيث ألقته الملائكة بعد أن صفدوه بالسلاسل الحديدية وربطوا يديه لإحداهما من أمام والأخرى من الخلف ، وحجمه أيضا هائل مربع ، فله رأس تصل حتى أرضنا هذه فتنفذ منها قرونه ، أما وجوهه العديدة فهي موصوفة بدقة باللغة وتفصيل مترفة تربو بكثير على ما وجدناه عند دانتي . وقد أرسل الله تعالى واحداً من الملائكة الثمانية من حملة العرش ليرفع على كتفيه الأرضين السبع . هذا الملاك له أيضاً جسد هائل وأربعة وجوه وأربعة صور وأشكال منها الإنسان والنسر والثور والأسد . وله ستة أجنحة ، وجسمه كله مليء بالعيون . ويبدو أن دانتي قرن هذين الوصفين واستفاد بهما معاً في تشكيله لصورة إبليس ، كما يلاحظ أن مقام إبليس في قصة المعراج محوط ببرد الزمهرير من ناحية وينار جهنم من ناحية أخرى حتى لا يحرم من كلا النوعين من العذاب لفداحة جرمه وعظم ذنبه .

وبهذا يتضح لنا أن كثيراً من المواد الأولية التي صاغ منها دانتي صوره وتصويراته عن الجحيم مستقاة من التراث الإسلامي ، وإذا كانت القدرة الشعرية تعتمد أولاً على عبقرية الصياغة والسياق الفلسفي والفكري الحديد فإن هذا التأثير لا يقلل بحال من قيمة الشاعر الإيطالي بل يوضح طبيعة إبداعه ومدى أصالته .

رحلة المطهر

وصف عام

الاغتسال الرمزي

صور من عذاب المطهر

الفردوس الأرضي

لقاء العروس

وصف عام :

يخرج دانتي ودليله عبر سرداب مظلم طويل ممتد من باطن الأرض حيث الجحيم إلى السطح فيشرفان على شواطئ المطهر ؛ الذى يتمثل في خيال الشاعر الإيطالى على هيئة جبل هرمى سامق ، يقوم وسط محيط لانهائى تغطى مياهه كل البسيطة . وتحيط بهذا الجبل سبعة أفاريز دائرية تحيله إلى سبعة مدارك يسكن كلا منها فئة خاصة من أهل الخطايا السبع ، وهم بالترتيب من أسفل إلى أعلى : —

المتغطرسون والحاسدون والغاضبون والكسالى الذين لا يبالون والبخلاء والجشعون وأصحاب الشهوات الحسية .

وهناك في مقدمة المطهر تتجمع في درجتين فئة أخرى ممن ماتوا محرومين من عفو الكنيسة أو أهملوا الدين أو الدنيا أو لقوا بالعنف حتفهم في انتظار أن يقضى لأرواحهم بسكنى إحدى هذه المنازل .

وفوق الإفربز الأعلى من هذا الجبل يمتد سهل منبسط يقوم عليه الفردوس الأرضى تحيط به طبقة الأثير اللانهاية .

ومن هنا فإن جبل المطهر يمكن أن يعتبر ذا سبع درجات أو تسع أو عشر ، تتصل فيما بينها بطرق شاقة وعرة ، صاعدة ومنحدرة ، أما الأرواح التى تسكنها فلأنها ترقى بالتوالى من مقام إلى آخر ، وهى جميعاً بريئة من الكبائر التى لا تغفر ، إذ أن ذنوبها مما تسعها رحمة الله ، سواء كانت قد كفرت عنها فى الأرض أم زالت تدفع ثمنها وتطهر منها بالصلاة والدعوات والابتهالات حتى تصعد إلى السماء . وحراس المطهر ليسوا شياطين ولا زبانية مثل حراس الجحيم ، بل هم ملائكة ترعى الأرواح المتطهرة وتقودها إلى الصعود التدرجى .

ويُنْضَع دانتى رمزياً لعملية التطهير هذه أثناء رحلته ؛ إذ يكتب الحارس على جبينه أول حرف من كلمة ذنب باللاتينية «P» سبع مرات ، وعندما يعبر كل إفريز إلى ما يليه يمحى منه أحد هذه الحروف ، حتى إذا صعد إلى الفردوس الأرضى كان قد برئ ببلوره من جميع الذنوب ومحيت منه كل الحروف وانغمس في ماء نهرين مطهرين تغتسل فيهما روحه وتتأهب لدخول الفردوس (١) .

ويعتبر هذا التحديد التفصيلي الدقيق لوضع المطهر وأفاريزه ووظيفته جديداً في إطار أدب الآخرة المسيحي ، إذ أنه حتى أوائل القرن الخامس عشر - أى بعد نشر الكوميديا الإلهية بأكثر من مائة عام - لم يكن وجود المطهر نفسه قد أصبح من العقائد الدينية المسيحية المعترف بها ، كما لم يحدد أى مجمع كنسى وصفاً طبوغرافياً له حتى ذلك التاريخ . بل كانت الكنيسة تنحو إلى عدم اعتماد أى وصف مكانى يحدد مواقع العالم الآخر خاصة المطهر ، وكل ما كانت تتقبله بإجمال هو وجود المطهر دون تحديد لمكانه أو شكله أو مراتبه أو درجات التطهير فيه . كما لم يقدم التراث الأدبي الغربى السابق على دانتى سادة كافية له تشرح تفاصيله الثرية ، مما حدا بدارسيه إلى أن يؤكدوا أن تصورات دانتى للمطهر قد ابتدعت أشكالا ومواقع تخرج على التصورات المسيحية الشائعة في عصره . (٢)

ولم يستطع الدارسون تفسير هذه الظواهر إلا عندما اتجهوا للتراث الإسلامى يمحسون العناصر التى استقاها دانتى منه ، خاصة تلك التى تتصل بعذاب القبر ونعيمه وهل يجزى على الروح والجسد أم على الروح فقط ،

(١) راجع لهذا الملخص شرح الرسم التوضيحي لجبل المطهر كما ورد في ترجمة المطهر لـ دكتور حسن عثمان . ص ٤٣٦ .

(٢) انظر : Landino, Prologo del Purgatorio. P. 104. Segun
A. Palacios, op. cit. P. 177,

وهل يبدأ بعد الموت مباشرة أم عند البعث مما تحفل به كتب الرقائق الإسلامية ويقدم مادة تصويرية غنية كفيلاً بشرح كثير من تصورات دانتي ،

ولا يروينا أن التراث الإسلامي المتصل بأدب الدار الآخرة لم يرد فيه ذكر المطهر بهذا الاسم ؛ إذ أنه قد أطلق عليه أسماء أخرى معينة ، وحدد موقعه غالباً كمكان مجاور للجحيم ولكنه منفصل عنه ، فإذا كان الجحيم يقع في باطن الأرض فإن هذا « المطهر » يقوم على سطحها ، كما أن الأرواح — وهذا هو المهم في فكرة المطهر — تمضي فيه فترة محددة تتطهر خلالها حتى تقترب من درجات الفردوس مرة بالفردوس الأرضي .

وبحسبنا أن نورد بعض روايات التراث الإسلامي التي تتضح منها هذه الفكرة ، ومنها أن الله سبحانه وتعالى قد خلق نارين : إحداهما تسمى النار الجوانية والأخرى تسمى النار البرانية . أما الأولى فلا يخرج منها أحد ، لكن البرانية هي المكان الذي يلقي فيه المؤمنون جزاءهم على ما فرط منهم في جنب الله ما شاء من الوقت ، ثم يأذن الله للملائكة ورسله وأوليائه أن يشفعوا لهم فيخرجون من النار وقد صاروا سوداء مثل الفحم ، فيأتون إلى شاطئ نهر في الجنة يسمى نهر الحياة ، فإذا مستهم مياهه عادت أجسامهم إلى طبيعتها وقيل لهم ادخلوا النهر فينزلون إليه ويشربون منه ثم يخرجون معافين ويقال لهم « ادخلوا الجنة » وهناك يسمون بأهل النار ، فيضربون إلى الله أن يمحوا عنهم هذه الصفة فيأمر الله أن تمحى من جباههم ويكتب مكانها « عتقاء الله » .

وفي خبر آخر عن عبد الله بن الحارث « أصحاب الأعراف ينتهي بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة فيغتسلون منه اغتسالة فيبدو في نحورهم شامة ، ثم يعودون فيغتسلون ، فكلما اغتسلوا ازدادت بياضاً ، فيقال لهم تمنوا ، فيتمنون ما شاء الله تعالى ، فيقال لهم : لكم ما تمنيتم وسبعون ضعفاً ، فيعرفون بمساكين أهل الجنة ، فإذا دخلوا الجنة وفي نحورهم تلك الشامة البيضاء عرفوا

بها من بين الناس (١)

وقد رأينا أن دانتى فى المشهد الأخير من المطهر قد محيت من على جبينه الحروف الرامزة إلى الذنب وانغمس فى مياه نهري « لى » و « لينوى » حتى أحس أنه قد ولد من جديد ، وصار طاهراً متأهباً للصعود إلى السماء . وسرى أن هذا المشهد التطهيرى كثير الدوران فى التراث الإسلامى الخاص بأدب المعراج من ناحية والمتصل بأخبار الدار الآخرة من ناحية أخرى . إلا أن ما يعنينا الآن إنما هو التحديد الدقيق لموقع المطهر بعد النار وقبل الجنة ، وقد روى البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة » . . وروى ابن عساكر عن الفضيل بن عياض قال : بلغنا أن الصراط مسيرة خمس عشرة ألف سنة : خمسة آلاف صعود وخمسة آلاف هبوط ، وخمسة آلاف مستوى (٢) ومعنى هذا أن الصراط لم يعد مجرد ممر دقيق مثل الشعرة وإنما أصبح هضبة عالية ، أو كما ورد فى بعض الأخبار الأخرى « إن من وراء الصراط صحراء فيها أشجار طيبة » وأهم من ذلك أن الوظيفة التى يقوم بها هذا المكان تحدد فى التراث الإسلامى على أنها التطهير والتنقية والتهديب والإعداد للصعود لمراتب الجنة ، وهى نفس الوظيفة التى رأيناها فى مطهر دانتى ،

ويحل الرواة المسلمون إشكال هذا الصراط الخاص على أساس أن فى الآخرة صراطين ، أحدهما مجاز لأهل الحشر كلهم إلا من دخل الجنة بغير

(١) انظر : مختصر تذكرة الإمام القرطبى للشمرانى ، طبع صبيح بالقاهرة عام ١٩٦٨ صفحة ٩٢ وكثر العمال فى ثبوت سنن الأقوال والأفعال للهندي طبع القاهرة عام ١٣١٢ هـ .

(٢) انظر إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين للزبيدي الجزء العاشر ص ٤٨١ .

حساب أو يلتقطه عنق من النار فإذا خلص من خلص من الصراط الأكبر حبسوا على صراط آخر لهم ولا يرجع إلى النار أحد من هؤلاء إن شاء الله تعالى لأنهم قد عبروا الصراط الأول على متن جهنم .

وحتى هذا الصراط الأول المضروب على ظهري جهنم يحتوى على كثير من العناصر التي دخلت في تصور دانتي ، فبالرغم من أنه أدق من الشجرة وأحد من السيف إلا أن له جسوراً تغيب في جهنم مقدار أربعين ألف عام ، ولهب جهنم بجانبها يلتهب ، وعليها حسك وكلايب وخطا طيف ، وهي سبعة جسور ، يحشر العباد كلهم عليها ، وعلى كل جسر منها عقبة مسيرة ثلاثة آلاف عام : ألف عام صعود وألف عام استواء وألف عام هبوط . ويتفنن ابن عربي في توصيف هذه الجسور وتجسيم الحساب عليها قائلا : وذلك قول الله عز وجل « إن ربك ليالمصَاد » يعنى على تلك الجسور ، وملائكته يرصدون الخلق عليها ، لتسأل العبد عن الإيمان بالله ، فإن جاء به مؤثماً لاشك فيه ولازيم جاز إلى الجسر الثاني فيسأل في الجسر الثاني عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الجسر الثالث فيسأل عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الجسر الرابع فيسأل عن الصيام فإن جاء به تامة جاز إلى الجسر الخامس فيسأل عن حجة الإسلام فإن جاء بها تامة جاز إلى الجسر السادس فيسأل عن الطهر فإن جاء به تامة جاز إلى الجسر السابع فيسأل عن المظالم ، فإن كان لم يظلم أحداً جاز إلى الجنة وإن كان قصر في واحدة منهن حبس على كل جسر منها ألف سنة حتى يقضى الله فيه بما يشاء » (١)

فجسور الصراط هنا مثل أفاريز المطهر سبعة ، ويسكنها فئات من تاركي الفرائض على اختلاف في التصور بين دانتي وابن عربي ، لكنهم ليسوا من أهل الكباثر ، وهي أيضاً على شكل سلسلة من العقبات التي يستغرق صعود كل

(١) انظر الفتوحات المكية لابن عربي - السفر الرابع من الطبعة التي حققها الدكتور عثمان

منها ألف عام ، وهى فى نهاية الأمر ارتقاء وتنقية وتطهر واستعداد للدخول فى رحاب الفردوس .

وقد ظل الباحثون فى شك من إمكانية وصول مثل هذه الأوصاف الإسلامية إلى دانتى حتى اكتشفت مخطوطة المعراج ، وإذا بها حافلة بالعناصر الوصفية الثرية لهذا الصراط فى ثلاثة فصول مطولة هى ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ وشذرات من فصول أخرى تقدم كلها مادة يمتزج فيها الروح الصوفى بالخيال الشعبى ، وتجسم بطريقة حسية الأشكال التصويرية للعالم الآخر . فالصراط فيها يتكون أيضاً من سبعة جسور معلقة فوق الجحيم ، وكلها أدق من الشعرة وأحد من السيف وعلى جانبيها الكلاليب والخطا طيف ، وطولها آلاف السنين ، وكل منها يتلو ما قبله ويفوقه فى الطول والدقة ، ويجوز عليها المذنبون إلى الجنة بعد أن يتطهروا من ذنوبهم على كل معبر ، ويسألون عند كل جسر عن عمل محدد من أعمال البر وأداء الفرائض ، ابتداء من الإيمان وإقامة الصلاة والصيام والحج وحفظ القرآن إلى التطهر وبر الوالدين .

على أن يجوار هذا الصراط - طبقاً لرواية المخطوطة المترجمة - عدة مروج ورياض يمرح فيها المتطهرون بعد ابتلائهم ، مما يجعل صورتها شديدة القرب من تصور دانتى للمطهر بجباله وأفاريزه مما لا نظير له فى الأدب المسيحى السابق عليه .

الاغتسال الرمزي :

من المعالم المميزة لمطهر دانتى أنه تطهر ثلاث مرات مختلفة قبل أن يرقى إلى السماوات : المرة الأولى عندما خرج من الجحيم فأخذ فرجيليو طبقاً لنصيحة كاتون يغسل وجه دانتى بيديه كى يمسح عنه الأقدار التى علقت به من زيارة الجحيم ، ونتيجة لهذا التطهر الأول عاد لونه الطبيعى إلى خديه المخضلتين بالدموع .

أما المرتان الثانية والثالثة فقد حدثتا قبيل خروجه من المطهر عندما غمست كل من ما تيلدى وستاشيو دانتى فى مياه الجداول ونهر إينوى لمسح الذنوب من ذاكرته . وتجديد روحه وطاقته حتى يقول :

وعدت من أعظم الأمواج قلسية مولوداً جديداً .

كأشجار الجديدة التى تتجدد بزوغ أوراقتها الوليدة .

وصرت طاهراً ومؤهلاً للصعود إلى النجوم (١)

ولسنا فى حاجة إلى الإشارة إلى أن عملية التطهير نفسها من معالم المعراج الإسلامية المميزة كذلك ، إذ لا يخلو منها أى حديث من أحاديث المعراج ، كما أنها أصبحت من العناصر الشائعة فى أدب الدار الآخرة نتيجة للآية الكريمة « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » ، وعليها الآن أن نتبع الصور التى تقرب من دانتى ، منها ما ورد فى الحديث عن أبى سعيد الخدرى من قوله مرفوعاً . . « ولكن ناس أصابتهم النار بخطاياهم فأماهم الله حتى إذا كانوا فحماً أذن لهم فى الشفاعة فجاء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة فقيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم من الماء فينبتون نبات الجنة فى حميل السيل » (٢) .

وفى حديث على « حتى إذا انتهوا إلى باب من أبواب الجنة وجدوا

(١) انظر : المطهر ، ترجمة الدكتور حسن عثمان ، نشيد ٣٣ أبيات ١٤٢ - ١٤٥

وكتاب أسين بالاثيوس المشار إليه ص ٦٥ .

(٢) انظر مختصر تذكرة القرطبي للشعرانى ص ٩٨ .

عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان ، فعملوا إلى إحداهما كأنما أمروا بها فشربوا منها فأذهب ما في بطونهم من أذى أوقذى أو بأس ، ثم عملوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم بنصرة النعيم فلن تتغير أبشارهم بعدها أبداً ولن تشعث أشعارهم كأنما دهنوا بالدهان » (١) إلا أن أقرب الروايات لما رأيناه عند دانتي ما ورد في تراث الإسراء والمعراج في وصف جنة إبراهيم الخليل إذ يتم التطهير على ثلاث مراحل أيضاً تنغمس فيها أرواح المذنبين وأجسامهم حتى تصفو على درجات ماديا ومعنويا على النحو التالي :

« وعنده - أي إبراهيم - قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس ، وقوم في ألوانهم شيء ، فقام هؤلاء الذين في ألوانهم شيء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا - وقد خلص من ألوانهم شيء ، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء ، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم فجاءوا وجلسوا إلى أصحابهم فقال ياجبريل من هؤلاء البيض الوجوه ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء وما هذه الأنهار التي دخلوا فاغتسلوا فيها ؟ » ففسر له جبريل حالات القوم ودلالات الأنهار الرمزية من أنها رحمة الله ونعمته وشراب طهور (٢)

فصورة البزوغ الحديد كالشجرة ذات الأوراق الوليدة وردت في الأثر الإسلامي الأول « ينبتون نبات الحبة في حميل السيل » وقد أعجبت بعض حضور الرواية من التابعين ، ولفتت انتباهه خبرة الرسول بظواهر الطبيعة إذ جاء بعدها : « فقال رجل من القوم . كان رسول الله قد كان يرعى بالبادية » ، وفي الحديث الثاني شرح لعملية التطهير المادية والمعنوية وفي الثالث تفصيل لمراحل التطهير ودلالته .

(١) انظر الترهيب والترهيب الجزء الرابع ص ٩٢٤ بروايات مختلفة .

(٢) انظر لهذا الحديث تفسير الطبري - الجزء الخامس عشر ص ٩ . وقصة الإسراء

والمعراج للنيل ص ٩٩ .

ونأتى إلى قصة المعراج المترجمة لنجد نفس هاتين العينين النضاحتين على باب الجنة - فى الفصل الثامن والثلاثين - تنبعان عند ساق شجرة عظيمة ويشرب من أحدهما الداخلى فيذهب ما فى بطنه من أذى أو قذى، ثم يستحم فى العين الأخرى فتصفو روحه ويضئ وجهه وتحل عليه نعمة الله .

وبهذا العنصر الأخير نجد الدليل الحاسم على تمثل دانتي للمأثورات الإسلامية بالصورة التى جاءت عليها فى قصة المعراج، إذ كان من الممكن أن تتعدد وتتكاثر عمليات التطهير الرمزية ثم تخلو منها القصة المترجمة فيصعب إلام دانتي بها ، كما كان من المتوقع أن تأتى هذه العملية فى بداية المعراج - مثل بقية الروايات والأحاديث - وعندئذ كان علينا أن نتوقع أيضاً أن يكون مكانها عند دانتي فى بداية رحلته ، أما وقد وضعها القصة المترجمة عند مدخل الفردوس أو نهاية الجحيم فإن دانتي يدرك مغزاها بهذا الشكل ويحتفظ به فى كثير من صوره وأشكاله ودلالته الرمزية ،

صور من عذاب المطهر :

كان من الصعب على دانتي نفسه أن يتخيل جديداً في أصناف العذاب بعد ما ذكره في الجحيم ليملاً به أفاريز المطهر ، ومع ذلك فإن كثيراً من الصور التي أوردها لا تخلو من مشابهة محددة لمشاهد نظيرة لها في التراث الإسلامي على الوجه التالي :

— يتمثل عقاب الذين تأخروا في توبتهم من الآثام حتى إذا حضرهم الموت في الانتظار والمكث زمناً طويلاً حتى يأذن الله لهم في الصعود إلى جيل المطهر ، وهم لذلك يرقدون عند سفح الجبل ملتصقين بالصخور الوعرة ومنتظرين من أقربائهم الأحياء أن يترحموا عليهم ويغمرهم بصلاتهم ودعواتهم حتى تقصر مدة انتظارهم ويعترف دانتي فيهم على « مانفريد » الذي يتقدم إليه ويطلب منه أن يذكره بالصدق لدى ابنته عساها تصلى لروحه وتدعوه له بقبول التوبة المتأخرة . (١)

كما يرى دانتي رجلاً جالساً محتضناً ركبتيه خافضاً بينهما رأسه فيتعرف عليه فإذا هو « بلاكو » الفلورنسي صانع الآلات الموسيقية الذي يقول له : لاجلوى من محاولة الصعود قبل الأوان إلا أن الصلوات الطيبة في الأرض تقصر من مدة الانتظار .

والتراث الإسلامي مليء بمثل هذه المشاهد في موضعين : —

أحدهما عند الحديث عن عذاب القبر — وهو أحد مقابلات المطهر في التصور الإسلامي — إذ وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها : « الميت في قبره كالغريق المتعوب ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو من صديق

(١) انظر : المطهر ترجمة الدكتور حسن عثمان : الشيد الثالث : الأبيات ١١٢ — ١٢٤

له فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها « (١) ، كما وردت رواية عن أبي دلف العجلي القائد الحربى فى عهد الخليفة المأمون الذى يأتى فى المنام لابنه دلف ويقص عليه ما يراه فى عذاب القبر حيث يجلس « واضعاً رأسه بين ركبتيه » فى إنتظار رحمة الله ويطلب منه أن يخبر بقية أهله بحاجته إلى صلاتهم ودعائهم . (٢)

وثانيهما عند الحديث عن هول يوم القيامة وعذاب الإنتظار فى المحشر حتى يقضى بين الناس ، وكيف أنه يتفاوت طولاً وقصراً تبعاً لأعمال العبد من ناحية ولسرعة غوثه بشفاعة الرسول والأولياء من ناحية أخرى .

— ويحكى دانتى فى الأنشودة العاشرة أنه رأى المتكبرين فى المطهر يسرون وقد ناءت ظهورهم بالأحجار الثقيلة وقطع الصخر الضخمة فأنحنوا تحت وطأتها جزاء غطرستهم مما يذكرونا بكثير من الأحاديث النبوية عن يحيئون يوم القيامة وقد حملوا على ظهورهم ما فرحوا به من متاع الحياة الدنيا وعن اغتصب من غيره شبر أرض فيحمله يوم القيامة حتى يهوى به إلى قاع الأرض وعن البخلاء الذين يأتون يوم القيامة وقد حملوا كنوزهم على ظهورهم .

— وعلى الإفريز الثانى من المطهر يرى دانتى الحاسدين فى هيئة عميان خيطة أجفانهم بسلك من حديد جزاء لهم على عدم صيانتهم لما يرونه وحسداهم له . والعنى كثير الورود فى التراث الإسلامى بمعنييه المادى والمعنوى ، ففى الآية الكريمة « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » (٣) « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم

(١) انظر مختصر تلذكرة القرطبي للشرافى . ص ٣٧ .

(٢) انظر : شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للسيوطى ، مطبعة الحلبي بالقاهرة

عام ١٩٥١ .

(٣) سورة الاحقاف ٧٢ .

القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك
أنتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى « (١) . على أن فى اعتبار العمى عند
دانتى جزاء للحسد قدراً كبيراً من التوافق مع أسلوب الجزاء فى الإسلام
الذى يوقع العقوبة على نفس الجارحة التى ارتكب بها الذنب كما رأينا فى
الحديث عن الجحيم .

— عندما ينتهى الشاعر الإيطالى من زيارة الحلقة الرابعة من المطهر يرى
فيها يرى النائم « امرأة عاطلة من مفاتن النساء ، متلثمة اللسان ، حولاء
العنين ، ملتوية القدمين ، مبتورة اليدين ، شاحبة الوجه ، لكنها مع ذلك
كما تبعث الشمس المدفء فى الأطراف الباردة التى يثقل عليها الليل ..

انتصبت قامتها برهة واكنسى وجهها الشاحب
باللون الذى يتطلبه الحية .

وشرعت تغنى حتى كان من العسير على أن أحول انتباهى عنها « (٢)

يبد أن فرجيل يدعو دانتى لمواصلة السير بعد أن عراها من ملابسها
وكشف له عما فى بطنها من كرية الروائح ، فإذا لاحظ عمق تأثير الرؤية
السابقة فى نفس دانتى شرح له دلالتها قائلاً :

لقد شهدت تلك الساحرة القديمة التى تحمل وحدها
المتطهرين على البكاء فوقنا الآن
ورأيت كيف يتخلص المرء منها .

ومشهوره هى قصة المرأة الداعية فى أحاديث الإسراء والمعراج التى
تتكفل بشرح دلالتها الرمزية ، لكن بعض الروايات — مثلما جاء فى الطبرى —
تورد بعض الأوصاف القرية مما نراه عند دانتى ، ، فهى امرأة عجوز

(١) سورة طه : ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٦ .

(٢) راجع المطهر - ترجمة الدكتور حسن عثمان - النشيد ١٩ أبيات ٥٨ - ٦٠ -

ومايلها .

قبيحة خالية من كل مظاهر الإغراء الطبيعية ، وإن كانت تخفى معالم قبحها بما تصطنعه من زينة ، وتحاول اجتذاب الرسول إليها بمعسول الكلام وفاضح الحركات ، فيسأل الرسول جبريل عن تكون هذه المرأة ، لكن الملاك الهادى يتفادى الإجابة عن سؤال الرسول حينئذ ويحثه على مواصلة السير ، ثم يفسر له بعد ذلك ما رآه . فالمرأة العجوز هي الدنيا وقد تحلت بغالى الثياب كي تستر قبحها وتفتنه ، وأنه لو كان قد توقف عن سيره وعن طريقه من أجلها لكانت أمة الأسلام قد فضلت السعادة الدنيوية العاجلة على الآخرة (١). ومن هنا يتضح لنا تطابق الرويتين ، بالرغم من أن دانتي قد أدخل في سياقه بمهارة إشارة كلاسيكية إلى قصة حوليس ونداء عرائس البحر له ، وقد انتهى شراحه إلى تفسير رؤياه بأن المرأة رمز لسعادة العالم الزائفة ومنتعه الزائلة ، وهو نفس التفسير الذى نصت عليه الروايات الإسلامية .

— وعندما يصعد دانتي إلى إفريز الغاضبين في المطهر يرى المكان وقد غشيه دخان في مثل سواد الليل حتى لا يستطيع رؤية من يكلمه :

« ولم يكن لنا هناك من مأوى نهرب إليه »

وقد حرمانا من الرؤية ومن الهواء الخالص . .

وإذا منعنا الدخان من الرؤية فسيحفظ السمع صلتنا بدلائمها ، (٢)

وعقاب الدخان هذا من مشاهد القيامة في القرآن الكريم حيث يقول « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب اليم » (٣) وتأتى الأحاديث لتوضح وتفصيل هذه الصورة بمثل : « تأتى السماء بدخان كثيف يغشى الناس كالظلمة في أبصارهم ، فيظلم الهواء والجو ، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه أربعين يوماً وليلة ،

(١) انظر جامع البيان في تفسير القرآن للطبرى — الجزء الخامس عشر ص ٦ .

(٢) انظر المطهر الشيد ١٦ أبيات ١ - ٧ .

(٣) سور الدخان — الأيات ١٠ - ١٢ .

فيملاً الدخان ما بين المشرق والمغرب .. ويأخذ بأنفاس الكفار ..
حتى ليحدث الرجل فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان (١).

— ويتمثل عذاب البخل عند دانتى في مطهره فى أطراح البخل
واستلقائهم على الأرض « ينرفون الدموع ويقولون فى تهمة عميق :
لصقت بالتراب نفسى ... »

« وقد قيدت أقدامنا وأيدينا وشات من حر كاتنا
وسنظل ممددين دون حراك طالما يروق ذلك للسيد العادل » (٢)،

ونجد نفس هذه الصورة فى التراث الإسلامى فى عذاب السكارى
وشاربى الخمر بصفة خاصة إذ « يقوم أحدهم مغلوله يده مقيدة رجلاه
ثم يسحب فيها بالسلاسل على وجهه (٣) » وكذلك فى وصف عبور المذنبين
للصراط إذ يكون منهم من يحبو على وجهه ومنهم من يزحف على بطنه
كما ورد فى نص مخطوطة المعراج المترجمة فى الفصل الثامن والسبعين .
والجموعة السابعة — تعبر الصراط — مثل طفل صغير يحبو ويبدأ فى المشى ،
بعضهم يجر نفسه على صدره وآخرون يتشبثون بأيديهم بالجرس لكنهم
يسحبونها عندما تلسع النار أصابعهم » .

— وفى عقاب نخطئة الحشع والهم يرى دانتى المتطهرين وهم يتطلعون
إلى الأشجار المثمرة كالأطفال الذين يطلبون الناكهة دون جدوى ؛ فالحكمة
الإلهية تعاقب الشرهين وتطهرهم بالجرع والعطش والحرمان من النار
التي يرونها ، وهذا النوع من العقاب شائع فى التراث الإسلامى بكثرة
بتداء من الآية القرآنية « ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى

(١) انظر تفسير الخازن لسورة الدخان .

(٢) انظر المطهر — النشيد ١٩ أبيات ١٢٤/٧٣ — ١٢٦ .

(٣) انظر قرة العيون ومفرح القلب المحزون لأبى الليث السمري قنذى . طبع صبيح

بالقاهرة ص ٨ .

من جوع» (١) إلى الأوصاف الواردة في كتب التفسير عن شجرة الزقوم، ولكن أقرب الصور الإسلامية إلى ما رأيناه عند دانتي ما ورد من أن «آخر من يدخل الجنة رجل يمشى على الصراط مرة ويكبو مرة وتسعفه النار مرة ، فإذا ما جاوزها التفت إليها ... فترفع له شجرة فيقول أى رب ادننى من هذه الشجرة لأستظل بظلها وأكل من ثمرها فيقول الله تعالى : يا ابن آدم فلعلك إن أعطيتكها تسأل غيرها فيقول لا يا رب ، لكنه ينكث بعهدہ ويظل هكذا أمام ثلاث شجرات بنفس الطريقة (٢). ومع أنه ينهى إلى الجنة وثمارها برحمة الله مما يجعله مختلفاً عن مذنبى دانتي الذين يظلون محرومين إلا أن الملامح العامة واحدة وإن اختلفت التفاصيل . ومهما كانت الفروق بين العناصر الإسلامية والدانتيية فإن كل تلك المشابهة على تناثرها تدل بتكاثرها وتكوينها لمجموعة متكاملة من الصور الجزئية على فعالية هذا التراث كمصدر هام لا ينكر للكوميديا الإلهية ، خاصة في تلك المواضع التي لم يعثر الباحثون فيها على نظائر لصوره من التراث المسيحي .

(١) سورة الفاشية ، الآيات ٦/٥ .

(٢) انظر مختصر تذكرة القرطبي للشعراني ص ١٢٩ .

الفردوس الأرضي :

لعل آخر مشهد كبير عند دانتى فى المطهر هو هذا البستان الشبيه بغابة الصنوبر الذى يقع على قمة جبل شاهق أرضه نضرة ، والمياه من حوله صافية ، حيث رأى فى وسطه سيده جميلة تغنى وتقطف الأزهار التى زينت كل طريقها . فسمع دانتى شدوها العذب واستوضح منها ما غمض عليه من سر هذا المكان ، فقالت له إن الله منح هذا المكان لإقامة الإنسان ، ولكنه بالخطيئة حول سعادته إلى بكاء وعذاب ، أى أنهم فى جنة آدم التى أخرج منها . وقالت له « ماتيلدا » أيضاً - إن جبل المطهر يزداد علواً صوب السماء حتى يصبح غير خاضع لمؤثرات الانجراف فى الدنيا ، ولكن دوران السماء يحدث مثل هذا الهواء فى أعلى المطهر ، وبذلك توزع فى أرجائه بلور النبات فتتملىء بفاكهة لا نظير لها وتجرى فيه الأنهار التى تجعله ربيعاً دائماً النضرة (٣).

على أن قمة هذه المرحلة من المطهر لقاء دانتى مع بياتريش التى تبدو له كأنها عروس السماء تعاتبه وتهدهد عواطفه وتتولى زمامه لتقوده إلى عوالم السماوات الطاهرة . أما التراث الإسلامى ففيه أيضاً بستان وارف الظلال يقع عند نهاية الصراط وقرب باب الجنة ، ويتم عنده الاغتسال الرمى أو التطهر كما رأينا ، وتحف به مجموعة أنهار رائعة ، وقد يسمى بستان إيزاهيم أو جنة آدم ، وهى الجنة الأرضية التى تقابل فردوس دانتى الأرضى عند نهاية المطهر .

فلنتعرف عن كسب على جنة آدم هذه طبقاً لبعض الروايات الإسلامية لئلا نرى مدى قربها من تصورات دانتى . « قال منير بن سعيد فى تفسيره وأما قوله تعالى لآدم (اسكن أنت وزوجك الجنة) فقالت طائفة : أسكن الله آدم جنة الخلد التى يدخلها المؤمنون يوم القيامة ، وقال آخرون

(٣) انظر ملخص الأناشيد ٢٨/٢٩ للدكتور حسن عثمان فى المطهر . ص ٣٦٢ ومايلها .

هى جنة غيرها جعلها الله له وأسكنه إياها ليست جنة الخلد .. وقال أبو القاسم البلخي وأبو مسلم الأصهباني هذه الجنة فى الأرض ، وكانت بستانا جعله الله له امتحاناً ولم تكن جنة الأوى . والقول بأنها جنة فى الأرض ليست جنة الخلد قول أبى حنيفة وأصحابه . وذكر ابن قتبية فى كتاب المعارف بعد ذكره خلق الله لآدم وزوجه قال : ثم تركهما وقال أثمروا وأكثروا واملئوا الأرض وتسلطوا على أنوان البحور وطير السماء والأنعام وعشب الأرض وشجرها وثمرها .. ونصب الفردوس فانقسم على أربعة أنهار : سيحون وجيحون ودجلة والفرات .. ثم أخرجه من مشرق جنة عدن إلى الأرض التى منها أخذ ، وكان مهبطه حين أهبط من جنة عدن فى شرق أرض الهند .. يعنى أخرجه من الفردوس الذى نصب له فى عدن فى شرق أرض الهند « (١) .

وقد تسمى هذه الجنة فى بعض الآثار الإسلامية الأخرى - خاصة الصوفية - جنة البرزخ ، يقول الشعرائى « ليست الجنة التى أخرج منها آدم هى الجنة الكبرى المدخرة فى علم الله تعالى ، فإن تلك لا يصح فيها معصية لآدم ولا إياية لإبليس لكونها حضرة الله تعالى الخاصة .. وإنما هى جنة البرزخ التى هى فوق جبل الياقوت .. وجنة البرزخ هى التى ترى فى الدار الدنيا ، .. وفى الآخرة تكون هى المرج عند نهاية الصراط خارج سور الجنة « (٢) .

ويبدو أن هذه الجنة البرزخية هى التى تقابل الجنة المادية فى التراث الصوفى ؛ إذ أن فيه جنتان : إحداهما مادية لعامة الناس والثانية روحية للمصطفين من عباد الله ، وعن هذا يتحدث ابن عربى بقوله :

(١) انظر : حاشى الأرواح إلى بلاد الأفراح . لابن القيم الجوزية . طبع المدنى بالقاهرة .

ص ٢٤/٢٢ .

(٢) انظر : إليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر للأمام عبد الوهاب الشعرائى وعلم

هامشه كتاب الكبريت الأحمر فى علوم الشيخ الأكبر - طبع دار المعرفة ببغروت - ص ١٥٥ .

« اعلم - أيدينا الله وإياك - أن الجنة جنتان : جنة محسومة وجنة معنوية ، والعقل يعقلهما معاً .. والنفس الناطقة المخاطبة المكلفة لها نعيم بما تحمله من العلوم والمعارف من طريق نظرها وفكرها وما وصلت إليه من ذلك بالأدلة العقلية ، ولها أيضاً نعيم بما تحمله من اللذات والشهوات مما تاله بالنفس الحيوانية من طريق قواها الحسية من أكل وشرب ونكاح ولباس وروائح ونغمات طيبة تتعلق بها الأسماع ، وجمال حسي في صورة حسنة معشوقة يعطيها البصر في نساء كاعبات ووجوه حسان وألوان متنوعة وأشجار وأثمار » (١).

و يشرح الشعرائي هذه الفكرة بالتفصيل ، مصرحاً بتفاوت الجنان طبقاً لتفاوت مدارك الناس وعقولهم ودرجاتهم وملحماً إلى بعض المقارنات الدينية الهامة : « فلأن قلت قد بلغنا أن لنا جنة برزخية أخرى فما هي ؟ فالجواب : قد أشار القرآن الكريم إلى هذه الجنة ولم يصرح بها وذلك نحو قوله « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لينة للشاربين وأنهار من عسل مصطفى » قال الشيخ محيي الدين : وإنما كانت هذه الجنة برزخية لأنها ما هي محسوسة كقوله تعالى (متكئين على سرر مصفوفة) ولا هي روحانية كقوله تعالى (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) فوصف الله تعالى الجنان على حسب تفاوت عقول الناس . قال : وقد صرح المسيح عليه السلام بما أومأنا إليه من النعيم الروحاني ، فقال للحواريين حين أوصاهم بوصية وفرغ منها : فإذا فعلتم ما أمرتكم به كنتم غداً معي في ملكوت السماء عند ربّي وربكم وترون الملائكة حول عرشه تعالى يسبحون بحمده ويقدمونه وأنتم هناك ملتنون بجميع اللذات من غير أكل ولا شرب . قال الشيخ : إنما صرح

(١) انظر : الفتوحات المكية لابن عربي ، طبعة عثمان يحيى المحققة . السفر الخامس . ص ٦٠ ، وهي الطبعة التي نستخدمها حتى آخر مصدر منها ثم نكمل من طبعة بيروت المعصورة .

والذى يعيننا الآن هو أن نشير الى أن هذا التراث الإسلامى فى تفصيل أنواع الجنان من مادية وروحية وطبيعة النعيم فيها كان معروفاً فى العصور الوسطى قبل دانتي لدى جماعة من أهم المفكرين المسيحيين - خاصة فى اسبانيا - منهم « رايغونو-لوليو » و « رايغونو-مارتين » وكلاهما يصرح فى كتاباته باطلاعه على آراء الفلاسفة المسلمين فى نعيم الجنة الروحية ، ويشير « مارتين » إلى معرفته كتاب مقاصد الفلاسفة للغزالي كما يشير لوليو إلى ابن عربى وابن رشد ، وهذا يعنى أنه فى نفس القرن الثالث عشر الذى كان يكتب فيه دانتي ملحمته كان هناك مفكرون مسيحيون يعرفون

العاشر طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت ص ٤٠٨-٤١٢ .

الفردوس الإسلامى بمجاليه الروحية التى لا تتعارض مع التراث المسيحى وإن كانت تمتنع له آفاقاً لم يعرفها ؛ إذ تصور عالماً من النور والألوان والاستغراق الروحى إلى حد النشوة فى الحب الإلهى . وإذا كان دانتى يعلن فى المطهر :

« قد حبانى الله بنعمته حتى صارت مشيئته أن أرى رجاىه
على نحو لا بدانيه العرف المألوف أبدا » (١)

فإن معنى هذا أنه - مثل هؤلاء المفكرين المسيحيين - قد اطلع على فلمات من التراث الفلسفى والصوفى والثقافى الإسلامى الذى استمد منه نماذج للدار الآخرة وصوراً للعذاب والنعيم فيها تبعده عن المألوف فى الثقافة الغربية الأدبية والدينية المعاصرة له .

وقد استطاع الباحثون فى أدب دانتى أن يحلوا أساطير العصور الوسطى المتعلقة بالفردوس الأرضى - على ارتباط بعضها بالثقافة الإسلامية - ويبينوا كيف أنها تعد سوابق لدانتى فى تحديد موقع هذا الفردوس فى نصف الكرة الجنوبي من الأرض على ذروة جبل سامق .

ولكنهم أكدوا أن أحداً لم يسبق دانتى فى وضعه للفردوس على قمة المطهر ، فخياله الخلاق عندهم هو الذى هداه إلى تصور الفردوس كهدف أو نهاية للطريق الوعر الذى تقطعه الأرواح كى تنظر من آثامها ، أى تصوره مجاوراً للمطهر فى قمة جبل الكفارة على مشارف السماء كمرحلة أخيرة ينبغى للأرواح أن تقف عندها لتنفض عنها أدرانها وتصفو من خلال طهر مزدوج تعبر بعده عتبات الخلود .

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن التراث الإسلامى حافل بهذه التصورات عند تفصيله لموضع الصراط من ناحية وذكره لجنة آدم من ناحية أخرى ، وبهنا الآن أن نستكمل هذه الصورة بإضافة عنصر جديد هام يتمثل فى

(١) المطهر : ترجمة د. حسن ميان . نشيد ١٦ - أبيات ٤٠ - ٤٣ .

رسائل إخوان الصفاء الشهيرة في المشرق والمغرب ، إذ تعد موسوعة المعارف الثقافية لهذه الفترة . وقد جاء فيها عند الحديث عن أصل الخلق ما يلي :

« فأمر الله أولئك الملائكة أن يصعدوا بآدم عليه السلام فأدخلوه الجنة ، وهي بستان من المشرق على رأس جبل الباقوت الذي لا يقلر أحد من البشر أن يصعد هنالك . وهي طيبة التربة ، معتدلة الهواء شتاءً وصيفاً ، ليلاً ونهاراً . كثيرة الأنهار ، مخضرة الأشجار ، مفتنة الثمار والمواكه والرياض والرياحين والأزهار ، كثيرة الحيوانات غير المؤذية والطيور الطيبة الأصوات ، اللذيذة الألحان والنعيمات » (١)

وبعد أن يقص حكاية الخطيئة والأكل من الشجرة المحرمة وكيف بدت لهما حوراهما وطفلاً يخصمان عليهما من ورق الجنة ، يحكى العقاب الذي وقع عليهما بأنه :

أمر الله تعالى الملائكة أن اخرجوهما من هناك ، فرموهما إلى أسفل الجبل ، فوقعا في برية قفراء لا تبت فيها ولا ثمر .

فهذه الأرض إذن نظير ما فراه عند دانتى تقع على قمة جبل هو أعلى جبال الأرض وقد اختلفوا في تحديد مكان هـلـا الجبل ، فتارة يضعون في سوريا وأخرى في إيران وثالثة في الهند وهذا أشهر الأقوال ، وقد أطلق عليه إخوان الصفاء كما رأينا اسم « جبل الباقوت » . وحدده علماء الجغرافيا العرب بأنه —

« جبل عال يراه المبحرون من مسافة أيام .. ويقع في وادى صرنديب بـسـيـلان وخروته أقرب ذرى جبال الأرض إلى السماء .. إذ يربو ارتفاعه

(١) انظر : رسائل إخوان الصفاء ، وخلان الوفاء . طبع دار صادر بيروت عام ١٩٥٧ .
الجزء الثاني . ٢٢٩ / ٢٣٠ .

على ألى متر فوق سطح البحر ، ويقول عنه الرحالة الشهير ابن بطوطة الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى أى الرابع عشر الميلادى :

« جبل سرنديب ، وهو من أعلى جبال الدنيا .. رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع .. ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا .. وفى الجبل طريقان إلى القدم أحدهما يعرف بطريق « بابا » والآخر بطريق « ماما » يعنون آدم وحواء عليهما السلام .. وأثر القدم الكريمة ، قدم أينا آدم عليه السلام فى صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح ، وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها منخفضاً وطولها أحد عشر شبراً » (١).

فنحن إذن أمام جبل شاهق فى وسط جزيرة تقع فى المحيط الذى يغطى بمائه النصف الجنوبى من الكرة الأرضية ، وهذا هو موقع الجنة الأرضية عند دانتي ، أما وظيفتها الآن فى التراث الإسلامى فنعثر على هذه الفقرة فى كتابات الصوفية التى تجعلها مطابقة تماماً للمطهر ، إذ يقول الشعرانى :

« وإن كل أبناء آدم من الصالحين تصعد أرواحهم بعد الموت إلى هذه الجنة ، أى أنها مقر تنتظر فيه الأرواح وتطهر حتى يوم القيامة ، ومهما كانت الاختلافات المتصلة بحجم الجزيرة وموقعها بالتحديد بين دانتي وهذه العناصر من الثقافة الإسلامية فإنها لا تمنع من الاعتداد بهذه الأخيرة على أنها المصادر المعروفة الموثق لمطهر دانتي (٢).

(١) انظر رحلة ابن بطوطة ، طبع دار صادر بيروت م ١٩٦٨ ص ٦٩٩/٥٩٨ .

(٢) انظر : أسين بالاثيوس ، الكتاب المشار إليه . ص ١٩٣ وما بعدها .

لقاء العروس :

يعد مشهد لقاء دانتى مع بياتريش من المشاهد الحساسة الدقيقة في الكوميديا الإلهية ؛ إذ تتوقف عليه دلالة الملحمة وأهم أحداثها ، وليس له أى نظير في التراث المسيحى ، بل يمثل خروجاً على الأنماط التقليدية للفكر المسيحى في عصره ، إذا أن أى لقاء حب يأتى في إطار استشراف العوالم الغيبية مما ترفضه الكنيسة لحجافاته لروحها في التهوين من شأن العلاقات العاطفية واتهامها بالمادية .

وكانت جراً بالغة من دانتى أن يضع في قمة رحلته لقاءه مع حبيبته التى ماتت قبله ، ولم يكن هذا حدثاً عفويا بل بنيت على أساسه بقية أحداث الملحمة .

وبالرغم من محاولات الباحثين المتكررة للعثور على النواة الأولى لهذا الموقف في أدب الفروسية وعند شعراء التروبادور في العصور الوسطى ، خاصة من الإيطاليين أصحاب مذهب « الأسلوب الحلو الحديد » ونزعتهم إلى الإشادة بالحب الرومانسى الذى قد يصل إلى درجة تقديس المرأة مما تتميز فيه النزعات الصوفية بالحسية ، إلا أن كل هذا قد يشرح التطور الداخلى لدى دانتى مما حفزه على تقبل هذا النموذج واحتضانه ، وتظل السابقة الأدبية والثقافية ماثلة في أحاديث المعراج وأوصاف الدار الآخرة التى أبرزت صورة عروس السماء الإسلامية ولفقت إليها الشاعر الإيطالى

على أن هذا الحب الفردوسى المثالى الذى غذى خيال دانتى مدين بلوره للتصور العربى الإسلامى للحب العنبرى كما تبلور لدى الشعراء والمفكرين العرب في المشرق والمغرب وانتقل عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية إلى أوروبا

ويبقى بعد ذلك شىء واضح ، وهو أن نموذج عروس السماء ذا

الأهمية القصوى في الكوميديا الإلهية ، المحيا في للروح المسيحية والذي يخلو التراث الأوربي من نظائره يتطابق مع أوصاف الحور العين في الآثار الإسلامية في جملته وكثير من تفاصيله .

وتشهد الروايات الإسلامية لهذا اللقاء بوصف عام للإطار الطبيعي الذي يتم فيه بطريقة تشبه ما تجده عند دانتى ، فعندما يتجاوز العابد الصراط ويجعل جهنم خلف ظهره ويفضى إلى طريق الجنة ، يمضى مع ملائكة الرحمة تهديه وتحذره بالتمجيد والثناء على ربه وتبشره بقربه فوزه برضوانه ، فإذا شارب الجنة وصل إليه من نسيمها وبرد نعيمها وعطرها وطيب ثمرها ونفريد أطيارها وترنمها ما لم ير العالم مثله ، وهنا نستحضر بعض صور دانتى المشيلة في المطهر إذ يقول : -

« وسرت في المرح وئيدا . .

على الأرض التي بعثت شداها في كل جانب

هواء عليل لا تبدل طبيعته أخذ يلمس جبينى

وصغار الطيور لا تكف عن تغريدها وترنمها

والأرض المباركة مليئة بالثمار والفاكهة » (١)

ثم نقرأ في بعض الروايات الإسلامية هذا الوصف للأتجار التي تنبع عند

باب الجنة « عين من ماء عذب بارد في مثل صفاء القوارير

أصفى من البلور وأبرد من الثلج وأشد بياضا من اللبن »

فتراءى من خلفها صور دانتى التي يقول فيها :

« وإن كل ما في هذا الجانب من المياه الصافية الرائقة

لتبدو عكرة بجانب تلك التي لا تخفى بين طياتها أى رواسب

وإن مذاقها ليفوق كل مذاق

فهو رحيق يجرى ذكره على لسان الجميع » (١) .

(١) انظر : المطهر ترجمة د. حسن عثمان - النشيد ٢٨ أبيات، تفرقة مه .

أما لحظة اللقاء فنجتزئ منها أولا بعض المشاهد لنضمها بإزاء ما يوازيها عند دانتي ثم نرى صورة كلية شائعة في بعض عناصر التراث الإسلامي المتقدمة تنبئ عن الطابع الفني لهذا التصوير الإسلامي ، فقد ورد في رواية ابن مخلوف عن شاكر بن مسلم (١) هذه الأوصاف التي لا تنفرد بها وإنما هي كثيرة الدوران في باب « وصف نساء وحور الجنة » .

الرواية الإسلامية

دانتي في المظهر

هكذا بدت لي سيدة تكللت بغصن الزيتون فوق نقابها الأبيض .
وارتدت تحت العباء الخضراء ثوبا قانيا أحمر . وقد بدت لي أنها قد فاقت جمالها القديم أكثر من تفوقها على مائر النساء هنا . فنظرت إلى النور البهيج في مقلتيها . ورأيت كيف يتبين إشراق جمالها .
أيها الجلال المتناق للنور الأبدى الساطع ظلت حينئذ محذقتين مثبتتين عليها حتى غابت مائر حوامي عن الوعي ولقد حرمتمني من النظر برهة الحال التي يوئول إليها البصر حينما تصيب أشعة الشمس العينين .. ولكن بعد أن ألف بصرى ما هو أقل منها تألقا . (٢)

فنظرت فإذا حوراء يقصر جمال كل الحور دون جمالها ، ويقل كل كمال دون كمالها . عليها حلّة من ألوان شتى .. يكاد يخطف الأبصار نور وجهها ويذهب الألباب بهجة بهايتها بما كساها الله من الحسن والجمال والبهاء والكمال . ينظر إلى وجهه في خدها أصفى من المرآة ويغلب ضوءها ضوء الشمس والقمر ولولا ما رزق الله وليه المؤمن من قوة الإبصار وثبات الجنان لذهب بصره ووهمه بنور ما يرى منها وبهاء ما يدوعنها ، فلو أن طاقة من شعرها بدت للملأت ما بين المشرق والمغرب من طيب ريحها .

أما الوصف التفصيلي الباذخ لعروس الجنة فنجد في الرواية الأدبية التالية : —

(١) النظر مختصر تذكرة القرطبي للشعراني ص ١٤٩ .

(٢) راجع المظهر : الأناشيد ٣٠/٣١/٣٢ وكتاب أسين بالاثيوس السابق الذكر ص

« وأنت وزوجك بأكمل الهيئة وأتم النعمة ، وقد حار فيها طرفك ،
تنظر إليها متعجبا من جمالها وكما لها ، وطرب قلبك بملاحتها وحسنها . .
وأنست روحك لها وقد قربت إليك ضاحكة بحسن ثغرها فسطع نور بناتها
في الشراب وهي تمسك لك كاسات الدر وأكاويب قوارير الفضة ،
فاجتمع نور الشراب ونور وجهها ونحرها وثغرها ، فيالك عروس وياتلك
عروس طفلة أنيسة عربوبة كامل خلقها ، ويا جمال وجهها ويا بياض نهودها
وتثنى جسمها ، يكسوها التأنيث ويلينها النعيم ، تنظر إليك بغنج الحور
وتكلمك بملاحة المنطق وتداعبك بالدلائل وتلاعبك بالعشق والطرب . » (١)

على أن من لحظات اللقاء بين زائر الفردوس وعروسه العتاب المحبب الذي
القاه به لما شغله عنها من الحب الدنيوى ، فيباتريش تقول لدانتى مثلا :

« ما كان ينبغي لعدواء صغيرة أو باطل آخر قصير المتعة
أن يخفض إلى الأرض رياشك . . »

وعروس التراث الإسلامى تجهد فى تخليص حبيبها من برائن علاقاته
المادية كذلك وتقول لمن تحاول إغراءه فى الدنيا : —

« ويحك ، دعيه من شرك ، إنما هو معك ليال قلائل ،

وبياتريش ترى من سمائها أن دانتى فى خطر ، فتأتى لإنقاذ روحه وخلاصه
وتعاتبه مر العتاب على خضوعه لمغريات الدنيا ووقوعه فى شرك جمال نساء
غيرها ، وهذا ما نجد مثله عن عروس السماء فى التراث الإسلامى التى
« تستبطن قدمه وتشتاق إليه كما تشتاق المرأة إلى زوجها الغائب ، فإذا
جاء تلقته عند أبواب الجنة وقالت له : طال ما انتظرتك ، أنت جى وأنا
حبك ، ليس دونك تقصير ، ولا وراءك معدل » (٢) .

على أن ضمان وصول عناصر هذا التراث إلى دانتى إنما هو ما ورد فى

(١) انظر كتاب للتوهم للحارث المحاسبى — طبع القاهرة — ص ٤٦ وما بعدها .

(٢) انظر : حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم الجوزية ص ٢٣٧ .

قصة المعراج المترجمة متأثراً في سبعة فصول (١) من وصف الحورية العينا
البارعة الحنان والجمال والتي تظهر لهفة بالغة للقاء عريسها الذي تنتظره
ومن وصف مجموعات الحور بملايسهن الباذخة وطبيعتهن الفاتكة وهن ينشدن
« نحن الخالدات فلا نموت ، نحن الناعمات فلا نبأس ، نحن الراضيات فلا
نسخط ، نحن المقيّات فلا نطعن ، طوبى لما كان لنا وكنا له » ثم صور هذه
العرائس وقد ولدت في خيام لم يصل إليها بشر « حور مقصورات في الخيام »
فتفتّح عنهن كما تفتّح الصدقة عن اللؤلؤة ، وتخصّص كل واحدة لرجل
يكتب اسمه على نحرها وتحرم رؤيتها على من سواه .

فعندما يقرأ دانتى هذه المشاهد من التراث الإسلامى تستحث خياله
وتثير جرأته ليتصور أن عيني بياتريش - حبيبته التى حرم منها في الحياة
الدنيا - هى مرقاته إلى عالم السماوات ، وليتمثل - كما فعل الصوفية
المسلمون من قبله - أن هذا الحب ليس إلا درجة تصفو بنفسه وتسمو
بروحه كى تشارف آفاقاً أضواء وأخلد من الحب الأبدى الإلهى ، وطالما
تحولت المرأة في التراث الإسلامى إلى رمز صوفى بالغ الشنافية والعمق ،
هكذا أصبحت ليلي عند جامى وغيره من شعراء الفرس ، فلا غرو أن تقبس
بياتريش من هذا المعين الذى لم يكن يجهله دانتى وأن تصبح أنور نموذج
لعروس السماء كما تواترت بها الآثار الإسلامية ، وأن تتعاقب عندها ثقافة
الشرق والغرب على يد شاعر عبقرى .

(١) انظر وثيقة معراج محمد الملحق بالكتاب ، الفصول ٣٥/٣٨/٤٤/٤٦/٤٧ .

بين جنة الإسلام وفردوس داني

موقع الفردوس وشكله :

يتكون الفردوس عند داني طوبوغرافيا من تسع سماوات فلكية ، يتوزع أهل الجنة على السبع الأولى منها طبقا لدرجاتهم وأقدارهم ، لكن مقامهم الحقيقي في « الإمبريوم » فوق السماوات الفلكية وهو المستوى الثابت الذي لا يتحرك أو الفردوس الإلهي بالفعل . ويتصورهم داني جالسين في حلقات أو على درجات ومقاعد من نور على شكل دوائر كما لو كانوا يرسمون بصفوفهم وردة نورية صوفية هائلة يقع العرش الإلهي في مركزها تحيط به طبقات الملائكة وتتأمله جموع الصالحين في الفردوس .

ويقع هذا « الإمبريوم » أو الفردوس الإلهي في القدس السماوية التي تقوم في الطرف الأعلى من خط عمودي يقع على القدس الأرضية ، فهي إذن امتدادها العمودي السماوي . وهناك تناسق دقيق بين عالمي الفردوس والجحيم ، ففي كل منهما عشر منازل للأيحاء بوحدة المعيار الخلقى الذي تعتمد عليه أعدادهما عن طريق وحدة التصور المعماري لأماكن الأبرار والأشرار ، إذ تتوقف درجة رفعتهم أو انخفاضهم على مدى سمو الفضائل التي يمثلونها ، كما أن مدى انحطاط الرذائل هو الذي يحدد في الجحيم الدرك الذي يحتله من يتصفون بها ومدى عمقه ، وإن كانت كلها تحت أرض القدس .

فإذا تأملنا التراث الإسلامي وجدنا أن الجنة فيه تقع خلال السماوات الفلكية الآهلة بالملائكة والأنبياء والأولياء الذين يتوزعون عليها طبقاً لمقاماتهم ، — وربما اجتمعوا لتذكر ما كان بينهم في الدار الدنيا — وهذا التصور لا نظير له في التراث المسيحي ، فلم يرد في العهد القديم ولا في الحديد أى ذكر للسماوات الفلكية على أنها مقام الصالحين في الدار الآخرة (١). فتحدد موقعها

(١) انظر : كتاب أسين بالاثيوس المشار إليه ص ٢٢٢/٢٢١ .

بأنه في القدس السماوية التي تقوم على أقصى طرف من خط عمودي منتصب فوق القدس الأرضية عدا ابتكارا أصيلا من دانتى مع أنه شائع منذ وقت مبكر في التراث الإسلامى ابتداء من عصر البعثة إذ وردت بعض الأحاديث النبوية التي تشير لذلك . منها ما جاء عن كعب الأحبار من « أن الجنة في السماء السابعة بإزاء بيت المقدس والصخرة لو وقع منها حجر لوقع على الصخرة » .

كما ورد عن نفس المحدث أن باب السماء الذي يقال له مصعد الملائكة يقابل بيت المقدس ، وشاع هذا في كتب المعراج الإسلامية حيث نقرأ منها : « ولأن صخرة بيت المقدس تقابل باب السماء يقال إنه أقرب موضع من الأرض إلى السماء ، وقيل لا ينزل ملك من السماء إلى الأرض إلا على الصخرة ، ولا يصعد إلى السماء إلا من الصخرة » (١) . وعلى أية حال فإن هذا التقابل الهندسى الدقيق لم يعد من ابتكار دانتى بعد أن عثر على أصله في التراث الإسلامى المتداول .

أما النظام الكوفى العام الذى يتحدد في إطاره موقع الفردوس وشكله ودرجاته فإن أوضح تصور إسلامى له قد وجده الباحثون في تراث ابن عربى الحصب ، وسرى أنه لا يبعد كثيرا عما تقدمه مخطوطة المعراج المترجمة وإن كانت لا تتسم بالدقة الهندسية التي تتميز بها كتابات ابن عربى ، إذ يتمثل العالم : الفانى والباقي ، المادى والروحى ، على شكل دوائر هندسية ، سلسلة من الدوائر المحيطة التي تنسع تدريجيا وتندمج كل منها فيما تعلوها ، وما يعيننا منها الآن إنما هي الوحدات التي تقع بين الأرض والعرش الإلهى : وتشمل تصاعديا المستويات التالية :

الكرة الأرضية يحيط بها الماء ، ومن فوقه الهواء ، ومن فوقه الأثير حيث النار والظلمة ، ثم يبدأ بعد ذلك عالم الكواكب بنفس الترتيب التصاعدى

(١) انظر : كتاب المعراج للقشيري ، تحقيق الدكتور على حسن عبد القادر - القاهرة

فيعد دائره الأثير تأتي سماء القمر وسماءات عطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل ، ثم سماء النجوم الثابتة التي تلتف حولها السماء العليا بدون نجوم أو سماء المحرك الأول ، وتسمى لدى العرب سماء الفلك الأطلس وهي توازي الإمبريوم عند دانتي . وعندها ينتهي العالم الفلكي . وهناك بعد حدودها وفوق محيطها يقع العرش الإلهي محوطاً بالملائكة حيث يشتد بهائوه كمنبع ضوء أبدي .

ويجعل ابن عربي مقر الأرواح داخل هذا النظام الكوني في الفراغ الهائل الواقع بين سماء النجوم الثابتة وسماء المحرك الأول ، أي أن سقف الجنة هو قبة سماء المحرك الأول وأرضها سطح الفلك المكوكب .

وفي المحيط اللانهائي الذي يفصل بين هذين المجالين يتصور ابن عربي ثمانية جنان على شكل دوائر يحيط كل منها بما دونها ، أو على حد تعبير الإمام الشعرائي « صورة مجاورة الجنان الثمانية لبعضها بعضاً صورة دوائر ثمانية جنة في قلب جنة (١) » ، وهذه الجنان هي ، -

- | | | |
|-----------------|-----------------|----------------|
| ١ - الوسيطة | ٢ - دار المقامة | ٣ - دار السلام |
| ٤ - جنة الخلد | ٥ - جنة المأوى | ٦ - جنة النعيم |
| ٧ - جنة الفردوس | ٨ - جنة عدن | |

ولنقرأ في فردوس دانتي الأبيات التالية لنرى مدى قربها من هذا التصور الإسلامي لأشكال الجنان :

- « وإنه ليمتد بنفسه في صورة دائرية حتى ليصبح محيطها بالنسبة للشمس نطاقاً ذا اتساع شامل » .
- « ولتنظر كيف يتسع محيط دائرتنا »
- « وإذا نظرت إلى الحلقة الثالثة »
- « ولكن انظر إلى هذه الحلقات حتى أبعدها » .
- « وفي الجانب الآخر حيث تقطع الفجوات أنصاف الدوائر » .

(١) أنظر ، البواقيت للشعرائي ، الجزء الثاني صفحة ١٧٠ :

« من حلقة لأخرى حتى هنا إلى أسفل (١) »

فإذا عدنا إلى الجنان الثمانية عند ابن عربى وجدناها فى حقيقة الأمر سبعاً فحسب إذ أن أولاهما - وهى جنة الوسيلة المحمدية - تنساب إليها جميعاً ، ووجدنا أن كل واحدة منها تنقسم إلى عدد كبير من الدرجات ، وكل درجة تنقسم بدورها إلى منازل وخوخات ، وبالرغم من أن العدد الشائع فى الآثار الإسلامية أن درجات الجنة مائة إلا أننا نجد ابن عربى يجرؤ أحياناً على إحصائها مثل دانتى فى عدد كبير فيقول :

« وتحتوى الجنة من الدرج التى فيها على خمسة آلاف درجة ومائة درجة وخمسة درجات لا غير . . . وقد تزيد على هذا العدد بلا شك . . . والذى اختصت به هذه الأمة المحمدية على سائر الأمم من هذه الدرجات اثنتا عشرة درجة لا يشاركها فيها أحد من الأمم (٢) » إلا أن هذه الدرجات تتجمع فى مائة تركز بدورها فى عدد محدود من الأجناس لا يزيد على اثنى عشر جنس .

ومن الغريب أن شراح دانتى عندما أخلوا فى تحديد مراتب الفردوس عنده لم يخذعهم كثرتها الظاهرة فى مثل قوله :

« ومنعكسين عليه فى أكثر من ألف طبقة »

ومالوا إلى حصرها فى اثنتى عشرة درجة كبيرة أيضاً (٣) .

أما مخطوطة المعراج المترجمة فهى تقدم تصوراً كونياً شديداً الشبه بتصور ابن عربى و دانتى فتملاً الفراغ بينهما ؛ إذ يفهم منها أن الرسول عندما يرقى إلى معارج السماء من بيت المقدس يمر على عوالم أثرية متعددة قبل أن يصل إلى السماء الأولى فسيرى حامل اللوح المحفوظ ومالك خازن النار الذى يشرح له كيفية تكونها وألوانها ؛ أى أنه يمر بلوادر

(١) راجع الفردوس ، ترجمة د . حسن عثمان ، أبيات متفرقة من الأناشيد ٣١/٣٢ .

(٢) انظر : الفتوحات المكية ، الطبعة المحققة ، السفر الخامس ، ص ٧٢ .

(٣) انظر : كتاب أسبن بالاثوس المشار إليه ص ٢٣٢ .

الماء والهواء والنار والظلمة قبل أن يلج السماء الأولى تماماً كما يتصور ابن عربي ، وبعد أن يخترق السماوات الفلكية يصل إلى سماء العرش ويشاهد وحده أعظم الروى الكونية ؛ ثم لا يلبث أن يصحب جبريل مرة أخرى ليشاهد الجنان المتداخلة في دوائر ، أوسعها دائرة جنة عدن وبدخلها الجنان الأخرى ؛ جنة في قلب جنة ، مثلما تصورها ابن عربي ودانتي ، وإن اختلفت الأسماء قليلاً ، وهى هـا سبع جنات ، فبعد جنة عدن تأتى على التوالي دار القرار ودار السلام وجنة المأوى وجنة الخلد وجنة الفردوس وجنة النعيم وهى أسمائها وتقع في قلبها ، إذ هى قلعة الجنان وتشرف عليها جميعاً وفيها بيت الله المعمور ، وهى مقسمة أيضاً إلى مائة درجة وفيها شجرة طوبى وعندها سلوة المنهى وتتم بعدها الروية الإلهية ، ثم يخترق الحجب ويعود أدراجه حتى يصل إلى السماوات الفلكية ، وعندما يهبط إلى الأرض يوضح أنها سبع أرضين موازية تما فيها من جحيم ذى طبقات منازل الجنة وطبقات السماء (١) ، حتى يتم التوازي بين العالمين بطريقة محكمة .

كما يستخدم دانتي في تصوره للفردوس صوراً نموذجية أخرى حيث يتمثله على شكل روضة مسورة تضم مملكة أو عرشاً ملكياً يشغل المسيح والعلماء فيها أسمى مكان ؛ إذ يقومون على هضبة يلتف حولها الأبرار ليتأملوا النور الإلهي ؛ ولهذا منظره في وصف ابن عربي للجنة ، فهى ليست عنده في جملتها سوى بستان هائل مقسم إلى سبع درجات دائرية تفصلها عن بعضها الأسوار والجدران ، وهى دوائر نورية فيقول « وبين كل جنة سور يميزها عن صاحبها » ويقول « يدور عليها ثمانية أسوار ، بين كل سورين جنة » (٢) ، كما نجد في كتاب المعراج وصفاً تفصيلياً - في الفصل الثلاثين - للجدران الجنة وأسوارها مثلما نجد عند دانتي :-

« إذ أن هؤلاء هن الجدار

(١) راجع عرض وثيقة معراج محمد في الفصل التالى ، فصول ١٠/٧/٦/٥ إلى ٣٤ .

(٢) انظر : الفتوحات المكية لابن عربي ، الطعة المحققة - السفر الخامس - ص ٧١ .

الذى يقسم الدرجات المقدسة

إذ ستمتلىء هذه الحديقة ..

ألا فلتخلق بعينيك خلال هذه الروضة « (١)

وأعلاها عند ابن عربى جنة عدن ، « فهى قصبة الجنان .. بمنزلة دار الملك » و « جنة عدن هى قصبة الجنان وقلعتها وحضرة الملك » أما فى كتاب المعراج فجنة النعيم هى أسماها وقلعتها التى تشرف عليها جميعاً إذ فيها البيت المعمور مقر الحضرة الإلهية ، ويقول دانتي :-

« وإن هذه المملكة البهيجة الآمنة ..

ولكن انظر إلى هذه الحلقات حتى أبعدها

إلى أن تراها جالسة ؛ تلك الملكية التى ينحضع

وينحسح لها كل هذا الملوكوت .

« إن الملك الذى يستقر بفضلها هذا الملوكوت .. » (٢)

كما أن فيها عند ابن عربى « الكتيب الذى يكون اجتماع الناس فيه لرؤية الحق تعالى عن النظر .. وعند رؤية الحق فى الكتيب الأبيض » وتحدثنا المخطوطة عن الهضاب البيضاء النورانية حيث تتم الرؤية ، فيقول دانتي :-

« وكما ينعكس التل عند سفحه ..

عندما تفيض جناته بالعشب والأزهار .

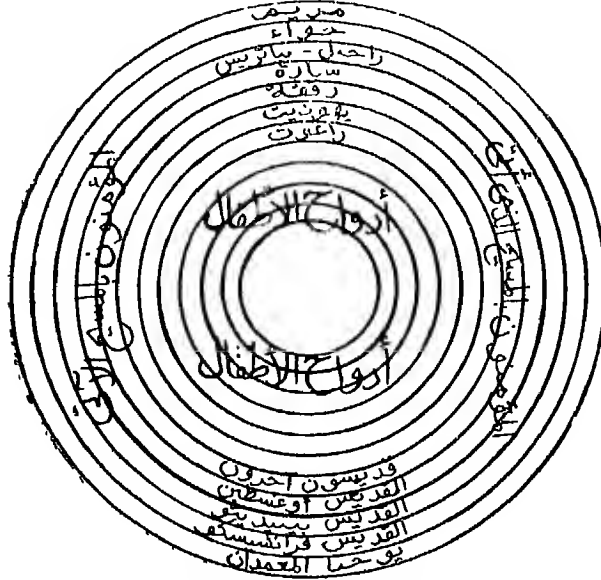
وكأنى أذهب بعينى من واد مضى إلى جبل » (٢) .

ف نجد فى كل ذلك تلاقياً فى الصور لا ينتهى بنا إلى القول بأن دانتي كان ينسخ المأثورات الإسلامية ، فالشاعر العظيم لا يمكن أن يفعل ذلك ، وإنما لتأكيد موقف آخر هو أنه يطلع عليها وتروقه ثم تتسرب مثيلاتها إلى صياغته ذات البنية الفكرية واللغوية المختلفة ، وعندما تتراكم هذه الصور فهى دليل

(١) انظر : الفردوس ترجمة الدكتور حسن عثمان ، نشيد ١٩/٣٢ - ٢٠ .

(٢) أنظر المرجع المذكور .

ولتقارن هذا الرسم برسم آخر لم يضعه دانتي بنفسه وإنما رسم بعض
شراحه لتمثيل وردة الطوباويين في الفردوس كما صورها دانتي بأشعا



رسم « مانفريدي بورينا » لوردة الطوباويين في فردوس دانتي

وسنرى عند تحليل عناصر هذه الوردة الطوباوية أنها قريبة من المأثورات
الإسلامية في تقسيماتها وصورها ، لكن لا يفوتنا أن نشير إلى أن هذا التقارب
بين عالم دانتي الثرى والفكر الإسلامى لا ينبغى أن يحمل على وجه التقليد ،
فهذا ما حرص الباحثون دائماً على نفيه (١) ، وإنما على أساس التمثيل الواعى
من قبل الشاعر الإيطالى للعناصر الإسلامية وتحويلها وبناء هياكل جديدة
أسرت بروعتها القارئ الأوروبى طيلة عصور عديدة ، خاصة وأن فكرة
المحاكاة التى قامت عليها الكلاسيكية الجديدة وأسهم فيها الشراح الإيطاليون
بنصيب وافر كانت تعتد بالتراث القديم كمنطلق ضرورى لأعظم التكوينات
الأدبية والفنية المستحدثة .

فإذا قارنا بعد ذلك ما أطلق عليه « أسين بالاثيوس » « البناء الأخلاقى

(١) أنظر فى هذا الفصل خاصة كتاب أسين بالاثيوس الحجة الرئيسية فى الموضوع .

للفردوس « عند دانتى ، ويقصد به الوظيفة التى تؤدىها هذه التقسيمات الهندسية ينظره عند ابن عربى وجدنا اهتمامهما الشديد بالتفاصيل والتقسيمات الفرعية للمقامات والمراتب التى ينقسم إليها أهل الجنة طبقاً لمعايير أخلاقية ، فابن عربى يقول :

« فما من فريضة ولا نافلة ولا فعل خيز ولا ترك محرم ومكروه إلا وله جنة مخصوصة ونعيم خاص يناله من دخلها ، . فيتنزل الناس على حسب أعمالهم . . فمن كان أفضل من غيره كان له من الجنة أكثر . . ويقع التفاصيل فيها بين أصحابها بحسب ما تقتضى أحوالهم (١) .

وهذا هو نفس معيار التفاضل عند دانتى إذ يقول :

« وبداخل هذا الملكوت الرحيب ، ما من مكان

يتأذى وجوده لأمر وليل الصدفة . .

إذ أن كل ماتراه بالقانون الأزلى مقرر

بحيث يتلاءم تماماً كل شئ هاهنا . . »

ولهذا فإن هذه الجماعة التى بكرت فى الذهاب إلى الحياة الحقة لم توجد هنا دون سبب يزيد أو يقل كما له فيما بينها هاهنا (٢) .

والتفاضل عند ابن عربى على مراتب ، فقد يقع بالسن ، ولكن فى الطاعة والإسلام فيفضل الكبير السن على صغيره إذا كانا فى مرتبة واحدة من العمل ، ويفضل العمل بالزمان والمكان والأحوال . إلا أن المعيار الرئيسى للتفاضل عنده يقوم على حسب أعضاء التكليف ، ولهذا فإن أبواب الجنة ثمانية على عدد أعضاء التكليف التى تستخدمها النفس لممارسة الأفعال الفاضلة وهى : البصر والسمع واللسان واليدان والبطن والفرج والقدمان والقلب . ولعلنا نذكر أن هذا المعيار هو الذى استخدمه فى تحديد أحقية الإنسان لمراتب النار سلباً ، إذ أن كلا من ابن عربى ودانتى حريصان على إقامة توافق متسق

(١) انظر : الفتوحات المكية ، الطبعة المحققة . السفر الخامس ص ٦٤-٦٥ .

(٢) انظر : الفردوس ترجمة الدكتور حسن عثمان ، نشيد ٣٢ آيات ٥٢-٥٨ .

دقيق بين عالمي النعيم والحجيم في الحياة الآخرة . فلأفعال كل من هذه الأعضاء إذن ثوابه في إحدى الجنان .

فيرى ابن عربي مثلاً أن الموقع الذي يحتله كل واحد من أهل الجنة في درجاتها الثمانية يستحقه لأحد أسباب ثلاثة : —

١ — إما بفضل من الله ونعمة دون أن تكون أعماله مؤدية لذلك ، وهذا يحدث فيما يسميه بجنة الاختصاص الإلهي « وهي التي يدخلها الأطفال الذين لم يبلغوا حد العمل وحدهم من أول ما يولد إلى أن يستهل صارخاً إلى انقضاء ستة أعوام ، ويعطى الله من يشاء من عباده من جنات الاختصاص ما شاء .. ومن أهلها أهل الفترات ومن لم يصل إليهم دعوة رسول (١) » . ونلاحظ أن هذه المرتبة كثيرة الدوران في الآثار الإسلامية وإن كان ابن عربي يضيف إليها تفصيلات أخرى .

ونرى تصور دانتى لها في الأبيات التالية :

« ... لا بجدارة من ذاته

بل بفضل آخر وبيعض شروط .

إذ أن هذه كلها أرواح محررة

من قبل أن يكون لها في ذلك خيار صحيح

ويمكنك أن تتبين هذا جيداً على وجوههم

وكذلك في أصوات طفولتهم (٢) »

وبذلك فقد وضع هؤلاء في درجات مختلفة دون جدارة من أعمالهم ، وأفرد لهم طبقاً للرسم الذي رأيناه منازل خاصة تشبه جنة الاختصاص .

٢ — أما السبب الثاني فهو بالاستحقاق وجزاء لأعماله الصالحة وهي جنة الأعمال التي ينزل فيها الناس لقاء أعمالهم ، وهي شائعة تمثل المستوى المألوف في فردوس دانتى .

(١) نفس المصدر لابن عربي — السقر الخامس ص ٦٣ .

(٢) نفس المصدر لدانتى نشيد ٣٢ أبيات ٤٢ — ٤٧ .

٣ - أما السبب الثالث - ولا يخلو من طرافة - فهو جنة الميراث عند ابن عربى وهى التى ينالها كل من دخل الجنة من المؤمنين وكانت أما كن مخصصة لأهل النار لو أنهم أطاعوا واستحسوا عليها بأعمالهم ، وهذه درجة معروفة فى التراث الإسلامى بأنها هى التى يورثها الله لمن يشاء من عباده ، ويفرد لها القرطبى فى التراث الإسلامى مثلاً باباً عنوانه « ما جاء ميراث أهل الجنة منازل أهل النار » (١) ويشير إليها دانتى فى قوله :-

« ولتنظر كيف يتسع محيط مدينتنا

ولتشهد كيف امتلأت عروشنا »

إذ أن فى هذا طقاً لتفسير شراحه إشارة إلى الأماكن الشاغرة فى الفردوس لعصيان بعض الأرواح واحتلال الصالحين لها بالميراث .

على أن الخاصية المميزة للنوع الثانى هى أن أعمالهم مع ذلك لا توجب لهم بالضرورة هذا القدر من الثواب ، وإنما يظل دخول الجنة برحمة من الله لا بعد له فقط : فقد ورد فى الحديث « لا يدخل أحداً منكم الجنة عمله » إذ أن ما فيها من النعيم والسعادة أسمى من أى عمل بشرى مهما كان ، ولذلك فلا بد للمؤمنين من الشفاعة المحمدية . ولنقرأ مقابل ذلك هذه الأبيات عند دانتى :-

« إن المليك الذى يستقر بفضلله هذا الملكوت . .

بمثل هذه المحبة ، وبمثل هذه البهجة

بميت لا تجترئ إرادة على أن تطلب المزيد

إذ أنه فى خلقه كل العقول على صورته البهيمة

يهبها النعمة بصور متفاوتة كما يروقه (٢) »

ونخصى فى تحليل مراتب الصالحين فى الجنة - طبقاً لابن عربى - فنجد

أنهم يتوزعون فى حالة الشهود فى الكتيب الأبيض على أربع طوائف :-

(١) انظر : مختصرة تذكرة القرطبى للأمام الشعراى ص ١٣٥ .

(٢) انظر : فردوس دانتى . نشيد ٣٢ أبيات ٦١ - ٦٤ وكتاب أسين بالاثيوس المشار

إليه . ص ٢٢٧ .

- ١ - طائفة منهم أصحاب منابر وهى الطبقة العليا ، الرسل والأنبياء .
- ٢ - والطائفة الثانية هم الأولياء .. وهم على بينة من ربهم ، وهم أصحاب الأسرة والعرش .
- ٣ - والثالثة هم العلماء بالله ، وهم أصحاب الكراسى .
- ٤ - والرابعة وهم المؤمنون المقلدون في توحيدهم .. ولهم مراتب يتفاوتون فيها أيضاً (١) ،

وهذا قريب مما فعله دانتى في توزيعه لمراتب الفردوس إلى حد كبير ، فهو يضع في قمته الأنبياء والرسل من العهد القديم مثل آدم وموسى ، ثم يضع فيما يليهم أولياء الكنيسة وهم القديس بطرس والقديس يوحنا ومن بعدهم بقية القديسين ذوى الطرق الدينية مثل القديس فرانسيسكو والقديس بينيتو والقديس أوغسطين من علماء اللاهوت . ثم يضع في نهاية الأمر بقية المؤمنين الذين اتبعوا هؤلاء .

ويتوافق دانتى مع ابن عربى حتى في استخدامه لبعض المصطلحات مثل العروش والأسرة والكراسى والمراتب .

ويميز ابن عربى داخل هذه الطبقات الأربعة بطريقة مبهمة نسبياً بين أتباع الدين الإسلامى ومن تبعوا الأديان السماوية الأخرى في حضورهم ، وإن كان لا يصل في ذلك إلى حد التمييز الواضح بينهم كما فعل دانتى في الفردوس بين أتباع المسيح الذى أتى - أى المسيحيين الحاليين - وأتباع المسيح الذى يأتى - وهم اليهود - على يمين وردة الطوباويين ويسارها بالتوالى وتعدد الآثار الإسلامية التى تشير لبعض مظاهر من ذلك عند الحديث عن الأمم التى تدخل الجنة ومقاماتهم .

مثلما ورد عن على بن أبى طالب قال : « فى الجنة لؤلؤتان الى جانب

(١) انظر الفتوحات المكية - الطيبة المحقة ؛ السفر الخامس ص ٧٦/٧٨ .

العرش ، إحداهما بيضاء والأخرى صفراء ، في كل واحدة منهما سبعون ألف غرفة ، فالبيضاء لـ محمد وأهل بيته . . . والصفراء لإبراهيم وأهل بيته (١) .

ولكن التشابه يصل إلى درجة كبيرة بين التصورين عندما يجد ابن عربي يضع الرسول صلى الله عليه وسلم في أشرف مكان في الجنة « وهو المقام المحمود وبهذا صحت له السيادة على جميع الخلائق . . . وكان قد أقيم فيه آدم . . . فإن ذلك المقام اقتضى له ذلك في الدنيا وهو لمحمد في الآخرة ، وإنما ظهر به أولاً أبو البشر وهو الأب الأعظم في الجسمية والمقرب عند الله » فأدم إذن أبو البشر حسياً ومحمد أبوهم روحياً ، وهما لذلك قريبان في الجنة عند ابن عربي ، وبنفس الطريقة نرى دانتى يضع في وردته الطوباوية في الفردوس آدم أباً للبشر والقديس بطرس الزعيم الروحي للدين المسيحي قائلاً :

إن ذينك اللذين يجلسان في أسعد حال هناك في العلياء
لشديد قريهما إلى امبراطوريتنا . . هما بمثابة الأرومة من هذه الوردة .
وذلك الذي هو إلى اليسار قريب منها هو الأب الذي
يذوق الجنس البشري شديد المرارة من تلوقه المتهور
وإلى اليمين ترى ذلك الأب العتيق للكنيسة المقدسة
الذي عهد إليه السيد المسيح بمقتاحي هذه الزهرة الجميلة (٢) .

وعندما حدد ابن عربي موقع البيت المعمور في السماء قال : « وهو على سمت الكعبة كما ورد في الخبر لو سقطت منه حصاة لوقعت على الكعبة »

(١) انظر : كتاب العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة لابن مخلوف ، طبع القاهرة عام ١٣١٧ هـ من ٥٩ .

(٢) انظر : الفردوس ترحمة الدكتور حسن عثمان ، النشيد ٣٢ أبيات ٨ — ١٢٥

ثم رسم لوحة مربعة بين في أعلاها درجات الجنة ومراتب أهلها طبقاً لثواب أعمالهم وفي أسفلها درجات الجحيم ومراتب أهلها أيضاً جزاء وفاقاً لأعمالهم ، فانضح تطابق هذه الدرجات في العدد والتوزيع إيجاباً في الجنة وسلباً في النار ، مما كشف عن التناسق الشديد في رؤية ابن عربي للعالم الآخر طبقاً للموروثات الإسلامية وقدم تصوراً مخططاً منظماً هنيئاً لا يضاهيه إلا التصور الذي قدمه دانتي بعد ذلك والذي فتن الباحثين باتساقه ونظامه ودقته حتى وقعوا على الرقائق الدالة على اطلاع دانتي على عناصر هذا التراث وإفادته الدكية منه .

وبالرغم من التراكم الوصفى الشديد في قصة «معراج محمد» المترجمة إلا أن المعيار الخلقى الذي يتوزع الصالحون طبقاً له على درجات الجنة يتسق مع ما رأيناه عند دانتي وابن عربي لأنه هو المعيار الإسلامي الثابت ، فأنواع النعيم التي يراها الرسول في الجنات السبع تشرح في فصول متعددة (١) تزخر بنفس الصور . فقاعد المؤمنين أيضاً من نور ، وصور الملائكة هي نفسها كما سنشرح فيما بعد ، لكن يبقى فرق هام بين مثل هذا النوع من التراث والأعمال الأدبية والفلسفية الكبرى كما تتجلى عند ابن عربي ودانتي ، وهو أن البنية الفكرية الأساسية للقصص الفولكلورية فقيرة شديدة المحافظة ، إذ أنها لا تفتأ تكرر المسلمات المعروفة ثم تفرقها في أوصاف متتالية نمطية مكررة تعتمد على المبالغة والهويل ، أما الأعمال الكبرى فلأنها على العكس من ذلك شديدة الحرأة على السياق الفكري المؤلف ، تدخل فيه عناصر تكسر نمطيته وتثريه وتخرج على إطاره وتطل به على آفاق جديدة ، ثم توظف ما تستخدمه من إمكانيات تصويرية بطرق متعددة وخصبة .

(١) انظر الفصول رقم ١٧ / ١٨ / ٢٠ / ٢٦ / ٤١ من كتاب المعراج الملحق

بهذا البحث .

ومن هنا فإن شرح مصادر هذه الأعمال الكبرى في أية مقارنات تحليلية لا يزيد عن تقديم إمكانية جديدة لفهم المواد الأولية التي تتكون منها هذه الأعمال دون أن يمس الأبنية الكلية المعقدة لها أو ينقص من قدر مؤلفيها ، ففهم وسائل العباقرة في الإبداع لا يبطل سحرهم بل يدفعنا إلى مزيد من الإعجاب بهم .

وبهذا المنظور فحسب نتقدم خطوة أخرى في التحليل المقارن للفردوس .

صور من الفردوس :

١ - المرقاة

من المشهور في التراث الإسلامي أن الرسول قد عرج به إلى السماء من بيت المقدس على مرقاة أو معراج درجاته من ذهب وفضة وزهر . وهو الذي تعرج عليه الأرواح إلى الجنة ، وقد أخذ الملائكة يفسحون الطريق للرسول عن يمينه وشماله حتى صعد إلى السماء . ومعروف أيضاً مشهراً صعود داني الشبيه بما سبق إلى حد كبير طبقاً لما جاء في التشيدين الواحد والعشرين والثاني والعشرين من الفردوس ، فعندما وصل داني مع يياتريش إلى سماء زحل أو البهاء السابع كما يسميه ، رأى معراجاً يتجه إلى الأعلى هكذا :

« رأيت معراجاً يتجه إلى الأعلى ، بلون الذهب الذي يعكس
أشعة الشمس حتى لم تقو على متابعته حيناً
وكذلك رأيت على درجاته أنواراً كثيرة تهبط إلى أسفل
حتى ظننت أن قد انثر عليه كل ما يتبدى في السماء من الأنوار » (١)
ودعته يياتريش ليعرج عليه ، فرأى نفسه على قمة القمم ، أي ضار
في رحاب أعالي السماء في وقت أقل مما تضع فيه إصبعك في النار وتسجبه .
ونفس هذه المرقاة هي التي نجد وصفها هكذا في قصة المعراج
الترجمة :

« أراني جبريل مسلماً يمتد من السماء الأولى إلى الأرض
أولى درجاته من باقوت ، وثانيها من زمرد ، وثالثها من لؤلؤ
ناصع البياض ، وكل درجة أخرى من حجر نفيس .. كلها محوطة

(١) أنظر : الفردوس ترجمة الدكتور حسن ميان - نشيد ٢١ أبيات ٨-٢٢

بالملائكة الذين يحفظونها ، . وكانت من البهاء والإشراق بحيث
يعشى نورها البصر.. وأخذ جبريل يبدى إلى الدرجة الأولى
وصعدنا إلى السماء في لمح البصر» (١) .

ويأتى وصف هذا المعراج في روايات إسلامية أخرى بأنه «لم تر الخلائق
أحسن منه : له مرقاة من فضة و مرقاة من ذهب ، وهو من جنة
الفردوس ، متضد باللؤلؤ» ، عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة» (٢)

وبالإضافة إلى هذا الوصف المحدد لمرقاة المعراج بهما أن نشير هنا
إلى أن فكرة العروج إلى السماء في ذاتها بلغت من الذبوع والانتشار في
التراث الإسلامى إلى الحد الذى نرى معه مفكراً مثل الغزالي يقول بأن كل
الأرواح السعيدة لها معراج إلى السماء تفرع فيه أبوابها وترى ما فيها من
نعيم (٣) ثم لا تخلو أية قصة من قصص المعراج من وصف هذه المرقاة
ودرجاتها الذهبية وأنوارها المتلألئة السماوية .

٢ - اللقاءات :

طبقاً لكثير من الروايات الشائعة عن الإسراء والمعراج ورد أن الرسول
قد التقى في السماوات التى صعد إليها لابعديد من الأنبياء فقط وإنما بجماعات
من أتباعهم وبعض صحابته هو نفسه ، فقد ورد أنه رأى هارون في السماء
الخامسة يقص على جماعة من بنى إسرائيل بعض قصص التوراة ، وأصبح
هذا في قصة المعراج المترجمة مجالس سماع يحكى فيها الملائكة الأقاصيص
تحت أشجار الجنة (٤) وعندما رأى موسى وإبراهيم لم يكتف بتحييتهم بل
حاورهم وناقشهم في مسائل دينية مثل الصلاة وغيرها، وبالإضافة للأنبياء

(١) انظر : عرض كتاب معراج محمد ١ الوثيقة الملحقه ١١ الفصل الخامس .

(٢) انظر : قصة الإسراء والمعراج لنجم الدين النيفلى طبع القاهرة عام ١٩٧٠م ص ٧٢/٧٣

(٣) انظر . الدرة الفاخرة في كشف علوم الاخرة للغزالي . طبع صبيح بالقاهرة عام ١٩٧١

ص ٧ وما يلها .

(٤) انظر . قصة المعراج المترجمة الملحقه كوثيقة في النهاية ، الفصل الأربعين .

رأى شخصيات أخرى مثل مريم أم موسى ومريم أم عيسى في السماء الرابعة ، كما رأى في السماء السابعة جماعات من المسلمين في ثياب بيضاء وآخرين في ثياب قاتمة ، ورأى رجلاً لا يعرفه قد غرق في الضوء الذي يفيض من العرش الإلهي فسأل عنه جبريل فأخبره أنه مثال لما أعد الله من نور للصالحين من عباده ، ورأى بلال أول مؤذن في الإسلام فعرفه وهنأه ، ورأى أبا بكر الصديق الذي يصحبه — طبقاً لبعض الروايات — ليؤنسه في السماء بعد أن يتوقف جبريل ويتركه وحده .

كل هذه المشاهد في جملة أحداثها وخطوطها العامة نجد نظائرها عند دانتي الذي تمتلئ ملحمته بالشخصيات الثانوية ، فكل طبقة من السماء آهلة بسكانها الذين يتجمعون طبقاً للمهن التي كانوا يزاولونها في الدنيا أو وفقاً لدرجاتهم في الجنة ، فبعضهم من رجال الدين وبعضهم محاربون شهداء أو قضاة زهاد وهم يتناقشون أيضاً فيما بينهم ويحاورون دانتي عندما يرونه في موضوعات لاهوتية وفلسفية ، وإن كان معظمهم من المسيحيين إلا أن منهم أيضاً يهوداً وغيرهم ، ومنهم الذكور والإناث والكبار والصغار وبعض أقرباء دانتي وأصدقائه .

ولعل أهم لقاء متميز من هذه اللقاءات هو خروج الأنبياء جميعاً — كل من السماء التي يقيم عادة فيها — للترحيب مرة واحدة بالرسول والاحتفاء بمقدمه وعقد حوار حي معه ، تماماً مثلما نزلت كل الأرواح الطوباوية من منازلها للقاء دانتي والترحيب به والحديث معه ثم عادت إلى مقرها بعد ذلك ، وهذا اللقاء مشترك بين جميع الروايات الإسلامية عن المعراج ومفصل في القصة المترجمة من الفصل الثاني عشر حتى التاسع عشر .

كانت المهمة التي يقوم بها جبريل في كل مراحل المعراج هي مرافقة الرسول عليه السلام في الصعود من سماء إلى سماء وإنجباره عن من بها من خلق الله والعمل على راحته ونصحه ، وهي نفس المهمة التي قام بها دليلاً دانتي وهما فرجيل وبياتريش ، ففكرة اتخاذ هاد أو دليل أصيلة في المعراج الإسلامي ، ولكننا نجد التفاصيل الدقيقة لقيامه بوظائفه خلال السماوات في التراث الإسلامي قريبة مما نراه عند دانتي ، فـجبريل قد يذهب في عون الرسول إلى حد الدعاء له في مثل قوله . « فلما رأى جبريل ما بي قال اللهم ثبته برحمتك وأيده بقوتك وأتمم عليه نعمتك » وعندما يعتريه الخوف يشبهه بهذه الكلمات « لم تقزع يا رسول الله ؟ أبشر فإن الله قد درأ عنك الروعات والخاوف كلها ، واعلم علماً يقيناً أنك خيرته من خلقه وصفوته من البشر ، حباك بما لم يحبه أحداً من خلقه .. ولقد قربك الرحمن عز وجل إليه قريباً من عرشه مكاناً لم يصل إليه ولا قرب منه أحد من خلقه قط ؛ لا من أهل السماوات ولا من أهل الأرض ، فهناك الله بكرامته واجتباك به وأنزلك من المنزلة الأثيرة والكرامة الفائقة ، فجدد لربك بشكره فحمدت الله على ما اصطفاني به وأكرمني » (١)

ونجد نفس المشهد عند دانتي في النشيد العاشر من الفردوس عندما يصل إلى دائرة الشمس وتهتف به بياتريش :

« ألا فلتحمد ، ألا فلتحمد شمس الملائكة

التي سمت بك إلى هذه الشمس المروية بفضل من نعمتها

إلى مثل هذا الخشوع لم يتبها قط قلب بشر فان

(١) انظر . اللاتى المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للامام جلال الدين عبد الرحمن

السيوطي ؛ نشر دار المعرفة ببيروت عام ١٩٧٥ : الجزء الأول ص ٧٦

ولم يسارع لكي يهب نفسه لله وهو مفعم بالشكران (١) .
كما تناثر صلوات بياتريش وسان برنار دو ودعائهم لدانتي في مواضع
أخرى عديدة .

يبد أن النقطة الدقيقة في التشابه بين التراث الإسلامي والكوميديا الإلهية
فيما يتصل بمهمة الهداية هي أن بياتريش تصحب دانتي إلى أمد معلوم في معراجها ،
ثم لا تلبث أن تتركه عندما يصلان إلى مرحلة محددة ليحل محلها سان برناردو ،
وهذا هو نفس ما يحدث للرسول مع جبريل الذي لا يصحبه في المرحلة الأخيرة
عندما يصعد للعرش الإلهي ، وتمضي الرواية المذكورة في وصف هذا
المشهد على النحو التالي : « فلما أسرى بي إلى العرش وحاذيته دلي لي رفرف
أخضر لا أطيق صفته لكم فأهوى بي جبريل فأقعطني عليه ثم قصر دوني
ورد يديه على عيني مخافة على بصره أن يذهب من تلالو نور العرش . .
فرفعني ذلك الرفرف النوراني بإذن الله ورحمته إياي وتمام نعمته علي (٢) » .
وقريب من هذا الرفرف المضيء ما يصفه دانتي بعد ترك بياتريش له
بقوله :

« هبطت من كبد السماء شعلة دائرية بهيئة إكليل
وأحاطت بها وأخذت في الدوران من حولها (٣) » .

وهي الشعلة الدائرية التي تحمل العنقاء إلى سماء السماوات مثلما تحمل
مثيلتها الرسول عليه السلام إلى مقام العرش الإلهي .

وكذلك نرى أن إجابات بياتريش الدائمة على المشاكل العقائدية
أو الفلسفية التي يثيرها دانتي عن السماوات المختلفة نجد نظيراً واضحاً لها في
مشاهدات المعراج الإسلامي حيث يشرح جبريل أو ملك الموت أو خازن النار

(١) انظر . الفردوس ترجمة الدكتور حسن عثمان ، النشيد العاشر أبيات ٥٢-٥٨

(٢) انظر . اللؤلؤ للسيوطي ، الطبعة المشار إليها ص ٧٤

(٣) انظر . الفردوس ، النشيد ٢٣ أبيات ٩٣/٩١

والجنة للرسول ما يريد أن يعرفه عن الحشر والنشر وأسرار الخلق وأخبار الدار الآخرة .

ولنستمع على وجه التحديد المشهد الأخير من المعراج الإسلامي عندما يشرح جبريل للرسول في السماء الأخيرة أنواع الملائكة ومراتبهم بقوله : — « فالذين رأيت في بحور عليين هم الصافون حول العرش إلى منتهى السماء السادسة ، وما دون ذلك هم المسبحون في السماوات والروح رئيسهم الأعظم . . فقلت يا جبريل : فمن الصف الأعلى الذي في البحر الأعلى فوق الصفوف كلها الذين أحاطوا بالعرش واستداروا حوله ، فقال جبريل يا رسول الله : إن الكروبيين هم أشرف الملائكة وعظماؤهم ورؤساؤهم (١) » فإذا قارنا هذا بالشرح الطويل الذي يضعه دانتى على لسان بياتريش عند وصولهم للسماء التاسعة عن صفوف الملائكة ومراتبهم وطبيعتهم أدركنا التطابق بين التصورين في مثل قوله : —

« من جوقة إلى جوقة سمعهم يترنمون بالهوشعنا صوب النقطة الثابتة التي أبقتهم في أما كنهم . . »

وتلك التي أدركت ما يجول بخاطرى من هواجس الشك قالت : —
لقد أظهرت لك الدائرتان الأوليان الملائكة السرافيين والكروبيين (٢) .

ثم تمضى بياتريش لتوضح له أن هؤلاء الكروبيين هم أسس الملائكة لأنهم يحتلون الصفوف الأولى المحيطة بالعرش متقدمين على من سواهم من الملائكة .

أما في قصة المعراج المترجمة فإننا نجد هؤلاء الهداة يقومون بوظائفهم بشكل متسق متواز مع هداة دانتى في الكوميديا بأسرها ، فإذا كان الذين قاموا بمهمة إطلاع دانتى على أسرار الجحيم والمطهر والفر دوس هم فرجيل

(١) انظر . اللاء للسيوطي ، الطبعة المشار إليها . ص ٧٧

(٢) انظر القردوس ، نشيد ٢٨ أبيات ٩٥ ، ٩٩ وانظر كتاب أسين بالاتيوس ،

وما قيلدى وبياتريش وسان برناردوفان هداة الرسول عليه السلام طبقاً لهذه الرواية هم ملك الموت وإسرافيل ورضوان ، ومن قبلهم ومعهم جبريل (١) ، فالأول يشرح له كيف ينزع الأرواح من العباد ويحملها إما إلى الجنة أو النار والثاني يوضح له كيفية خلق النار ومن هم أهلها والثالث يريه بأمر الله الأرضين السبع وما فيها من عجائب أما جبريل فيصحبه في كل السماوات ويطلعها على الجنان ويريه عجائب الملكوت الأعلى ، مما يقدم دليلاً ملموساً على استفادة دانتي من عناصر التراث الإسلامى في تصميمه للمحمة الخالدة ، مع اختلاف الأدوار والأغوار بين المجالين بطبيعة الحال ، لكن تظل صورة الهداة المتعددتين ، وبعض مواقفهم وأقوالهم المحددة ، نقاطاً يتضح فيها التحام الكوميديا الإلهية بالموروثات الإسلامية .

٤ - نقش على الباب :

تروى قصة المعراج المترجمة أن الرسول عليه السلام عندما دخل الجنة وجد مكتوباً على بابها من الداخل هذه الكلمات « أنا الله لا إله إلا أنا ، وكل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد عصم نفسه من النار ولن يدخلها جزاء ما ارتكب من الخطايا (٢) » . فنتساءل عند قراءتها ألم يكن من الأجدر بها أى توضع على باب النار ؟ إذ أنها لا تشير إلى شئ في الجنة ونعيمها ، بل إلى الدرع الواقى من الجحيم وهو الشهادة . وقبل أن يكتشف هذا النص قرأ الباحث الكبير « أسين بالاثيوس » الآيات التالية لدانتي في الجحيم : -

« هنا الطريق إلى مدينة العذاب . . هنا الطريق إلى القوم المالكين

لقد حركت العدالة صانعى الأعلى وخلقتنى القدرة الإلهية

والحكمة العليا والحب الأول .

لم يخلق قبلى شئ سوى ما هو أبدي ، وانى باقى الى الأبد »

(١) انظر : كتاب معراج محمد الوثيقة الملحقه ، فصول ٦/٧/٨/١٠/١١/٢٨/٢٩

(٢) انظر معراج محمد الوثيقة المترجمة الفصل ٣٣

هذه الكلمات رأيها مكتوبة بلون داكن على باب (الحجيم) (١) .
 فرأى فيها ملمحاً قوياً يشير إلى بعض عناصر التراث الإسلامي مما كتب
 على جبين بعض أهل النار وكان من السهل على دانتي أن ينقله ليضعه على
 باب النار مجازة لعادة أهل العصور الوسطى في كتابة الشعارات على الأبواب .
 ويصدق حدس « أسين بالاثيوس » في هذا الموضع كما صدق في غيره ،
 إذ نعثر على النص السابق الإسلامي منقوشاً على باب الجنة وهو أشبه بما يكون
 مناسبة لأن يوضع على باب النار ، فكأن دانتي قرأ هذا النص فيما قرأ ،
 ونقله ليضعه في مكانه الملائم ، وظل خاضعاً في تصويره للمعنى الإسلامي في
 البيت الأخير الذي يصف فيه الله نفسه بأنه الأول والآخر ، وفي دلالة نص
 دانتي على رحمة الله وعدالته وحبه ما يشير كذلك إلى أن النجاة من هذه النار
 ميسورة قريبة ، وهذا نفس ما يؤكده النص الإسلامي الذي يكتفى من الإنسان
 بالاعتراف بالله ورسوله كي يعصم نفسه من أهوال الحجيم مهما ارتكب بعد
 ذلك من الخطايا والموبقات . فعملية النقش نفسها وفحوى النصين يؤكداً
 تلافى الصورتين .

٥ - مهرجان الضواء والأناشيد :

أبرز الدارسون لأدب دانتي الهوة الساحقة إلى تفصل بين تصويره
 للفر دوس ، وتصور سابقه من الغربيين الذي كان يتسم بالفقر الشديد والخيال
 الصياني عن سماء مادية بشرية . ولكن دانتي قد استغل كل الظواهر المرفهة
 الشاردة في الطبيعة لتصوير مهرجان من الظواهر تصبح به الحياة السماوية عيداً
 إلهياً من الصوت والضوء . فالفر دوس عند دانتي هو مملكة الروح التي
 تسمو على الماديات الخشنة ، وليس هناك مثل النور والموسيقى في رهاقتهما
 ما يفتح عوالم هذه المملكة الروحية .

ونفس هذه العناصر التشكيلية هي التي تتكون منها صورة الجنة في التراث

(١) انظر الحجيم النشيد الثالث أبيات ١ - ١٠ وكتاب أسين بالاثيوس ص ٧٢

الإسلام ، وهى الغالبة على مشاهد الرسول فى معراجہ خلال السماوات ، فكل ما فيها يقدم رؤية ضوئية تتصاعد وتتكشف حتى تصل إلى ذروة البهاء فى المراحل الأخيرة ، وفى الجنة يتخلل النور كل شيء حتى تفقد الأجسام ماديتها ونستطيع اختراق الأسوار والقصور لنرى ما يدور فى أى مكان ، فالشفافية وشدة الضوء - بلا أذى - هما صفة الجنة ، إذ أنها كما ورد فى الأحاديث بيضاء ، « وأرضها مرمرية بيضاء من فضة كأنها مرآة . . قال ابن عباس ، قلت فما نورها ؟ قال : ما رأيت الساعة التى تكون فيها قبل طلوع الشمس ، فذلك نورها إلا أنه ليس فيها شمس ولا زهير (١) » وفى حديث آخر عن الجنة : « هى ورب الكعبة نور يتلألأ . . وإن فيها لغرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ، فإذا كان ساكنها فيها لم يخف عليه ما خلفها » « وإن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، التى تليها على أضواء كوكب درى فى السماء ، وعلى كل واحدة من الحور العين فيها سبعون حلة برى مخ ساقها من وراء الثياب » أما الأناشيد الموسيقية الرائعة فى الجنة فحسبنا أن نورد عنها بعض الآثار مثل : عن أبى هريرة قال . إن فى الجنة نهرا طول الجنة حافته العذارى قيام متقابلات ، يغنين بأصوات حتى يسمعها الخلائق ، ما يرون فى الجنة لذة مثلها . فقلنا يا أبا هريرة . وما ذاك الغناء ؟ قال : إن شاء الله النسيج والتحميد والتقديس (٢) ، ولهم سماع أعلى من هذا ، حيث تغنى الملائكة وداود صاحب المزامير الشجية بصوته الرخيم العذب ، وحتى الريح تحرك أوتارا فى الجنة تحمل أعذب الألحان وأشهاها .

أما أنوار المعراج فلإن تخطيط السماء نفسها يعتمد أساسا على الألوان والأضواء الباهرة ، والملائكة الذين يعمرونها - بالرغم من شكلهم البشرى أحيانا وأحجامهم العملاقة وأعضائهم المتعددة وأجنحتهم المتكاثرة - إلا أن الطابع الغالب على صورهم هو الضوء الذى يشع منهم والذى كثيرا ما يعشى

(١) انظر : هادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم الجوزية ص ١٤٠ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٥٠ فصل سماع الجنة وغناء الحور وما فيه من الطرب .

أبصار مشاهديه . فكل مخلوقات السماء نورية ومساكنها غارقون في بحار الضوء والبهاء .

أما الأصوات المنبعثة منهم فهي تراتيل وأناشيد تسبح دائماً بحمد الله وتثنى عليه في جلال مهيب وموسيقى علوية رائعة يهتز لها الملكوت الأعلى .

وإذا كانت هذه هي الخطوط العامة لسيطرة الضوء والصوت على صور الجنة الإسلامية وفردوس داني فإن هناك بعض الظواهر الخاصة المتصلة بهذا المجال تؤكد التقاء داني مع الموروثات الإسلامية واستيعابه لها ، منها صورة اشتداد الضوء حتى يعشى البصر، ولتقرأ في رواية إسلامية واحدة تكرار هذه الصورة على النحو التالي : -

« إن الله أعطاني عند ذلك من الأبصار مثل قوة أهل الأرض وزادني من عنده ما هو أعلم به ومن على بالثبات وحدد بصرى لروية نورهم ولولا ذلك ما استطعت النظر » « رأيت من الملائكة ما تحار أبصار الناظرين دونهم ، فنبت عيناى عنهم لما نظرت من شدة تألؤ نورهم » .

« فلما نظرت إليه صار بصرى دونه حتى ظننت أن بصرى قد ذهب من شدة نور ذلك البحر حتى رددت يدي على عيني » « فلما نظرت إليه أسود بصرى وغشى على » « فلولاً أن الله أيدنى بقوته لتخطف نورهم بصرى . . ولكن درأعنى وهج نورهم وحدد بصرى لرويتهم » .

« فلما نظرت إليه كاد شعاعه يخطف بصرى حتى جعلت لا أبصر شيئاً كأنى إنما أنظر إلى ظلمة لا إلى نور » « ورد جبريل يديه على عينيه مخافة على بصره أن يذهب من تالؤ نور العرش » « فحار بصرى دونه حتى خفت العمى فغمضت عيني فرد الله بصرى في قلبي (١) » .

ويتكرر نفس هذا المشهد في فردوس داني أكثر من عشر مرات - كما

(١) انظر : لآلى السبوطى - ج ٢ ص ٦٧ وما بعدها وكتاب أسين بالاثيوس الذى يتبع

هذه الصور باستقصاء على شديد ص ٤٦ / ٤٧

يخصيها أسين بالاثيوس - وبنفس الكلمات تقريبا ، ونوردها هنا
لتوضح قرب العالم الذي يصفه دانتي من الأفق الإسلامى إذ يقول فى
مواضع متفرقة : -

- واتجهت عيناي بكلتيهما إلى بياتريش ، ولكن أنوارها سطعت أمام
باصرتى ، حتى لم تقويا لأول وهلة على النظر لايها .

- لايه أيها السناء الحق للروح القدس ، كيف تألق بغتة أمام عيني ،
حتى لم تقويا وهما مبهورتان على شهوده .

- ثم استردت عيناي بفضلها القدرة على أن تنظر إلى العلياء .

- وكمن يشخص ببصره ، ويجهد نفسه لكي يرى الشمس وهى تنكشف
قليلا ، وفى سعيه لكي يرى يصبح غير قادر على الرؤية .

هكذا أصبحت أمام هذا القبس الأخير .

- ومن خلال النور المتألق شع الجوهر المنير متألثا فى عيني ، حتى لم
أقوى على احتمال بهائه .

- رأيت نقطة يشع منها نور شديد التألق ، حتى لينبغى لإغلاق العينين
اللتين يسطع عليهما ، بما واثاها من الحدة الفائقة .

- وكبرق خاطف يزيع من قوى الإبصار . حتى ليحرم العينين من
قدرتهما على رؤية أكثر الأجسام ضياء

هكذا أحاط بي نور ساطع وتركنتى مغشى فى نقاب من ضيائه ؛ حتى لم
أعد أستبين بنفسى شيئا .

- إذ أن بصرى حينما أضحى صافيا ، أخذ يتغلغل رويدا رويدا فى
شعاع النور الأسمى ، الذى هو النور الحق فى ذاته

ومنذ تلك اللحظة فصاعدا صارت مشاهدتى أعظم من كلامنا الذى
يعجز أمام هذه الرؤية . .

— وأعتقد أن بصرى كان سيتولاه الزينغ من حدة ذلك الشعاع الباهر الذى احتملته ، لولا أن عيني حادثا عنه .
وأذكر أنى بهذا قد أصبحت على احتمال أعظم قدرة ، حتى إنى وصلت بين رؤيتى والخير اللانهاى (وهذه هى الرؤية القلبية)
— أيتها النعمة الفياضة التى اجتأت بفضلها على أن أسدد عيني الى النور الأبدى حتى استنفذت هناك كل إبصارى (١) » .

٦ — ما لا يوصف :

من العبارات المألوفة المتكررة فى قصة المعراج الإسلامية ما يتردد كثيرا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم من أنه رأى ما لا يمكن وصفه ، أو ما لم يؤذن له فى وصفه ؛ وهذا طبعى فى وصف عالم الغيب الذى لا تتصل معطياته بالتجربة الحسية التاريخية المولدة للغة ، فلامناص عندئذ من أن تقصر الوسائل التعبيرية المألوفة فى الحياة اليومية عن الإحاطة بكل جوانبه وأن يجد الراوى نفسه مضطراً من حين لآخر الى التنبيه على هذا القصور بمثل تلك العبارات ، خاصة وأن قدر اكبر من هذه الأوصاف يرد فى روايات موضوعه لم يملك أصحابها الاقتدار اللغوى الكافى لابتكار وسائل جديدة فيلجأون الى هذه الحيلة كطريقة للمبالغة وفتح المجال أمام الخيال لتصوير شيء غير معهود أو الإغراق فيما هو معهود ، أما الحيلة الأخرى عما لم يؤذن به فهى جزء من اشاعة جو الأسرار الغامضة فى المناخ العام للرواية حتى توثق التأثير المطلوب .

فإذا تتبعنا بعض نماذج لهذه الوسيلة التصويرية فى روايات المعراج الإسلامية وجدنا منها ما يلى :

« وأمره فوق وصف الواصفين وما تلهج به ألسنة الناطقين »

(١) أنظر الفردوس : أناشيد ٣/١٤/٢٣/٢٥/٢٨/٣٩/٣٣ على التوالى وانظر كتاب أسين بالأيوس المشار إليه من قبل

« وهم أعظم شأنًا من أن أطيق صفتهم لكم » « أمر عظيم لا يناله الألسن ولا تبلغه الأوهام » « فرأيت منه ما أعجز عن صفته لكم » « فرأيت من شعاع تلالؤه أمرا عظيما لوجهدت أن أصفه لكم ما استطعت ذلك » .
« وما يوصفون بشيء إلا وهم أعجب ، وأمرهم أعظم من أن تحيط به الصفة (١) » .

ونجد نفس هذه الوسيلة التصويرية عند دانتي ، مرة في مقدمة الفردوس إذ يقول :

« وشهدت أشياء لا يقوى على وصفها ولا يعيها من يهبط من العلياء »
« وخمس مرات أخرى في أناشيد مختلفة . فيقول عند دخوله دائرة الشمس : -
« ومهما استنجدت بالعبقرية والفن والتجربة فما كنت لأعبر عنه بما يمكن تصويره أبدا »

وعندما ينظر إلى بياتريش فيجدها فائقة الجمال ويعترف بعجزه عن وصفها ، ويتوقف عن ذلك توقف الفنان عند منتهى قدرته :

« ولا يتجاوز الجمال الذى شاهدته إحراكتنا فحسب . .

بل لى فى هذا الموضع معترف بهزيمتى . . »

وكذلك حين رأى العذراء ماريا تشع بنورها الذى غلب سائر الأنوار أعلن عن عجزه عن وصف ما شهدته من الجمال الرائع بقوله :

« ولو كان لى فى الكلام ثروة كما فى الخيال ، لما جروث

على أن أحاول التعبير عن أدنى قدر من مباهجتها (٢) »

أما العبارة الأخرى التى تغلف المشاهد بضباب الأسرار وتلفها فى إطار الإبهام فتجد منها فى الروايات الإسلامية مثلا : « لم يؤذن لى أن أحدثكم عنهم »

(١) انظر : اللآلئ المصنوعة للسيوطى ، الجزء الأول ص ٧٢ ومايليها . وكذلك كتاب أسين بالاثيوس المشار إليه من قبل ص ٤٤ .

(٢) انظر : الفردوس . ترجمة الدكتور حسن عثمان . أناشيد ١٠٤١ ٣٠٤ ٣١٠٣٠٤ .

« فجعلت أنظر بقلبي نحو ما كنت أنظر بعيني نورا نهيت أن أصف لكم ما رأيتم من جلاله » ، « ثم أفضى إلى من بعد هذا بأمور لم يؤذن لي أن أحدثكم بها (١) » .

ولا نتوقع من دانتى أن يصرح بأنه لم يؤذن له ، وإنما يشير إلى ذلك إشارة في مثل قوله : —

« وهنا أعوز خيالي الرفيع قدوره ، ولكن رغبتي وإرادتي كانتا قد سارتا معا ، كعجلة تلور بحركة واحدة »

« وحتى فيما يمكنني أن أذكره منه ، سيكون قولي الآن أعجز من لفظ طفل يبلل لسانه من الثلثى (٢) » .

فهناك إذن مالا يمكنه أن يذكره ، لا سبب عجزه عن البيان ، فهذا العجز قائم على أية حال ، وإنما لسبب آخر لابد وأن يتصل بما يباح وما لا يباح له أن يخوض فيه .

وقد يقال إن هذه الصيغ من الوسائل التعبيرية المألوفة التي لا تحتاج إلى تأثير من مجال ثقافي آخر ، ولا تنهض دليلا على ارتواء دانتى من النبع الإسلامى ، ولو كانت بمفردها لصح هذا الاعتراض ، ولكنها تدخل في سياق ثبت أنه مرتبط بالمأثورات الإسلامية فتكسب دلالة ليست لها في ذاتها وتصبح إشارة أخرى إلى قوة ترسب هذه المادة وشدة تمثل دانتى لها حتى لتعزز في اللغة الجديدة نفس اللوازم التي أفرزتها في الأصل الإسلامى ، خاصة وأن دانتى كان ينتقل بالإيطالية من لهجة عامية إلى مرتبة اللغة المستقلة ، وهى مرحلة تشتد فيها الحساسية اللغوية لتقبل الأنماط والصيغ التي لم تكن مألوفة فيها نتيجة للتقليح الفكرى المخصب من مجالات ثقافية أخرى .

(١) انظر : لآله السيوطى ، نفس الموضع السابق .

(٢) انظر : الفردوس . نشيد ٣٣ أبيات ١٠٦ ، ١٠٧ .

٧ - صورة النسر والديك :

إن صورة النسر الهائل الذى تتكون منه آلاف الملائكة المتجمعين وقد عرضت أمام عيني دانتى الداهل فى سماء جوبيتر أو المشتري قد اجملت جميع شراحه يهتون أمام جمالها الغنى بما فيه من أصالة ورمزية لم يسبقه إليها أحد من عالج فى الأدب المسيحى مثل تلك الروى السماوية ، وكان الحدس بأصل هذه الصورة الإسلامى مما أثار الباحثين الأوربيين على المستشرق الأسبانى «أسين بالاثيوس» صاحب نظرية التأثير الإسلامى ، وجاءت وثيقة المعراج لتقول الكلمة الحاسمة فى صدق هذا التأثير . ولتقرأ أولاً نموذج هذا النسر العجيب عند دانتى قبل أن نرى نظيره الإسلامى . يقول : -

وكما تتطاير شرارات لاعداد لها ، بالضرب على الأخشاب المحترقة .

بدا لى عندئذ أنه قد نهض أكثر من ألف نور . . وصعد بعضها

فوق بعض ، كما قدرت لها الشمس أن تشعلها

وحينما سكن كل منها فى موضعه رأيت رأس نسر ورقبته

تتمثلان فى تلك الأنوار المتلاثلة .

بجناحين مدودين بدت أمامى الصورة الجميلة

التي صنعتها الأرواح المتألفة المغتبطة بنعيمها العذب . .

وتبدت كل منها كأنها ياقوتة صغيرة ، واشتد فيها

توهج أشعة الشمس حتى أصبحت منعكسة فى عيني . .

وكالبازى الذى يتخلص من غمائه فيحرك رأسه ويعمد

إلى خفق جناحيه ، مبدياً تحفزه ومجملًا نفسه

هكذا فعلت الصورة المباركة التى خفقت جناحيها

وهى مسوقة بالكثير من رغائبها . .

وكالقبرة التى تخلق فى الهواء ، مفردة لأول وهلة ، ثم

تسمت راضية نشوى بختام شلوها العذب
هكذا مضت أرواح مباركة في طيرانها وهي تشدو
بداخل هذه الأنوار . .

وكان قول « أحبوا العدالة » أول فعل واسم في اللوحة كلها
وكان قول « يامن تحكمون الأرض آخر كلماتها »
إذ رأيت النسركما سمعته يتكلم ، ويترنم صوته بكلمة
« أنا » و « ملكى » بينما أراد بهما « نحن وملكنا » (١)

فها نحن نرى أن نسر دائى يتكون من وجوه وأجنحة كثيرة ، يشع
منها نور باهر ، ويترنم بأغان حلوة قد أخذت كلماتها من الكتاب المقدس ،
وهو يدعو الناس إلى حب العدالة ، وقد اجتمعت في تكوينه أرواح الطوباويين
لإذ أن وحدته الشخصية ليست سوى نتيجة لتجميع كائنات أخرى في نسق
فنى بديع ، ثم هو يخفق بجناحيه عندما يترنم ويشدو ، ثم لا يلبث أن يسكن
ويهدأ بعد ذلك .

وقد قارن « أسين بالاثيوس » هذه الصورة بعنصرين من التراث
الإسلامي . أحدهما : « الديك » الذى ورد في روايات المعراج هكذا :
وأيت في السماء ديكاً له زغب أخضر وريش أبيض كأشد خضرة وبياض
رأيتهما قط ، وإذا رجلاه في تخوم الأرض السابعة السفلى ورأسه تحت
عرش الرحمن له جناحان في منكييه إذا نشرهما جاوزا المشرق والمغرب ،
فلذا أخفق بهما وصرخ بالتسبيح لله يقول : سبحان الملك القدوس . . فلذا
فعل ذلك سبحت ديكاً الأرض كلها وخفقت بأجنحتها ، فلذا سكن ذلك
الديك في السماء سكنت الديكة في الأرض (٢) .

(١) الفردوس : أناشيد ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

(٢) انظر : لآلى السيوطي الجزء الأول من الطبعة المشار إليها ، ص ٦٣ .

وثانتهما . ذو طبيعة روحية تتصل بعالم الملائكة ، إذ تقول الرواية : -
 « فنظرت أمامي وإذا أنا بملك على صورة الديك ، اسمه ميكائيل ،
 عنقه تحت العرش ، ورجلاه في تخوم الأرض ، ورأسه أفرق أبيض أشد
 ما يكون البياض نورا ، عرفه أخضر وأصفر ، وهو ساجد يقول في سجوده :
 سبحان الله العظيم . فإذا سبح ذلك الديك سبحت ديوك الأرض وإذا سكنت
 سكتوا . . فلم أزل منذ سمعته مشتاقا إليه (١) » .

ونتيجة مخطوطة المعراج التي يرجح اطلاع دانتى عليها لتؤكد هذه
 الصورة في عدة مواضع ، وبأشكال شديدة القرب مما رأينا عند دانتى ، مما
 يقطع السبيل إلى أى شك ، ففي الفصلين التاسع والتاسع والعشرين يأتي وصف
 هذا الديك العظيم الذى يفوق أى نسر ، إذ يبلغ جناحاه أقطار السماوات
 والأرض ، وقد تلالأ بالألوان والأضواء ، وأخذ ينشد بالتسبيح في أجواز
 السماء فتتجاوب معه ديكة الأرض صياحا وسكوتا ، ثم يوصف بعد ذلك
 بأنه من ملائكة الله ، وتوزع أناشيده العذبة الرائعة على ساعات الليل وأوقات
 الفجر والسحر ، وتشد وعلى إيقاعها ديوك الأرض وطيورها ، ثم يختلط
 في فصول أخرى بالطبيعة الملائكية ذات الصور العديدة والأشكال المتنوعة
 مما أغرى فنانا مثل دانتى أن يمزج بينها ويخرج منها صورة النسر الرائعة التي
 فكتت وما زالت تفنن قراءه ، خاصة وأن شكل النسر لم يغيب عن هذه الصور
 الإسلامية ، ففي الفصل الخامس عشر من مخطوطة المعراج نرى الرسول
 يشهد في السماء الرابعة : « سبعين ألف ملك لهم وجوه النور ، ولكل
 واحد سبعون ألف جناح ، وبكل جناح سبعون ألف ريشة » بديعة الألوان
 والأضواء ، أما الأناشيد السماوية التي تنبعث من أفواه هذه الملائكة فهي
 عنصر مشترك بينها جميعاً .

(١) انظر : مخطوطة مجهولة المؤلف لقصة الإسراء والمعراج بدار الكتب المصرية و
 مجموعة ، رقم ١٩٩٣ . صفحة ١١٨ و ١١٩ .

٨ - صورة الثلج والنار :-

بدأت أرواح الطوباويين لدانتي في الفردوس هكذا :-

« كانت وجوههم جميعاً مصوغة من شعلات ساطعة

وأجنتهم من ذهب ، وكان سائرهم ذا بياض

لا يبلغ الثلج حده أبداً (١) » .

وفي معظم روايات الإسراء والمعراج نجد بعد صورة الديك مباشرة هذا الوصف :

« ثم تقدمت أمامي ، وإذا أنا بملك نصفه من ثلج ونصفه من نار . . . يسبح ويقول : يا مؤلف ما بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك ، والملائكة يقولون آمين ، فلا الثلج يطفى النار ولا النار تذيب الثلج (٢) » . ويرد ذكر هذا الملك في مخطوطة المعراج المترجمة مرتين كذلك عقب ذكر الديك في الفصلين التاسع والتاسع والعشرين .

وإذا كانت هذه الصورة عند دانتي مجرد تشبيه للأرواح بأن بياضها أنصع من الثلج بالرغم من اشتعالها فإنها تتميز في النصوص الإسلامية بقوام تشكيلي بديع أكثر فتنة وشاعرية وأحفل بالمعنى إذ تستغل هذه الصورة لتجسيد التلاقي بين الأضداد مما يكشف عن قدرة الله في العباد وبدل على عظمتة التي تتجلى في شكل مخلوقاته ومعناهم أيضاً .

٩ - رؤية الكون مصغراً :

من المشاهد المتميزة في الفردوس أن دانتي عندما وصل بصحبة بياتريش إلى قمة سماوات الأفلاك ، إلى منازل الكواكب الثابتة ، دعت هاديتة أن يتأمل المشهد قبل أن يواصل رحلته ، كي يجرب نظره النافذة ، ويرجع

(١) انظر : الفردوس : النشيد ٣١ أبيات ١٣ - ١٦ من الطبعة المشار إليها .

(٢) انظر : مخطوطة الإسراء والمعراج المشار إليها بدار الكتب المصرية رقم ١٩٩٣ .

البصر إلى أسفل ، ويجاول رؤية العوالم التي تركها من خلفه . ويصف
دانتي ذلك عند وصوله إلى السماء الثامنة قائلا :

قالت بياتريش ، ينبغي أن تكون ثاقب العينين صافيهما .
ولذلك قبل أن تمضي إلى الداخل مزيدا ، فلتنظر إلى أسفل ..
ولترأية دنيا شاسعة صارت الآن تحت قدميك .
فعدت بناظري إلى الأفلاك السبعة كلها جميعاً ، فرأيت هذه الكرة
على حال جعلتني أضحك من ضئيل مرآها .
وأظهرت لي الأفلاك السبعة كلها ، كم هي شاسعة
وكم هي صريعة ، وكم تتباعد منازلها ..

وبينما كنت أدور مع التوأمين الأزلين ، بدا لي اليلدر الصغير الذي
يحملنا وحوشاً ، بدا لي مكتملاً من مرتفعاته إلى مصبات أنهاره (١) .
ولنقارن هذا بما نجده في قصة المعراج عندما وصل الرسول بصحبه
جبريل إلى السماء الأخيرة ، وأخذ يتأمل عظمة العرش الإلهي التي لا حدها ،
مقارناً إياها بعوالم الأفلاك والسموات التي علها في معراجها قائلا :

« فإذا ما رأيت من الخلق كله قد تصاغر ذكره وتهاون أمره وانضع
خطره عند العرش ، وإذا السماوات السبع والأرضون السبع ، وأطباق
جهنم ودرجات الجنة وستور الحجب والنار والبحار والجبال التي في
عليين وجميع الخلق والخليقة إلى عرش الرحمن كحلقه صغيرة من
خلق الدرر في أرض فلاة واسعة تها لا تعرف أطرافها » (٢) .

ثم يقول أيضاً :

« فإذا إلهي قد ثبت بصري لرؤية نور العرش وما تحت ذلك

(١) أنظر : الفردوس ، ترجمة الدكتور حسن عثمان ، النشيد ٢٢ آيات ١٢٤-١٥٣

(٢) أنظر : اللؤلؤ المصنوعة للسيوطي ، الطبعة المشار إليها ، الجزء الأول ص ٧٣/٧٤ .

(م ١٣ - الثقافة الإسلامية)

من عجائب خلق ربى إلى منتهى الأرض ؛ أرى ذلك كله بعضه من تحت بعض .

فهذه الرؤية الشاملة للكون وقد تضاعفت عظمتها وهناك شأنه بجوار ما رأى من نور ربه هى نفسها التى وجدناها من قبل عند داتى ، وهى نفسها التى نعثر عليها فى قصة المعراج المترجمة فى موضعين ؛ أحدهما فى الفصل الثامن والعشرين إذ يقول « ولما عدت من هناك - أى من سماء العرش - حملنى روح الله عبر السماوات كلها وهو يربى فى لحظة ما لا يرى إلا بعد تمهل طويل ؛ فرأيت السماوات والأرضين السبع والملائكة دفعة واحدة » وفى مشهد آخر ، فى الفصل الثامن والسبعين يقول « ولما سألت جبريل عما إذا كانت كل تلك السماوات والأرض التى ذكرت متصلة فيما بينها أو منفصلة قال لى إنه ينبغي أن أرجع النظر لأرى مرة أخرى كل ما رأيته حتى أدركه على وجه الإحاطة » (١)

١٠ - الوردة الطوباوية وشجرة طوبى :

« إذا أخذنا فى تحليل العناصر الوصفية لمقر الأرواح الفعلية فى الجنة وجدنا أنها تتركز فى الأناشيد الأخيرة من الفردوس ؛ حيث ينبع نهر النور الإلهى ويتسع فى صورة دائرية « يصبح محيطاً بالنسبة للشمس نطاقاً ذا اتساع شاسع » وتنظم الأرواح فوق هذا النور وحواليه منعكسة فى أكثر من ألف طبقة « وإذا كانت أدنى المراتب من هذه الوردة تضم هذا النور العظيم فكيف يكون اتساعها عند أوراقها العليا ؟ » مما يشكل وردة أبدية تمتد وتتدرج اتساعاً فى الأطراف وضيقاً فى القلب .

على أن كل دائرة من تلك الدوائر تتكون من مقاعد ودرجات وعروش نورانية ، كما تقع على نفس المستوى وتوازئها دوائر أخرى أصغر منها

(١) أنظر الوثيقة المترجمة الملحقه فى هذا الكتاب ، الفصول ٢٨ - ٦٨

محيطاً كلما اقتربت من وسط الدورة ، وكل ورقة منها مقعد في اللجنة (١).
وكل مجموعة من المقاعد النورانية دائرة سماوية طوباوية .

ولم بجانب هذا الرمز الأساسى يقارن دائئى أيضاً هذا المقام ، بمملكة يلتف حولها المختارون ، أو بستان أو هضبة علوية رفيعة ، ليتأملوا البهجة الأبدية للنور الإلهى ، ولكن أمثال تلك التشبيهات عارضة في وصفه الذى يتكئ أساساً على الوردة الصوفية المشكلة من الصورة الواقعية للدوائر السماوية الطوباوية .

والبنية الأخيرة الناجمة عن توزيع أرواح الطوباويين على مختلف الدوائر ترتكز على أساس صلب من الوجهة المعنوية يوازى نظامها الهندسى كما سبق أن ذكرنا عند الحديث عن شكل الفردوس ؛ فدرجة ارتفاع المقاعد ووضعها على اليمين أو الشمال داخل كل دائرة يخضع لقانون ثابت ؛ فلا شئ هناك يتم بالصدفة أو اعتباطاً ، بل إن طبيعة الإيمان ودرجة الولاية يحددان مقام كل من الطوباويين .

ويقيم دائئى تفرقة أساسية عمودية تخترق كل الدوائر وتقسّمها إلى مجموعة اليمين ومجموعة اليسار حيث يقطن أتباع العهدين الجديد والقديم على التوالي ، وتنقسم كل مجموعة إلى مراتب دقيقة طبقاً لاعتبارات تتصل بالعمر والجنس ودرجة الولاية كما سبق أن شرحنا عند الحديث عن التماثل بين الشكل الهندسى للجنة في التراث الإسلامى - خاصة عند ابن عربى - ووردة الطوباويين عند دائئى .

بيد أن العنصر الجديد الذى نضيفه الآن ، والذى يعزز هذه العلاقة ويجسدها ، هو تحليل ما ورد في الآثار الإسلامية عن شجرة خاصة قرينة

(١) أنظر: الرسم التوضيحي لوردة الطوباويين في اللجنة ، الفردوس . ص ٢٩٥ .

الشبه بهذه الوردة وتلتقى معها في الوصف وهي شجرة طوبى التى يأتى ذكرها فى بعض الأحاديث على النحو التالى :

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن طوبى شجرة فى الجنة ، أصلها دارى وأغصانها مظلة على قصور الجنة ، فليس فى الجنة قصر ولا دار إلا وعليها غصن من أغصانها ، يحمل كل غصن منها كل ثمرة كانت فى الدنيا ، وكل زهر كان فى الدنيا ينبت فى ذلك الغصن إلا أنه أكثر وأفخر من ثمر الدنيا وزهرها .. ولكل مؤمن فى الجنة غصن من أغصانها كتب اسمه عليه » (١).

وقد تختلط هذه الشجرة فى الآثار الإسلامية بشجرة العرش التى روى فيها عن كعب الأحبار « أن الله تعالى خلق شجرة تحت العرش عليها أوراق بعدد كل مخلوق ، وإذا قضى أجل العبد وبقي له من عمره أربعون يوماً سقطت ورقته على حجر عزرائيل فيعلم بذلك أنه أمر بقبض روح صاحبها » (٢).

ويتصور ابن عربى هذه الشجرة الطوباوية وقد أظلت بأوراقها وأزهارها كل بيوت الجنة ، وجذورها ممتدة إلى مباء المهرج الأول — لأن أصلها دارى كما ورد فى الحديث السابق وداره ليست أسفل الجنة بطبيعة الحال — أى إلى سقف الجنة .

وهى لذلك شجرة مقلوبة تمتد أوراقها لكل الجنان السبعة الدائرية ، ومعنى هذا أننا لو أردنا رسم هذه الشجرة طبقاً لدوائر الجنة عند ابن عربى لوجدنا أن كل غصن منها لا بد له أن يملأ واحداً من مقاعد المنازل

(١) أنظر : قرة العيون ومفرح القلب المحزون لأبى القيث السمرقندى . طبع صحيح بالقاهرة . ص ٣٧ .

(٢) أنظر : دقائق الأخبار فى ذكر الجنة والنار للقاضى ، طبع الحلبي بالقاهرة ص ٧ .

السبعة الهائلة ، وأن أوراقها لا حصر لها وأن هيكلها الذى ينجم عن التوافق مع اللواثر السبع المكونة من صفوف من الأوراق لا بد وأن يكون فى نهاية الأمر مثل هيكل الوردة عندما تتأملها مواجهة .

ويبدو أن شجرة طوبى هذه بوضعها المقلوب لم تكن مجهولة لدى دانتي ولا بعيدة عن تصوره ، فهو يصف النجوم الفلكية والمنازل الفردوسية بطريقة مشابهة لشجرة هائلة مقلوبة يحتل كل واحد من أغصانها سماء فلكية ويستمد غذاءه — لا من تحت مثل الأشجار الأرضية — وإنما من أعلى ، أى من سماء الامبريوم . وعندما يصل دانتي إلى سماء المشتري يشير إلى هذا التصور للفردوس المائل فى خياله كشجرة مقلوبة بقوله :

« وبدأ فى هذه الطبقة الخامسة من الشجرة
والتي تستمد الحياة من فروتها وتثمر الفاكهة دوماً
ولا تفقد أوراقها أبداً » (١).

كما تتصل شجرة طوبى هذه فى التراث الإسلامى أيضاً بسكرة المنتهى وبشجرة الخلد ، ومن أوصافهما « أن الله تعالى غرسها بيده ونفخ فيها من روحه وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة ، وما فى الجنة نهر إلا ويخرج من أصل هذه الشجرة » وفى رواية أخرى أن الرسول قال « لما رفعت إلى شجرة المنتهى فى السماء السابعة رأيت نبقها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان القبلة ، يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان » (٢) .

وتصب كل هذه الروايات فى قصة المعراج المترجمة التى كانت فى متناول دانتي على شكل وصف مركز لما يسمى هناك بشجرة الفردوس التى تقوم بين سماء العرش والسماء السابعة حيث ينهض جبل قاف ، وينفزع

(١) أنظر : الفردوس ، الترجمة المشار إليها ، نشيد ١٨ ، أبيات ٣١/٢٨

(٢) أنظر : مختصر تذكرة القرطبي للامام الشعراوى ، ص ١٤٠ .

منها سبعة عشر فرعاً تمتد نحو السماوات السفلى حيث تعتمد عليها وينفذ أعلاها إلى السماء الثامنة دون أن يمسها ؛ وبهذا يتبين أن هذه الصورة الإسلامية لم تفقد تأثيرها على خيال الشاعر الإيطالي الكبير .

هذا فيما يتصل بشكل الورد ، أما من ناحية التسمية فهي ليست غريبة على التراث الإسلامي ، فالآية القرآنية الكريمة المتصلة بالحياة الآخرة تقول « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » قد أثارت كثيراً من التأويلات لشرح مدلول هذه الورد ، وانتقل هذا الشرح إلى المجالات الصوفية الرمزية ، وحفلت به كتب الرقائق في العصور الوسطى بما لا نظير له في التراث الكلاسيكي الأوربي قبل انتشار الآثار الإسلامية ، وفي مقابل هذه الورد الطوباوية مرزت في القصص التالية وردة أخرى حمراء رمز فينوس الجسدية أو الحب الشهواني المتصل بالبحيم ، ويرى بعض الباحثين أن هذه الورد الثانية مدينة هي الأخرى لبعض عناصر الأدب العربي مثل قول المعري في « سقط الزند » .

فإذا الأرض وهي غبراء صارت من دم الطعن وردة كالدهان (١)
ونعود إلى وردة دانتى لنراها تراءى فوق نهر النور الذي يقول عنه :
« وفي صورة نهر رأيت نوراً يتلأأ فيه الضياء ، بين ضفتين

مزدانتين بربيع عجيب رائع

ومن ذلك النهر خرجت شرارات ساطعة وانتظمت

بين الأزهار في كلا الجانبين ، وكأنها اليواقيت في حلقات
من ذهب ثم ألقت بأنفسها في تلك الأمواج الرائعة كأن قد
أسكرها الشذا » (٢)

(١) أنظر : على هامش الفران للدكتور لويس هوض . القاهرة ١٩٦٦ ص ١٧٤ .

ورد الأستاذ محمود شاكر عليه في (أبابيل وأسمار) ص ٩٩ - ١٠٣ .

(٢) أنظر : الفردوس ، الترجمة المذكورة ، نشيد ٣٠ أبيات ٦١/٦٩ .

ولا نجد مثيلاً لنهر النور هذا إلا في التراث الإسلامي حيث يرد ذكره في أشكال مختلفة في قصة المعراج ، نكتفي منها بهذه الرواية :-

« ثم جاوزناهم بإذن الله متصعين إلى عليين حتى ارتفعنا فوق ذلك فأنهينا إلى بحر من نور يتلألأ لا يرى له طرف ولا منتهى فلما نظرت إليه حار بصرى دونه حتى ظننت أن كل شيء من خلق ربي قد امتلأ نوراً والتهب ناراً » (١)

مما يؤكد لنا أن الإطار العام لصورة دانتي الرئيسية في الفردوس والتفصيلات الدقيقة لكثير من ملاحظاتها التشكيلية لا يمكن فهمها بعمق دون تحليل العناصر المناظرة لها في التراث الإسلامي الذي أخصب خيال الشاعر الإيطالي العظيم وألهمه أجمل روائه وصوره .

(١) أنظر : اللؤلؤ للسيوطي ، الجزء الأول من الطيعة المشار إليها ص ٦٩

نعيم الرؤية الإلهية

لباب الفردوس .

يتمتع موضوع الرؤية الإلهية بأهمية بالغة في التراث الإسلامي ، إذ لا يكاد يخلو كتاب من ذكر مشاهدته بالتفصيل ، ويعتبرها العلماء لباب الفردوس ونعيمه الحقيقي ، إذ ماعداه من سائر نعيم الجنة - على حد تعبير الغزالي - « فإنه يشارك فيه البهيمة المشرحة في المرعى (١) » . ومن هنا فإن كتب التوحيد والعقائد تتعرض لموضوع الرؤية دائماً بالإثبات والرد على المنكرين ، ولا تعيننا المسألة هنا من الوجهة العقائدية لأن لها مباحثها وقضاياها ، وإنما تعيننا من الوجهة التصويرية الفنية التي تقدم مادة صالحة للتأثير الأدبي في تاريخ الثقافة الإنسانية .

ويمكن تقسيم أهم المصادر الإسلامية التي اعتمدها الباحثون في هذا الصدد في مجموعتين : -

الأولى : مجموعة أحاديث المعراج النبوي ومانسج حولها في كتب الرقائق من روايات مقصلة ، وأهم هذه الكتب كتاب متقدم هو « التوهم » للمحاسبى (المتوفى سنة ٢٤٣هـ) وكتاب متأخر هو « حادى الأرواح » لابن القيم الجوزية (٧٥١هـ) .

الثانية : الكتب الصوفية التي تعرضت لمعراج الأرواح وحالاته ومشاهدته ورموزه مثل الفتوحات المكية لابن عربي والمعراج للقشيري .

فإذا أخذنا في تأمل وتحليل هذه العناصر الإسلامية لتحديد مجالات التقاء ذاتي بها في مشاهد النبوة في الفردوس المتصلة بالاستغراق في رؤية النور الإلهي وجدنا أن كلام هاتين المجموعتين قد مارس تأثيره الواضح على خيال

(١) انظر : إحياء علوم الدين للغزالي على هامش كتاب « إبحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين » للزبيدي المرتضى ، الجزء العاشر ص ٥٥٥ .

الشاعر الكبير ، ولنبدأ أولاً بتعيين هذه المشاهد من دانتي قبل أن نشير إلى نظائرها ومصادرها الإسلامية . فدانتي يرى بوثة مشعة للذات الإلهية محوطةا دوائر من الأرواح الملائكية التي تتألق بالنور وهي تدور بلا توقف حول مركزها وتشد أغانيها ، وكل دائرة تتكون مما لا يحصر له من الملائكة : —

« رأيت نقطة يشع منها نور شديد التألّق ، حتى لينبغي إغلاق العينين اللتين يسطع عليهما ، بما واثاها من الحلة الفاتكة (١) » .

« على البعد ذاته دارت من النار دائرة ، من حولها تلك النقطة بسرعة فائقة ، حتى لتفوق تلك السماء التي تطوق العالم بأقصى سرعة . وأحيطت هذه بدائرة أخرى ، وتلك بثالثة ... ورابعة ... » .

« لم يتوهج حديد يغلى على غير ما توهجت به هذه الدوائر المشتعلة وصاحبت كل الأنوار دائرتها المحترقة ، وكانت من الكثرة بحيث بلغت ملايين البلايين » .

« إن نورا هناك في العلياء يكشف لتلك الكائنات عن خالقها وهي التي لا سلام لها إلا في رؤياه » .

« وإنه ليمتد بنفسه في صورة دائرية حتى ليصبح محيطها بالنسبة للشمس نطاقا ذا اتساع شاسع (٢) » .

والصنفان الأولان من الملائكة هم السرافيون والكروبيون ، ويحاول دانتي أن يحدد بنظره في بوثة النور الخالد ولكن بصره يعشى ، بيد أنه لا يلبث أن يظفر بمحده البصر ويستطيع أن ينفذ تدريجيا بنظره حتى ينتهي بتثيته في البوثة ، كما أشرنا من قبل ، ثم يعلن أنه عاجز عن وصف ما يرى لأن

(١) انظر : الفردوس ؛ الترجمة المذكورة ، نشيد ٢٨ آيات ١٦ - ١٨

(٢) انظر الفردوس ، الترجمة المذكورة ، أناشيد ٢٨ و ٣٠ وكتاب أسين بالاثيوس

الذهول قد مسح من عقله كل ذكرى . وحتى لو تذكر فإن ما رأى يفوق كل قدرة على الوصف تتمتع بها لغة البشر .

وإذا تركنا جانبا الرموز التي أشار إليها دانتي للعقائد المسيحية وجدنا أن كل ما يصفه من الرؤية ينحصر في هذه الظواهر التي يتذكرها بذهول : تأمل فكرى واضح ينكشف له رويدا رويدا ، سبات وتراخ في القوى ، ذهول من الروعة ، ثم متعة روحية عمارة وعذبة معا .

« ومنذ تلك اللحظة فصاعدا ، صارت مشاهدتي أعظم من كلامنا الذى يعجز أمام هذه الرؤية ، كما تعجز ذاكرتنا أمام عظمة مثلها . وكذلك الذى يرى في حلمه شيئا ، وثبقى من بعد حلمه أثارة مما أحس به ، ولا تستعيد ذاكرته سائر ما رآه . هكذا أصبحت إذ كادت تخونني رؤيى تماما ، وإن كانت لاتزال تقطر في قلبي تلك البهجة التي نبعت منها . . . وأشعر بحديثي عنها أن بهجتي تشتد بها وتذكرو . هكذا كان عقلى وهو معلق تماما ، يتأمل ثابتا منتبها دون حركة وظل مشوقا إلى مزيد من التأمل (١) » .

وقد فشلت كل المحاولات الماهرة الصبورة التي بلغها الباحثون في مصادر دانتي الأوروبية للعثور على سوابق لهذه النماذج والتصورات الفنية ، ولم تجد ما يقرب من هذا الجمال الرائع في التقاليد الدينية المسيحية التي تخلو من أى نظير لهذه الدوائر الهندسية التي يشكلها الملائكة وهم يدورون حول النور الإلهى . بينما تقدم الروايات الإسلامية النموذج الأصيل لهذا التخطيط ، مما يكسب قضية التأثير قوة برهانية حاسمة . فصفوف الأرواح الملائكية التي تحيط بالعرش الإلهى تتألف بدورها مما لا يحصى من الملائكة ، ويمثل كل

(١) نفس المصدر السابق ، نشيد ٣٣ أبيات ٥٥ - ٦٣ و ٩٣ - ٩٩

صف طبقة أو درجة منهم ، ويعتبر الكروبيون أشدهم قربا لله ، وكلهم يترنمون بأناشيد قدسية يسبحون فيها بحمده ، وتنبعث منهم جداول النور ، على أن عدد هذه الصفوف تسعة أيضاً ، يحيط كل صف بما يليه على شكل دائري فتمثل جميعها تسعة صفوف دائرية متداخلة ، وكلهم يدورون في نهاية الأمر في حركة لا تهدأ حول العرش الذي يتمثل أيضاً في نور متلألئ لا يوصف بهاؤه (١) .

ويقدم لنا الرسول عليه السلام رؤيته في مرحلتين إحداهما عندما كان لا يزال في صحبة جبريل حيث تعيش بصره في هذه الآفاق العليا الأنوار الإلهية في أوجها وهي لا تزال بعيدة منه ، مثلما تعيش دانتى للمرة الأولى وهو لا يزال في السماء التاسعة بصحبة بياتريش ، والأخرى عندما يتركه الدليل الملائكي ويرتفع به الرفرف النورى فيوفق إلى إغماض عينيه وينتقل النور إلى قلبه ويتأمل مبهورا نور الذات الإلهية مثل دانتى في الأنشودة الأخيرة من الفردوس .

على أن تحليل الظواهر النفسية التي تتمثل في ذهول الرسول ومراحل وطبيعة إفاقة يعطينا نتائج مشابهة لما نجده بعد ذلك عند دانتى ، فهو يشعر أولاً أن النور يعيش بصره حتى يخشى من العمى ، ثم يلاحظ فجأة أن نظره قد أخذ يقوى ويحتد وأنه قد أصبح بوسعه أن يثبت بصره في النور الإلهي ، فقد حظى بنعمة الله عليه لاستمرار رؤيته ، ثم يعلن أنه عاجز عن وصف ما رأى ولا يتذكر إلا أن تأمله قد بعث فيه لونا من الاسترخاء والذهول الذي تعقبه متعة عارمة ، يقول :

« فوجدت عند ذلك حلاوته وطيب ريحه وبرد لذاته وكرامة رؤيته
فاضمحل كل هول كنت لقيت ونجلى عني روعاتي واطمأن قلبي
وامتلأت فرحا وقرت عيناى ووقع الاستبشار والطرب على حتى جعلت

(١) انظر لآلء السيوطي ، الجزء الأول ص ٧٣ وما بعدها .

أميل وأتكفأ يمينا وشمالا وأأخذني مثل السبات .. وظننت أن من في الأرض والسموات ماتوا كلهم لأنني لا أسمع شيئا من أصوات الملائكة .. ثم رد إلى ذهني فكأني كنت مستوسنا وأفقت فثاب إلى عقلي (١)

وعندما تتوافق مراحل الرواية مع تفاصيل الحالة النفسية فإن هذا لا يمكن أن يفسر بمحض الصدفة ، خاصة وأن الوثيقة الأساسية وهي « معراج محمد » المترجمة تقدم خلاصة هذه العناصر كما سنشير فيما بعد

وهناك ملاحظة أخرى طريفة تتصل بالتوافق الغريب بين توقيت المعراج عند دانتى ونظيره في التراث الإسلامى ؛ فدانتى قد قام برحلته إلى العالم الآخر « في منتصف طريق حياتنا » كما يقول ؛ أى في الخامسة والثلاثين من عمره ، أو من الثانية والثلاثين إلى الثالثة والثلاثين كما يقول شراحه . وهذا يتفق تماماً مع ما ورد في التراث الإسلامى عن عمر أهل الجنة من أنهم « مرد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين سنة » أو كما جاء في رواية أخرى « على ميلاد عيسى ثلاث وثلاثون سنة » ويبدأ دانتى رحلته ليلة الجمعة وبعد أن يفرغ من الحميم والمطهر يبدأ رحلته إلى الفردوس ليلة الجمعة أيضاً ، وتكاد أحاديث الرواية في المأثورات الإسلامية تجمع على أنها تم أيضاً يوم الجمعة تكريماً لهذا اليوم الذى فضل به نبى الإسلام وأمه . ولا يوجد في الفكر المسيحى ميزة خاصة تجعل دانتى يختار ليلة الجمعة للشهود السماوى ؛ بينما نجد التراث الإسلامى يختار هذا اليوم ليربط بينه وبين العيد الأسبوعى الدينى لصلاة الجمعة الجامعة (٢) فيتبعه دانتى . هذا التوقيت الدقيق .

(١) أنظر : نفس المصدر السابق ص ٧٤-٧٥

(٢) أنظر : مختصر تذكرة القرطى للشمرانى ص ١٥٩ .

رؤية المتصوفة :

فإذا ما انتقلنا إلى المجال الصوفي وجدنا أن الرؤية الإلهية تعد عند متصوفة المسلمين عامة وابن عربي بصفة خاصة لباب حياة الفردوس وجماع ملذاتها الروحية الناجمة عن انبعاث النور من الذات الإلهية . فالله هو مصدر الضوء الباهر الذي ينتشر في موجات شعاعية تصل إلى العبد فتوهله لرؤية المصدر القدسي ، ويتجلى هذا الضوء خلال روح العبد وجسمه فيرفع من قدرته الطبيعية ويرهف من حواسه البصرية .

وهنا نرى تشابها واضحا بين دانتي وابن عربي في الأفكار والصور الفنية معا ، فدانتي يقول :

« وبهرتني قوة الضوء المشع

من الخالق للمخلوقات . .

وكل ما يبدو منه مصنوع من الشعاع المنعكس . .

منتظما فوق النور ومنعكسا عليه

رأيت من جاء إلى العلياء . .

وإذا كانت أدنى هذه المراتب تضم هذا النور العظيم . . »

« وأعتقد أن بصرى كان سيتولاه الزيف

من حدة ذلك الشعاع الباهر الذي احتملته لو أن عيناي حادتا عنه

أيها النعمة الفياضة التي اجترات بفضلها على أن أسدد عيني

إلى النور الأبدي حتى استنفذت هناك كل إبصارى (١) »

فقارن هذا بكلمات ابن عربي في فتوحاته إذ يقول :

« الله يتجلى لعباده في النور العام . . إذا هم بنور قديهم فيخرون

(١) انظر : الفردوس ، الطبعة المذكورة ، أبيات متفرقة من الأناشيد ٣٠ و ٣٣ .

سجدا فيسرى ذلك النور في أبصارهم ظاهرا وفي بصائرهم باطنا وفي أجزاء
أبدانهم كلها وفي لطائف نفوسهم فيرجع كل شخص منهم عينا كله . . فهذا
يعطهم إياه ذلك النور فيه يطبقون المشاهدة والرؤية . . فيتجلى الحق تعالى
فينفقه نور يسرى في ذواتهم وقد أبهتهم جمال الرب (١) .

ويلاحظ أن « سان برناردو » هو الذى يعلن لدانتي قرب تمتعه بالنور
الإلهي ويدعوه إلى إعداد نفسه وتهيتها لذلك إذ يقول :

« سنتجه بأعيننا إلى الحب الأول حتى تتغلغل بقدر استطاعتك

خلال أنواره حين توجه أنظارك إليه »

« حتى تخلصيه بصلواتك من كل مافي طبيعته الفانية من سحاب

لكي يكشف له عن البهجة السامية (٢) »

ويقول ابن عربي :-

« ثم يأتيهم رسول الله . . فيقول لهم تأهبوا لرؤية ربكم جل جلاله ،
فها هو يتجلى لكم . . وبينه وبين خلقه ثلاث حجب . . فلا يستطيعون
رويته بالنظر إلى تلك الحجب . فيقول الله تعالى لأعظم الحجة عنده :
ارفع الحجب بيني وبين عبادي حتى يروني ، فترفع الحجب فيتجلى لهم
الحق خلف حجاب واحد في اسمه الجميل اللطيف إلى أبصارهم (٣) »

ويتبع الباحثون مصادر دانتي في هذا التصور للنور الإلهي في الأدب
المسيحي في العصور الوسطى فيجدون أن القدر المتاح من ذلك يعود إلى
القديس « توما الإكويني » الذى يشرح فكرة مصدر النور الإلهي وإشعاعه
على البشر لإكمال قدراتهم الطبيعية وبصرهم به حتى يرتفعوا إلى مرتبة
توهمهم للرؤية الإلهية ، ولكن نفس هذا القديس يعود فيعترف بأنه قد استقى

(١) انظر : الفتوحات المكية ، طبعه دار صادر ببيروت - الجزء الأول ص ٤١٨ .

(٢) انظر . الفردوس ، أناشيد ٣٢ / ٣٣ .

(٣) انظر : المصدر السابق ص ٤١٨ .

فكرته تلك من الفلاسفة المسلمين ابتداء من الفارابي وابن سينا إلى ابن ماجه وابن رشد، وأنه قد تقبل على وجه التحديد تصور ابن رشد للرواية الإلهية (١) هذا في حد ذاته شاهد على أن التراث الإسلامي هو الذي غذى دانتى مباشرة باطلاعه على فلذاته منه في قصص المعراج وبطريق غير مباشر بتأثره بالإكويين الذي سبق له أن نهل من ينابيعه .

ويتردد عند دانتى في مشاهد عديدة من الفردوس فكرة فحواها أن النور المكتسب الذي ينعكس إلى الخارج يتفاوت في بريقه من طوباوى إلى آخر طبقاً لمقاماته في منازل السماوات ولدرجة نعيمه في الفردوس ، نقول مثلاً :

« وإن تألقه بشعلتها مرتبط ، وشعلته لروية الله تابعة
وهذه تكون بقدر ما لها من النعمة التي تمنح بقدر جدارتها .
سيبلغ شخصنا بأكمل وجوده أسمى مراقب الكمال
وبهذا سيعظم ما يسبغه علينا الخير الأسمى من النور حباً وكرامة
ذلك النور الذي يؤهلنا لرويته (٢) »

وقد اجتهد شراح دانتى لرد هذه الفكرة أيضاً إلى تعاليم القديس «توما الإكويين» التي تفيد بأنه من أهم خواص الأجسام السماوية النورية أنها ناجمة عن اكتمال مجد الأرواح باتصالها بالأجساد ، لكن ابن عربي كان قد سبق له أن شرح ذلك على أساس أن « النور الإلهي يسرى في أبصار الناس ظاهراً وفي بصائرهم باطناً وفي أجزاء أبدانهم كلها حتى ينصبغوا عن آخرهم بنور ذلك التجلي ويظهر كل واحد منهم بنور صورة ما شاهده » كما أنهم « يجدون منازلهم وأهلهم منصبين بتلك الصورة ، فيرون جميع ملكهم قد اكتسب بهاء وجمالاً ونوراً من وجههم أفاضوه أفاضة ذاتية على ملكهم » .

(١) انظر : كتاب أسين بالاثيوس المشار إليه ، ص ٢٤٨ .

(٢) انظر : الفردوس نشيد ١٤ أبيات ٣٤ ٤٦ .

ويلاحظ أن هذه الفكرة الإشراقية ليست مقصورة على الفلاسفة والمتصوفة المتأخرين ، بل هي شائعة في المأثورات الإسلامية منذ عهد متقدم ، ففي كتاب « التوهم » للمحاسبي مثلاً نجد أنه بعد أن يصف موكب الرؤية الإلهية الباذخ وعودة العبد منه إلى مقره في الجنة : -

« بادرت إليه أزواجه ، فلما نظرت زوجته الى جمال وجهه قد ضوئف في حسنه وإشراقه ونوره ازدادت له حباً وعشقاً ، وأشرقت قصوره وقبابه وخيامه وأزواجه من نور وجهه وجماله ، وازدادت أزواجه حسناً وجمالاً ووجاهة وحشمة (١) . »

وقد انتشرت هذه المشاهد في كل الآثار الإسلامية المتعلقة بالجنة الخاصة بالأنوار ، فها هو السمرقندي أيضاً يصور بعض هذه المظاهر الإشراقية بقوله :
« يرى المؤمن وجهه في نور وجه صاحبه وفي صدرها وترى وجهها في وجهه وصدره من كثرة الأنوار » وبعد الرؤية تقول المرأة لزوجها :

« ما أشد حسنك اليوم وما أكثر نورك ، فيقول لها أنى قد نظرت الى وجه ربي فوق نوره على وجهي ، وأنت أيضاً والله العظيم لقد عظم نور وجهك وحسنك ، فتقول له ، كيف لا يشرق وجهي بالنور وقد وقع عليه نور ربه فتشرق وجوههم بالأنوار ويدوم نعيمهم في دار القرار (٢) . »

وتطرد الآثار لتأكيد تغلغل النور في هذا العالم الآخر كما سبق أن أشرنا ، فالهجوريات أيضاً من طبيعة نورانية شفافة إذ تصرخ الواحدة منهن بسمتها السماوات كلها ، فهي أشد إشراقاً من الشمس والقمر ، « و يرى مخ ساقها تحت سبعين حلة » لما في جسمها من خواص بلورية شفافة مثل الكأس الذي يشف عما فيه . ويتفنن المحاسبي في وصف ذلك بقوله : -

« فتوهم . . . وقد قربت إليك ضاحكة بحسن ثغرها ، فسطع نور بنائها في الشراب مع نور وجهها ونورها ونور الجنان ونور وجهك

(١) انظر: كتاب التوهم للحارث المحاسبي ص ٦٢ .

(٢) انظر قرة العيون ومفرج القلوب المحزون الأبني الليث السمرقندي . ص ٣٧-٤١ .

و أنت مقابلهما ، فتجتمع كل هذه الأنوار تلمع بصفاتها في كفها وقد مدت بها إليك بدنها (١) .

وكل هذا مستقى من الأحاديث النبوية التي يذهب بعضها في تصوير هذه الطبيعة النورانية للحواريات إلى حد قوله : « ثم يضع أحدكم يده بين كتفها ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبه الياقوت (٢) » . كما يذهب بعضها الآخر إلى تصوير الرسول عليه السلام بهذه الطبيعة النورانية خلال معراجه إذ « لا يرى لصورته ظل في شمس ولا قمر ولا سراج » .

فلذا اطلع داني - كما هو راجح - على كثير من عناصر هذا التراث ثم تراءت في صورته أشكال لهذا النور الذي لا يحول حائل دون مسراه في مثل قوله :

« ولم يحل دون الرؤية أو البهاء توسط هذه الجماعة للعظيمة
الطائرة بين الزهرة وبين ما كان في العلياء
إذ يتغلغل النور الإلهي خلال العالم بما يتفق له من جدارة
بحيث لا يتأتى أن يحول دون مسراه حائل (٣) » .

« وكانت الثانية كأن لحمها وعظامها قد صنعت من الزمرد (٤) » .
أدركنا بيسر مصدره الإسلامي الذي تتواتر فيه صور النور من القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، فالقرآن يصف أهل الجنة بأنهم « يسعون نورهم بين أيديهم (٥) » لا ظلهم كما هو المؤلف في الحياة الدنيا ، والأحاديث والمأثورات تصور المظاهر المختلفة لهذا النور وكيف أنه جميعاً قبس من النور الإلهي الذي يشرق على الكائنات فيضفى عليها وجودها وبهاءها خاصة في حالة الرؤية الإلهية.

(١) انظر : المصدر السابق للمحاسبى ص ٤٧ .

(٢) انظر : الترغيب والترهيب للمنذرى ، الجزء الرابع ص ٩٩٠ .

(٣) انظر : الفردوس : ١٩ / ٣١ .

(٤) انظر : المطهر : ١٢٤ / ٢٩ .

(٥) سورة الحديد آية رقم ١٢ .

اختلاف الدرجات

وبالرغم من اتفاق مصدر النور خلال الرؤية إلا أن هذا لا يمنع من اختلاف الدرجات والمستويات، مما لا يمس صميم الرؤية الإلهية في جوهرها، بل يتصل بأعراضها المتمثلة في أشكالها المتنوعة وصورها المتعددة إذ تختلف الأحوال التي يتجلى بها النور الإلهي للعبد من درجة إلى أخرى في الصفاء والبريق الذي ينعكس عليهم من الضوء، وهذا ما رأينا عبارة ابن عربي عنه بأنه : « واحد من حيث هو تجل وهو كثير من حيث اختلاف الصور » ويقترّب من ذلك دانتى إذ يقول :

« وما للبعد أو القرب أن يضيفا شيئاً هناك »

إذ ليس للقانون الطبيعي من أثر حيث تجري بغير وسيط أحكام الله ، أى أن هناك وحدة في التجلي الإلهي من حيث الرؤية بالرغم من اختلاف الدرجات في التلقى الذي لا يعود إلى الذات المراتبة وإنما إلى طريقة رؤيتها ، ولهذا يعود دانتى فيقول :

« وليس لأنه كان هناك أكثر من مظهر واحد »

فحسب في النور الساطع الذي تأملته .

إذ هو على الحال التي كان عليها من قبل أبداً

ولكن بإبصارى الذي اكتسب في باطنى بالتأمل قوة

تغير من أمامي مظهر واحد فحسب ، بينما كنت أتبدل أنا نفسي (١) .

وقد أثار المستشرق الأسباني الكبير - صاحب نظرية التأثير - « أسين بالاثيوس » مشكلة تتصل بالمعيار الذي تنبنى عليه فوارق الدرجات في الرؤية ، فبينما نرى أن ابن عربي يقيم اختلاف الصور والدرجات على أساس

(١) انظر : الفردوس أناشد ٣٠ / ١٢١ و ٣٣ / ١٠٩ .

درجات المعرفة بالله يبدو أن دانتى يركز على معيار آخر هو الحب ، فابن عربى يقول
 « فمن علمه فى كل معتقد فله نور كل معتقد ، ومن علمه فى اعتقاد خاص
 معين لم يكن له سوى نور ذلك المعتقد » كما يقول « إن الرؤية يوم الزيارة
 تابعة للاعتقادات فى الدنيا ، فمن اعتقد فى ربه ما أعطاه النظر وما أعطاه
 الكشف وما أعطاه تقليد رسوله فإنه يرى ربه فى صورة وجه كل اعتقاد
 و ربط عليه (١) .

أما عند دانتى فيبدو أن التلقى يعتمد على محور آخر سوى المعرفة إذ يقول :
 « تتجه بمحبتها وعينها نحو هدف واحد »
 « يمثل هذه المحبة ، ويمثل هذه البهجة
 عندئذ انجبتها إلى النور السرملى (٢) »

فمثل هذه الأبيات قد توحي بأن موقف دانتى وجدانى يعتمد فى الرؤية
 على الحب ، بينما موقف ابن عربى السابق عقلى يعتمد على النظر . لكن هذا
 الفرق الظاهرى سرعان ما يتلاشى عندما ندرك أن المعرفة عند ابن عربى
 ليست عقلية محضة ، فهى أولا معرفة بالله « فأخذوا منازلهم فيه على قدر
 علمهم بالله لا على قدر عملهم » والمعرفة بالله اقتباس من نوره وإيمان به ،
 وهو ما يقرب منه دانتى أيضاً فى مثل قوله : —

« حسبما يتجه إليه إيمان الأرواح

إد ستمتلىء هذه الحديقة على حد سواء بكلا الوجهين من الإيمان » .

وهذا ما يعبر عنه ابن عربى بالعلم والمعرفة « فإن كانت معرفتهم عن كشف
 إلهى فإن لهؤلاء صفات على حدة يتميزون به على سائر الخلق » وهؤلاء يغفل
 كلمة الحب ، إذ تجده فى نفس هذا المشهد يقول : « فإذا انصرفوا من الزيارة

(١) الفتوحات المكية ، طبعة دار صادر ، الجزء الثانى ص ٨٥ .

(٢) انظر الفردوس ، أبيات متفرقة من الأناشيد ٣١ و ٣٢ .

يتخيل كل صاحب اعتقاد أنه منهم (أى أهل الكشف) لأنه يرى صورة اعتقاده فيها كصورته، فهو محبوب لجميع الطوائف من يكون بهذه الصفة (١) « فابن عربى مثله فى ذلك مثل جميع المتصوفة المسلمين يرى أن قيمة علم الباطن تنبع من الحب الإلهى الناجم عن معرفة الإنسان بالله . ولعل أبا حامد الغزالى قد حدد بوضوح تام المقياس الإسلامى لذلك فى قوله عند معالجته للرؤية الإلهية فى باب الحب من كتاب الإحياء « فإذا نعم الجنة بقدر حب الله تعالى، وحب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادات هى المعرفة التى عبر عنها الشرع بالإيمان » : أما البهجة والجلل اللذان يتحدث عنهما دانتى فيعبر عنهما الغزالى بقوله « وهذه هى غاية الحسنى ونهاية النعمى وكل ما فصلناه من التمتع عنده هذه النعمة ينسب وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى ، بل لانسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء (٢) » .

فإذا أخذنا فى الاعتبار هذا الموقف الإسلامى فى جملة من موضوع المعرفة وارتباطه بالإيمان من ناحية وبالحب الخالص من ناحية أخرى أدركنا أن دانتى لم يكذب عليه شيئاً فى تصوراتهِ للرؤية فى الفردوس .

(١) انظر المصدر السابق لابن عربى ص ٨٥ .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى على هامش إتخاف السادة المتقين - الجزء المسمى

صور الدوائر :

تقدم المآثورات الإسلامية في جملتها - سواء في أحاديث المعراج أو في تصوير رؤية الله في الجنة - نموذجاً متكرراً للحضرة الإلهية حيث يتجلى سبحانه وتعالى مثل شمس مضيئة تخطف أشعتها الأبصار وتحيط به صفوف الملائكة على هيئة دوائر من نور أيضاً . وقد زخرت كتب الرقائق وآداب الصوفية بتقنيات عديدة على هذا النموذج ، لعل أفعمها بالروح التشكيلى ما نراه عند ابن عربي في فتوحاته عند تصويره لرؤية الله في الدار الآخرة حيث تأتى ملائكة السماوات صافات ، ملائكة كل سماء على حدة متميزة عن غيرها فيكونون سبعة صفوف محيطة ، أهل كل سماء صف حول العرش الإلهي الذي يشغل مركز الدوائر السبع .

ولكن دانتي عند وصوله إلى قمة معراج السماوى الروحى يطمح إلى أن يشرح سر عقيدته المسيحية في التثليث مع وحدة الجوهر المتجلى في ثلاث مظاهر فلا يجد صورة يستخدمها لأداء هذا الرمز سوى الدوائر الهندسية ، فهناك ثلاث دوائر بنفس الحجم مع اختلاف اللون : إثنان منها تبدوان كما لو كان كل منهما انعكاساً للآخر مثل قوس قزح والثالثة كاللهب المنبعث منهما : -

« وفي الجوهر العميق الصافي من النور العظيم ، ظهرت لي

ثلاث حلقات مثلثة الألوان وذات محيط واحد

وبدت إحداها من غيرها منعكسة انعكاس قوس قزح

من نفسه ، وظهرت الثالثة ناراً منبثقة من الآخرين (١) » .

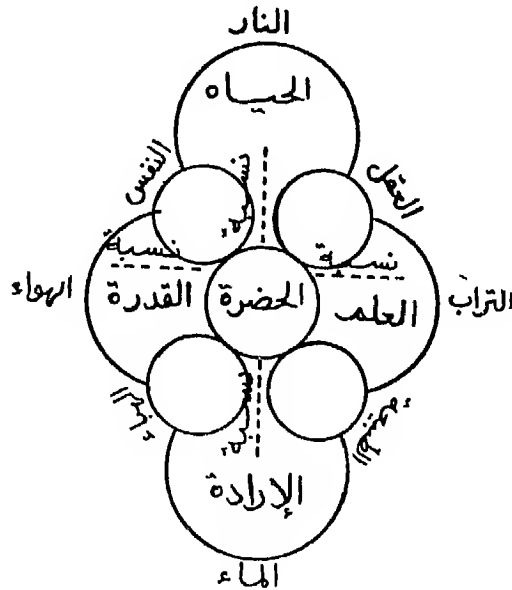
واجتهد الشراح كالعادة - خاصة من علماء اللاهوت المسيحي هذه المرة - في بيان عبقرية دانتي في هذه الصورة التى تظل معلقة بالإبهام الشعرى

(١) انظر : الفردوس ، النشيد ٣٣ أبيات ١١٥ - ١٢١ .

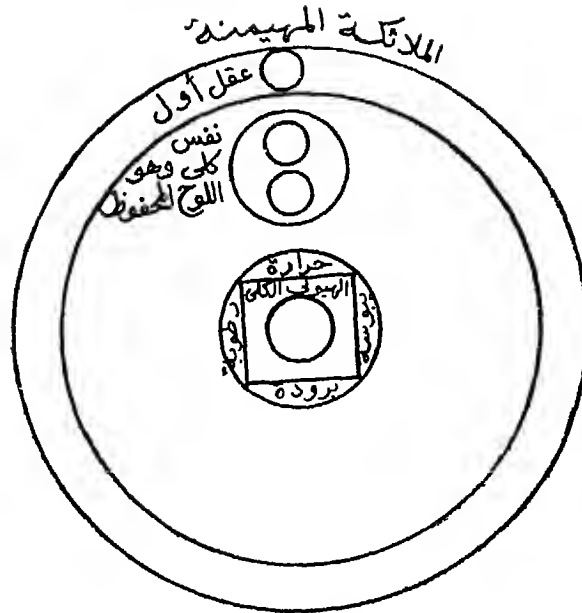
بالرغم من نزعتها التفسيرية . فالرمز الهندسي للدوائر الثلاث يقدم تصورا
لله في واحد متجليا - حسب العقيدة المسيحية - في الأب والابن والروح
القدس ، حيث يعكس الثاني الأول وينبعث له الثالث منهما بشكل
دائري أيضا ،

وبالرغم من أن هذا الرمز الهندسي له سوابقه البعيدة في الفلسفة
الأفلوطينية المحدثه التي تتصور الذات الإلهية كمصدر للضوء إلا أن
الإشراقيين المسلمين هم الذين عمموا هذا التصور وجعلوه أساساً لأفكارهم
المتنافزة الإشراقية .

وكان ابن عربي أشد هؤلاء الفلاسفة احتفالا بصورة الدوائر المركزية
والمنداخلة لتصوير الذات الإلهية في وحدانياتها المجردة وصفاتها المتعددة
وخصائصها الاشراقية مثل النماذج التالية : -

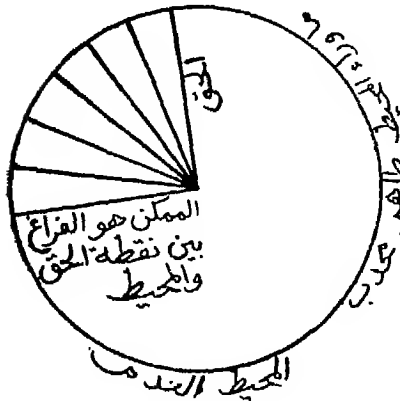


(شكل رقم ١)



(شكل رقم ٢)

فهو أحياناً يتمثل في استغراقه الصوفي المرهف الذات الإلهية متجلية رمزيا في دائرة من نور أبيض يشع بهاء خالداً فوق نور أحمر مشع أيضاً وتنبعث منهما مجموعتان من الأضواء الخارجية ويتحركان برفق دون أى مساس بالجوهر والصفات (١).



(شكل رقم ٣)

هي مبعث الضوء - وإنما أعطينا النقطة لأنها أصل وجود محيط الدائرة... فالحيط كله منبعث بهذه المثابة من النقطة والخطوط الخارجة الممكنات

(١) انظر : الفتوحات المكية ، الجزء الثاني ص ٥٩١ .

فمن الله ابتدأوها وإلى الله انتهأوها وإليه يرجع الأمر كله ، فإن الخط إنما ينتهي إلى نقطة ، فأولية الخط وآخريته هما من الخط ما هما من الخط كيف شئت ، قلت : وهذا هو الذي ينبغي أن يقال لاهى هو ولاهى غيره كالصفات عند الأشاعرة ، فمن عرف نفسه هكذا عرف ربه «(١)».

وأحياناً أخرى يتخذ للتعبير عن أفكاره بطريقة رمزية شكل الدوائر الثلاث ، على أساس أن « الدائرة المحيطة هى العماء ، والنقط التى فى الدائرة مثل أعيان الأرواح المهيمنة ، والنقطة العظمى فى هذه النقط العقل ، والدائرة التى إلى جانب النقطة العظمى التى فى داخلها نقطتان هى النفس الكلية والروح المحفوظ ، والدائرة التى فى جوف هذه الدائرة العظمى هى جوهر الهيولى وهو الهباء والشكل المربع فيه هو العرش والدائرة التى فى جوف هذا المربع إنما هى الكرسي »(٢)

أما دوائر الشكل الأول فيشرحها ابن عربى بأنها دوائر أجناس الممكنات ، وهى محصورة فى جوهر متحيز وجوهر غير متحيز وأكوان وألوان .. « ولا يمكن أن يظهر عن الممكن الذى هو دائرة الأجناس دائرة كاملة .. فتكوين دائرة كاملة من الأجناس محال ، ليتبين نقص الممكن عن كمال الواجب الوجود لنفسه » وعلى ذلك فما يقدمه لنا إنما « هو صورة شكل الأجناس والأنواع من غير قصده للحصر »(٣)

ومهما اختلفت صور الدوائر عند ابن عربى فى توزيعاتها وتأويلاتها الدينية والفلسفية عما رأيناه فى فردوس دانتى فإن الاستعانة بها فى توضيح الأفكار الدينية المعقدة يرجع الفضل فيها إلى المفكر الأندلسى الذى لم يكن مجهولاً لدى رجال اللاهوت وعلماء الدين المسيحى فى عصر دانتى مما يرجح وصول كثير من هذه العناصر إلى الشاعر الإيطالى الكبير .

(١) انظر : نفس المصدر السابق الجزء الثالث ص ٢٧٥ والشكل رقم ٣

(٢) انظر : نفس المصدر السابق - الجزء الثالث ص ٢٤٠ والشكل رقم ٢

(٣) انظر : نفس المصدر - السفر الرابع من الطبعة المحققة ، ص ١٥٧/١٥٨

تدرج المتعة والرضا القنوع :

تنولد من الرؤية الإلهية لذة تتدرج في عمقها تبعاً لحالاتها حتى تصل إلى مرحلة السكر والفناء ، هذه الفكرة نراها ماثلة عند دانتي في مثل قوله :

« إنه نور روحاني مغمم بالحبة ، بمحبة الخير الحق

الملىء بالبهجة ، التي تسمى على كل علوبة » (١)

وإذا أمكن رد الحديث عن هذه البهجة والمتعة إلى بعض عناصر التراث المسيحي خاصة عند القديس « توما الإكويني » فإن مرحلتى السكر والفناء لانظر لهما في هذا التراث ، إذ لا توجد أية إشارة إليهما كحالتين تعقبان الرؤية الإلهية ، فعندما يقول دانتي

« وعجزت ذاكرتي أمام عظمتها

مثل من يرى في حلمه شيئاً وتبقى من بعد حلمه أثارة

مما أحس به لكنه لا يستعيد سائر ما رآه

هكذا أصبحت إذ كادت تخونني رؤيتي تماماً

أيها النور الأسمى .. فلتمر عقلي ثانياً شيئاً من الصورة التي بدوت عليها

إن لحظة واحدة تمنحني النسيان » (٢)

يمكننا أن نقارنه بقول ابن عربي :

« لما طرأ عليهم من سكر الرؤية ولما زادهم من الخير فيتلذذون بها فلأنهم في وقت المشاهدة كانوا في حال قناء عنهم » .. « فلم تقع لهم لذة في زمان رؤيتهم ، بل اللذة عند أول التجلي حكم سلطانها عليهم فأفناهم عنها وعن أنفسهم فهم في اللذة في حال قناء لعظيم سلطانها ، وإذا أبصروا تلك الصورة في منازلهم

(١) انظر : الفردوس ، نشيد ٣٠ آيات ٤٠ - ٤٣

(٢) انظر : نفس المصدر السابق نشيد ٣٣ آيات ٥٧ - ٦٠

وأهلهم استمرت لهم الله وتنعموا بتلك المشاهدة فيتنعمون في هذا الوطن
بغير ما أفناهم في الكتيب» (١)

ومن كمال هذه المتعة أن الفوارق الناجمة عن اختلاف الدرجات فيها
وفي لذتها ونعيمها لا تعقب لدى أهل الدرجات الدنيا حسداً أو حزناً أو غيظاً
ممن ارتفعت درجاتهم وممت منازلهم ، فكل واحد من أهل الفردوس
قانع راض متمتع بما قدر له دون رغبة أو حتى تصور لما هو أكثر ، لأن كل
احد منهم يعيش بالضرورة مرتبته ويجد السلام والمتعة فيها ، يقول ابن عربي
في هذا المعنى .

« وكل شخص يعرف مرتبته علماً ضرورياً يجري إليها ولا ينزل إلا فيها
كما يجري الطفل إلى الثدي والحديد إلى المغناطيس ، ولورام أن ينزل في غير
مرتبته لما قدر ، ولورام أن يتعشق بغير منزلته لما استطاع . بل يرى في
منزلته أنه قد بلغ فيها منتهى أمله وقصده ، فهو يتعشق بما هو فيه من النعيم
تعشقا طبيعيا ذاتيا لا يقوم بنفسه ما هو أحسن من حاله ، ولولا ذلك لكانت
دار ألم وتغيص ولم تكن جنة ولا دار نعيم » (٢)

وتنبع هذه الفكرة في التراث الإسلامي من الآية الكريمة « و نزعنا ما في
صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين » (٣) ، ومن ثم فهي دائمة الدوران
في كتب المأثورات وأدب الجنة .

ونفس هذه الفكرة نجدها عند دائتي في مواضع عديدة من فردوسه ،
فهو يشرحها مثلاً على لسان « بيكاردا » عندما يسألها الشاعر عن حالة الطوباويين
في الحلقة البطيئة أو الدنيا وشعورهم تجاه حراماتهم من سعادة أهل الدرجات
العليا فتقول له .

« وإن مشاعرنا التي لم تضطرم إلا بما يبهج الروح القدس
لتغيبط بالصورة التي ارتأى أن تكون عليها »

(١) انظر : الفتوحات المكية - الجزء الثالث ص ٥٧٨ وانظر كتاب أسين بالاثيوس ص ٢٥٧

(٢) انظر نفس المصدر السابق ص ٥٧٧

(٣) سورة الحجر ، الآية رقم ٤٧

ولكن دانتي يصر على توضيح تساؤله :
 « ولكن خبروني أيها الطوباويون ها هنا .. أترغبون
 في مكان أكثر علواً ، لكي تصبحوا أقل على الرؤية
 وتنالوا محبة أعظم ؟

فتجيبه الروح : « إن رغائبنا لترضى يا أخى بما فى المحبة من الفضل
 الذى يجعلنا نشتهى ما لدينا فحسب ولا يثير ظمأنا لشيء سواه
 وإذا ما نحن رغبتنا أن نزداد علواً ، فلن تأتلف رغائبنا
 مع مشيئة من يجعل مقامنا فى هذا المكان
 فيعقب دانتي قائلاً : عندئذ اتضح لى كيف أن كل مكان فى السماء فردوس (١)

(١) أنظر : الفردوس ، النشيد الثالث آيات ٦٤ - ٧٥ وكتاب أسين بالاثيوس ص ٢٥٩ .

الرؤية في وثيقة المعراج :

جاءت وثيقة معراج محمد لتؤكد أن هذه المأثورات الإسلامية قد عرفت يقيناً طريقها إلى الثقافة الأوربية في العصور الوسطى قبل دانتى ، وقد عالجت الوثيقة موضوع رؤية الله على دقته الصوفية وحساسيته العقائدية بروح فني تشكيلي باذخ في الترف والإغراق في التفاصيل .

وجاءت أولى لحظات هذه الرؤية في السماء الثامنة حيث يقع العرش الإلهي ، وأهم ما وصفته الوثيقة في هذا المشهد هو صفوف الملائكة الكروبيين الملتفين حول العرش ، فهم أولاً يسبحون بحمد الله في أناشيد مهيبية ، ويكونون دوائر هندسية سدلّت عليها الحجب من كل الألوان والأضواء ، والعدد الغالب عليهم سبعون ألماً في معظم الأحيان ، وقد صيغت الحجب من اللؤلؤ والياقوت والزمرد والأحجار الكريمة ، وانبعث منها ومن الملائكة مهرجان سماوي هائل حافل بالأضواء اللامعة والموسيقى القدسية الجليّة . ويستمر هذا الوصف عدة فصول نرى خلاله نماذج غريبة من أصناف الملائكة وسكان الملأ الأعلى بآلاف الوجوه والألسن التي تنطق بالتسبيح بآلاف اللغات ، وهي دائماً على شكل دوائر متلاحمة مترابطة كأنهم جسد واحد لا يرمون حراكاً في حضرة الله خشوعاً وإجلالاً (١).

ثم تأتى لحظة الذروة التي تصف رؤية الرسول للذات الإلهية عندما رفعت له كل الحجب حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى ، ويحفل هذا المشهد بنفس المظاهر التي رأيناها عند دانتى وابن عربى من قبل ، وتتمثل في غيوبة الرسول صلى الله عليه وسلم في الحضرة الإلهية ، وما أصاب بصره من الغشاوة حتى انتقلت قوة إبصاره إلى قلبه ، ثم كيف صب في قلبه العلم الإلهي بالكشف والإلهام ، كما تصف حالة الجذل والنشوة التي

(١) أنظر الفصول رقم ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ من الوثيقة المترجمة والمملحة في نهاية الدراسة .

أعقبت الذهول والغيوبة ، وكيف شعر الرسول ببرد قلبه وفرح فؤاده وطرب روحه العارم لتلك اللذة التي أسلمته للسكر من فرط روعتها ، ثم تدور مناجاة رقيقة بين الحبيبين يطلعه فيها الله على شئ من كنز أسرارهِ (١).

وقد رأينا كيف أن حقيقة النعيم تتمثل في الرضا الذي يملأ نفوس الطوباويين سلاماً وحبوراً ، وهذا ما يصوره مشهد آخر في الوثيقة - في الفصل الرابع والأربعين - إذ يأتي الله لزيارة أحبائه من أهل الجنة نحوطة الملائكة ويسألهم : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا نعم ، فيسألهم مرة أخرى : ماذا ترون في نعمائه التي أضفيها على عبادي ؟ هل أنتم راضون عنها أم لا ؟ فيجيبون :

« لو كنت ياربنا راضياً عنا فنحن إذن من المفلحين » . هذا الشعور المطمئن بالرضا يغمرهم بعد أن ينالوا الحسنى وزيادة ؛ وما تلك الزيادة إلا نعيم رؤية الله تعالى وتجلي أنواره لهم .

على أن هذه الوثيقة - بكل عناصرها الثرية - لا تمثل إلا الحد الأدنى مما وصل للغرب من أدب المعراج ومأثورات الحشر والنشر والجنة والنعيم ، إذ أن المصادر الثقافية الإسلامية المتمثلة في التراث الديني والأدب الصوفي والأفاصيص الشعبية كانت تبرز كلها في وجدان الأمة الإسلامية وتشع بجاذبيتها وقوة تأثيرها على مختلف المستويات الكتابية والشفاهية ، فإذا عثر الباحثون على وثيقة تؤكد بعض عناصر هذا الإشعاع فينبغي أن لا تقتصر دلائلها على ما ورد فيها فحسب ؛ بل أن تعد نموذجاً لوثائق أخرى عديدة صاحبها ولتبار غير مكتوب من التقاليد الأدبية والثقافية حملها إلى هذا الأفق الجديد ، فالباحث على وجودها يتجاوز دائماً كينونتها الخاصة إذ تصبح مجرد نموذج دال يؤكد تحقق الإمكانية فإذا جاءت المقارنة الموضوعية المفصلة لتقيم التقابل الدقيق بين مأثورات هذا التراث ونظائرها

في العمل الأدبي المدروس أصبحت برهانا لا يقل في قوته عما ورد في الوثيقة ذاتها .

وإذا كانت هذه الوثيقة قد أتمت دائرة قضية التأثير الإسلامي في الكوميديا الإلهية ؛ تلك الدائرة التي وضع نقطتها « أسين بالاثوس » بعبريته وصدق حدسه ، فلنأخذ بالنسبة لنا في العالم العربي والإسلامي تدعونا إلى طرح قضية أخرى تتولد عنها وينبغي لنا أن نجد في البحث عن أسبابها وأنظارنا معلقة بالمستقبل بقدر ما ترمق الماضي ونطرحها في شكل السؤال التالي :

لماذا أثمر هذا التراث الخصب من المأثورات الدينية والأدبية والصوفية والشعبية واحدة من أهم الملاحم الدينية في الآداب الأوروبية ، وأثمر شيئا قريبا من ذلك في الملاحم الفارسية من سنائي إلى إقبال ثم عقم الأدب العربي عن احتضان هذه الخمائر واستثمارها والافادة منها ؟ ثم ؛ ألا سبيل أمامنا للإفادة الرشيدة من هذا التراث العظيم بكل طاقاته الروحية وإمكاناته الشعرية وقدرته الهائلة على تجسيد الوجدان الشعبي في أعمال فنية فذة ؟

المسـ لـ احق

عرض وثيقة معراج محمد

- نماذج من نظائرها في المأثورات

معراج محمد

الفصل الأول (١) :

بينما كان محمد في بيته بمكة ، على فراشه مع زوجته أم هانئ ، يتأمل في شريعة الله ، بين النائم واليقظان ، إذ جاءه جبريل على غرة ، بوجه ناصع البياض ، وشعر أشد حمرة من المرجان ، وحواجب مزججة ، وفم جميل ، وأسنان صافية ، وكان يرتدى حلالا بيضاء نفيسة مرصعة باللآلئ والأحجار الكريمة ، وقد شد على خصره شريطين من الذهب يتعامدان عند مجمع صدره وخصره ، وكانت يدها حمراوين كاللهب ، وجناحاه وقدماه أشد خضرة من الزمرد .

اقرب منه وقال له « انهض يا محمد ، ضع نطاقك واثت في لثري ، فإن الله أراد أن يريك هذه الليلة أسرار قدرته وآياته » فينهض ويضع رداءه ، ويمضي إلى عتبة بيته حيث كان الملك في انتظاره .

الفصل الثاني :

وعندما يسلم عليه يلاحظ الرسول أن جبريل ممسك بزمام البراق ، وهو دابة أكبر من الحمار وأصغر من البغل ، له وجه إنسان ، وعرفه من اللؤلؤ ، وجبينه من الزمرد ، وذيله من الياقوت ، عيناه أبيه من الشمس ، وأقدامه وحوافره مثل الحمل ، وجسمه كله يشع نوراً وبهاء ، أما سرجه ومقعده فهو من اللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وكان محوطاً بزمرة من الملائكة الحفظة ..

ويدعو جبريل الرسول كي يركب البراق ، لكنه عندما يقترب منه ينفر ويأبى ، فيأمره جبريل أن يدعن ويصبح ذلولاً له ، إذ أنه أول إنسان يركبه ، فيسأله البراق عن يكون ، فيجيبه الملك بأنه محمد ، عندئذ يهدأ البراق ويدعن له ، فيمتطيه محمد ، ويبدأ في السير نحو المسجد الأقصى بالقدس بخطوات تبلغ من اتساعها درجة أنه يضع رجله على أبعد مدى تلموكه طرفه .

(١) راجع لكل فصل نظره في النماذج الإسلامية في الملحق الثاني .

الفصل الثالث :

وكان جبريل يمضي إلى جواره ، وهو يبشره بما ينتظره من مكرمات ، وفي الطريق يسمع محمد صوتاً يناديه برفق مرة واحدة ، لكنه يمضي في طريقه لا يلوى على شيء ، ثم لا يلبث مرة أخرى أن يسمعه وهو يناديه صائحاً مرتين لكن محمداً لا يلتفت إليه ولا يأبه له . وبعد مضيئة طويلة يرى امرأة ، أجمل من وقع عليها نظره ، وهي ترتدى حلالاً مبرقشة بكل الألوان ، فتناديه بصوت عذب رخيم ثلاث مرات ترجوه أن ينتظرها ، فيتوقف ، لكنها عندما تقترب منه وتهم بأن تكلمه يصد عنها وينصرف إلى طريقه . ويشرح له جبريل بعد ذلك أن الصوت الأول كان شريعة اليهود ، ولو كان قد رد عليه لأصبحت أمته من اليهود ، وأن الصوت الثاني كان شريعة المسيح ، ولو أجابه لتمسحت أمته ، وأما المرأة الجميلة المزينة بكل الألوان والتي نادته ثلاث مرات فهي الدنيا المليئة بالمتاع ، ولو أجابها لنعم قومها بزينة الحياة الدنيا التي لا تخلص ، أما وقد صد عنها فإنه سيكون أظهر الأنبياء وأخلصهم من الذنوب والآثام .

ثم ما لبث جبريل أن انتهى إلى المسجد الأقصى ، وأنزلني أمامه على الصخرة السوداء ، حيث كان ينزل الأنبياء ، ثم ربط زمام البراق في الصخرة وأخذني من يدي ودخل بي المسجد .

الفصل الرابع :

فوجدت بالداخل كل الأنبياء وقد اصطفوا واقفين في دائرة المسجد ، فقد بعثهم الله من مراقدهم وجاء بهم تشریفاً لي ، وعندما رأوني قادمًا تأهبوا للصلاة ، وعندئذ قال لي جبريل : « تقدم أنت لتوهمهم ، فأنت سيد جميع الأنبياء والمرسلين وخير خلق الله أجمعين » فتقدمت

للصلاة بهم ، وعندما أدبت الصلاة سلموا جميعاً على معظمين ومعانقين
لى بفرح عظيم ، وأدخلوا يسألوننى عما أعزم عمله متمنين لى مزيداً من
توفيق الله ونعمته وشرفه .

الفصل الخامس :

قادنى جبريل بعد ذلك إلى خارج المسجد وأرانى سلماً يمتد من
السماء الأولى إلى الأرض ، وكان مشهداً رائعاً ، فقد كان يركز على
الصمخرة السوداء ، أما درجاته فقد كانت أولاهها من ياقوت ، وثانيها من
زبرجد ، وثالثها من لؤلؤ ناصع البياض ، وبقيها كل درجة من حجر
نفيس مختلف ، وكانت كلها مغطاة بسباط أخضر ، ومحوطة بالملائكة
الحفظة ، وكانت من البهاء والإشراق بحيث تعشى البصر .

وأخذ جبريل يبدى لى الدرجة الأولى وأهاب لى أن أصعد ، فصعدت
وهو برفقتى المراقبة ومعنا كل الحفظة من الملائكة .

الفصل السادس :

وفى عروجى رأيت ملكاً عظيماً جالساً على كرسى ويده لوح كبير
يبلغ طوله ما بين المشرق والمغرب ، وعلى يمينه جموع من الملائكة تلمع
وجوههم كالقمر ليلة البدر ، تغطيهم أردية أشد أخضرة من الزمرد ،
وتفوح منهم رائحة المسك والعنبر ، وعلى يساره جموع أخرى أشد سواداً
من الحبر ، عيونهم حمراء كاللهب ، ورائحتهم نكتة كريهة ، أصواتهم
كالرعد ، وقد بلغوا من القبح مداه .

أمرنى جبريل أن أسلم على هذا الملك ؛ لأنه من الملائكة المقربين
لله ، فسلمت عليه ، فرد على بإماعة من رأسه فحسب . حدثت فيه النظر
فأرأيت أنه ينظر مرة إلى اللوح وأخرى إلى العالم وعجبت من طاعته لله .
لامه جبريل لأنه لم يرد على السلام مع أنه يعلم أى محمد نبى الله ورسوله

وأنى قد بعثت ، فما لبث عندئذ أن حيأتى وأخبرتني أننى أشرف رسل الله وسيد كل العالمين ، وبعد دعوة قصيرة قال إن أمتى ستكون أطول الأمم بقاء على الأرض ، لما خصها الله به من فضل وحب .

الفصل السابع :

وقال لى جبريل إن هذا ملك الموت ، فسألته حيثئذ كيف ينزع أرواح الناس من أجسامهم عندما يحين أجلهم ، فأخبرتني أن الله منذ خلق آدم عليه السلام وقد كلفه بهذه المهمة إلى يوم القيامة ، وأنه لن يبقى عليها من أحد إلا الله وهو ، ثم يقبض الله روحه ويظل حياً إلى الأبد ، ثم أخبرتني أيضاً أن قبض أرواح الخلق في نفس الوقت ليس فيه مشقة عليه عندما يموتون ، أحدهم في المشرق والآخر في المغرب ، لأن العالم كله ليس إلا مثل الحبة في قبضة يده ، وعندما يموت خلق كثير في المعارك الكبرى فلأننى أقبض أرواحهم دفعة واحدة ، مناديا الأرواح بصوت عظيم فتأتى إلى يدى ، فإذا جاءت إلى حضرتى عرفت من وجب لها أن تذهب إلى الجنة ومن حق عليها أن تمضى إلى الجحيم ، فعندى فى هذا اللوح المحفوظ أسماء كل من خلق على وجه الأرض وما قدر لهم بعد الموت من خير أو شر .

الفصل الثامن :

ثم قال لى : أعلم أنه عندما يحين أجل من مصيره الجنة أرسل إليه ملكاً من على يمينى جميلاً زكى الرائحة حتى يقبض روحه بكلمات طيبة وعزاء جميل ويحضرها إلى برفق ، فأخذها بلورى وأسلمها لأجلهم الذى يرفعها إلى الله عبر السماوات ، فيأمر الله ملكاً من ملائكة النور أن يأخذها ويضعها فى حلق طائر أخضر يحملها إلى الجنة . أما عندما يموت أحد الأشرار فلأنى أرسل له ملائكة من على يسارى قبحاً مرعبين ، ينزعون روحه بغلظة وكلمات قاسية مخيفة . ويحضرونها إلى ، فأعطيتها لأشد الملائكة

فضاظة وبشاعة. يحملها إلى السماء ، لكن عندما يصل إلى أبوابها تغلق من دونه ويرفض حسبما جاء في القرآن الكريم .

الفصل التاسع :

مضينا إلى الأمام ، وفي الطريق رأينا ملكاً هائلاً بلغ من ضخامته أن قرعت رأسه السماء وتدلّت رجلاه في الفضاء ، شعره طويل مسدل على أكتافه ، وكان جناحاه من كل الألوان الجميلة التي لم تقع عليها أبداً عين إنسان . وكانت خلقته على هيئة ديك ، وقد علمه الله أوقات الصلاة ، فعند ما يحين أوانها ينبعث صوت من السماء يأمر الخلائق أن تسبح بحمد الله وحينئذ يهتف هذا الملك بصوت مرتفع : « تبارك الله القدوس ، مالك جميع النفوس » فتجيبه ديكة الأرض وتصيح كلها داعية الناس لحمد الله وتسبيحه .

ومضينا إلى الأمام ، فرأيت ملكاً آخر نصفه من نار ونصفه من ثلج ، فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفى النار ، وقد أخذ يضرع إلى الله ويدعوه أن يؤلف بين قلوب عباده مثلما جمع فيه بين النار والثلج . ورأيت أيضاً ملكاً آخر ، لا يبلغ الوصف مدى عظم خلقه ، فأردت أن أسلم عليه ، لكنه لم يرد عليّ لأنه كان مشغولاً بالصلاة والتسبيح بحمد الله ، حتى أخبره جبريل بأنني محمد وأنني قد بعثت ، عندئذ التفت إلىّ وحياني هو وبقية الملائكة .

الفصل العاشر :

ومضينا قدماً فرأينا ملكاً آخر هائلاً يجلس على كرسي ، ويبيده عمود عظيم لو ضرب به السماء والأرض لفلقهما ، فلما رأى جبريل هذا العمود أخذ يركي قائلاً لي إن هذا الملك هو خازن النار ، فاقتربت منه لأسلم عليه ، لكنه لم يرد عليّ السلام حتى أخبره جبريل

عن أكون فحياتي وقال لي إن كل من يذهب من أمتي إلى النار سيلاقى أخف العذاب .

الفصل الحادي عشر :

على وجه هذا الملك كانت تبدو أمارات الحزن الشديد ، وقال لي إن سبب حزنه وأسفه هم هؤلاء العصاة ، فسألته عن كيفية خلق الجحيم ومن فيها من ملائكة وكيف يعيشون ، فأجابني بأنه عندما خلق الله الجحيم أوقد فيه النار سبعين ألف سنة حتى صار كله أحمر ، ثم أوقد فوقه ناراً أخرى لمثل تلك المدة حتى صار أبيض ، وبعد ذلك أوقد فيه ناراً أخرى لمدة سبعين ألف سنة حتى صار كله أشد سواداً من الليلة الخالكة . هذه النار تصطلي دائماً من نفسها بشدة دون أن ينبعث منها أبداً لب . أما ملائكة الجحيم فقد خلقوا من النار وهم يتغلبون بها ، ولو خرجوا منها لحظة لماتوا مثل السمك إذ يخرج من الماء ، كما خلقوا صها بكماً كي لا يسمعوا أنين من يسومونهم سوء العذاب ، وجعلت في قلوبهم قسوة وغلظة بحيث لا ترق ولا تتحرك بالرحمة للمذنبين وهم يضر بؤسهم بهراوات حديدية غليظة .

ونترك هذا الملك مفعمين بالرعب ونستمر في طريقنا حتى نطرق السماء الأولى التي تسمى بسماء القمر .

الفصل الثاني عشر :

كانت السماء الأولى من حديد ، عرضها بمقدار مسيرة خمسمائة عام ، وبينها وبين السماء الثانية نفس القدر ، ونادى جبريل على الباب ففتح لنا ملك يبلغ طوله وعرضه ألف عام من مسيرة البشر . ورأينا أبواب السماء ، نالقة الجمال ، وكثيراً من الملائكة الذين يحرسونها وهم يتقبلون في أعطاف زينة والبهاء ، وأراد جبريل أن يلج أحد هذه الابواب ، فسأله ملك عما يريد ومن معه ، فأجابه بأنه محمد خاتم الأنبياء ومسيد المرسلين ،

وأنه يريد الدخول ، عندئذ فتحت لنا فجأة كل الأبواب ، ومن الداخل سلم علينا جميع الملائكة وهم يشيرون لنا لئلا نرى العجائب العظيمة . كان لكل منهم وجه لإنسان وجسم بقر وجناح عقاب ، وكان عددهم سبعين ألفاً ، لكل منهم سبعون ألف رأس ، لكل رأس سبعون ألف قرن ، لكل قرن سبعون ألف جزء ، بين كل جزء وآخر مسافة أربعين سنة ، في كل رأس سبعون ألف وجه ، في كل وجه سبعون ألف فم ، في كل فم سبعون ألف لسان ، كل لسان يعرف الكلام بسبعين ألف لغة ، ويسبح بحمد الله كل يوم سبعين ألف مرة .

وبينما كنا نتعجب من هذه الآيات البديعة رأينا وسط الملائكة رجلين بالغنى الجمال جالسين على مقاعد من نور ، شعرهما ولحيتهما أبيض من الثلج ، وقد ارتديا حللاً ناصعة البياض تكاد تعشى من ضوئها الأبصار ، وتحيط برأسيهما هالات من النور والبهاء ، وقال لي جبريل إن أحدهما هو يحيى بن زكريا والثاني هو عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، فاقتربت منهما وسلمت عليهما ، فلما عرفا أنني محمد ردا لي التحية والسلام .

الفصل الثالث عشر :

ومضينا إلى أعلى حتى وصلنا السماء الثانية وكانت كلها من البرونز ، وعرضها ومسافة ما بينها وبين السماء الثالثة مسيرة خمسمائة سنة ، وفتح لنا الباب ملك هائل بلغت رأسه السماء السابعة وهوت قدماه إلى أعماق الأرض ، وقد أخذ هذا بيدي وأدخلني هذه السماء ، وهناك رأينا ملائكة أحجامها أضخم سبعين ألف مرة من ملائكة السماء الأولى ، فسلموا على بعد أن عرفوا من أنا ، وبينما كانوا يتحدثونني عن عجائب الله وآياته رأيت بينهم شاباً عظيم الجمال فائق الحسن والبهاء ، يجلس على كرسى من نور ، ويشع الضوء من شعره وملابسه ، فأخبرني جبريل أنه يوسف

ابن يعقوب ، فسلمت عليه ورد على بترحاب وابتهاج كبير ، ثم واصلنا الرحلة حتى السماء الثالثة .

الفصل الرابع عشر :

كانت كلها من الفضة الخالصة ، شمكها ومسافة ما بينها وبين السماء الرابعة مسيرة خمسمائة عام ، وعندما نادى جبريل فتح لنا الباب ملك هائل مكين يستطيع أن يضع في كف يده كل العالم وما فيه دون أن يؤثر ذلك عليه أدنى تأثير . ورأينا في الداخل ملائكة عجباً ، وجوهم مثل البقر وأيديهم مثل القمر ، لا يكفون عن حمد الله وتسبيحه بورع شديد. فسلمت عليهم وردوا إلى التحية وبشروني بالطيبات الصالحات ، ورأيتهم منتظمين في مراتب ودرجات وقد احتشدوا في مواكب صفات متلاصقات لا يمكن لأحد أن يدخل بينهم شعرة واحدة ، وكانت رؤوسهم منكسة إلى الأرض من خشية الله ، وكانوا مستغرقين في التسبيح والطاعة حتى لو أن أحدهم ذهب من المشرق إلى المغرب لما تحرك الآخرون حتى عودته ولما اضطربت درجته أدنى اضطراب . وكانت جميع صفوفهم المتراسة تسير في حركة دائرية وهي تسبح بحمد الله وتقديس اسمه .

ورأينا بينهم رجلين جالسين على مقعدين من نور ومتلفعين على رؤوسهما بردائين ناصعي البياض ، فتأملتهما برهة طويلة ، وقال لي جبريل لهما لباس لإدريس وقد أنزلهما الله مكاناً علياً ، حيث لا شغل لهما سوى تسبيح الله وحمده مع الملائكة الصافات دون أن يكفوا عن ذلك غمضة عين . فدنوت منهما وحدثتهما عن جبريل فسلما عليّ ، ثم تابعا طريقنا حتى وصلنا إلى السماء الرابعة .

الفصل الخامس عشر :

كانت كلها من الذهب الخالص ، ومسافة ما بينها وبين السماء الخامسة

مثل سمكها مسيرة خمسمائة عام ، وفتح لنا الباب ملك بلغ من ضخامته أن كل المياه العذبة كانت على إبهام يده اليمنى وكل المياه المالحة كانت على إبهام يده اليسرى . وكان كله من الضوء ، ووجدنا بالداخل سبعين ألف ملك لهم وجوه النور ، لكل واحد سبعون ألف جناح ، بكل جناح سبعون ألف ريشة ، طول كل ريشة سبعون ذراعاً .

وبينما كنت أتأمل هؤلاء الملائكة رأيت بينهم رجلاً عظيم الحسن والوسامة ، يجلس على مقعد من نور ، ثيابه تتلألأ ، وعلى رأسه تاج يعشى بريقه الأبصار ، وأخبرني جبريل أنه هارون ، وبعد أن سلم علينا واصلت مع جبريل طريقنا حتى بلغنا السماء الخامسة .

الفصل السادس عشر :

وكانت كلها لؤلؤة واحدة أبيض من الثلج ، لها نفس السمك ، وتفصل بينها وبين السماء السادسة نفس المسافة التي كانت لسابقتها ، وفتح لنا الباب في الحال ملك كله من نار ، له سبعون ألف ذراع ، لكل ذراع سبعون ألف يد ، لكل يد سبعون ألف إصبع ، وكل إصبع يسبح بحمد الله سبعين ألف مرة في اليوم . وفي الداخل وجدنا ملائكة ذات أجسام كريمة نبيلة ، لكن ووسهم مثل النور ، وأجنحتهم تتألق من خالص النور ، لا يكفون عن تسبيح الله وحمده ، وبعد أن تبادلنا معهم التحية رأيت بينهم رجلاً عظيم الجمال ، يجلس على كرسي من نور ، وقد لف حول رأسه غطاء من نور ، وفي يده عصا من نور ، فأخبرني جبريل أنه موسى ، وعند ما عرف أنني محمد حياني بمودة وترحاب ، وقال لي إن الله يريد أن يفرض على أمتي صلاة وصياماً كثيرين ويجب على أن أضرع إليه أن يخفف عنهم لأنهم لن يحمّلوها ، وقد لاقى هو عناء كثيراً مع بني إسرائيل لنفس السبب ؛ إذ لم يكن الله قد خفف عنهم التكليف . فلو فعلت ذلك تبعثني أمي وآمنت بي ، وإن لم أفعل كرهتني أمي وكذبتني ؛ ثم إفرقنا بعد ذنه ومضينا إلى السماء السادسة .

الفصل السابع عشر :

وكانت من الزمرد الشديد الخضرة ، سمكها ومسافة ما بينها وبين السماء السابعة مسيرة خمسمائة سنة ، واقترب من الباب فيها ملك أكبر من كل السابقين بمقدار سبعين ألف مرة ، من الضخامة بحيث يستطيع أن يبتلع السماء والأرض دون أن يتأثر . وفي الداخل رأينا ملائكة أعظم ممن رأيناهم من قبل سبعين ألف مرة ، وجوههم كالخيل ، وكلهم مسلحون ، لكل واحد منهم سبعون ألف جواد ، لكل جواد سبعون ألف سرج كلها من الزمرد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة ، وهناك أيضاً كان جواد جبريل ، وكانوا جميعاً منظمين على مراتب بأسلحة شديدة البريق واللمعان ، وقال لي جبريل إنهم جدد الله ، وأن عندهم هذه الخيل المسرجة بأمر الله كي يلعبوا عليها في عون عباده عندما يحتاجون ، وأضاف قائلاً إنني سأنزل بهم لأساعدك إذا احتجت ، هذه الخيل لا تأكل ولا تشرب ، وتسيح بحمد الله فحسب .

ورأيت بينهم رجلاً يجلس على كرسي من نور تغطيه ثياب أشد إشراقاً من الشمس في وسط الظهيرة وعلى رأسه تاج من نور ، تحيط به الملائكة ، وتسيح معه بحمد الله ، وقال لي جبريل إنه إبراهيم ، وعندما عرف أنني محمد قال لي إن الله حياني بكثير من نعمته ووجهه وفضله علي وعلى أمتي ، وطلب مني أن أوصي أمتي بتكرار هذه الكلمات في الجنة « الحمد لله ، ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله » وكلما رددوها زاد نعيمهم في الجنة . تلك الجنة التي أقيمت حولها الأسوار من الذهب الخالص ، ونصبت فيها الشرفات من فضة ، وملاطها المسك ، تلك الجنة التي وعد بها المتقون من أممي وأعدت لمن آمنوا بي وبشريعتي ، وبعد ذلك انصرفنا ومضيئنا إلى السماء السابعة .

الفصل الثامن عشر :

كانت من ياقوت ، سمكها ومسافة ما بينها وبين السماء الثامنة خمسمائة عام ، ونادى جبريل البواب ، فدنا في الحال ملك لا يمكن لأحد إلا الله أن يبلغ صفته ، ولما صرنا في الداخل وجدنا ملائكة من الضخامة والروعة بحيث لا يوصفون ، ولا أجروا على ذلك لأن الله حرمه على . وكانت أنظارهم ثابتة عليه هو ، لأعمل لهم سوى التسييح بحمده ، وعندما رأوني رفعوا أصواتهم وكان تسييحهم من القوة والعظمة بحيث بدأ لي أن كل الملائكة السابقين كانوا بالمقارنة بهم شبه نائمين ، وكانت تراتيلهم تسمع عبر السماوات والأرض ، فأخذت أنا وجبريل نبكي من خشية الله .

ثم نهض واحد من بين هؤلاء الملائكة - وهو مؤذن السماء - وأخذ ينادى للصلاة ويقول : الله أكبر ، ثم : لا إله إلا الله ، وبعدها : أشهد أن محمداً رسول الله ، ثم أضاف ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح . فطلب مني جبريل حينئذ أن أقيم للصلاة فسجدت لله ركعتين قصيرتين ، فإذا بكل الملائكة الذين رأيتهم في السماء السبع يخرجون على وجوههم ساجدين في الصلاة معي وقائمين بعدي وهم يدعون الله أن يسبح علي من فضله ونعمته أكثر مما أعد لي . ورأيت من بينهم رجلاً جالساً على مقعد من نور ، ثيابه نور ، وعلى رأسه تاج من بهاء ووجهه يشع الضياء . وقال لي جبريل إنه أبونا آدم . وعندما أخبره جبريل أنني محمدرحب بي أحسن ترحيب وحب وتشريف ، وقال لي : إن الله يريد أن يشرفني فوق كل الناس ، وأردف قائلاً : اعلم أن الجنة مغلقة لا يدخلها نبي ولا إنسان آخر حتى تدخلها أنت وأمتك ، ثم اقترب مني حينئذ وعانقني وهو يضع يده على رأسي ، ودعا لي الله بالإخلاص وتواضع عظيمين . ولما انتهينا من الصلاة انصرفنا بعد إذنه وبلغنا السماء الثامنة .

الفصل التاسع عشر :

وكانت كلها من زبرجدة واحدة آية أمام عيون الفانين ، وسمكها مسيرة خمسمائة عام ، ونادى جبريل على الباب فلدنا منا ملك أعظم من الشمس بهاء سبعين ألف مرة ، له سبعون ألف رأس ، لكل رأس سبعون ألف وجه ، لكل وجه سبعون ألف عين ، لكل عين سبعون ألف حدقة ، كل حدقة ترنجف سبعين ألف مرة في اليوم من خشية الله ، فتع لنا الباب ، وفي الداخل سرنا كثيراً في هذه السماء حتى وصلنا إلى حجاب من الستائر قد وضع بين الله والملائكة ، كما كانت هناك أيضاً بعض الدوائر التي تفصل ونحجب ، وحول هذه الدوائر عدد هائل من الملائكة المقربين لا يعلم عددهم إلا الله ، لكنني أستطيع أن أقول إنهم كانوا أكثر من كل الملائكة السابقين سبعين ألف مرة ، يسبحون بحمد الله دون انقطاع ، وعندما اقتربنا منهم ارتفعت أصواتهم بالتسبيح ، ثم دخلنا في الدوائر والحجب ، فرأينا أن حجب القسم الأول كانت سبعين ستارة كلها من السمط الأحمر الفاقع ، وبعد ذلك سبعون ستارة من المحمل الأخضر اللامع ، ثم سبعون أخرى ، وهكذا تتوالى الحجب والأستار سبعون فسبعون من كل الألوان ، وكلها زاهية لامعة . وبعد أن انتهت هذه الحجب وجدنا سبعين قسماً آخر كلها من اللؤلؤ الناصع البياض ، وآخر مثله من الياقوت وآخر من الزبرجد وهكذا سبعين سبعين كلها من الأحجار النفيسة على جميع الأشكال المتصورة ، ثم وجدنا بعد ذلك سبعين قسماً آخر كلها من الماء ، ومثلها من الثلج والبرد والسحب والضباب والنار والنور من مجد الله وبكل الألوان المتخيلة ، وبين كل هذه الأقسام جوع لا تحصي من الملائكة ، تروح وتغردو بلا توقف وهي تسبح بحمد الله . وبينما كنت أتأمل هذه الآيات مضى جبريل وتركني وحيداً .

الفصل العشرون .

لما رأيتني وحيداً نشطت وتحمست في حب الله ، وسرت أخترق هذه الأقسام حتى وصلت إلى العتبات القدسية ، فلما دنوت منها سمعت صوتاً يناديني « اقرب مني يا حبيبي يا محمد » فتقدمت إلى الأمام ، وتكرر في مسمعي الصوت مرة أخرى فزدت تقدماً ، ثم تكرر الصوت مرة ثالثة وأضاف : « اعلم يا محمد أنك عندى أشرف الناس وأسمى المخلوقات من الإنس والجن والملائكة » عندئذ اقتربت أكثر ودنوت حتى لم يبق بيني وبين الله إلا قاب قوسين أو أدنى ، وبعد أن سلم علىّ وسألني عن أمي فرض علينا الصيام ستين يوماً في السنة والصلاة خمسين مرة في اليوم ، ثم عدت بعد ذلك حتى قابلت جبريل ثانية ، وفي الطريق رأيت كرسي العرش وقد اتصل بالسماء حتى بدا لي أنه خلق معها ، كان كله من نار ، وبه العناصر الأربعة ، النار والهواء والماء والتراب والعالمين والجنة والجحيم ؛ كلها خلقها الله في نفس الوقت مع كرسيه الذي وسع كل شيء وأشع أعظم الضياء ، ومعهما خلق الله اللوح المحفوظ ، طوله مسيرة ألف عام ، وكله من اللؤلؤ الأبيض وحوافه من الياقوت ووسطه من الزبرجد ، وكل ما خط عليه من كتابة فهو مسجل بالنور الخالص ، ينظر الله إلى هذا اللوح مائة مرة كل يوم ، وفي كل مرة يمحو الله ما يشاء ويثبت ، يحيي ويميت ، يعز من يشاء ويلذل من يشاء ، وقد خلق الله مع اللوح قلماً من نور ، طويل عريض ، يبلغ مسيرة خمسمائة سنة ؛ وأمره أن يكتب كل علمه وخلقته الذي كان منذ بدء العالم إلى منتهاه ، فامتثل لأمره ، وسجل بخطه الناعم الرقيق السريع كل شيء .

الفصل الواحد والعشرون .

الملائكة الذين يحملون عرش الله خلقوا مع العرش ، وتبلغ مسافة ما بين رعو سهم وأكتافهم حجم العرش الذي لا يبلغ الوصف مداه ،

ولكل واحد أربعة وجوه ، وجه من الأمام والآخر من الخلف والثالث والرابع على اليمين والشمال ، ولهم أيضاً أربعة أشكال ، شكل إنسان وعقاب وأسد وثور ، وكل أجسامهم مغطاة بعيون ، ولكل واحد ستة أجنحة ، اثنان للطيران ، واثنان لتسييح الله بخفقهما ، والآخران من طب لتغطية وجوههم ، لا يكفون عن حمد الله والثناء عليه وهم يرتلون « سبحان الله وسع كرسيه السماوات والأرض » وللكرسى أربعة قوائم ، كل قائم أطول سبعين ألف مرة من مسافة ما بين السماء والأرض ، وأما داخله فإن السماء والأرض والعالم كله تبدو كأنها حبة خردل في كف اليد بالنسبة له ، ولا يعرف الملائكة أنفسهم على أى بعد هم من الله ، ويفصل بين هؤلاء والملائكة الآخرين الذين يحملون السماء ثلاثة أقسام أوبيوت ، في الأول سبعون ستارة كلها من السحاب ، وفي الثاني سبعون أخرى كلها من البرد ، وفي الثالث سبعون أخرى كلها من النور الخالص ، كل حجاب عرضه ومسافة ما بينه وبين الآخر مسيرة خمسمائة سنة ، ولولم يخلق الله هذه الأقسام والحجب لاحتقرت بنوره العظيم جميع الملائكة الموجودين بالداخل ، أما حملة العرش الأربعة فسوف يبد لهم الله يوم القيامة حيث ينصرفون للدعاء ، فالملك الذي خلق على هيئة الإنسان يدعو الله من أجل الناس ، والذي على هيئة عقاب يدعو للطيور ؛ والذي على هيئة الأسد يدعو من أجل الحيوانات المتوحشة ، والذي على هيئة الثور يدعو الله من أجل الحيوانات المستأنسة .

الفصل الثاني والعشرون :

وفي نفس مكان الكرسي رأيت سبعين ألف فئة من الملائكة كلهم على مراتب ، يمشون في حركة دائرية دائبة حول السماء وهم متقابلون يسبحون بحمد الله ويملاؤن السماء بأصواتهم ، ورأيت سبعين ألف فئة أخرى كلهم قائمون وقد عقدوا أيديهم خلف أعناقهم يرددون صدى

قرا تيل السابقين مسبحين بحمد الله كذلك . ثم رأيت بعد هذا مائة ألف صف من الملائكة قائمين وقد عقدوا أيديهم على صدورهم مغطون بالشعر والريش ، وشعرهم وريشهم يسبح بحمد الله بطرق مختلفة ، ولكل منهم أجنحة ما بين الجناح والآخر مسيرة ثلاثمائة سنة ، ونفس المسافة ما بين الأذن والكتف ، وما بين المنكبين مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كعب القدم إلى الركبة مسيرة مائتي سنة ، والركبة نفسها مائة سنة ، ومن الركبة إلى العجز ثلاثمائة سنة ، وبين كل ضلع وآخر مسيرة مائتي سنة ، ومن الكف إلى المرفق ثلاثمائة سنة ، ومن المرفق إلى الكتف ثلاثمائة سنة كذلك ، وراحة أيديهم يمكن أن تتسع لكل جبال الأرض وسهولها دون أدنى مشقة . ثم رأيت عجائب أخرى ، فحاملة العرش من الملائكة يبلغ طول كل واحد منهم مائتين وسبعة عشر ألف عام من مسيرة البشر ، وعرض أقدامهم سبعة آلاف سنة ، ولكل واحد منهم عدد لا يحصى من الوجوه والعيون ، وعندما يحملون السماء يقولون راكمين « لا إله إلا الله جلّت قدرته على ما سواه » أما وهم قائمون فإن أقدامهم تنفذ من أقطار السماوات والأرض حتى تصل إلى الريح التي يقع أسفل منها بخمسمائة عام ، وفي تسبيحهم لا يكفون عن تكرار ما سبق والدعوة بصفة خاصة لعباد الله من المؤمنين والمؤمنات .

الفصل الثالث والعشرون :

وبعد أن انتهينا من رؤية ذلك هبطنا إلى السماء السابعة حيث يوجد الملائكة المقربون من الكروبيين ، ورأيت أنهم لا يحصون عدداً ، وكانوا يسبحون بحمد الله بأصوات بلغ من ارتفاعها أن أهل الدنيا لو سمعوا صوتاً واحداً منها فحسب لما تواروا من الخوف ، وكلهم مختلفون فيما بينهم في اللغة والصورة والأعضاء وحتى في دعواتهم . وبلغوا من الاستغراق في طاعة الله أنهم بعد أن خلقوا لم يلتفت أحد منهم برأسه أبداً إلى جاره .

بل إن رؤوسهم منكسة دائماً إلى أسفل . ورأيت سبعين ألف صنف من الملائكة بلغت ضخامتهم إلى درجة تجاوزت فيها رؤوسهم السماء السابعة وأقدامهم مغروزة إلى أسفل في الفضاء ، بين هؤلاء السبعين ألف كان هناك تسعة كل واحد منهم أكبر من الآخرين تسعين مرة . ولم يكن بين رؤوس هؤلاء الملائكة ومناكبهم أدنى مسافة ، وهم يشبه بعضهم بعضاً إلى درجة أنه ليس ثمة أى فارق يميزهم ، على أن المسافة بين كل صف وآخر تبلغ مسيرة خمسمائة عام .

الفصل الرابع والعشرون :

هذه الصفوف التسعة من الملائكة كانوا يلتفون حول بعض في حلقات متداخلة ، وبينهم يجري نهر من الماء لا يعلم منبعه ولا مصبه إلا الله ، وماؤه من الصفاء والإشراق بحيث تحول دون النظر إليه خشية فقدان البصر ، وبعد هذا النهر يوجد نهر آخر عظيم جداً ، كله مكون من أشد السحب تراكماً وكثافة ، وبعد نهر آخر من نار ، دائماً عظيم الاشتعال بنفسه ، وبعد الأنهار هناك جبال من ثلج ناصعة البياض ، وبعدها بحر عظيم يخترق الأراضي السبع ، كله مليء بالملائكة التي تسكنه ، وكلهم من ضخامة الحجم بحيث لا يبلغ ماء البحر أعجازهم ، وهم يوم القيامة يدعون الله من أجل سمك البحار والأنهار ، كما أنهم لا يعرفون ماذا تحت البحر ولا أين يضعون أقدامهم ، وتصل رؤوسهم إلى سماء العرش . لا يكفون أبداً عن حمد الله ۞

الفصل الخامس والعشرون :

وهناك بعد هذا البحر العظيم يوجد بحر آخر من ماء شديد الصفاء ، فيه جموع غفيرة من الملائكة الواقفين ، لا يكفون عن قول « لا إله إلا الله » حتى يوم القيامة ، وقد وقفوا صفوفاً متراصة متلاصقة مثل جدران مدينة أو قلعة متصافة ، ومن العجائب الأخرى أن هذه السماء كانت تحوطها

أربعة أنهار : أحدهما عظيم الصفاء يفوق كل الأنوار ما عدا نور الله ، وآخر ماؤه أبيض من الثلج بلغ من الصفاء إلى درجة أن يرى الإنسان قاعه على عمقه الذى لا يصدق ، وكل رحاله من الأحجار النفيسة ومنه تنبع أنهار الجنة ، وبعده يوجد نهر آخر من الثلج المتألق ، وآخر ماؤه خالص للميد الطعم ، ملىء بالملائكة يروحون ويغدون على أقدامهم وهم يسبحون بحمد الله ، على أن رؤية هؤلاء الملائكة وتلك الأنهار وما عداها لم تحل بينى وبين رؤية سماء العرش .

ومن الآيات الأخرى أن سماء العرش بها من الألسنة ما يزيد سبعين ألف مرة على ألسنة جميع المخلوقات فى كل السماوات الأخرى والأرض والعالمين ، كلها ألسنة لا تكف عن حمد الله وتسبيحه وتقديسه بجميع أنواع اللغات .

الفصل السادس والعشرون :

وعرفت بعد ذلك أن الله كان قد خلق ثمانية عشر ألف عالم ، وأن هذا العالم الذى نعيش فيه واحد منها فحسب ، وفى هذه العوالم ألف نوع من المخلوقات عدا الإنسان والشیاطين والجن وأجوج ومأجوج ، وهى مخلوقات بن الإنسان والشیطان ، كلها بأعداد لا تحصى ، من هذه الأنواع يوجد أربعمئة فى الأرض وستمئة فى البحر . وبالإضافة إلى ذلك فإن كل السماوات غاصة بالملائكة المزدحمين إلى درجة أنه لا يمكن لأحد أن يضع بينهم شعرة واحدة ، بعضهم واقفون وآخرون جالسون أو ساجدون بوجوههم على الأرض يسبحون بحمد الله ويخفقون بأجنحتهم من خشيته .

الفصل السابع والعشرون :

ثم ذهب بنى جبريل بعد ذلك إلى أرض كلها بيضاء ، بياضها خارق للعادة ، مليئة بمخلوقات من صنع الله ، ومن أجناس لا تحصى ، لا يخرجون (١٦٢ - الثقافة الإسلامية)

أبدا عن طاعة الله ولا لغمضة عين ، ولا بمكنى القول إن كانوا آدميين
أم لا ، ولا إن كانوا من الشياطين أو يعرفون شيئا عنها ، فقد حرم الله
على ذلك .

الفصل الثامن والعشرون :

ولما عدت من هناك ؛ حملنى روح الله عبر السماوات وهو يرينى فى
لحظة ما لا يرى إلا بعد تمهل طويل ، حتى وجدت جبريل ومعه إسرافيل
الذى هبط بأمر الله كى يرينى الأرضين السبع التى تحيط بالأرض البيضاء
المدكورة ، ولما هبطت وجدت ملكاً اسمه القطروفيين بيده قلم من نور
طوله مسيرة خمسمائة عام ، ينبثق منه مداد من نور ، والقلم يعرف سبعين
ألف لغة لا يفهمها إلا الملك الذى يعرفها ويعرف عدداً آخر مثلها من
اللغات التى يجهلها القلم .

الفصل التاسع والعشرون :

وأرانى جبريل وإسرافيل ديكاً قريباً من الله ؛ وعرفه ورأسه يصلان
إلى سماء العرش ورجله فى أعماق الأرض السابعة ، هذا الديك من ملائكة
الله ، وهو دائماً يسبح بحمده ، وجناحاه هائلان لو فتحتهما لشفل بهما إلى
جميع أقطار السماوات والأرض من المشرق إلى المغرب ، وعندما ينتصف
الليل يفتح جناحيه وهزهما قائلاً « لا إله إلا الله » فلا يكاد ينتهى من صياحه
حتى تصبح ديوك الأرض وتهز أجنحتها ، فإذا سكّت سكّيت . وعندما
يبزغ الفجر يكرر صيحة منتصف الليل وهى تجييه ، وهكذا يحدث فى كل
ساعات صياحه ، أما ريشه فغليظ أعلاه ناصع البياض ، صغير أسفله رافع
الخضرة لا يشبع الإنسان من رؤيته أبداً .

ورأيت بعد ذلك ملكاً آخر أمام الله نصفه من ثلج ونصفه الآخر من
نار ، فلا الثلج يطفى النار ولا النار تذيب الثلج ، وهو دائماً مائل

في حضرة الله يدعوه ويضرع إليه بلا كلل أن يجمع قلوب العباد على طاعته مثلما جمع في خلقه بين الثلج والنار دون أن يمس أحدهما الآخر ، وحول هذا الملك رأيت ملائكة آخرين يسبحون بحمد الله بأصوات عالية ، عددهم لا تحصى ، ووجوههم وعيونهم شاخصة دائماً إلى الله سبحانه وتعالى .

الفصل الثلاثون :

بعد أن رأينا كل هذا عدت مع جبريل إلى سور الجنة ، فلاحظت أن أحجاره الضخمة المربعة كانت شديدة الاختلاف فيما بينها ، فبعضها من ذهب ، وبعضها من فضة ، وآخر من ياقوت يتوسط بين الذهب والفضة ، وكان ينبعث من السور بريق هائل يخطف الأبصار ، أما الملائكة التي يمسك بهذه الحجارة فقد كان من المسك والعنبر المذاب في ماء الورد ، له شئى لا يضاهى به شئ آخر ، وعرفت أنه لا يمكن لأى إنسان أن يقيس ارتفاع السور الذى لا يعلمه إلا الله . وقال لى جبريل إنه لم يعبر هذا السور من قبل أى مخلوق من الملائكة أو الإنس أو الشياطين أو الجن ، لأن الجنة مصونة عن أنظار جميع المخلوقات ، وأننى سأكون أول من يراها . وأن بالداخل جنة الخلد التى يوزع الله تعالى نعمها على صور كثيرة حسب ما يستحقه ثواب عباده وأنه سيعرفنى بها ، وقد صنعها الله بيديه نفسها ، وليس بينه وبينها سوى حجابين ، وهى أشرف وأنفس الجنات كلها ، فاقتربت مع جبريل من الباب ، وكان الباب يعرف اسمى ورسالتى ففتح لنا ودخلنا .

الفصل الواحد والثلاثون :

ولما صرنا بالداخل أخبرنى جبريل أن عرض الجنة مثل السماوات والأرض جميعاً لكن طولها لا يعلمه إلا الله ، وأنه عندما يبدل الله السماوات والأرض يوم القيامة فإن مكانها سيصبح هواء ، وسيجر بيده هذه الجنة وأخرى معها ، جنة عدن التى خلق الله فيها آدم ، فتجر بدورها باقى الجنان وتقرب حتى لا يكون بينها وبين العرش سوى سدرة المنتهى ونورها ،

ومنذ ذلك الحين فلأنها تمتلئ جميعا بالتور وتعمرها الملائكة يوم الخلود :
وأخبرني جبريل بعد ذلك أن الله لما خلق جنة عدن ملاًها بكل شيء ، وخلق
بداخلها جناناً أخرى بين السماء والأرض أقصى من مشرق الشمس حتى
رفعها إلى أعلى على مسافة ستمائة وثلاثة وستين عاماً .

الفصل الثاني والثلاثون :

سألت جبريل عن المسافة بين الأرض والسماء الدنيا فأخبرني أنها
مسيرة ستمائة وثلاث وستين سنة ، فسألته كذلك عن مسافة ما بين سماء العرش
والأرض فقال لي إنها مسيرة خمسين ألف عام من أعوامنا وشهورنا وأيامنا .
وقال لي إنه لا ليل هناك ولا شمس ولا قمر ولا نجوم ، وهكذا أدركت أن
مسافة ما بين كل سماء وأخرى مسيرة ألف عام ، وأنها إذا جمعنا مسافات
كل السماوات والحجب وجدنا مسيرتها اثنتين وأربعين ألف سنة .

الفصل الثالث والثلاثون :

أما الجنة التي كان فيها آدم فقد وجدتها على النحو التالي : . من ناحية
المشرق كلها مغطاة بالأشجار الوارفة الظلال ، يتلوها نهر عظيم تنبع منه
جميع أنهار الدنيا ، ويسير على تراب مصر ويسمى النيل ، فإذا كان في الجنة
فهو من عسل ، أما إذا خرج منها فإنه يتحول إلى ماء ، ثم رأيت نهراً
آخر عظيماً يسمى الفرات ، يجري لنا في الجنة ويتحول خارجها إلى ماء ،
ونهر آخر اسمه جيحان كله في الداخل من خمر وفي الخارج ماء ، كما
رأيت نهراً آخر مثلها في العظمة اسمه سيحان من ماء صاف ومذاق
لا توصف لذته . ومن هذه الأنهار الأربعة يجري العسل ناحية المشرق
واللبن ناحية المغرب والخمر ناحية الجنوب والماء ناحية الشمال .

رأيت بعد ذلك على باب الجنة مكتوباً « أنا الله لا إله إلا أنا ،
وكل من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد عصم نفسه من النار
على ذنوبه »

الفصل الرابع والثلاثون :

وبينما كنا نسير في هذه الجنات ، رأيت أنها قد خلقت على أشكال وهيئات مختلفة بعضها عن بعض ، لتشريف وتمجيد من يختارهم الله لنعمته ، وأن لها أسماء مختلفة ، منها « جنة عدن » التي خلق الله فيها آدم و « دار القرار » و « دار السلام » و « جنة المأوى » و « جنة الخلد » و « جنة الفردوس » و « حنة النعيم » وهذه السابعة قلعة الجنان وقصبتها فهي تشرف عليها جميعاً ، ومنها يأتي الله عندما يزور عباده في الجنة فهي داره الخاصة . عند هذه الجنة رأيت عمودين عظيمين ، أحدهما من الزبرجد والآخر من الياقوت ، طولهما وعرضهما لا يحيط به العقل ، ومسافة ما بينهما ما بين المشرق والمغرب ، وقد ملئت هذه المسافة نوراً خالصاً ، وهما يقومان على مدخل هذه الجنة . أما الجنات الأخرى فهي من نور كذلك ، وفيها كثير من المدن والقلاع النورانية ، وكثير من البيوت والأبهاء والأروقة والحجرات التي كلها من نور ، وهناك أشجار من كل صنف ونوع ، وثمراتها أبهى من الياقوت والزمرد ، وأوراقها لا توصف ، وتجري تحت هذه الجنات أنهار من لبن لم يتغير طعمه وخر لذة للشاربين ، وانتصبت على حواف الأنهار بيوت جميلة وحجرات رائعة لا يبلغ الوصف مداها .

الفصل الخامس والثلاثون :

ورأيت كذلك في هذه البيوت والحجرات التي تقوم على شواطئ الأنهار أجمل وأنقى النساء اللاتي يمكن أن يحلم بهن إنسان ، عيونهن حوراء رائعة الحسن والعطف والحنان ، يحلين رؤوسهن بأحجار كريمة ، وكل ثيابهن من نور ، وقد عقدت كل واحدة منهن على خصرها شريطين من لؤلؤ مضمخ بالمسك والعنبر ، تفوح منها رائحة تشفي أكثر المرضى سقما واعتلالا ، كلهن جالسات بجوار بعضهن ، ينشطن ويغنين بأنغام

أصفى وأحلى من كل صوت أو موسيقى آدمية قائلات : نحن العذارى الخالدات بلا دنس ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، خلقنا لأزواج كرام ، فطوبى لمن كان لنا وكناله ، وبينما يغتنن تبدو أسنانهن أبيض من البرد المتضد ، وأفواههن أدق وأشد حمرة من الياقوت ، ويبدو عليهن الوله والعشق لأزواجهن في الجنة ، حتى قبل أن يعرفهن ، وهن مقصورات لا يجروهن أحد أن يطلع عليهن ، ولو كان الشيطان نفسه ، فلا تبدو الحورية إلا لصاحبها الذى خصصت له ، وكلما جاءهن أزواجهن وجدنهن عذارى أبكاراً لم يمسن من قبل مثل المرة الأولى ، وقد كتب على صدر كل واحدة منهن اسم صاحبها ، وعلى صدر كل واحد من الأزواج اسم صاحبه . وقد بلغن من النعم والرفاهية بحيث يرى مخ ساقهن من وراء الدم واللحم والعظم كما ينظر الواحد إلى السلك في قصبة الياقوت ، وما يفكرن فيه يبدو دائماً لعيان أزواجهن ، وعلى كل واحدة منهن سبعون ألف حلة ، بعضها فوق بعض . ذات أكمام ضافية مثل أكمام القسيس الذين يؤدون الشعائر في الكنائس ، وكلها من الذهب الخالص والألوان العديدة ، وهى خفيفة عليهن كأنها قميص شفاف رقيق .

الفصل السادس والثلاثون :

والآن سأقول لكم صفة الجنات ، أولها جنة النعيم وهى بيت الله الخالص ، حديقة زاخرة بكل النعم التى لا تخطر على قلب بشر ، وجدراؤها من الياقوت عالية كالأبراج التى تحمى البيوت فى الداخل ، وفرشها وأعطيتها من اللؤلؤ ، وكذلك درجاتها وأوانها وأبواب بيوتها ، وفى داخلها حوريات ملهات ، أكثر جمالا ومرحاً من السابقات ، وبها حجرات من الياقوت والزبرجد واللؤلؤ والأحجار النفيسة الأخرى مرصوفة كلها على حواف بعض العيون التى تنبع هناك من خمر وماء على كل لون ومذاق ، وحيث ذهبت تتردد الأنغام العذبة والموسيقى والأناشيد التى تتغنى بها الحوريات وهن متكئات على الأرائك تحت الأشجار الظليلة . أشجار

فروعها جواهر ، وثمارها أشهى وأحلى من كل شيء وتصحيحين في الغناء
والأناشيد أنغام آلات موسيقية لا يبلغ الوصف مدى حلاوتها وعلوبتها .
وتحت هذه الحديقة تقوم حديقتان أخريان : إحداهما مرصعة من الخارج
والداخل بالأحجار النفيسة ، والأخرى من الذهب الأشقر الخالص .

وقد بنيت جنة النعيم على شكل درجات وصفوف دائرية ، كل صف
عرضه مسيرة مائتي سنة ، درجة من ذهب وأخرى من فضة وثالثة من
ياقوت ورابعة من زبرجد وخامسة من لؤلؤ وهكذا ، أما الملاط الذي
يمسكها فقد عجن بالعنبر والمسك ، وقد أعد الله هذه الجنة للمتقين من
عباده ويقول لهم يوم القيامة : اعبروا الصراط المستقيم ، وانعموا بالجنة
وما فيها ، واقتسموها كل على قدر فضله ، فقد خلقتها لكم .

الفصل السابع والثلاثون :

وهناك المزيد ، فإن من سيكون في أدنى درجات الجنة سيتمتع متسعاً
من أرضها مسيرة خمسمائة سنة ، وسينعم الله عليه بخمسمائة زوجة وأربعة
آلاف من الخور العين الأبقار يختار منهم من يشاء وثمانية آلاف ثيب
تخدمته ، فإذا أراد أن يعانق إحداهن هرعت إليه بفرح عظيم ورغبة
جارفة واستمر العناق ما دام حبه لها دون أن يفتر أو يبعد عنها ، ومستوضع
أمامهما الموائد والمناضد المليئة من الطعام والشراب بما لذ وطاب ، وكل
لقمة أو شربة سيكون لها لذة طعام العالم وشرابه أجمع ، ثم يأتي بعد ذلك
ملك معه مائة ثوب من ذهب هدية لهم من الله ، واوخطر لأحدهم أن
ينذهب إلى جنة الخلد وأراد التمتع بثمارها وفواكه أشجارها قام ملك في
الحال بتقريبها منهم . ولو طلبوا هذا من أول شجرة يجدونها لألقت إليهم
سبعين ألف صحيفة بها جميع ما لذ وطاب من لحوم وطيور ، طيور بدون
ريش أو عظام ، لم تطبخ أو تشوى على النار ، لذينة كأن مذاقها مزيج
من عسل وسمن ورائحتها مثل العنبر ، يأكلون مرتين في اليوم حسبما يشتهون ،

وآخر لقمة لها نفس طعم اللقمة الأولى . كل هذا يبعثه الله لهم مع ملائكته ،
وعطايا أخرى لا يعلمها إلا هو .

الفصل الثامن والثلاثون :

هذا الأكل يتحول في أحشائهم وبطونهم إلى بخار يخرج منهم بعد ذلك
في شكل عرق زكى الرائحة ، ثم تفتح لهم الملائكة بابا يفضى إلى جنة أخرى
رائحة ، على مدخلها شجرة عظيمة تجرى من تحتها عينان نضاريتان صافيتان ،
ومن يدخلها يشرب من أحد هذين النبعين فيصبح نظيفاً صافياً من كل
ما أكله دون أن تبقى فيه أية رواسب ، ويذهبون بعد ذلك إلى العين
الأخرى ويستحمون فيها وتحل عليهم نعمة من الله وفضل . ثم يعودون إلى
الجنة فيجدون فيها غلماناً كأنهم اللؤلؤ المكنون في بياضه والورد الناضر
في حرته ، هؤلاء الغلمان يلعبون في الجنة ويعرفون من يدخلها باسمه
ويرحبون به ويبشرونه بما ينتظره من الخوريات والقصور ونعم الله الأخرى
التي أعدها له ، ثم يذهب الغلام منهم في الحال إلى تلك الحساء التي بشر
صاحبها بها ويخبرها بقدمه فتمتلئ غبطة وحبوراً وتذهب إلى الباب
للقاءه . أما من يدخل الجنة فإنه إذا ما رأى سور بيته من اللؤلؤ والأحجار
النفيسة وما أعد له من نعم مقيم في الغرفات العليا فإنه يوشك أن يغشى عليه
من الروعة والسرور ، فإذا ما نظر إلى أسفل ورأى العذارى الأبقار
اللاتي سيكن زوجاته والستائر والفرش الذهبية الوفيرة توجه إلى الله بالشكر
على نعمه الوفيرة وإلى رسوله بالحمد لأنه هو الذي أخبره بأنه سيرث كل
هذا النعم المقيم .

الفصل التاسع والثلاثون .

وفي الجنة شجرة تسمى شجرة طوبى ، وهى شجرة للذة ونعيم ،
جذعها عرضه مسيرة رجل شديد السرعة أكثر من أى جواد يلف حوله
مائة عام ، كله من الياقوت ، والأرض التي غرست فيها من المسك والعنبر

الأبيض من الثلج ، وفروعها وأغصانها من الزبرجد ، وأوراقها من السميطة ، وأزهارها قماش من ذهب ، وفواكهها مثل اللآلئ الكبيرة ، تكفى الثمرة الواحدة منها مائة رجل يأكلون منها سنة كاملة ، وطعمها مزيج من عسل وزنجبيل ، أما الحشائش التى حولها فكلها من الزعفران الأخضر الزكى الرائحة ، وتنبت تحتها عيون كثيرة ، كلها من خمر ، وهو الذى يجرى متدفقاً فى أنهار الجنة ، هذه الخمر بعضها أبيض صاف ، وبعضها أحمر مثل الباقوت ، وكلها رائحة شهية لذيدة ؛ وهناك نوعان آخران من الخمر : بعضها حامض مز فى لونه وطعمه ، وبعضها أصفر فاتح مثل الزبرجد . وكلها شديدة قوية فى مذاقها ، هذه هى ينباع الرئيسية الأربعة للجنة ، وبالإضافة إليها فهناك أنواع أخرى كثيرة من صنوف الخمر التى تعقب لذة الشاربين .

الفصل الأربعون :

رأيت شجرة أخرى من أفضل وأجمل ما فى الجنة ، يجلس تحتها كل من فى الجنة لسماع الحكايات والقصص التى يرويها لهم ملك خاص ، وبينما جلست أسمعها معهم إذا أنا بموكب من الملائكة قادمين على جمال عقدت فى أعناقها سلاسل من ذهب ، وجوهها مثل القناديل المتوهجة ، ووبرها كالحرير الأبيض المشرب بحمرة ، ذلولة وادعة طائفة ، جاءت محملة بالذهب والفضة واللؤلؤ والأحجار الكريمة ؛ فلما وصل الركب حيث كنا نزل الملائكة الراكبون وأنزلوا ما يحملون من كنوز ووزعوها على الجميع ، وأمرهم أن يركبوا المطاياكى يذهبوا لرؤية الله الذى كان يريد أن يشرفهم برويته والحديث إليه ، وهكذا فعلوا ، وساروا صفوفاً متساوية متجاورة منتظمة ، لا تتمد مطية رأسها ولا تقدم رجلها عن الأخرى ، ولو صادفوا شجرة فى الطريق هبطت ورقدت على الأرض حتى لا تدخل بنظام السير .

الفصل الواحد والأربعون :

ولما وصلوا إلى حضرة الله سبحانه وتعالى كشف لهم عن وجهه الحميل العظيم ، فقالوا له : « أنت السلام وإليك وحدك يعود الشرف والسلام » فرحب بهم وأثنى عليهم لأنهم حفظوا دينه وأقاموا شريعته ، فضرعوا إليه أن يأذن لهم بالسجود ، لكنه أنكر ذلك عليهم وقال « لقد مضى زمان العمل والتكليف وجاء أوان الثواب ، فاطلبوا على قدر ما ترغبون » فطلبوا منه عوضاً عما لم يستمتعوا به في الأرض أن ينعم عليهم بنظير كل خير ونعمة وجدت في العالم من بدايته إلى منتهاه ، فأجابهم الله ما أرادوا وزيادة ، فلما رفعوا أبصارهم رأوا قلاعاً وقصوراً شاهقة ، كل جدرانها وأبوابها وحجراتها من الذهب والفضة والياقوت والزبرجد وأحجار أخرى كريمة ، وكانت الأبهاء والسرايا مغطاة بالحرير وموشاة بالذهب ولا معة الألوان ، فالأخضر فيها أشد خضرة من الزبرجد ، والأحمر أشد حمرة من الياقوت ، وكانت كلها غارقة في فيض عظيم من النور والبهاء الذي يكاد يخطف الأبصار ويذهب بالنظر لولا أن الله يحول برحمته دون ذلك .

الفصل الثاني والأربعون :

بعد ذلك رأيت هؤلاء الولدان الذين ذكرتهم من قبل ، يجر كل واحد منهم أربعة خيول وديعة ، على كل منها سرير فاخر ، فوقه هودج صغيرة من نور وأحجار كريمة ، بداخلها قبة من ياقوت ولؤلؤ وزبرجد ، ونحت القبة يجلس ملك في الصدارة ، ومن حوله ملائكة كثيرون ، ينتظرون القادمين إلى الجنة ليخرجوا في استقبالهم والترحيب بهم ، فإذا ما اقتربوا من السرر طلب منهم الملائكة أن يصعدوا إليها ، فإذا ما استقروا بداخلها طاف بهم الولدان المخلدون في رياض الجنة النضيرة حتى يصلوا إلى قصورهم وبيوتهم الكبيرة ، فيزولون من السرر ، وبصحبهم الملائكة الذين يدخلونهم

في هذه البيوت ويأخذون بأيديهم حتى يجلسوا ، ويبدأ الملائكة في الضحك معهم والأنس بهم والحديث إليهم حتى يسمع لذلك ضجيج من مسافة بعيدة ، ويقول لهم الملائكة إنهم لم يضحكوا أبداً من قبل ولم يلعبوا ولم تنفجر شفاههم بغير التسييح لله ، وأنهم إنما يفعلون ذلك الآن تشبهاً بهم وإيناساً ، ثم ينصرفون بعد ذلك تاركين كل واحد بمفرده في بيته .

الفصل الثالث والأربعون :

لكل منزل باب صغير يفضى إلى نهر من أنهار الجنة : ففيها أنهار كثيرة غير أن هذا النهر الذي أقول لكم عنه الآن أجملها وأروقها وأصفها ، فعلى ضفتيه تقوم جبال الفردوس وكلها من ياقوت أزرق تخرج من بطنها مناجم الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي تنساب بعد ذلك وتجري في جدارل إلى النهر الذي تصبح حصاؤه من هذه الأحجار الكريمة ، أما الياقوت الأزرق الذي قدت منه الجبال فهو بالغ الشفافية إلى درجة أنك تستطيع أن تحرقه بنظرك وترى ما بداخله . وفي هذه الجبال مسارب أخرى تفضى إلى الحدائق الغناء الواقعة خلفها ، كل طريق من هذه الطرق يفضى إلى حدائق الفردوس الأربع ، اثنتان منها عظيمتا الاتساع ينبع منهما عيتان نضاختان جميلتان ، وبهذه الحدائق أشجار جميلة ، ذات ثمار وفيرة يبلغ عددها في كل شجرة مائة صنف كلها شفاء ، أما الحديقتان الأخريان فهما أقل اتساعاً ، إلا أن لكل منهما عين جارية صافية جميلة شفافة .

الفصل الرابع والأربعون :

في هذه الحدائق نخيل شاهق الارتفاع ، وأشجار رمان سامقة جميلة ، فإذا ما أكل الإنسان من ثمارها تلذ بمذاق كل فاكهة الأرض ، وقد نصبت تحت الأشجار سرادقات وخيام تقطنها الحوريات الأبيكار - اللاتي اختارهن الله وحفظهن - فلا يستطيع الاقتراب منهن حتى الشيطان نفسه ، جماهن

لا يبلغ مداه الوصف ، يجلسن على حشايا ومطارف وثيرة ، فإذا قدم عليهن من جعلن له من أهل الجنة خرجن للقائه وجذبهن ليجلس معهن . ثم يأتي الله حينئذ لزيارتهم تحوطه الملائكة ، وبسألهم إن كانوا راضين عن هذه النعم الكثيرة فيجيبونه بأنهم في غاية الرضا والحبور ، فيبشرهم ربهم بأن هذه السعادة لن تزول عنهم أبدا .

الفصل الخامس والأربعون :

كل من يدخل الجنة يصبح فائق الحسن والجمال ، وقد رأيت بعد ذلك ملكا على كرسي من نور ، تحيط به ملائكة عديدة تقوم على خدمته ، وقال لي جبريل إنه خازن الجنة واسمه رضوان ، فتبادلنا السلام ، وأبدت له رغبتي في رؤية كل الجنان ، فأمسك بيدي وطاف بي فيها جميعاً وهو يريني الأنهار والأشجار والقلاع والقصور ، وجميعها تتلألأ بأنوار تعشى الأبصار ، أراني بيوتا من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ ومن كل أنواع الأحجار النفيسة ، وأراني جبالا تحيط بالجنات وسهولا خضراء وغابات كثيرة جميلة ؛ وبدخل هذه الجبال حظائر مساحتها تزيد على خمسمائة عام ، فيها خيل وبغال من كل الألوان ، ولما اقتربنا منها لناها بوضوح هرعت جريا من الذعر فأنارت بحوافرها غبارا أزكى من المسك والعنبر اللذين تمتلئ بهما كل الحظائر ، وأخذني رضوان لحظيرة ملئت بالطير الأخضر والأصفر ومن كل الألوان ، كانت عظيمة الحجم زكية الرائحة ، فلما اقتربنا منها وشرعت في الطيران وقعت تحت قدمي ، وكان بأجنحتها من المسك ما ملأ كل الحظيرة بالعطر الفواح ، وأراني كذلك فيها بيوتا من ذهب وفضة وجواهر ، مقاعدها وسررها وفرشها لم تره عين من قبل ولم تسمعه أذن أبدا .

الفصل السادس والأربعون :

وسار بي إلى الأمام ، فأراني نهرا يسمى « القطنوم » عرضه مسيرة خمسمائة عام ، أما طوله فلا يعلمه إلا الله ، وهو النهر الذي يحتضن جميع الجنات ، فعجبت لطوله وعرضه ، وعجبت أكثر لما قام على شاطئيه من

من مساكن ضخمة عظيمة كثيرة ، كلها من قماش ذهبي وسميط ، وهى من البهاء والنور بحيث تحترقها الأنظار . فى هذه المساكن أو الخيام تولد النساء الكرائم ، ذوات الكرامات ، وهن عظيمات الأجسام ، وأهدابهن كأنها قوس قزح ، وجمالهن يعشى الأبصار ، ويشع منهن بهاء ونور يفوق ضوء الشمس ، وهن مقصورات فى خيامهن لا يدخل عليهن أحد أبداً ، بولدن فيها مثلما يثبت الحشيش فى الأرض ، فإذا ولدت إحداهن وكبرت تقطت بشعرها المرسل الجميل ، وأخذت تنمو حتى تلامس رأسها سقف الخيمة ، عندئذ تبدأ تلك السقوف فى التحرك البطيء ، فيعرف الملائكة الحفظة عليهن حينئذ أنهم قد ولدن وكبرن حتى بلغن حجمهن المقدر لهن . فيفتح عندئذ كل ملك خيمته ، فيجد ونجد السيدة أمامها القماش المنسوج من الذهب واللؤلؤ وقد خلق ونسج على ما تشتهى وتود ، فإذا ما أخبرها الملك أنه سيحملها إلى الفردوس ترتدى هذه الثياب المطرزة بالذهب والمصنوعة من الحرير على مقاسها .

الفصل السابع والأربعون :

يمسك الملك بيدها ، ويذهب بها إلى القلعة التى يحرسها وهى تلمع ببهاياها على مسافة خمسمائة عام ، وفى الطريق تنغى الحورية منشفة :

« طوبى لمن يؤمن بالله ، ويحظى بنعمته وفضله مثلنا » ، ويصف لها الملك الرجل الذى جعلت له فى الجنة ، وهو يسوقها لتنتظره ، فهى تعرف اسمه وتعرف أنه قد قدر لها أن تكون فى المستقبل عروسه وزوجته . وهكذا فإن جميع سكان الجنة إذا أراد أحدهم أن يأكل أية ناكهة من أشجارها فإن أول شجرة يقابلها تمتد له ، فإذا ذاق ثمرتها وجدها طعم الفاكهة التى كان يشتهيها لأن الله قد أخبرها بما يريد ، وعندما يصل الإنسان إلى الجنة يخرج أهلها للقائه بفرح وسرور أعظم مما يشعر به أقرباؤنا عندما نعود بعد حج أو سفر طويل ، فهم يحبوننا أكثر من أهلنا وذويتنا فى هذه الحياة الدنيا .

الفصل الثامن والأربعون :

بعد هذا ذهب بن جبريل ورضوان إلى مكان يسمى « سدره المنتهى » وهو مكان فسيح جداً ، وأرونى شجرة عظيمة رائعة الجمال ، كانت كلها لؤلؤة واحدة ناصعة البياض بكل أوراقها وزهورها وفثمارها ، وتحتها تنبع عين من ماء صاف تجل عن المدخ ، وقال لى جبريل إن هذه عين النعمة الكاملة ، وأن الله قد خلقها من أجلى وحدى ، ولا يشترك فيها معى أحد .

وبعد أن قال لى ذلك ذهب وتركنى ، لأن الله كان يريد أن يكلمنى وحدى ، فبقى جبريل مع رضوان ، أما أنا فقد تقدمت إلى الأمام .

الفصل التاسع والأربعون :

فضيت فى الطريق الذى سلكته فى المرة الأولى حتى وصلت إلى الحجب القريبة من الله ، فأخذت فى الارتفاع ، فكلما مررت بحجاب رفع الآخر من تلقاء نفسه ، لم يكن هناك أحد يمسه بيده ، بل كانت قدرة الله تفعل كل شيء . وعبرت هذه الستائر والحجب ومضيت بعيداً حتى لم يصبح بينى وبين الله سوى حجابين أحدهما من ضباب والآخر من نور ، وفجأة سمعت من خلفها صوتاً يتلو آيات من القرآن ويقول « آمين الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله » ثم قال الله : يا محمد تلق هذا الكتاب الذى أوحى إليك قرآناً تتلوه على الناس ، فهو أعظم كنوزى فى هذا العالم ، فتلقيت الكتاب من يده وشكرته على هذه العطية . وفى هذه اللحظة لم يكن بينى وبينه أحد ، لا ملك ولا إنسان ، لم يكن هناك إلهو وحده ، وأنا أمامه وجهاً لوجه ، فسألنى . يا محمد ، ماذا يعلم أهل الدنيا عن الملأ الأعلى ؟ فقلت يارب أنت أعلم بذلك منى ، فأمرنى أن أدنو منه أكثر ، فارتفعت الحجب التى كانت تفصل بينى وبينه ونزع الله بصرى من عيني وأودعه فى قلبى ، فكنت أرى بقلبي ولا أرى ببصرى ، وأمرنى أن أدنو أكثر ، فاقتربت حتى أصبحت قاب قوسين منه أو أدنى ، وعندئذ وضع يده على رأسى حتى وجدت

بردها في قلبي ، وأفاض على كل علمه حتى صرت أعرف ما كان وما سيكون ، ثم سألتني مرة أخرى هل يعلم الناس الدرجات والكفارات ، فقلت إن الكفارات هي المشي على الأقدام إلى الجماعات ، وأن الدرجات هي إفشاء السلام وإطعام الطعام والقيام بالليل والناس نيام ، فقال لي إنك قد وصلت وأدركت كل العلم والحقيقة .

الفصل الخمسون :

بعد ذلك ملأني حكمة من فضله ، وقال لي إنه حبا لي ولأمتي وإكراما منه فإنه يأمرني أن أخبرهم بأنه قد فرض عليهم خمسين صلاة في اليوم وصوم ستين يوما في السنة وسيكون جزاؤهم الجنة ، فلم أجروا علي أن أطلب منه أن ينقص الصوم لكن طلبت منه التخفيف في عدد الصلوات فجعلها لإكراما لي خمس صلوات ، ثلاثة بالنهار واثنان بالليل ، وأنه يجب إقامتها بكل شعائرها وقال : « إنني سأجعل ثوابها لكم من الجنة كأنها خمسين صلاة ، وكل حسنة تفعلونها سأجزيكم عنها بعشرة أمثالها ، وكل سيئة لايجزى لإمثالها ، ولو استغفرتهم الله عنها لمحوها حتى من ذاكرتي » فلم أطلب منه أكثر من ذلك وانصرفت من حضرته .

الفصل الواحد والخمسون :

لما عدت من نفس الطريق ارتفعت لي الحجب واحدة إثر الأخرى كما حدث من قبل ، ووصلت في نزولي إلى السماء التي كان بها موسى ، فلما أخبرته بليقائي مع الله وما أمرني به من صوم وصلاة نصحني وطلب مني أن أعود إلى حضرته وأطلب منه تخفيف الصيام لأنه سيكون تكليفاً ومشقة على أمتي مثلما كان على بني إسرائيل ، فعدت إلى الله ، وضرت إليه بذلك ، فخفف عني عشرة أيام ، ولما أخبرت موسى بذلك أعادني فخفف عني عشرة أيام أخرى وعشرة بعد ذلك حتى بقي ثلاثون وقد استحييت من ربي أن أطلب منه أكثر من ذلك طمعاً في التخفيف .

الفصل الثاني والخمسون :

عدت إلى لقاء جبريل ورضوان ، فرأيت جبريل يمسك بيده أربعة أكواب من الأرض عظيمة الجمال ، وقال لي أن أشرب من أيها أريد ، وأعطاني واحدا منها فوجدت له رائحة المسك وطعم اللبن فشربته كله ، وأعطاني الثاني فوجدت له رائحة العنبر وطعم العسل فشربته كذلك ، وأعطاني الثالث فوجدت له طعم الماء ورائحة المسك فشربته كله كذلك ؛ ثم أعطاني الأخير فوجدت رائحته وطعمه مثل الخمر فنفرت منه وتركته ، عندئذ ابتسم جبريل وسألني إن كنت أسكره هذا الشراب فقلت له أجل ، فأخبرني أن الكوب الأول معناه : كما أن اللبن يغذي ويحكم الجسم البشري أكثر من أي شراب آخر فإن أمتي ستحكم الجميع حتى يوم القيامة ، أما العسل فكما أنه فيه شفاء للناس فإن الله سيكون شفاء لأمتي إلى يوم القيامة ، وأما كوب الماء فكما أن الماء ينظف ويظهر كل دنس ونجاسة أكثر من أي شيء آخر فإن أمتي ستكون هكلما أنظف من الآخرين إلى النهاية . أما الخمر فكما أنها تدعو الناس إلى الرجس والإثم والحقم فإنك لم تشرب منها لأن الله سيظهر أمتك من كل رجس وإثم وحقم وسيجعل الخمر محرمة عليهم دائما ما عدا تلك التي ستشربونها في الجنة .

الفصل الثالث والخمسون :

أخذ جبريل بيدي ، وذهب بي بعد ذلك إلى أدنى الجنات حيث أراي ماء أصفى وأعذب من العسل ، عليه سد كله من البلور وطوله سبعون ألف فرسخ أما عرضه فهو أقصى مدى يبلغه نظر الإنسان ، وعليه من أكواب الذهب والفضة مثل السحاب في السماء عندما يشتد الغيم ، ورأيت أن الله قد أعد لي هذا النهر ، وأنه ما أعظم سعادة من يستطيع أن يشرب من مائه ، لأنه ألد وأشهى ماء ، ولن يشرب منه إلا من يصدق بي ولا يتركني ليتبع نبياً آخر ثم أخبرني كذلك بأنه يريد أن يرى بأمر الله أشكال جميع الخلائق وصور

الأحياء والأموات والجحيم وعذابه وأحواله حتى أنذر أمتى وتعرف كيف تحافظ على دينى وملتى .

الفصل الرابع والخمسون :

أنخبرنى أنه تحت هذه الأرض التى يعيش عليها الناس هناك أرض أخرى كلها نار ، وسكانها من نار ، وبحارها وأسماؤها من نار كذلك ، وعندها أرض أخرى من نار هى وسكانها وبحرها وسمكها كذلك ، وهكذا حتى سبعة أرضين ، كل واحدة وراء الأخرى ، فى كل منها بحر من نار وكل ما فيها نار ، وتحت هذه الأرضين حجر يمسكها وتعتمد عليه ؛ ويقوم هذا الحجر على حوت يلتقى رأسه وذنبه فى هيئة حلقة أو خاتم ، ولا شئ تحت الحوت سوى الظلام والضباب ، وبعده لا يعرف ما وراء ذلك إلا الله . أما الأرض التى تعيش عليها فيحملها بأمر الله حجر أخضر وضعه ملك فى كف يده ، وقد وقف هذا الملك متكئا على ظهر حوت هائل قوى يمسك ما بين الأرض والسماء . هذه الأرض معزولة عن غيرها من الأرضين ، وتحتها خلق الله الريح العقيم الذى أصبح من قوته وشدته كالمرأة التى لا تلد . وقد جعل الله لهذا الريح ألف ممسك من حديد كى لا تنطلق ، يقبض على كل ممسك ألف ملك شديد ، بهذه الريح أهلك الله عادا وقوم هود الذين كذبوا برسله ، ولم يترك هذه الريح تخرج إلا من فرجة مثل إصبع طفل طيلة سبعة أيام وليال حسوما ، فأنت على كل شئ ولم تدر فيهم باقية . وبهذه الريح سوف يهلك الله قبل القيامة جميع الجبال والقلاع والبيوت والمباني على وجه الأرض حتى يفنى كل من عليها كما جاء فى القرآن الكريم ، وبهذه الريح سوف يعذب الله العصاة فى الجحيم ؛ إذ ينزع عنهم جلودهم ويحرقها بلهب الريح .

الفصل الخامس والخمسون :

وبعد أن وصف الأرض الأولى قال لى عن الثانية إنها تسمى « الجلالة » وقد جعل الله فيها عقارب الجحيم كبيرة كالبلغال وأذناها مثل الرماح الطويلة ، (١٧ م - الثقة الإسلامية)

في كل ذنب ثلاثمائة وستون حلقة ، في كل حلقة ثلاثمائة وستون قرنا ، في كل قرن ثلاثمائة وستون كوبا من السم الناقع بلغ من شدته إلى درجة أنه لو وضع منه كوب واحد فقط في وسط العالم لأفنى جميع ما فيه من زرع وماء وإنسان وحيوان وكل كائن حي لما يخرج منه من نتن شديد ، وقد سلط الله هذه العقارب على العصاة في النار ، فعندما يحلونهم ينزعون جلودهم ويشدونهم من شعورهم ويسلخونهم من رؤوسهم حتى أقلامهم ، فيظلون بعد ذلك مغشياً عليهم حتى لا يعرف أحد إن كانوا أحياء أو أموات ، ثم يصبون عليهم بعد ذلك سم واحد من أكوابهم فيفصل في الحال لحمهم من عظامهم وعروقهم ، وهكذا يقضون عليهم ؛ ولكن الله يبعثهم مرة أخرى لينذروا سوء العذاب .

الفصل السادس والخمسون :

وتسمى الأرض الثالثة « أرقى » ، وقد ملأها الله بحيوانات « طاطاس » وهي عظيمة مثل الجبال ، خلقت جميعها من نار وتراب ممزجين ، رهبة أشد سوادا من الليل الخالك ، يحيط بها الضباب من كل جانب ، وبكل حيوان سم أقوى وأشد اشتعالا من نار الجحيم ، فاذا أطلقه الله على العصاة والمذنبين اقتزعهم وطرحهم على الأرض بشدة ، ثم فتح أفواههم وصب فيها السم الذي يذيقهم كما تذيب النار الشمع .

الفصل السابع والخمسون :

والرابعة تسمى « الحربة » وهي مليئة بحيات الجحيم ، وتبلغ من الضخامة والغلظة درجة يعجز الوصف عن الإحاطة بها ، وفي فم كل حية ثمانية عشر ألف ناب ، كل ناب في طول النخلة ، تحت جذره سبعون ألف كوب من السم الناقع اوصب على نارجهم لأحرقها ، ولو عضمت حية من هذه بناب من أنيابها أكبر جبال الأرض لصار رمادا ، وهي سوداء اللون ؛ بشعة الهيئة ، فاذا لامست أحد العصاة غرست في جسده نابا من أنيابها ونفثت فيه قليلا من سمها فيقضى عليه في الحال ويفتت أعضائه من الرأس إلى القدم ،

ويبلغ من سوء هذا العذاب أن العصاة يتمنون لو أدرَكهم الموت ألف مرة كل يوم قبل أن يعانون منه .

الفصل الثامن والخمسون :

أما الخامسة فاسمها « مالطة » ، وهي مليئة بالأحجار الكبريتية من الحجيم التي أعدها الله لتعذيب الكفار والمذنبين ، وهي تشبه الكبريت الأحمر ؛ وكل حجر منها يفوق سبعين ألف مرة أكبر جبال العالم ؛ ويشد زبانية الحجيم رقبة الكافر في إحدى هذه الصخور ويلقون به في نار جهنم ؛ وهناك يشتعل الكافر والصخرة في شعلة هائلة واحدة يرتفع لهيبها بطريقة لا يبلغ الوصف مداها .

الفصل التاسع والخمسون :

أما السادسة فتسمى « السحابة » وبها تحفظ كل كتب وسجلات العصاة المذنبين وما اقترفوا من آثام إلى يوم القيامة بكل تفاصيل الزمان والمكان والحال . وفي تلك الأرض بحار من ماء شديد المرارة ، أسوأ مذاقا من أى شراب خلقه الله ، حتى أن حيوانات الحجيم نفسها تنفرو وتشمئز منه .

وقد بلغت هذه المياه من المرارة والحرارة إلى درجة أنه لو ألقى فيها بحجر أعظم من أكبر جبال العالم لأهلكته في الحال . في هذا الماء الحميم الغساق يفتسل العصاة بأمر الله ويشربون منه حتى تنوب أحشائهم .

الفصل الستون :

وفي الأرض السابعة المسماة « حاجب » مقروسكن ومملكة الشيطان يجيشه وأمله ، وهناك صنف إبليس في القيود من بداية معصيته لله حيث ألقته الملائكة الأنخيار وغلته بالسلاسل الحديدية ، وربطت يديه إحداها خلف ظهره والأخرى من أمام ، وفعلت مثل ذلك بقدميه . ويبلغ إبليس من ضخامة الحجيم درجة أن رأسه تنفذ من أقطار الأرضين حتى تصل إلى أرضنا هذه .

فتخربها قرونها ، وسيجيء اليوم الذى يفك فيه وثاقه ويطلق سراحه إلى هذا العالم حيث يأتى ومعه رفاقه وبصحبته كل الشر وأرواح العصاة من أهل النار . وفى وسط تلك الأرض قام حاجز فاصل من ضباب قد جعل بحيث لا يستطيع أحد أن يقترب من إبليس دون أن يخترقه ، ومن خلفه القلعة التى يسكنها . والحدائق المحيطة بها مترعة بالسم الناقع من كل الأنواع ، جدرانها وأبراجها وشرفاتها وبيوتها جميعاً من نار سوداء لا يهدأ لظاها ولا يخبو سعيها ، وهناك فى جانب من القلعة باب يفضى إلى جهنم الكبرى وفى الجانب الآخر باب ثان يؤدى إلى الزمهرير ، وتحت كل هذا هواء وضباب ، أما ما وراء ذلك فلا يحيط بعلمه إلا الله تعالى .

الفصل الواحد والستون :

وقال لى جبريل إنه قبل يوم القيامة بقليل ، يأمر الله بفتح بئر قريب من جهنم ملء بالنار اسمه « الفلق » يبلغ من الشدة درجة أن ناره تحرق جهنم نفسها كما تحرق نار الأرض القطن المندوف ، فاذا بلغت هذه النار البحر العظيم المحيط بالبحيم وما حوله من بحار جففتها بكل ما فيها حتى لا يبدو أنه كان هناك ماء .

هذا البحر العظيم هو الذى يفصل البحيم عن الأرضين السبعة : وعندما تصل تلك النار إليها تقضى عليها وتحيلها فى طرفة عين إلى جمرة متقدة .

أما كل العقارب والأحجار الكبريتية وحيوانات الطاطاس والريج العقيم وكل ما هنالك فانه يختنق كظلمة بنار الفلق هذه مثل السمكة إذا أُلقيت على جمرة هائلة .

الفصل الثاني والستون :

وقال لى جبريل إن تلك الأرضين السبع بعد أن خلقها الله لم يضعها فى مكان ثابت ، بل ظلت مثل سفينة فى البحر تضرب فى كل اتجاه ، وهى تنكمش وتنبسط مثل قطعة قماش ضائعة بحركتها ، ولما رأى الملائكة ذلك ضرعوا إلى الله راكعين أن تذهب شقوة تلك الأرضين وأن يجعل فيها سكانها ، فاستجاب الله لهم وأرسل واحداً من الملائكة الثمانية الذين يحملون عرشه إلى قاع تلك الأرضين السبع ليمسكها ، فنزل الملك وبسط ذواعيه ووضع الأرضين على كتفيه فهدأت واستقرت . ثم أعطى الله هذا الملك حجراً بالغ الجمال يقف عليه بقدميه . كان حجراً مربعا شديد الخضرة ، ثم أرسل الله ثوراً من الجنة يعتمد عليه الحجر فعلقه على منكبيه ، ثم بعث الله للثور بحوت عظيم يقف عليه متكئاً بقدميه ، أما حجمها فإن مسافة ما بين قرى الثور مسيرة خمسمائة سنة ، ومثلها مسافة ما بين القرنين إلى منكبيه ، ومن المنكبين إلى منبت ذيله كذلك ، وطول ذيله خمسمائة عام ، ونفس المسافة هى التى تقع بين منتهى ذيله إلى حوافره . أما الحوت فاسمه « الوزان » وهو فوق البحر العظيم الذى يحمل جميع ذلك دون أن تكل قواه مطلقاً ، بل تزيد باستمرار ، وكل المياه التى تجرى فى بحار العالم وتبسط من السماء تدخل فى أنف الثور وتنزل إلى بطنه دون أن يمتلئ أبداً حتى يوم القيامة .

وسوف ينبعث من الملك والحجر والثور والحوت بخار هائل هو الزلزال الذى ستعقبه القيامة .

الفصل الثالث والستون :

وأضاف جبريل قائلاً لى إن كل تلك الأشياء سيكون لها يوم القيامة قدر عظيم ، وقدرة هائلة ، وأن كل واحدة من هذه الأرضين السبع تحتوى فى نفسها على بحر عظيم ، وبهذا يكون عدد البحار أربعة عشر ،

وهناك كذلك بحر هائل على مدخل الجحيم يسمى بحر البحار ، وهو الذى يمنع نار جهنم أن تحرق الكون كله ، وهناك أسفل ذلك الجحيم ضباب ورياح شديدة فى مكان يسمى « زار » لا يعرف ما دونه إلا الله وحده ، أما الأرض التى يعيش فوقها فهى ممتدة فوق ظهروحوت ومتصلة من كل جانب بجبل يسمى « قاف » هو الذى يغلقها ويحيطها ، وتبلغ مساحته مسيرة خمسمائة عام .

الفصل الرابع والستون :

أما بقية الأراضى السبع فإن طول كل واحدة منها وعرضها مسيرة ألف عام ، وسمكها مسيرة خمسمائة عام ، وبين تلك الأرضين السبع وأرضنا يقوم عالم الجن ، وسمكه مسيرة خمسمائة عام ، وبين عالم الجن والسماء الدنيا مسافة مائتين وعشرين عاما ، وفى هذا الهواء خلق الله طيوراً عظيمة الحجم ، رؤوسها وذوائبها سوداء ، مناقرها صفراء ، أما بطونها وصدورها فيبضاء ، وهى الطيور الأبايل التى حملت الأحجار الكبرى التى أحرق الله بها قوم لوط فى سدوم وعامورة ، وكان كل طائر يحمل ثلاثاً منها بمنقاره .

الفصل الخامس والستون ،

وشرح لى جبريل بعد ذلك كيف خلق الله الأمانة وعرضها على السماوات والأرض والحيال والوديان ، قائلاً إنها إن رعتها كما يجب فسيكون لها جزيل الثواب ، وإن لافسحت عليها العقاب ، ولكنها أبت أن تتلقاها وتحملها ، فأعطاها الله لآدم الذى قبلها ورضى أن يرعاها بنفسه وبخلفائه ، وإن أعظم أمانة هى معرفة النفس ، والمثل الدائم أمام الله ، حيث يكون حضرته وأمام عرشه مثل حبة خردل فى كف اليد أو مثل كوب صغير فوق مائدة عظيمة . من أجل هذه الأمانة فإن الرجال والنساء والطيور

والوحوش وكل المخلوقات تسبح بحمد الله ، بل إن الضفادع تسبح بحمده مثلها جميعا عشرين مرات ، لن تكف عن ذلك حتى يوم القيامة الذى تتحول فيه بأمر الله إلى تراب .
الفصل السادس والستون :

وقال لى جبريل إن يوم القيامة سيجتمع فيه كل الناس كى يسمعو أو يثلقوا الحكم عليهم ، وسيأتون حفاة عراة كما ولدوا ، وتكون أعمارهم ثلاثين سنة ، ولا ينجلون من عريهم لما سيكونون فيه من شغل بأنفسهم وبذنوبهم وقرب الحساب الذى سيفضهم فى موقف عسير ، حيث يتصبب منهم العرق وهم يحملون بالذنوب حتى يصل إلى أعجاز بعضهم ويصل من بعضهم الآخر إلى الركب أو إلى الأقدام . وعندما يرى الله ما هم فيه من شدة وكره يأمر ملائكته بأن يحضروا العرش ويضعوه على أرض ناصعة البياض ، أبهى من أشد أنواع الفضة نقاء ، حيث لم يرتكب ذنب أبداً ، ولم ترق قطرة دم على الإطلاق ، ويتجلى الله سبحانه وتعالى لكل العالم حيث تراه عيون الناس لأول مرة .
الفصل السابع والستون :

يجلس الله على عرشه ، ويجمع أمامه كل الخلائق ، ينادى على كل واحد باسمه ، ويجعله يمثل فى حضرته حتى يراه ويسمعه جميع الناس ، ثم يأمر بأن يحضروا كل ما فعله فى حياته من خير أو شر لتقرأ صحيفته على الملأ ، ثم يشير بأن يتقدم كل من له شكوى ضده ، فيعوضهم الله من حسناته ، فإذا أصبحت السبئات أعظم من الحسنات حمل إلى الجحيم ، وفى هذا اليوم لن ينجى أحداً سوى حساب حسناته وسبئاته ، وسوف يكشف عن جميع الأسرار ، وحتى جوارح الإنسان فتشهد عليه وتفضحه وتشهر بأى ذنب ارتكبه وأخفاه . أما الذين قصرت حسناته عن تعويضهم فإن الله يجزيهم بفضله ، كل هذا يتم فى لحظة واحدة لأن الله عنده علم كل شيء حاضر فى حكمه وعده ، حتى لن يكون هناك ملك ولا نبي ولا شهيد ولا ولي من أوليائه لا يرتجف من دقة الحساب الإلهى الذى لا يدع كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها .

الفصل الثامن والستون :

ولما سألت جبريل عما إذا كانت كل تلك السماوات والأرض متصلة
فيها بينها أو منفصلة قال لي لأنه من الضروري مراجعة كل ما رأيت للإحاطة
بفهمه ، وهكذا تذكرت أنه عندما خلق الله الأرضين السبعة أمر ملكاً
يسمى عزرائيل أن يمسكها وهو يركب ثورا يسمى بهموت ، وأمر هذا
الثور أن يعتمد على حفرة خضراء ، وعلى تلك الصخرة قام جزء من
الجبل العظيم المسمى بجبل قاف ، أما إلى أسفل فهواء وضباب يمتدان حتى
قاع الماء ، وبين هذا الماء والضباب يقوم الحوت الكبير الذي يمسك بجميع
الأمياء أن تقع والذي يحوطه الريح العقيم . أما جبل « زار » المذكور من
قبل فهو مقسم دائرياً إلى سبعة أقسام ، كل منها منفصل عن الآخر ،
وتبعد كل أرض عن الأخرى بمقدار خمسمائة سنة ، وكل هذا إنما يدخل
في جبل قاف .

الفصل التاسع والستون :

سألت إن كان هناك ناس فيها وراء جبل قاف فقال لي إن الهواء
كانت فيه بعض المخلوقات الحية على هيئة الإنسان لا يعلم أمرهم إلا الله ،
وأنه ما بين سماء العرش والسماء التي تقع أسفل منها يوجد ذلك الله الذي
تحدثنا عنه ، وأن تلك هي أرض قاف ، ومنها يتفرع سبعة عشر فرعاً
مثل أغصان الشجر تمتد نحو السماوات ، وهي من الضخامة والعظم بحيث
تنفذ حتى أقطار السماء الثامنة التي تعتمد عليها بقية السماوات دون أن تمس
الأفرع . ومن وراء جبل قاف تمتد الأبحر السبعة التي تحيط بكل شيء .
أما فوهة الجحيم فهي في منتصف الجزء التالي للأرض السابعة مثل البئر
العظيم . وكل هذا يقوم على أكتاف الملك المذكور . وإلى جوار فوهة
جهنم هناك سبعة أبحر من نار تصب كلها في بحر هائل يجعل الله أرواح
العصاة تغتسل وتنظف فيه ، ولكن أرواح المكذبين به تنغمس فيه حتى

تلقى حسابها يوم القيامة . وعندئذ يرفع الله الجحيم والجنة على السواء ، لكن الجنة فوق الجحيم ، وعلى الجحيم يقوم الصراط يوم القيامة ، وهو جسر طوله مسيرة خمسمائة عام . وبجواره روضة مخبئة طولها خمسمائة عام كذلك ، وهي تقع ما بين أرضنا والأرض الأولى من الأرضين السبع ، وإلى جانبها روضة أخرى تقع بين الأرض الأولى والثانية عرضها ثلاثون سنة ، وبين الثانية والثالثة روضة أخرى مسافتها ثلاثون سنة أيضاً ، وهكذا تقوم رياض بنفس القدر بين بقية الأرضين .

الفصل السابع :

وشرح لي جبريل بعد ذلك كيف وزع الله رزقه بين مخلوقاته ، فعندما خلق السماوات والأرض قسم نعمته إلى عشرة أجزاء ، وأعطى تسعة منها ملائكة السماء الثامنة حيث يقوم عرشه ، ثم قسم الجزء العاشر إلى عشرة أجزاء ، وأعطى تسعة منها إلى ملائكة السماء السابعة ، وهكذا قسم ووزع بنفس الطريقة في بقية السماوات حتى قسم العشر المتبقى من السماء الأولى إلى عشرة أجزاء كذلك ، وأعطى تسعة منها إلى أرواح النار ، ثم أعطى تسعة أعشار العشر الباقي إلى الأشباح والجن في الهواء ، ومثله مما تبقى إلى الطير في السماء ، ومثله مما تبقى إلى السمك في الماء . وقد أعطى للإنسان نعمة عظيمة جعلته يعرف ويميز جميع الأشياء . وبعد ذلك خلق الشر على الأرض ، وقسمه على الناس بنفس الطريقة ، فأعطى تسعة من الأقسام العشرة الأولى إلى يأجوج ومأجوج ، ثم خلق الحمس من العشر الباقي وأعطى للعرب تسعة أعشاره ، ومن العشر الباقي خلق الفجور وأعطى المنود تسعة أعشاره ، ومن العشر الباقي خلق الزيف وأعطى اليهود تسعة أعشاره ، ومن العشر الباقي خلق الكبرياء وأعطى المسيحيين تسعة أعشاره ، ومن العشر الباقي خلق البخل وأعطى الفرس تسعة أعشاره ، ومن العشر الباقي خلق الجهل وأعطى أهل الحبشة تسعة أعشاره ، ومن العشر الباقي خلق الخيلاء وأعطى البربر تسعة أعشاره ، ثم وزع الباقي على العالم كله . ثم خلق بعد ذلك

الملذات وقسمها إلى عشرة أجزاء ، وأعطى تسعة منها للنساء والباقي وزعه على العالم كله ، ثم خلق الجنة وأعطى تسعة أعشارها لمن تبع ديني والباقي للعالم كله

الفصل الواحد والستون :

ولما انتهينا من ذلك أخذ جبريل ينفث الزفرات قائلا لي إنها من حزنه على ما يرى من عذاب المذنبين في النار . ثم أمسك بيدي وذهب بي إلى مكان رأيت منه الجحيم وأبوابه السبعة بعضها فوق بعض ، وهي شديدة التوقد حتى أن أهونها لو كان في المشرق وكان الإنسان في المغرب لصهرت نحه حتى يخرج من أنفه من شدة الحرارة التي تنبعث منها . أما أسماء أبوابها فهي . جهنم ولهب والحطمة والسعير ومقر والجحيم والهاوية ، ويبعد كل باب عن الآخر بمقدار سبعين ألف سنة ، وأمام كل باب جموع ضخمة من الناس والشياطين يأتي بهم الله كل يوم كي يروا من هناك ما ضيعوه من نعيم الجنة فتذوب أنفسهم حسرات وتتضاعف أحزانهم . وبخارج الأبواب على الشمال سبعون ألف جبل من نار ، ينبع منها سبعون ألف نبع من نار ، على حافة كل نبع سبعون ألف قلعة من نار ، بكل منها سبعون ألف بهو من نار ، وفي كل بهو سبعون ألف امرأة من نار كلهم غاية في القبح والشناعة ، فإذا ما التقين بالعصاة والمذنبين أخذنهم بالأحضان الشديدة ، حتى يترأى لهم أنهم قد فقدوا حياتهم حرقاً بأشد مما تحرق كل النيران الأخرى ، فيتمنون لو مات كل منهم سبعين ألف مرة في اليوم قبل ذلك . كما تصب كل واحدة منهم عليهم سبعين ألف نوع من العذاب . وعلى شواطئ هذه الأنهار النارية سبعون ألف شجرة من نار ، بكل شجرة سبعون ألف صنف من الثمار ، في كل ثمرة سبعون ألف دودة ، أقل دودة بها من السم ما يكفي للقضاء على جميع أهل الدنيا وفصل لحمهم عن عظامهم . وتحت كل شجرة سبعون ألف تين ومثلهم من العقارب . وجهنم كلها مليئة بالوحوش الضارية من جميع الأشكال ، وهي تصيب

الكفار والمذنبين بما يصل إلى سبعين ألف نوع من العذاب . فتجعلهم يتمنون لو ماتوا سبعين ألف مرة في اليوم قبل أن يلاقوه .

الفصل الثاني والسبعون :

وشرح لي جبريل بعد ذلك عقاب جهنم المقسم طبقاً لأنواع الذنوب المقترفة ، فقد أمر الله أن يحشر من الباب الأول المسمى جهنم كل من يشرك به معتقداً في أصنام من طين أو معدن ، أما الباب الثاني فلهب فهو للمرتدين ، والثالث وهو الحطمة للبخلاء ويأجوج ومأجوج . والرابع وهو السعير للمقامرين والمجذفين ، والخامس وهو سقر للذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ، والسادس وهو الجحيم لمن يكذبون أنبياء الله ورسله والسابع وهو الهاوية لمن يطففون في الكيل والميزان . وبقية النار مقسمة إلى سبعة أجزاء ، ستة منها لمن يدعون مع الله إلهاً آخر ويفعلون ما يشتهون دون أن يأثمروا بأمر الله . وكل هذه الأصناف من الناس مستمحي أسماؤهم من سجل الحياة ،

الفصل الثالث والسبعون :

ويوم القيامة سوف يأمر الله بأن يحضر أمامه وحش عملاق قد خصص للأخذ بزمامه سبعين ألف زمرة من الملائكة ، هؤلاء الملائكة يعملون في السماء أربعة أعمدة عظيمة طول كل منها مسيرة سبعين ألف سنة ، ثم يقيمونها في أركان المحشر الأربعة ويربطون فيها ذلك الوحش ليغلب العصاة والمذنبين . هذا الوحش له ثلاثون ألف فم ، بكل فم ثلاثون ألف ناب أحد من السيف ثلاثين ألف مرة . وبكل مشفر من مشافره حلقة عظيمة من حديد وسلسلة كبيرة ، بكل سلسلة سبعون ألف خاتم من حديد ، وقد أمسك بكل خاتم ملك عظيم ، بلغ من الضخامة إلى درجة أنه يستطيع أن يزدرد الدنيا وما فيها دون أن ينال منه ذلك شيئاً . هذا الوحش العملاق شديد البشاعة مهول الشكل حتى لو أنه وضع في أقصى طرف من الأرض

وفى الطرف الآخر لإنسان لغشى عليه من الخوف والفرع . وعندما يجد هذا الوحش نفسه وقد جرته الملائكة وأحضرتة أمام الله يرتجف بشدة ويرجوهم أن يخبروه عن سبب إحضاره أمام الله ، ولكنهم يجيبونه بأنهم لا يعرفون السبب ويفعلون ما يؤمرون . وعندما يركع أمام الله يخبره أنه خلقه كي يعذب به العصاة وينتقم به من آثامهم ، خاصة هؤلاء الذين يشركون به لها آخر . عندئذ يقدم له الوحش أعظم الحمد والثناء خضوعاً واستسلاماً لإرادته ، ويزفر بشدة لو سمع أهل الكون زفرة واحدة منها لما اتوا من الخوف ، ثم لا يلبث أن يمضى فى الحال وهو ينفث من فمه لهباً لو امتد من فوق العالم كله هو والدخان الذى يخرج من أنفه لأظلمت به الأرض جميعاً ولما استطاع أحد أن يرى أحداً إلا بفضل من الله . ثم سارت الملائكة إلى جانبه وهى تقوده إلى الجحيم -

الفصل الرابع والسبعون :

وانتابنى لكل ذلك خوف وفرع شديدان فأخذ قلبي يلدق فى صدرى ، وقد طلبت من جبريل أن لا يخفى علىّ من الأمر شيئاً فأخبرنى أن كل الناس يوم القيامة سيرون هذا الوحش وسيبلغ بهم لذلك الفرع مداه حتى ليخيل إليهم أن قلوبهم مستزع من صدورهم وأن أعضاءهم مستقطع إرباً إرباً وسيغشى عليهم لجرد رؤية الوحش وتذكر ذنوبهم . ويأمر الله بإحضار ميزان أمامه يبلغ حده ما بين المشرق والمغرب ، وكل واحد من كفاته يبلغ من الضمخامة درجة أن يغطى الأرض جميعها ، إحداهما من نور والأخرى من ظلام ، أما كفة النور فهى على اليمين وكفة الظلام على اليسار ، وتوضع الحسنات فى كفة النور كما توضع السيئات فى كفة اليسار والظلام ، ويحمل كل إنسان قفتين مثل الحوضين ، يبلغ طولهما مقدار ما يصل إليه بصر الإنسان على أبعد مسافة ، يضع حسناته فى إحداهما وسيئاته فى الأخرى ، وعندما يأتى إلى الميزان يفرغ حسناته فى كفة النور وسيئاته فى كفة الظلام ويظل هو فى الوسط ، حتى يذهب ناحية الظلام إن ثقلت سيئاته وفاقت

حسناته ، وفاحية النور إن ثقلت حسناته وهبطت كفتها في الميزان . ومن أجلك يا محمد فإن الله سيجعل أى إنسان مهما كان جفسه أو ملته ومهما كانت الذنوب التى ارتكبها ، ما دامت معه ورقة كتب فيها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ويلقيها في كفة النور فإنها سترجح وحدها كل ذنوبه في الكفة الأخرى ثم تغفر له جميع تلك الذنوب وما عداها ويمحوها الله من كتابه .

الفصل الخامس والسبعون :

ثم قال جبريل إن يوم القيامة سيكون طوله خمسين ألف سنة ، ولكنه عند الله لن يزيد على طرفة عين ، وهذا لسببين : لأن الجوع سيكون يوم الحشر واقفين على أقدامهم ، ولأن الصالحين سيكون عندهم شوق عظيم للذهاب إلى حيث ينعمون بثواب طيبتهم ، أما الآخرون فسوف يعرفون الحزن والكرب والجوع والعطش والخوف المقيم . وهذا اليوم سيقال له يوم البعث والنشور واليوم الآخر لجميع الأيام ، وفيه ترتفع السماوات والأرض وينفخ في الصور فتسمع صيحة كبرى هائلة فيقوم جميع الموتى ويعثون أحياء ، وسيكون يوم الحساب والعقاب والعدل ، وفيه تتغير وجوه الناس فمنهم من تبيض وجوههم ومنهم من تسود ، ولا مجال فيه للكذب ولا للغش ، ولا يغنى والد عن ولده شيئاً ، وتذهل فيه الحامل عمن في أحشائها وترى الناس سكارى من الخوف ، في هذا اليوم يدل الله أرضاً غير الأرض وسما غير السماء ويكون كل شيء أمام عظمة الله ضئيلاً صغيراً كأنه سفينة صغيرة في بحر عظيم . وعنده أن تكون هناك ذنوب أخرى لأن قلوب البشر سترى بكل وضوح صغارها وحماقتها ، وسيفقد الشر والكذب كل سلطانهما ، وسيكون يوم محنة خاصة وعذاب شديد لمن لم يؤمن بالله ومن لم يطع رسوله فيما جاءوا به من عند الله .

الفصل السادس والسبعون :

وحدثني جبريل بعد ذلك عن الجسر المسمى بالصراط الذى خلقه الله ليبلو الصالحين والعاصين من عباده ، وهو معلق فوق الجحيم ، أرق من الشعرة وأحد من السيف ، محاط من جانبيه بكلايب وخطاطيف حديدية أعظم وأسن من أكبر الرماح ، وهو مقسم إلى سبعة جسور ، بعضها فوق بعض ، أولها طوله مسيرة عشرة آلاف سنة ، وثانيها عشرين ألف سنة . وثالثها أربعين ألف سنة ، ورابعها ثمانين ألف سنة ، وخامسها مائة وستين ألف سنة ، وسادسها ثلاثمائة وعشرين ألف سنة ، وسابعها ستمائة وأربعين ألف سنة .

ثم قال لى : عندما يأمر الله أمتك بالذهاب إلى الجنة سيحاولون اجتياز الجسر الأول ، وسيختبرون حينئذ في إيمانهم وكيفية اعتقادهم ، أما المؤمنون الصالحون فسيمرّون ، وأما الطالحون فسوف تنهشهم الكلايب وتمسك بهم الخطاطيف حتى يقعوا في النار . ومن يمر إلى الجسر الثاني فسوف يسأل عما إذا كان قد أقام الصلاة المفروضة ، فإن كان قد أقامها مر وإن لا سقط في النار مثل الأولين ، ومن يعبر إلى الجسر الثالث فسوف يتمحن في حفظ القرآن أم لا ، فأما من حفظه فسيمر وإن لا وقع في النار ، والذين يمرّون إلى الرابع سوف يسألون عن الصيام ، فمن آتم صيامه مر وإن لا سقط في النار . ومن يذهبون إلى الخامس يسألون عن فريضة الحج إلى مكة في الميقات المعهود ، فمن حج مر وإن لا سقط في النار ، ومن يمرّون إلى السادس يسألون عن الغسل والوضوء عند الصلاة وبعد الجنابة ، فمن كان قد فعل مر ومن لم يفعل سقط في النار ، ومن يذهب إلى الجسر السابع يسأل عن بر الوالدين الذى أمر به الشرع ، فإن كان قد برهما مر ونجا وإن لا سقط على وجهه في النار لينوق العذاب الأبدى جزاء وفاقا على عقوبه وظلمه .

الفصل السابع والسبعون :

وأخبرني جبريل أيضاً عن هذا الجسر أن طرفه في وسطه ، وأن الجزء الذي به الكلايب والخطاطيف يكاد يشبه أكبر الجبال وأعلاها في الأرض ، إذ يشق الصعود عليه والهبوط منه إلى أقصى درجة ، فيبدو النزول منه كما لو كان انحداراً إلى هاوية ، وبه من هذه الجبال سبعون جبلاً ، يستغرق الصعود إليها والهبوط منها سبعين ألف سنة ، وبين كل جبل وآخر ظلام ممتد يبلغ مسافة ثلاثة آلاف سنة . أما اللهب الذي يخرج من النار فإنه يتجاوز رؤوس من يمشون على هذه الجسور المذكورة بمسافة مقدارها مسيرة سبعين ألف سنة ، ويتصاعد ذلك اللهب على جانبي الجسر حتى ليخيل للعاشرين أنهم يسرون في طريق من نار ، ولا يرون في كل اتجاه سوى اللهب والنار . فلذا نظروا إلى أسفل وأوا جهنم بأبوابها السبعة ، حيث ينبع بجوار كل باب سبعون ألف نهر من نار ، ويتفرع من كل نهر مائة ألف جدول من نار ، في كل منها ألف تين ، ومثلها من العقارب التي يبلغ أصغرها مسيرة عشرة آلاف سنة ، ولكل تين وعقرب سبعون ألف ذنب ، بكل ذنب عشرة آلاف خاتم ، بكل خاتم عشرة آلاف قرن صغير ملء بالسهم الناقع ، فاذا ما وقع أحد المذنبين إلى النار فلأنها تنهش وتصب عليه من سمها ما يقضي عليه ، لكنه يعود مرة أخرى إلى الحياة ليلدوق سوء العذاب . كذلك يجعلونه يرتدى سبعين جلداً منها ، كل جلد يبلغ سمكه سبعين ذراعاً ، ومسافة ما بين كل جلد وآخر مليئة بالحيات والعقارب التي تلدغه وتسممه وتقطع جسده إرباً إرباً حتى يتمنى أن يأتيه الموت ألف مرة . وتحرقه نار الحميم سبعين ألف مرة في اليوم دون أن يستطيع موتاً نهائياً بأمر الله كي يلدوق العذاب ، أما أثناء النهار فإنه يجمع الأخطاب التي يحرق بها في الليل .

الفصل الثامن والسبعون :

وقد أنهرت دمرعى غزيرة عند سماع أخبار هذه العقوبات ، وقال لي جبريل إن كثيراً من أمي سيقع في الحميم رجالاً ونساء ، وسيوزعهم

الله إلى سبع مجموعات ويقول لهم : من يظن منكم أن من حقه أن يعبر
 الجسر فلينقدم لعبوره : فيهرعون جميعاً لاجتيازها ، أما أنت يا محمد فتستكون
 في الجانب الآخر من الجسر عند الجنة ، يرتفع صوتك بالدعاء قائلاً
 « اللهم نج أمي » وعندما يسمعونك يهرعون إلى الجسر متكالبين كأنهم
 مسح من جراد منتشر وهو يتساقط على الأرض ، أما أنا - أي جبريل
 فسأكون مع أمك داعياً « اللهم ارزقهم النجاة ، النجاة » . وعند عبورهم
 يرتجف الجسر كأنه نخلة تعصف بها الريح ، فادأرا المقدمون من أهل الزمرة
 الأولى مروا خفافاً كأنهم البرق ، ومرأهل الزمرة الثانية كأنهم ريح إعصار ،
 والثالثة مثل الطير المحلق في أجواء الفضاء ، والرابعة مثل جواد السباق ،
 والخامسة مثل الرجل العداء ، والسادسة مثل الإنسان النشط السريع ، والسابعة
 مثل طفل صغير يحب ويتعلم المشي ، بعضهم يجر نفسه على صدره ، وآخر
 يتشبث بيده بالجسر ، فاذا ما لسعته النار سحبها وتشبث باليد الأخرى ،
 فاذا ما لسعته رفعها وحاول التشبث بقدميه ، فاذا زلت إحداها اعتمد على
 الأخرى ، وهكذا يظلون على تلك الصورة حتى يعبروا جسر الصراط وقد
 اسودت أجسامهم فصارت مثل الفحم من الحروق . بعضهم يقاسى هذا
 العذاب طيلة يوم وليلة ، وآخرون طيلة يومين ، وآخرون طيلة شهر أو شهرين
 أو ثلاثة ، وآخرون طيلة عام أو عامين أو أكثر ، وهكذا حتى يكون هناك
 من يستغرق خمساً وعشرين ألف سنة ، وهي نصف يوم القيامة الذي يطول
 بمقدار خمسين ألف سنة ، يعنى أن من سيكون مصيره الجنة أو النار عليه
 أن يكون فيها يوم القيامة قبل منتصف النهار .

الفصل التاسع والسبعون :

ولما فرغ جبريل من حديثه ، رأيت بعض العصاة والكفار وهم يقاسرون
 أنواعاً مختلفة من العذاب في جهنم ، مما جعلنى أنصيب عرقاً من الكرب
 والضيق ، رأيت بعضهم تنزع شفاههم برماح متقدة ، وقال لى جبريل
 هؤلاء الذين يزرعون دائماً الشقاق بكلماتهم ، وآخرون تنزع ألسنتهم

لما شهدوا به من شهادة الزور ، وآخرين معلقين من ذكورهم في خطاطيف من نار ، وهؤلاء هم الزناة ، ورأيت بعد ذلك أفواجا من النساء معلقات في كتل من نار ربطت على فروجهن وعلقت تلك الكتل في سلاسل من نار وهن البغايا ، ورأيت أفواجا أخرى ممن كان يعجبك منظرهم وملبسهم في الحياة الدنيا فعرفت أنهم الموسرون من أمي ، وقد جعلوا يحترقون بنار هائلة لأنهم على الرغم من صدقاتهم كانوا ظالمين ومتكبرين على الضعفاء من الناس. وهكذا أنظر إلى كل العصاة والمذنبين وهم يتعذبون طبقاً لما اقترفوا من سيئات ، فرجوت جبريل أن يبعدني عن هذه المشاهد ، إذ لا أطيق ما أرى من هول وعذاب. فسألني جبريل عن رأيي في كل ما شاهدت من غرائب ، فقلت له إنني أدرك جيداً في الدرجة الأولى الشرف الذي خصني به الله سبحانه وتعالى عندما أطلعني على ما أعده لأولياؤه الصالحين من نعم وما أعده للأشرار من عذاب مقيم ؛ ثم أجبته كذلك بأنني سوف أحتفظ في ذاكرتي جيداً بكل ما رأيت ، فقال لي عليك أن تبلغ أمتك بما رأيت حتى تتبع الطريق المستقيم ، وتتجنب المعاصي والذنوب .

الفصل الثمانون :

ثم أردف جبريل قائلاً : أما أنت يا محمد فسوف ترجع الآن ، وسأكون بصحبتك ، ستذهب إلى بيت المقدس ، وتركب البراق مرة أخرى وسيمضي بك إلى بيتك ، ثم أمسك بيدي ، وهبطنا إلى الصخرة السوداء التي ذكرتها من قبل ، حيث كان ينتظرني البراق بفرح عظيم ، وعانقني جبريل وباركني وأوصاني كثيراً أن أبلغ هذه الأشياء إلى أمي ، فامتطيت البراق ، ورجعت إلى بيتي ، وكان الفجر قد بزغ ، فترجلت عن البراق الذي تطأطأ لي واختفى على الفور . دخلت بيتي فوجدت زوجتي أم هاني ما زالت نائمة في الفراش ، فلما جلست على حافته استيقظت ، ورأيتني وقد غمرني الحبور والفرح فسألتنى عن السبب فرويت لها كل ما رأيت ، طلبت من أن أرتاح (م ١٨ - الثقة الإسلامية)

وأرقد حتى يطلع النهار ، لكنني أخبرتها أنني سأذهب من فوري إلى المسجد لأخبر قريشاً بكل شيء ، فاعترضت علي وقالت إنهم سوف يعتبرونه افتراءً ويسخرون منه .

الفصل الواحد والثمانون :

خرجت من منزلي ، وكان النهار قد أشرق ، فقابلت عند عتبة زوجتي الأخرى « حفصة » مع ابنتي فاطمة ، وكانتا قادمتين لرؤيتي ، وبعد أن أخبرتهما بكل ما حدث طلبتا إلى إلحاح كذلك أن لا أذهب لأقص مثل تلك الأشياء على قبيلتي ، لكنني مضيت في طريقي ، فقابلت ابن عمي « ابن عباس » ولما عرف بما أخبرته به حاول كذلك أن يثني عن هدي ، لكنني ذهبت حتى دخلت المسجد ، فوجدت كل قبيلتي مجمعة ، ومعهم أبوبكر الصديق ، فنهضوا جميعاً ، وقال أحدهم ، وكان قاضياً بينهم ، اسمه « الحكم » ، وتبعه ابن عم آخر لي كان يكرهني ، أبوبكر (؟) قالوا للمجتمعين : هاكم محمد ، جاء ليقص علينا تلك الأكاذيب التي لم يسمع بها أحد قط من قبل .

الفصل الثاني والثمانون :

ولكنني مع ذلك ألقيت السلام عليهم جميعاً بنظرة ثابتة جدلة ، فأفسحوا لي مكاناً بينهم ، وأخذت أشرح لهم كيف أمرني الله أن أبلغهم ما أرايه في الليلة السابقة من آيات قدرته ونعمته ، والشرف الذي خصني به ، وكيف أنه لا بد لهم من تصديقي وطاعتي في كل ما جئت به من الله من قول أو عمل لأنني قد بعثت رسولاً من الله للعالمين . فلما أخبرتهم بكل شيء صدقني أبوبكر الصديق في كل ما قلت ، أما الآخرون فقد لزموا الصمت وفي النهاية قاموا ثائرين ورموني بالكذب والافتراء ، إذ أنني أطلب منهم أن يصدقوا أنني في ليلة واحدة قد ذهبت إلى بيت المقدس ورأيت أطباق

الأرض والسموات والجنة والنار ، وأن بين كل سماء وأخرى مسيرة خمسمائة عام ، بينما هم يعرفون أن ما بين مكة وبيت المقدس مسيرة شهر على الأقل . قالوا الى هذا وغيره من الكلمات المؤذية ، ولكن أبا بكر قال لهم إن كل هذا ممكن بقدرة الله .

الفصل الثالث والثمانون :

وتحملت أذاهم في صبر حباً لله ولهم ، وقالوا الى في نهاية الأمر : إن كنت حقاً رسولاً من الله كما تزعم ، فقل لنا أين تسير قافلتنا التي ذهبت إلى بيت المقدس وماذا تحمل ومتى تعود ؟ وكانوا قد بعثوا أربعين بغيرا لإحضار مؤونة ولا بد أن تمر ببيت المقدس ، فلم أستطع أن أرد عليهم في الحال بشيء ، لأن الله لم يكن قد أظهرني عليها في الليلة السابقة ، فنكست رأسي ، وغطيتها بالعمامة ، وبدأت أفكر وأصلي لله بخضوع حتى يهينى القدرة على أن أقول الحق لقبيلتي حتى يؤمنوا بكلمتي ويصدقوا رسالتي . ولما فرغت من صلاتي أمر الله جبريل أن يحضر أمامي العالم كله حتى يمكنني رؤيته كما لو كان في كفي ، وحدث هذا في الحال ، فرأيت بيت المقدس والقافلة وما تضمه من جمال وما تحمله من أحمال ، رأيت كل شيء ثم رفعت رأسي ونظرت إلى جميع الحاضرين فقال لهم أبو بكر الصديق لاني صادق وقد عرفت كل الحقيقة .

الفصل الرابع والثمانون :

قلت لهم : لقد كذبتُموني فيما أخبرتكم به ، وأردنتم مع ذلك أن تختبروني بشأن قافلتيكم ، فاعلموا الإذن أن الله قد جعل جبريل يطلعني على كل شيء ، إنها أربعون دابة ، منها عشرة محملة بالبر وعشرة محملة بالتمر وعشرة محملة بالبن وعشرة محملة بالزبيب ، وقد اقتربت من هنا حتى إنها لتصل اليوم نفسه ، فحثهم أبو بكر بعد ذلك على أن ينشبتوا مما قلت ،

فنهضوا من فورهم ، وانطلقوا إلى طريق القافلة ، فوجدوا أن كل شيء مطابق لما أخبرتهم به . ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا بي ، ولا بما أنزل على من قرآن في ذلك ، فاعلموا إذن أن ما جاء في القرآن عن الذين لا يؤمنون بالحق فهو يشير إلى أهل مكة الذين لم يريدوا الإيمان إلا بسيف ، وأنه حيث يتحدث القرآن عن المؤمنين بالحق فهو يشير إلى أهل المدينة ، لأنهم هم الذين آمنوا وصدقوا بالحق لما جاءهم من كل قلوبهم .

الفصل الخامس والثمانون :

وبعد ذلك ، فإن الغالبية العظمى من قريش آمنوا بكلماتي ، وبما قلت لهم عن القافلة ، ورجوني أن أمر بأن تكتب كل تلك الأشياء لتكون شهادة وذكر لمن يأتي من بعدي ، وطبقاً للاتفاق المشترك معهم فقد أمرت أبا بكر وابن عزة (؟) أن يكتبوا ما حدث لي وما سيحدث من بعد ، وكان الاثنان صالحين ومؤمنين موثوق بهما عرفا بالسمعة الطيبة والذكر الحسن ، فاستجابا لرجائي بفرح عظيم وسرعة فائقة ، وكتبنا في هذا الكتاب المسمى بالمعراج ما حدث لي كلمة كلمة .

وقد كتب هذا الكتاب في السنة الثامنة من بعد أن نزلت على روح الله وصرت نبياً . أما نحن أبا بكر وابن عزة ، فنشهد بضمير مستقيم وقلب سليم أن كل الأشياء التي قالها محمد حق وصدق ، وأن على كل من يسمع روايتها أن يؤمن بصدقها وأنها حدثت بالفعل كما سجلت وتسجل فيها بعد .

(انتهى)

نماذج من نظائرها في المأثورات

١ - بداية الإسراء والمعراج وحوار الرسول مع جبريل

- كنت في بيت أم هانئ بنت أبي طالب رضى الله عنها واسمها فاختة ليلة الاثنين ليلة السابع والعشرين من رجب سنة ثمان من البعثة .. وإذا بالباب قد طرقة طارق فخرجت فاطمة لترى من بالباب فرأت شخصاً عليه الحللى والحلل وله جناحان أخضران قد سد بهما المشرق والمغرب وعلى رأسه تاج مرصع بالدر والجوهر مكتوب على جبهته لا إله إلا الله محمد رسول الله .. فخرج النبی صلى الله عليه وسلم فلما رآه فإذا به جبريل عليه السلام .. فقال : يا أخى جبريل أوحى نزل أم وعد حضر أم أمر حدث ؟ قال يا حبيبى قم والبس ثيابك ومكن قلبك فإنك في هذه الليلة تناجى ربك (١) .

- أتانى جبريل عليه السلام وهو في الصورة التى خلقه الله فيها لونه مثل بياض الثلج وله جناحان أخضران ورجله من اللؤلؤ الرطب واضح الجبين مشرق النور ومعه ميكائيل فنادانى أنت نايم أم يقظان يا محمد ، فانبهت من نومي فرعاً مرعوباً ، فقلت حبيبى جبريل ، أمر حدث أم وعد اقرب أم وحي تجدد ؟ قال : ليس من ذلك شيء ولكن في هذه الليلة يكون قلبك معك تريد أن تكلم رب العالمين (٢) .

- عن أم هانئ قالت : بات رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به في بيتي ففقدته من الليل فامتنع منى النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قریش فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن جبريل أنانى فأخذ بيدي فإذا على الباب دابة .. (٣)

(١) ابن عباس ، الإسراء والمعراج ، مكتبة الجمهورية بالقاهرة ٢-٣

(٢) مخطوطه هذا معراج الرسول بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٣٨ تيمور ص ١ .

(٣) الخصائص الكبرى للسيوطى نشر دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٧ ص ١٣٩ .

٢ - وصف البراق وعملية الركوب وما حُف بها

— فلذا بالبراق قائما وجبريل يقوده ، وإذا هو دابة لا تشبه الدواب ، فوق الحمار ودون البغل ، له وجه كوجه ابن آدم ، وجسده كجسد الفرس ، عرفها من اللؤلؤ الرطب ، منسوج بقضبان الياقوت يلمع بالنور وأذناها من الزمرد الأخضر وعيناها مثل كوكب دري يوقد لها شعاع كشعاع الشمس عليها جل مرصع بالدر والجوهر (١) .

— وجهها كوجه إنسان وخلدها كخذ الفرس وعرقها من لؤلؤة مشبك بالمرجان الأحمر وناصيتها من ياقوت أحمر مدرج بالنور ، وأذناها من زمرد أخضر ، وعيناها مثل الزهرة والمريخ يتقدان ، محجلة لها جناحان كجناحي النسرين يقطر منهما مثل الحمان ، ذنبا كذنب البقر من فضة ، مسبوج العظام منسوج بالياقوت والمرجان ، لها جناحان كدائرة القمر ، فوق الحمار ودون البغل ، أظلافها كأظلاف البقر من زمرد ، بطنها كالفضة ، وعنقها وصدرها وظهرها كالذهب ، خطوها منتهى نظرها (٢) .

— وزمامها من بلجين مكلسل بالجواهر ، ورجليها من ديباج لونه كلون السماء ، عليها ثلاثة ميامر : ميسرة من حرير وميسرة من سندس ، ميسرة من استبرق وفوق ذلك قطعة من أرجوان تتلألأ نورا (٣) .

— فتقدمت لأركبه فاضطرب فقال له جبريل : يا براق اسكن : أما نستحي أن تنفر من بين يدي سيد الخلق (٤) .

— فوالله ما ركبك خلق قط أكرم على الله منه ؛ أي ما ركبك أحد قط فكيف يركبك أكرم منه (٥) .

(١) ابن عباس ص ٣-٤ . (٢) معراج القشيري ص ٤٤ .

(٣) مخطوط بمنوان معراج محمد بن دار الكتب المصرية تحت رقم ١٩٩٣ تاريخ طلعت

(٤) ابن عباس ص ٤

ص ١٢-١٣

(٥) المواهب الدنية للقسطلاني ، نشر دار الكتب العلمية ص ٢٠ ص ١٣

— فلما وضعت يدي عليها ففرت وعصت ، فلما رأى ذلك جبريل عليه السلام قال : يا أيها البراق ، أما تستحي من هذا النبي ، تنفري من منه وهو أكرم الخلق عند الله عز وجل ، فقالت : من هذا النبي يا جبريل ؟ فقال لها : هذا محمد بن عبد الله .. فعند ذلك خضعت وتواطت ولزمت بجبريل فلما وضعت يدي عليها سمعت خشخشة اللؤلؤ والمرجان .. وكان الآخذ بركابي جبريل والماسك بعناتها ميكائيل والماسك بثيابي إسرافيل ، فلما استويت على ظهرها طارت بي حتى أنت بيت المقدس (١) .

٣ — الأصوات المنادية والمرأة المتعرضة في طريق الإسراء

— وكان جبريل عليه السلام معي لا يفارقي ، وميكائيل عن شمالي ، فبينما أنا في المسير إذا سمعت صائحا يصيح فلم أقف عليه وذلك بتوفيق من الله تعالى ، فسرت قليلا وإذا أنا بامرأة ناشرة شعرها باسطة ذراعيها وهي تجرى وعليها من كل زينة زينها الله تعالى في الدنيا من الحلي والحلل قد أشرفت بحسنها وجمالها وهي تنادي يا محمد قفت عن قليل فأنا من أنصح البرايا لك ولأمتك ، فمضت البراق ولم تقف .. ثم سرنا ما شاء الله تعالى فسمعت صوتا أفرعني وراعني وكاد أن يطير له عقلي .. فقال لي جبريل هل سمعت أحدا ناداك وخاطبك قلت نعم ، سمعت صائحا عن يميني يقول الطريق عن يمينك فلم أجده ، وسمعت آخر يقول الطريق عن شمالك يا محمد فلم أجده ، واستقبلتني امرأة مزينة فلم أكلم أحدا منهم ، فقال جبريل .. يا محمد أما الصائح الأول تلك داعية اليهود فلو أجبتها لتهودت أمتك من بعدك ، وأما الصائح الثاني فتلك داعية النصارى فلو أجبتها لتنصرت أمتك من بعدك . وأما المزينة فتلك الدنيا لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا عن الآخرة وصارت كفارا (٢) .

(١) المخطوطة السابقة ص ١٥ .

(٢) مخطوطة المراجع رقم ١٩٩٣-٢٢ .

— ثم سرنا ما شاء الله ، وإذا بصائح عن يميني وهو يقول قف يا محمد فإني أنصح لك ولأمتك فسرت ولم ألتفت إليه وكان ذلك فضلا من الله تعالى . . وإذا بصائح عن شمالي وهو يقول قف يا محمد فإني أنصح لك ولأمتك فسرت ولم ألتفت إليه . . وإذا بامرأة ناشرة شعرها عليها من كل زينة خلقها الله تعالى من اللؤلؤ والجواهر والدر والياقوت قد أشرق حسنهما وجمالهما وهى تنادى وتقول يا محمد قف حتى أكلمك فإني أنصح لك ولأمتك ، فسرت ولم أقف . . . فقلت يا أخى جبريل أخبرني عن الصائح الذى ناداني في الطريق ، فقال : أما الصائح الأول فهو داعي النصراني ولو أجيبته لتنصرت أمتك من بعدك وأما الصائح الثاني فهو داعي اليهود ولو أجيبته لتهودت أمتك من بعدك ، وأما المرأة الناشرة شعرها المتزينة باللؤلؤ فتلك الدنيا ولو أجيبته لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة (١) — وسار حتى أتى مدينة بيت المقدس ودخلها من بابها اليماني ثم نزل عن البراق وربطه بباب المسجد الأقصى بحلقة في الصخرة السوداء التى كانت تربط بها الأنبياء ، ودخل المسجد مع جبريل (٢) — حتى انتهينا إلى بيت المقدس فأنزلاني عنده فطعن جبريل بأصبعه الأسطوانة فثقبها ، أو وضع إصبعه في الصخرة السوداء فخرقها وشد بها البراق ودخل معي المسجد (٣) .

٤ — الرسول يؤم جميع الأنبياء للصلاة في بيت المقدس

— لما انتهى بي إلى المسجد فإذا أنا بالأنبياء والمرسلين الذين بعثهم الله قبلي من لدن إدريس ونوح إلى عيسى قد جمعهم الله ، فسلموا على وحيوني ، وقال جبريل سل هؤلاء هل كان لله شريك ، فأقروا لله بالعبودية وله سبحانه بالوحدانية ، ثم قدمني فصليت بهم ركعتين (٤) . وفي رواية الحسن وابن مسعود ، ففضي رسول الله ومعه جبريل حتى انتهى به إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء ، فأمرهم رسول الله

(١) ابن عباس ص ٦٥ (٢) النبطي ص ٥٩-٦١ (٣) قشيري ص ٤٥

(٤) قشيري ص ٥٧

صلى الله عليه وسلم فصلى بهم (١). أو . فلم ألبث إلا يسيرا حتى اجتمع ناس كثير ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة ، قال فقمنا صفوا فانتظر من يؤمنا ، فأخذ بيدى جبريل عليه السلام فقدمنى فصليت بهم ، فلما انصرفت قال جبريل يا محمد أتدرى من صلى خلفك ، قال : قلت لا ، قال : صلى خلفك كل نبي بعثه الله عز وجل . وعند أحمد فلما أتى صلى الله عليه وسلم الأقصى قام يصلى فإذا النبیون أجمعون يصلون معه (٢) وفي رواية أخرى : وقد حشر الله تعالى له صلى الله عليه وسلم في المسجد الأقصى الملائكة والأنبياء ، فعرفهم النبي ما بين قائم وراكم وساجد ثم أذن جبريل وأقام الصلاة فقاموا صفوا ينتظرون من يؤمهم فأخذ جبريل بيده الشريفة وقدمه للمحراب فصلى بهم ركعتين ، فلما انصرف من الصلاة أثنى كل نبي على ربه ثناء جميلا فقال النبي كلکم أثنى على ربه وأنا مثن عليه (ثم ذكر كلمات الثناء) فقال إبراهيم عليه السلام : بهذا فضلكم محمد معشر الأنبياء فهو إمامكم في الدنيا والآخرة وأنتم أنباؤه ومن جملة أمته (٣).

٥ - وصف مرقاة المعراج ودرجاتها وعملية العروج

— ثم إن جبريل حمله السلام أتى بي إلى الصخرة ، وإذا بالمعراج قد نصب إلى الصخرة من عنان السماء . فلم أر شيئا أحسن من المعراج وهو مرقاة من الذهب ومارقة من الفضة ومارقة من الزبرجد ومارقة من الياقوت الأحمر فضمنى جبريل إلى صدره ولفنى بجناحه وقل ما بين عيني وقال ارق يا محمد ، فصعدت أنا وجبريل (٤) . أو : ثم أتى بالمعراج الذى تعرج عليه الأرواح عند حلول المنية ، لم تر الخلائق أحسن منه ، له مراق من العسجد واللجين مرقاة فوق مرقاة ، منضد باللؤلؤ وعن يمينه ملائكة وعن

(١) السيرة النبوية لابن هشام نشر الحلبي بالقاهرة عام ١٩٥٥ ص ٣٩٧/٣٩٨

(٢) المواهب اللدنية ج ٢ ص ١٧/١٩

(٣) السراج الوهاج في الإسراء والمعراج ص ٥٢/٥٥

(٤) ابن عباس ص ٧

يساره ملائكة فصعدا (١). أو : ثم أتى بالمعراج الذى تمرج عليه أرواح
بنى آدم ، فلم تر الخلائق أحسن منه ، له مرقاة من فضة و مرقاة من ذهب ،
وهو من جنة الفردوس ، متضد باللؤلؤ ، عن يمينه ملائكة وعن يساره
ملائكة فصعد هو وجبريل (٢) و ثم حل المعراج من جنة الفردوس منصودا
باللؤلؤ عليه نصاب للدرج أحسن شئ خلقه الله من ياقوت أحمر وأصفر
ولؤلؤ وفضة وذهب وزمرد حتى أدلى من السماء الدنيا إلى بيت المقدس ،
من عن يمين المعراج أربع مائة ألف ملك وعن يساره أربع مائة ألف ملك ،
وبين يديه ألف ملك ومن خلفه ألف ملك . لكل ملك جناحان أخضران .
ثم حل جبريل النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى كل منمرج ملك متوج
بتاج من نوره ، له جناحان أخضران معه خمس مائة من الملائكة ، وجوههم
كالقمر ، كلهم يقولون : مرحبا بك يا محمد ، بين كل درجتين مسيرة
أربعين عاما ، فالدرجة الأولى عليها ألف من الملائكة وعلى الثانية ألفان
وعلى الثالثة ثلاثة آلاف ، على هذا النحو ذكروا إلى خمس وخمسين
درجة (٣) .

٦-٧-٨ - وصف ملك الموت ويده اللوح

وعن يمينه ويساره أرواح الخلق وكيفية نزع الأرواح

- ثم رأيت ملكا عظيم الخلق والمنظر قد بلغت قدماء تخوم الأرض
السابعة ورأسه تحت العرش وهو جالس على كرسي من نور والملائكة بين
يديه وعن يمينه وعن شماله ينظرون أمر الله تعالى عز وجل ، وعن يمينه
لوح وعن شماله شجرة عظيمة إلا أنه لم يضحك أبدا فقلت يا أخى جبريل
من هذا . . قال هذا هادم اللذات ومفرق الجماعات . . هذا ملك الموت
عزرائيل . . أدن منه وسلم عليه ، فدنوت منه وسلمت عليه فلم يرد

(٢) النبطي ٧١/٧٣

(١) البرزنجي ص ١٦

(٣) القشيري ص ٤٥

على السلام ، فقال له لم لم ترد السلام على سيد الخلق وحبيب الحق ، فلما سمع كلام جبريل وثب قائماً ورد السلام وهنأني بالسكرامة من ربي وقال أبشريا محمد فإن الخير فيك وفي أمرك إلى يوم القيامة ، فقلت يا أخى يا عزرائيل هذا مقامك ؟ قال نعم منذ خلقني ربي إلى قيام الساعة ، فقلت فكيف تقبض الأرواح وأنت في مكانك هذا ؟ قال إن الله أمكنني من ذلك وسخر لي من الملائكة خمسة آلاف أفرقهم في الأرض ، فإذا بلغ العبد أجله واستوفى رزقه وانقضت مدة حياته أرسلت إليه أربعين ملكاً يعالجون روحه فيزعونها من العروق . . فإذا انفصلت من الجسد أقبضها بإحدى حربتي هاتين ، وإذا بيده حربة من نور وحربة سخط ، فالروح الطيبة يقبضها بحربة النور ويرسلها إلى عليين والروح الخبيثة يقبضها بحربة السخط ويرسلها إلى سجين وهي صخرة سوداء ملهمة تحت الأرض السابعة السفلى فيها أرواح الكفار والفجار ، قلت : وكيف تعرف حضر أجل العبد أم لم يحضر ؟ قال : يا محمد ما من عبد إلا وله في السماء بابان باب ينزل منه رزقه وباب يصعد إليه عمله ، وهذه الشجرة التي عن يساري ما عليها ورقة إلا عليها اسم واحد من بني آدم ذكورا وإناثا ، فإذا قرب أجل الشخص اصفرت الورقة التي كتب عليها اسمه وتسقط على الباب الذي ينزل منه رزقه ويسود اسمه في اللوح فأعلم أنه مقبوض (١) .

— فلما خلاصا رأى آدم عليه السلام وهو أبو البشر كهيئة يوم خلقه الله تعالى على صورته ، تعرض عليه أرواح الأنبياء وذريته المؤمنين فيقول روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها في عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الكفار فيقول روح خبيثة ونفس خبيثة ، اجعلوها في سجين ، ورأى عن يمينه أسودة وبابا يخرج منه ريح طيبة ، وعن شماله أسودة وبابا يخرج منه ريح خبيث منته ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك واستبشر وإذا نظر قبل شماله حزن وبكى . أما الأسودة فهم نسمة بنيهم ، فأهل اليمين منهم أهل

الجنة وأهل الشمال منهم أهل النار (١) أو قال : ثم مررت بملك جالس على كرمي جمع له الدنيا بين ركبتيه ، في يده لوح كهيئة الخزين ينظر فيه لا يلتفت يمينا ولا شمالا ، فقلت : من هذا يا جبريل ؟ فقال ملك الموت يكون دائما في قبض الأرواح فقلت كفى بالموت من طامة ، ولما سأل عني وعرفني قال لي : أبشر فلاني أرى الخير كله في أمتك (٢) ،

— ثم رأيت ملكا عظيما على كرسى وبين يديه لوح مكتوب عن يمينه وهو ينظر إليه دائما ولا يفتّر عنه ساعة واحدة فلما نظرت إليه فرغت منه ، قال جبريل : كلنا نفرزع منه يا محمد ، فقلت : يا جبريل من هذا الملك ؟ فقال هذا ملك الموت عزرائيل اذن منه وسلم عليه فسلمت عليه فرد على السلام ، فقلت يا أخى يا عزرائيل ما هذا اللوح الذى أراك تنظر إليه ؟ قال هذا مكتوب فيه أسماء بنى آدم : ثم قال مرحبا بك يا محمد فنعم المحيى جئت ، أبشر بكرامة الله لك ولأمتك فإن الله لم يبعث نبيا أكرم منك عليه ولا أمة أكرم عليه من أمتك : فقلت : كيف تقبض أرواح العباد وأين أسماء من قبضت أرواحهم من الدهور الخالية ؟ قال تلك الأرواح في لوح آخر علمت عليها وكذلك أصنع بكل ذى روح قبضتها حلقت عليها حلقة ، فقلت يا ملك الموت سبحان الله كيف قدرك الله على قبض أرواحهم في مكانك هذا لا تبرح ؟ فقال : يا محمد ألا ترى الدنيا كلها من ركبتي إلى أسفل والخلائق كلهم بين عيني ، ويلى تبليغان المشرق والمغرب ، ومع ذلك أعطاني سبعين ألف ملك سامعين مهطعين بأمر الله عز وجل أبعثهم إلى بنى آدم فيعجلون نزول الووح فإذا بلغت الروح الحلقوم علمت ذلك ولا تخفى على من أمرهم شيئا فأمد يدي وأقبض الروح ولا يليها أحد غيري ، فذلك أمرى وأمر ذوى الأرواح من خلق الله تعالى (٣) .

— وروى مرفوعا أن المؤمن إذا حضر أتمته الملائكة بحريرة فيها مسك وضمائر ويحان فقتل روحه كما تستل الشعرة من العجين ويقال أتمتها النفس

(٢) فشرى ٥٨

(١) النبطى ٨١/٧٧

(٣) مخطوطة المراجع رقم ١٩٩٣ صفحات ٧٩/٧٣

المطمئنة اخرجى راضية مرضية عنك إلى روح الله وكرامته ، فإذا خرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان ثم طويت عليه الحرية وذهب بها إلى عليين ، وأن الكافر إذا حضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتزع روحه نزعا شديداً ويقال أيها النفس الخبيثة اخرجى ساخطة مسخوطاً عليك .. فإذا خرجت روحه وضعت على تلك الجمرة ثم يذهب به إلى سجين (١) . أو إذا قبض النفس السعيدة تناولها ملكان حسان الوجوه عليهما أثواب حسنة ولهما روائح طيبة فيلقونها في حريرة من حرير الجنة فيخرجون به إلى السهات . . وأما الكافر إذا حضره الموت أخذت نفسه عنفاً وقال لها الملك اخرجى أيها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث .. فاذا قبضها عزرائيلناولها زبانية قباح الوجوه سود الثياب منتقى الرائحة أيديهم مسوح من شعر فيتلقونها بعنف فيخرج به حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيقرع الأمين الباب فيقال من أنت فيقول أنا الملك الموكل بزبانية العذاب .. فيقال من معك فيقول فلان بأقبح أسائه وأبغضها إليه في دار الدنيا فيقال لا أهلا ولا سهلا ولا مرحباً ولا تفتح له أبواب السماء لقوله تعالى « لا تفتح لهم أبواب السماء » (٢) فإذا سمع الأمين هذه المقالة طرحه من يده فتهوى به الريح في مكان سحيق فإذا انتهى إلى الأرض أخذته الزبانية وسارت به إلى سجين (٣) .

وفي رواية : ثم مرت بملك آخر جالس على كرس فإذا جميع الدنيا ومن فيها بين ركبتيه ويده لوح من نور مكتوب ينظر فيه لا يلتفت عنه يمينا ولا شمالا فقلت له من هذا يا جبريل قال هذا ملك الموت دائب في قبض الأرواح .. فلدنوت منه وسلمت عليه فرحب بي وأنعم بشاشتي ثم قال أبشر يا محمد فإن الخير كله في أهلك .. قلت ما هذا اللوح الذي بين يديك قال مكتوب فيه آجال الخلق . فقلت يا ملك الموت فكيف تقلر

(١) التذكرة للقرطبي ص ٢٦ (٢) الأعراف آية ٤٠

(٣) البقرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة للغزالي ص ٧ - ١٠

على قبض أرواح جميع من في الأرض أهل بلادها وكورها وما بين مشارفها ومغاربها قال : ألا ترى أن الدنيا كلها بين ركبتي وجميع الخلائق بين عيني ويداي يبلغان المشرق والمغرب فإذا نفذ أجل عبد نظرت إليه فإذا أبصر ذلك أعوانى من الملائكة ، عرفوا أنه مقبوض فعمدوا إليه يعالجون نزع روحه . ثم مددت يدي إليه فانتزعت روحه من جسده (١) .

٩ - الملك الديك والملك الثلجي النارى :

- ولم أزل أخترق صفوف الملائكة حتى انتهيت إلى ملك أفرق على هيئة الديك أصفر وأخضر وهو ساجد يقول في سجوده سبحان الله العظيم ، فإذا سبى ذلك الديك سبحت ديوك الأرض جميعا وأجابوه كما يقول ، ولما تسمعه ديوك الأرض تميل بأعناقها وتصغى بآذانها لاستماع ذلك التسبيح من ذلك الديك وتحقق بأجنحتها بحبة بالتسبيح وللتقديس لله الواحد القهار وإذا سكمت سكمت . ثم تقدمت وإذا أنا بملك نصفه من ثلج ونصفه من نار فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار له ألف رأس ، في كل رأس ألف وجه في كل وجه ألف فم في كل فم ألف لسان يسبح الله تعالى بألف لغة لا يشبه بعضها بعضا ، ومن جملة تسبيحه أنه يقول سبحان من ألف بين الثلج والنار . . ألف بين قلوب عبادك المؤمنين والملائكة تقول آمين (٢)

إن الله عز وجل ديكا جناحه موشيان بالزبرجد واللؤلؤ والياقوت ، جناح له في المغرب وقوامه في الأرض السفلى ورأسه مفنى تحت العرش فإذا كان في السحر الأعلى خفق بجناحه ثم قال سبوح قدوس ربنا الله لا إله غيره فعند ذلك تضرب الديكة بأجنحتها وتصيح ، ولما أسرى بي إلى السماء رأيت فيها أعاجيب من عباد الله وخلقهم .

(١) اللاتى المصنومة في الأحاديث الموضوعة للسيوطى ج ١ ص ٦٤ - ٦٦

(٢) ابن عباس ٢٨-٢٩-٨-٩ وص ٣٢٨ من المخطوطة

- ومن ذلك الذى رأيت فى السماء ديك له زغب أخضر وریش أبيض ،
بياض ريشه كأشد بياض رأيت قط وزغبه تحت ريشه أخضر كأشد خضرة
رأيتها قط ، وإذا رجلاه فى تخوم الأرض السابعة السفلى ورأسه تحت عرش
الرحمن ثانى عنقه تحت العرش ، له جناحان فى منكبيه إذا نشرهما جاوزا
المشرق والمغرب ، ثم إذا كان فى بعض الليل نشر جناحيه فخلق بهما
وصرخ بالتسبيح لله تعالى ويقول سبحان الله العلى العظيم ، سبحان الله
العزیز القهار ، فاذا فعل ذلك سبحت دبكة الأرض وخفقت بأجنحتها
وأخذت فى الصرخ فاذا سكن ذلك الديك سكنت الدبكة فى الأرض . ثم
مررت بخلق عجب من الملائكة نصف جسده مما يلى رأسه ثلج والآخر نار
ما بينهما رتق فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفى النار وهو قائم ينادى
بصوت رفيع جداً يقول .. اللهم مؤلفا بين الثلج والنار أف بين قلوب
عبادك المؤمنين فقلت : من هذا يا جبريل فقال ملك وصله الله بأكتاف
السموات وأطراف الأرضين وهو من أنصح الملائكة لأهل الأرض من
المؤمنين يدعو لهم بما تسمع فهذا قوله منذ خلق . (١)

١٠ - ١١ خازن النار وشرحه لكيفية تكوينها وغلظة خزنها وأدواتهم

- وإذا بملك عظيم الحلقة مرهوب النظر ظاهر الغضب شديد البأس صعب
المراس بين عينيه عقدة لو أشرف بها على الأرض لمساتوا عن آخرهم
وغارت منه البحار وتفطرت منه الجبال . قلت يا أخى جبريل من هذا
الذى اقشعر منه جلدى ورجف منه فؤادى فقال يا حبيب الله هذا مالك
خازن النار خلقه الله من غضبه وسخطه .. ادن منه وسلم عليه فدنوت
منه وسلمت عليه فلم يرد على السلام فقال جبريل لم لا ترد على حبيب
الله ؟ . فلما سمع مالك ذلك نهض قائماً على قدميه وقال الله العلى
لك يا حبيب الله . فقلت له أرنى جهنم فقال مالك ليس الأمر لى وإذا

(١) اللال المصنوعة ١ ص ٦٢ - ٦٤

بالنداء من العلى الأعلى لا تخالف حبيبي محمداً فعند ذلك كشف عنها الغطاء
فاذا هي سوداء مظلمة ممزجة بغضب الله (١)

— فلما دخلنا لم نلق ملكاً إلا ضاحكاً مستبشراً حتى لقيت ملكاً لم يضحك
ولم أر منه البشر الذى رأيت من غيره ، فقال جبريل أما إنه لو ضحكك
إلى أحد بعدك لضحك إليك ، هذا مالك خازن النار لم يضحك قط
ولم يتبسم قط ولم يزل عابساً كالحاً مغضباً معرضاً من شدة غضبه على أهل
النار لغضب ربهم عليهم ، فقلت يا جبريل ألا يرى النار قال يا مالك
إن محمداً رسول الله يريد أن ينظر إلى النار فكشف عن غطاها فقارت
النار وارتفعت وهي سوداء مظلمة لا يضى لها ولا نارها . . تكاد تميز
من الغيظ (٢)

— قال رسول الله (ص) يا جبريل صف لى النار وانعت لى جهنم فقال
جبريل إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها حتى اسودت فهي
سوداء مظلمة لا تضى شررها ، والذى بعثك بالحق لو أن قدر نقب إبرة
فتح من جهنم لمات من الأرض كلهم جميعاً من حره ، والذى بعثك
بالحق لو أن خازناً من خزنة جهنم برز إلى أهل الدنيا فنظروا إليه لمات
من فى الأرض كلهم من قيح وجهه ومن نثر ريعه ، والذى بعثك بالحق
لو أن حاقة من سلاسل أهل النار وضعت على جبال الدنيا لا رفضت
وما تقارت حتى تنتهى إلى الأرض السفلى . (٣)

— ورد أن الرسول قال : أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم
أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت
فهى سوداء مظلمة كالليل ، وقد خلق الله ملكاً من نار له أصابع بعدد
أهل النار فما يعذب أحد منهم إلا بأصبع من أصابع ذلك الملك فوالله لو وضع
هذا الملك لإصبعاً من أصابعه على السماء لدابت من حره (٤).

(٢) قشيري ٤٦

(١) ابن عباس ١٧/١٦

(٤) التذكرة للقرطبي ص ١١٧ ١١٨

(٣) يقظة أولى الاعتبار ص ١٠٤

— وخزنة النار لا يحصى عددهم إلا الله ، وأعينهم كالبرق الخاطف وألسنتهم كبياض قرن البقر وشفاههم تمس أقدامهم يخرج لب النار من أفواههم وما بين كتفي كل واحد منهم مسيرة سنة لم يخلق الله تعالى في قلوبهم من الرحمة والرافة مقدار ذرة يغوص أحدهم في بحار النار مقدار سبعين سنة (١) .

— روى أن جبريل جاء إلى النبي حزينا لا يرفع رأسه ، فقال له الرسول : مالى أراك يا جبريل حزينا ، قال : لاني رأيت نفحة من جهنم فلم ترجع إلى روحي بعد (٢) .

— إن أهل النار يدعون ما لكأ فلا يجيبهم أربعين عاماً ، ثم يقول : إنكم ما كنون ثم يدعون ربهم فيقولون : ربنا اخرجنا من هذه فإن عدنا فلإنا ظالمون فلا يجيبهم مثل الدنيا ثم يقول اخشوا فيها ولا تكلمون ثم يياس القوم فما هو إلا الزفير والشهيق (٣) .

— ثم نظرت عن يميني وإذا أنا بباب مغلق وعليه سطران مكتوبان بالنور فقلت يا أخى جبريل ما هذه الكتابة التي على هذا الباب ؟ قال : مكتوب لإله إلا الله محمد رسول الله ، وإلى الباب ملك عظيم الخلقة مهوب المنظر ظاهر الغضب شديد البأس صعب المراس وهو جالس على كرسي من نار وعلى رأسه تاج من نار ونفسه مثل الرعد القاصف وبين عينيه عقدة لو أشرف بها على أهل الأرض لصعقوا من آخرهم وييده مقمعة من حديد لو وزنت بعشر جبال من جبال الدنيا لرجحت عنهم وبين يده زهانية لا يعلم عددهم إلا الله تعالى فنظر إلى بوجه عبوس فلو أن الله ثبت قلبي كادت روحي تطير من شدة حوله فقلت يا أخى

(١) دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار ص ٣٦ .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٨٦٦

(٣) نفس المصدر ص ٩١٧

جبريل من هذا؟ قال هذا مالك خازن النار يا محمد أوقدها ألف عام حتى احمرت ثم أوقدها ألف عام حتى اصفرت ثم أوقدها ألف عام حتى اسودت ثم أغلقها فإذا هي تأكل بعضها بعضا إلى يوم القيامة فهي سوداء مظلمة لو قطرت منها قطرة على جبال الدنيا لصارت رمادا . .
فدفنوه منه وسلمت عليه فلم يرد على السلام فقال جبريل يا مالك لم لا ترد السلام على محمد رسول الله وهو حبيب رب العالمين فلما سمع مالك ذلك نهض قائما على قدميه وقال الله الله العذر يا حبيب الله (١) .

١٢ - في السماء الأولى ملائكة متكاثرون وابنا الخالة عيسى وزكريا

- ثم صعد بي إلى السماء الدنيا في أسرع من طرفة عين وبينها وبين الأرض خمسمائة هام وسمكها مثل ذلك ، فطرق الباب فقالوا من هذا ؟ فقال جبريل قالوا ومن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، قالوا : أو أرسل إليه قال نعم قالوا : مرحبا بك وبمن معك فنعم المهيء مجيئكما ، ففتحوا لنا الباب ودخلناها فإذا هي سماء من دخان يقال لها الرفيعة وليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك راكم أو ساجد . . فنظرت وإذا بملك عظيم الخلق وهو راكب على فرس من نور وعليه حلة من نور وهو موكل بسبعين ألف ملك مسومين بأنواع الحلل والخلل بيد كل منهم حربة من نور . . ثم تقدمت وإذا بملك . . له ألف رأس في كل رأس ألف وجه في كل وجه ألف فم ، في كل فم ألف لسان يسبح الله تعالى بألف لغة لا يشبه بعضها بعضا . . ورأيت فيها شابين متشابهين فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال أحدهما يحيى بن زكريا والآخر عيسى ابن مريم عليهما السلام اذن منهما وسلم عليهما فدفنوهما وسلمت عليهما فردا على السلام وقال لي أبشر يا محمد فان الخير فيك وفي أمتك إلى يوم القيامة (٢) .

(١) مخطوطة المراجع من دار الكتب ص ١٩٧

(٢) ابن عباس ٩ / ١٠

— فصعد هو وجبريل حتى انتهيا إلى باب من أبواب السماء الدنيا يقال له باب الحفظة وعليه ملك يقال له اسماعيل وهو صاحب سماء الدنيا ، يسكن الهواء . . وبين يديه سبعون ألف ملك ، مع كل ملك جند من الملائكة سبعون ألف ملك فاستفتح جبريل باب السماء ، قيل من هذا (١) .

— ثم رأيت ملائكة في الهواء لا يحصون فسألت جبريل عنهم فقال هؤلاء ملائكة يسبحون في الهواء منذ خلقت السماوات والأرض رؤوسهم تحت أجنتهم لم ينظر أحدهم إلى شيء من جسده قط خوفا من الله . . ثم انتهينا إلى باب من أبواب السماء الدنيا عليه ملك يقال له اسماعيل تحت يديه اثنا عشر ألف ملك فاستفتح جبريل ففتح لهم ورحب بمحمد صلى الله عليه وسلم ، واسم السماء الدنيا الرقيع وهي موج مكفوف . . ثم أتينا على عيسى ويحيى فقالا مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح (٢) .

— ثم صعدنا إلى عليين فأنهينا إلى السماء الدنيا وإذا هي موج مكفوف وعرضها خمسمائة عام فاستفتح جبريل ففتح لنا اسماعيل وجنوده حوله سبعون ألف ملك تحت كل ملك منهم مائة ألف ملك . . وهم صفوف صفوف يسمع لهم دوى وزميل بالتسبيح والتكديس والتهليل والدعاء لله وهم يقولون مبوب قدوس رب الملائكة والروح (٣) .

١٣ — الثانية من البرونز وفيها يوسف ، أو من النحاس

— ثم صعدنا إلى السماء الثانية في أسرع من طرفة عين وبينها وبين السماء الدنيا خمسمائة عام وسمكها كذلك . . فإذا هي سماء من نحاس يقال لها المزينة ، ورأيت فيها ملائكة معهم ألوية خضر . . ونظرت فإذا فيها غلام جالس على كرسي من نور وقد أشرق النور من وجهه وصورته

كالقمر ليلة البدر ، فقلت من هذا الشاب يا أخى جبريل ؟ قال هذا يوسف بن يعقوب فضله الله بالحسن والجمال كما فضل القمر على جميع الكواكب فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام وهنأني بالكرامة من ربى عز وجل وقال لى مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح واصطففت الملائكة صفوفاً (١)

— فلما خلصا إذ هو بيوسف ومعه نفر من قومه فسلم فرد عليه السلام ، ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ودعا له بخير ، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن ، وفي رواية من أحسن ما خلق الله قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب (٢)

— ثم أتينا السماء الثانية وهى نحاس يشبه نحاس الدنيا اسمها تينا واسم خازنها رفايل فاستفتح جبريل ففتح له ، قيل ومن معك قال محمد . فما استقبلني أحد من الملائكة إلا رحب واستبشر (٣) .

— ملائكة السماء الأولى على صورة البقر وألوانها أسود وأبيض وقرونه زرق وطرف ذيله أسود وجميع محاركه سود والباقي أبيض ، وملائكة السماء الثانية على صورة العقاب أسود اللون ليس بحالك السواد ورجلاه ومنقاره زرق وصدرة وروؤوس أجنته ذهب والله أعلم (٢)

١٤ - فى الثالثة ملائكة من لائحة دائرية وإلياس وأدريس

— ثم صعدنا إلى السماء الثالثة فى أسرع من طرفة عين ، وبينها وبين السماء الثانية خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك فطرق جبريل بابها (وبعد السؤال) فتحوا الباب فدخلناها . . فإذا هى سماء من فضة بيضاء يقال

(٢) الفيلقى فى ٨٧ / ٨٨

(١) ابن عباس ١٠ / ١١

(٣) عجائب المخلوقات لقزوين ٢ ص ٣٥٦ .

(٢) قشيري ٤٨

لها الزاهرة (١) فيها من عجائب ربى عز وجل أصنافاً من الملائكة ،
رأيت رجلاً على وجهه نور ساطع وله قلب خاشع فقلت من هذا يا أخى
جبريل قال هذا أخوك لإدريس رفعه الله مكاناً علياً ادن منه وسلم عليه
فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام واستغفر لى ولأمتى . . . فلما
نظر الملك إلى وجدت الدنيا بين يديه كالدرهم بين يدي أحدكم يقبله
كيف يشاء (٢)

— ثم صعدا ففتح لهما فلما خلصا إذا هو بإدريس قد رفعه الله مكاناً علياً
فسلم عليه فرد عليه السلام ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح
ثم دعا له بخير (٣)

— ثم أتينا السماء الثالثة فإذا هى من فضة اسمها زيلون واسم خازنها كوكب
باليل ، فاستفتح جبريل الباب ففتح له ورحبوا بمحمد صلوات الله
عليه وسلامه (٤)

— ثم أخذ جبريل بيدى وسار به فى صفوف الملائكة الروحانيين فسلمت
عليهم فردوا على السلام بالإشارة فقال جبريل : هؤلاء الملائكة
الروحانيون منذ خلقهم الله ما كلم أحد منهم الاخر مخافة أن يشتغلوا
عن التسييح ولوعرفوك لكلموك ، ثم سار به حتى مررنا بالملائكة
المكرمين ولا يحصى عدتهم إلا الله (٥) .

١٥ — الرابعة من الذهب حارسها هائل وملائكتها من النور وفيها هارون

— ثم صعدنا إلى السماء الرابعة فى أسرع من طرفة عين وبينها وبين السماء
الثالثة خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك .. فدخلناها فإذا هى سماء من

(٢) ابن عباس ١٠/١٤

(٤) قشبرى ٤٨

(١) هذا عن السماء الرابعة

(٣) النبطى ٨٨ / ٨٩

(٥) مخطوطة المعراج ص ٣٨

الذهب الأحمر واسمها المنيرة ورأيت فيها من خلق الله عز وجل ملكاً عظيماً لو أمره الله أن يبلغ السماوات السبع في دفعة لكان عليه لعظم خلقته (١) .

— ثم أتينا إلى السماء الرابعة فإذا هي من ذهب صفراء اسمها الماعون واسم خازنها مؤمن يا ليل (٢) .

— فلما خلصا إذا هو بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء تكاد تضرب إلى سرتهم من طولها وحوله قوم من بنى إسرائيل وهو يقص عليهم فسلم عليه فرد عليه السلام ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم دعا له بنخير ، فقال : من هذا يا جبريل ، قال هذا الرجل المحبب في قومه هارون بن عمران (٣) .

— ملائكة السماء الثالثة على صورة النسر وردى اللون أطراف ريشه أسود لكن ورديته تميل إلى السواد شيئاً يسيراً . صدره وصدور أجنحته ذهب منقط ريشها بسواد ومتقاربه ورجلاه زرق والله أعلم بذلك (٤) .

١٦ — الخامسة ملكها من نار وفيها موسى يدعو لطلب التخفيف

— ثم ارتقينا إلى السماء الخامسة في أسرع من طرفة عين وبينها وبين السماء الرابعة خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك . . ودخلناها فإذا هي مماء من حدة بيضاء يقال لها العجيبة (السابعة) . . ورأيت رجلاً كهلاً طويلاً كثر الشعر عليه مدرعة من صوف أبيض يتوكأ على عصا يكاد شعره يغطي جسده ، له لحية بيضاء على صدره فقلت من هذا يا أخى جبريل ؟ قال : هذا أخوك موسى بن عمران فضله الله

(١) ابن عباس ١٥-١٦ (٢) قشيري ٤٨ (٣) النبطي ٩٠

(٤) عجائب المخاوقات للقزويني ٢٨ ص ٣٥٦

بكلامه وجعله كليماً له اذن منه وسلم عليه فدنوت منه وسلمت عليه فنظر إلى وجعل يقول يزعم بنو إسرائيل أني أكرم الخلق على الله وهذا أكرم مني على ربه (١) .

— وملائكة هناك لكل واحد ستمائة ألف جناح ، لكل جناح سبعون ألف ريشة ، فإذا سبج لسانه الكبير خرج من كل مكان من ريشه ملك من الملائكة يسبح الله تعالى لا يسأم ولا يعي ولا يكسل (٢) .

— ثم صعدنا إلى السماء الخامسة . . فإذا بأخي موسى بن عمران عليه السلام فدنوت منه وسلمت عليه فصافحني وقال : الحمد لله الذي أكرمك بهذه الكرامة ، أبشر يا محمد برضوان الله عليك وبشر أمتك فإن الله سبحانه وتعالى يحبك في هذه الليلة . فأسأله للتخفيف عن أمتك ما استطعت (٣) .

— ثم انتهينا إلى ملك له ثمانون ألف جناح ، في كل جناح ثمانية آلاف ريشة ، في كل ريشة مثل الدنيا ، يدخل هذا الملك في بحر تحت العرش يقال له بحر النور فيغمس فيه كل يوم سبعمائة ألف مرة ثم يخرج فينفذ أجنحته وكل قطرة منه يخلق الله ملكاً منها يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة (٤) .

١٧ — في السادسة جند الله بنحوهم وإبراهيم بأنواره

— ثم ارتقبنا إلى السماء السادسة وبينها وبين السماء الخامسة خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك . . ودخلناها فإذا هي مماء من ياقوتة خضراء اسمها الخالصة . فنظرت فإذا بملك عظيم الحلقة وهو راكب على فرس من نور وعليه حلة من نور وهو موكل بسبعين ألف ملك مسمومين بأنواع الحلل والحلل بيد كل واحد منهم حربة من نور وهم جند الله تعالى . . فإذا

(٢) قشيري ٥٠

(١) ابن عباس ٢٤/١٥

(٤) المخطوطة ١٠٢

(٣) مخطوطة المراجع ص رقم ٧١

عصى في الأرض أحد ينادون إن الله تعالى قد غضب على فلان ابن فلان فيغضبون عليه وإذا استغفر العبد وتاب ينادون أن الله قد رضى عن فلان ابن فلان فيرضون عنه (١) .

— فلما خلاصا فإذا النبي صلى الله عليه وسلم بإبراهيم الخليل جالس عند باب الجنة على كرسي من ذهب مسند ظهره إلى البيت المعمور معه نفر من قومه ، فسلم عليه النبي . . فرد عليه السلام وقال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح ، ثم قال : مر أمتك فلتكثر من غراس الجنة فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة فقال وما غراس الجنة ؟ قال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وفي رواية أخرى أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر (٢) .

— فأنهينا إلى السماء السادسة وإذا هي زمردة خضراء إسمها غزريون واسم خازنها من الملائكة ردة عن باليل . . وإذا نحن بكهل جالس على باب البيت المعمور لم أرو جلا قط أشبه بصاحبك منه فقلت من هذا يا جبريل قال أبوك إبراهيم فسلمنا عليه فقال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح (٣) .

— ففتح الباب فدخلنا فرأيت فيه ملكاً من درة محفورة على سرير والملائكة حوله قياماً قلت من هذا يا جبريل قال أبوك الخليل إبراهيم ادن منه وسلم عليه فدنوت منه وسلمت عليه فقال أهلاً وسهلاً بالنبي الصالح والولد الناجح أبشر يا ولدي يا محمد فأنت تقدم في ساعتك هذه على حبيب يحبك ، قلت لوجه ربي الحمد والشكر ، وإذا بملائكة بأيديهم حراب من نور وكل حربة مثل للنخلة الباسقة أشد ضوءاً من ضوء الشمس لهم سبعة ألوان يسبحون الله بلغات مختلفة (٤) .

(١) ابن عباس ٢٣ / ٨
(٢) التيطي ٩٧ / ٩٨
(٣) قشيري ٤٩ / ٥٠
(٤) مخطوطة المراج ص ٣٣٤

١٨ - السابعة من ياقوت بها الملائكة يرتلون التسايح ويصلي بهم الرسول ويلقى آدم

- ثم ارتقبنا إلى السماء السابعة في أسرع من طرفة عين وبينها وبين السماء السادسة خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك فطرق جبريل بابها .. ففتحوا لنا الباب ودخلناها ، ورأيت فيها من ملائكة ربي عز وجل ملائكة يقال لهم الروحانيون .. فالتفت عن يميني فإذا أنا بشيخ حسن الوجه حسن الثياب جالس على كرسي من نور .. قلت يا أخى جبريل من هذا ؟ قال هذا أبوك آدم صلوات الله عليه فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام وهنأتني بالكرامة من ربي عز وجل .. واصطفيت الملائكة صفوفاً وصليت بهم ركعتين على ملة ابراهيم الخليل (في السادسة) (١) .

- ثم صعدنا فرأيت ملائكة صفوفاً رافعين أصواتهم بالتسبيح والتقديس لله عز وجل ، ثم رأيت ملكاً عظيماً له كرسي من نور أعظم ملك رأيت ، وجلاله في تخوم الأرض السفلى ورأسه في أعلى العليا وله جناحان في المشرق وجناحان في المغرب وحوله تسعمائة ألف ملك يسبحون الله وتسبيحهم صبور قدوس رب الملائكة والروح (٢) .

- لما أسرى بي إلى السماء أذن جبريل فظننت الملائكة أنه يصلي بهم فقدمني فصليت بالملائكة (٣) .

- ثم رأينا ملكاً قد افترقت رجلاه من الأرض السفلى وافترق رأسه من السماء السابعة العليا ، غلظ كل جناح من أجنحته مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل جناحين مسيرة خمسمائة عام للراكب المسرع ، ومن لدن رأسه إلى منتهى قدميه ممتلئ وجوهاً ونوراً ، وفي كل جزء منه وجوه

(١) ابن عباس ٢٤-٢٥ (٢) منطوط المعراج ص ١٠٦ - ١٠٧

(٣) خصائص ص ١ ص ٤٢٧

كثيرة يسبح كل لسان في هذه الوجوه بلغة أخرى لا يشبه وجه وجهها
ولا لغة لغة ولا عين عينا ، وفي جانب من جسده نور أحمر وفي
جانب نور أصفر وفي جانب نور أخضر وفي جانب نور أبيض ،
وليس في جسده من أعضائه وريشه وبشرته وشعره جزء إلا وهو يسبح
بتسبيح آخر فيخرج كل يوم من تسبيحه بعدد ما خلق الله من الملائكة
يسبحون ، لو أراد أن يلتقم السماوات والأرض بلقمة واحدة
لأطاق (١) .

١٩ - سماء الحجب الثامنة وملائكتها ودوائرها وألوانها وذهاب جبريل

— فبينما أنا كذلك وإذا أنا بملائكة قيام على أقدامهم فقلت يا أخى
يا إسرافيل من هؤلاء ، ؟ قال : هؤلاء الروحانيون والكروبيون
وهم حملة العرش . . فبينما أنا أخاطب الملائكة وإذا بالنداء من فوق
رأسى الصلاة والسلام عليك يا محمد الصلاة والسلام عليك يا أحمد
فرفعت رأسى وإذا أنا بملك عظيم الخلقة أشد بياضا من الثلج يتقدمه
سبعون ألف ملك على صورته وشكله فعانقنى وقبلنى وقال سر
يا حبيب الله . . فسرت مع هؤلاء الملائكة وهم عن يمينى وشمالى وبين
يدى حتى اخترقنا سبعين ألف حجاب من نور أبيض وسبعين ألف
حجاب من زمرد أخضر وسبعين ألف حجاب من الاستبرق وسبعين
ألف حجاب من السندس وسبعين ألف حجاب من النور وسبعين ألف
حجاب من الظلمة وسبعين ألف حجاب من المسك وسبعين ألف حجاب
من الجبروت بين كل حجاب وحجاب خمسمائة عام . ثم تقدمت أمامى
فلم أرى أخى جبريل فقلت أفى مثل هذا المكان يقارق الخليل خليله . ،
فلم تركتني ونخلت عني ؟ فتأدى جبريل يعز على أن تخلف عنك ،

والذى يعتك بالحق نبيا مامنا لا له مقام معلوم ولو أن أحداً من أتباعه لمقامه
لا حرق بالنور (١) .

— ثم انتهينا إلى حجب الرحمن تبارك وتعالى وهى سبع مائة ألف حجاب
عرض كل حجاب مسيرة ألف عام وهى حجب من الحديد وحجب
من الرصاص وحجب من الثلج وحجب من النار وحجب من الفضة
وحجب من الذهب وحجب من اللؤلؤ وحجب من الياقوت وحجب
من النور وحجب من الظلمة ، وكل حجاب يتلأل بالأنوار التى
تخطف الأبصار وعلى كل حجاب سبعون ألف ملك لو أمر الله
سبعائه وتعالى ملكا منهم على أهل السماوات والأرض وما عليها أن
يقبضهم لقبضهم بقبضة واحدة لم يسقط من كفه شئ (٢) .

— فلم أزل أخترق صفوف الملائكة حتى انتهينا إلى إسرافيل عليه السلام
وإذا هو قد نشر أجنحته وقد سد الخافقين وقد بلغت قدماه تخوم
الأرض السابعة ورأسه تحت العرش وإذا له ألف جناح ، فى كل جناح
ألف رأس ، وفى كل رأس ألف ألف وجه وفى كل وجه ألف
ألف فم ، فى كل فم ألف ألف لسان يسبحون الله تعالى بألف ألف
لغات لا يشبه بعضها بعضا (٣) .

— ورد فى الآثار بين الله وبين الملائكة الصافين حول عرشه سبعون
حجابا من نور وسبعون حجابا من نار وسبعون حجابا من ظلمة وسبعون
حجابا من رفاف الاستبرق وسبعون حجابا من رفاف السندس
وسبعون حجابا من در أبيض وسبعون حجابا من در أحمر وسبعون
حجابا من در أصفر وسبعون حجابا من در أخضر وسبعون حجابا
من ضياء استضاء من ضوئه النار والنور وسبعون حجابا من ثلج

(١) ابن عباس ٣٠/٢٩/٢٦ (٢) مخطوطة المراجع ١١٤/١١٢

(٣) مخطوطة المراجع ص ١١٦

وسبعون حجاباً من ماء وسبعون حجاباً من برد غمام وسبعون حجاباً من برد وسبعون حجاباً من عظمة الله التي لا توصف (١) .

— واعلم أن ملائكة السماء السابعة كلهم مقربون ، ولكل من المقربين منزلة على قدر وظيفته التي أقامه الله فيها وليس فوقه إلا الفلك الأطلس سطحه هو الكرسي الأعلى . . واعلم أن الفلك الأطلس هو عرضه سيرة المنتهى وهي تحت الكرسي . . ويسكن سيرة المنتهى الملائكة الكروبيون (٢) .

٢٠ — كيف نودى عند العرش وفرضت عليه الصلاة والصيام ووصف الكرسي واللوح والقلم

— وبينما أنا أفكر وقد أخذتني الهيبة مما رأيت من الجلال والكمال والبهاء والعظمة وهيبة الله تعالى نوديت يا أحمد أمامك أمامك ادن مني فخطوت خطوة مسيرة خمسمائة عام فقل لي يا أحمد لا تخف ولا تحزن فسكن قلبي مما كنت أجده . . ودنوت من ربي حتى صرت منه كقارب قوسين أو أدنى . . فظننت أن من في السماوات والأرض قد ماتوا فأنا لا أسمع حساً ولا حركة ثم رجع إلى عقلي وتفكرت فيما أنا فيه من الشرف العظيم فنوديت يا أحمد ادن مني ، فقاتلني وسيدني ومولائي أنت السلام ومنك السلام . . فناداني ثانياً ادن مني فدنوت منه فقال عليك السلام فقلت التحيات لله والصلوات والطيبات فقال السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . . يا أحمد عظم شأنك وعز سلطاني وارفع مكاني . . يا محمد انظر إلى الموضع الذي كلمتك فيه فما بيني وبينك رسل ولا ترجمان . . وأنت السيد المفضل . . وعزتي وجلالي لقد آليت على نفسي قبل أن أخلق آدم بألف عام أن لا تسألني شيئاً إلا أعطيتك . . وقد فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة

في اليوم والليلة فقلت نعمنا وأطعنا ثم راجعه موسى حتى صارت خمسا (ثم ودعت موسى وانصرفت حتى أتيت أخى جبريل عليه السلام وإذا هو قائم على حاله فلما رأي عانقني وقال مرحباً يا حبيب رب العالمين (١) :

— خلق الله الكرسي من نور وهو محيط بالسموات والأرض مثل الحلقة الملقاة في الفلاة وهي في جوف الكرسي فلذلك قوله عز وجل «وسع كرسه السموات والأرض (٢) » .

— وقال : عليك وعلى أمتك خمسين صلاة وصيام سنة فقلت يا إلهي وسيدى سألتك التخفيف عن أمتي فقال قد فرضت عليك وعلى أمتك خمسا وعشرين صلاة في يوم وليلة وصيام ثلاثة أشهر في كل سنة (فراجع موسى حتى صار صيام شهرين وعشرين صلاة ثم صيام شهر وخمسة صلوات (٣)) .

— إن مما خلق الله لوحا محفوظا من دوة بيضاء دفتاه من ياقوته حمراء ، قلمه نور وكتابه نور ، عرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ، يخلق في كل نظرة ويرزق ويحيي ويميت ويعزو ويل ويضع ما يشاء (٤) .

— روى الترمذي عن الرسول قال : أول شيء خلقه الله تعالى القلم فقد خلقه من نور وقيل من لؤلؤة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض (٥) .

٢١-٢٢-٢٣ — حملة العرش ووجوههم وأصنافهم ووصف الكرسي والحجب :

— حملة العرش هم أئمة الملائكة وأكرمهم على الله ، وهم يسبحون بحمد الله ويستغفرون للذين آمنوا ، فمنهم من هو على صورة النسر ومنهم من هو على صورة الثور ومنهم من هو على صورة الأسد ومنهم من هو على

(١) ابن عباس ٣٠-٤٠ (٢) تشيبي ٥٠ .

(٣) مخطوطة المروج ١٢٢-١٢٥ (٤) اللالي ١٠٠ ص ٢٠

(٥) ابن لياس ص ٣٠

صورة البشر ، قال ابن عباس رضى الله عنهما خلق الله حملة العرش وهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله تعالى بأربعة أخرى فذلك قوله تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، فالذى منهم من هو على صورة ابن آدم يشفع لى آدم فى أرزاقهم ، والذى منهم على صورة الثور يشفع للبهائم فى أرزاقها ، والذى على صورة النسر يشفع للطيور فى أرزاقها والذى على صورة الأسد يشفع للسباع فى أرزاقها (١) .

— ومررت بملائكة كثيرة لا يحصى عددهم إلا الله ، منهم من له وجوه كثيرة بين كتفيه الله أعلم بعدها ثم وجوه كثيرة فى صدره ، وفى كل وجه من تلك الوجوه أفواه وألسن . . وإذا كل ملك منهم ممتلئ ما بين رأسه ورجليه وجوه وأجنحة وليس من فم ولا رأس ولا وجه ولا عين ولا لسان ولا أذن ولا جناح ولا يد ولا رجل ولا عضو ولا شعر إلا يسبح الله بحمده ويذكر من آلائه وثنائه بكلام لا يذكره العضو الآخر ارفعين أصواتهم بالبكاء من خشية الله والتحميد له وعبادته لوسمع أهل الأرض صوت ملك منهم لما اتوا كلهم فزعا من شدة هوله ، قلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال سبحان الله العظيم هؤلاء الكروبيون من عبادتهم الله وتسبيحهم له وبكائهم من خشيته خلقوا كما ترى لم يكلم واحد منهم صاحبه إلى جنبه قط ولم يرو وجهه ولم يرفعوا رؤوسهم إلى أعلى منذ خلقوا ولم ينظروا إلى ماتحتهم من السماوات والأرضين خشوعا فى جسمهم وخوفا من ربهم فجعلوا يردون على إيماء ولا يكلمون فى ولا ينظرون إلى من الخشوع . . ثم انتهينا إلى عليين حيث رأينا أشراف الملائكة وعظماءهم ورؤساءهم فنظرت إلى سبعين صفا من الملائكة صفا خلف صف ، وقد اخترقت أقدامهم تخوم الأرض السابعة وجاوزت حيث لا يعلمه إلا الله . . ونفذت فى عليين حيث شاء الله فى الهواء وإذا من وسط رؤوسهم إلى منتهى أقدامهم وجوه ونور وأجنحة شئ لا يشبه بعضها بعضاً تحار أبصار الناظرين دونهم فنبت عيناي عنهم

لما نظرت من عجائب خلقهم وشدة هولهم وتلاؤث نورهم . . ثم جاوزناهم بإذن الله تعالى حتى ارتفعنا فوقهم مسيرة خمسين ألف سنة لغربنا ولكن الله قدر لنا سرعة جوازه في ساعة من الليل فأنتهينا أيضاً إلى سبعين صفاً من الملائكة صفاً خلف صف قد ضاق كل صف منهم بالصف الذي يليه ، ما بين كل صفين مسيرة خمسين ألف سنة للراكب المسرع قد ماج بعضهم في بعض فهم طبق واحد متراصون بعضهم إلى بعض ، فلقد خيل إلى أنى قد نسيت كل ما رأيت من عجائب خلق الله الذي دونهم ولم يؤذن لي أن أحدثكم عنهم ولو كان أذن لي في ذلك لم أستطع أن أصفهم لكم ولكن أخبركم أنى لو كنت ميتاً قبل أجلى فزعا من شئ لمت عند رؤيتهم وعجائب خلقهم ودوى أصواتهم وشعاع نورهم ولكن الله قواني لذلك برحمته وتمام نعمته ومن على بالثبات وهم الصافون حول عرش الرحمن (١) .

— ثم رأينا ملكاً قد افترقت رجلاه من الأرضين السفلى وافترق رأسه من السماء السابعة العليا ، غلظ كل جناح من أجنحته مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل جناحين مسيرة خمسمائة عام للراكب المسرع ، ومن لدن رأسه إلى منتهى قدميه ممتلئ وجوها ونورا ، وفي كل جزء منه وجوه كثيرة يسبح كل لسان في هذه الوجوه بلغة أخرى لا يشبه وجه وجها ولا لغة لغة ولا عين عينا ، ليس فيه عين إلا وفيها من البرق والنور ما لا يحصى ، في جانب من جسده نور أحمر وفي جانب نور أصفر وفي جانب نور أخضر وفي جانب نور أبيض ، وليس في جسده من أعضائه وريشه وبشرته وشعره جزء إلا وهو يسبح بتسبيح آخر فيخرج كل يوم من تسبيحه بعدد ما خلق الله من الملائكة يسبحون ، لو أراد أن يلتقم السماوات والأرض بلقمة واحدة لأطاق ، لا يستطيع أحد من الملائكة أن ينظر إليه من نوره ، وهو الروح المذكور في القرآن (١) .

(٢) قشبرى ص ٥١/٥٠

(١) لآلئ ص ٦٧/٦٩

٤٢ - ٢٥ - محور العالم الآخر من نور وسحب ونا وبقظتها الملائكة

الضخام

- ثم ارتفعنا فوق ذلك حتى انتهينا إلى بحر من نور يتلأل لا يرى له طرف ولا منتهى ، فلما نظرت إليه حار بصرى دونه حتى ظننت أن كل شيء من خلق ربى قد امتلأ نورا والتهب نارا ، فكاد بصرى يذهب من شدة نور ذلك البحر وتعاضمنى ما رأيت من تلالوه وأفضعنى حتى فزعت منه جدا فحمدت الله تعالى على ما رأيت من هول ذلك البحر وعجائبه ، ثم جاوزناه بإذن الله تعالى متصعدين إلى عليين حتى انتهينا إلى بحر أسود فنظرت فإذا ظلمات متراكبة بعضها فوق بعض فى كثافة لا يعلمها إلا الله ولا أرى لذلك البحر منتهى ولا طرفا فلما نظرت إليه أسود بصرى وغشى على حتى ظننت أن خلق ربى قد أسود واعتمت فى الظلام فلم أر شيئا وظننت أن جبريل قد فاتنى وفزعت وتعاضمنى جدا ، فلما رأى جبريل ما بى أخذ يبدى وأنشأ يوثسنى ويكلمنى ويقول لا تخف يا محمد أبشر بكرامة الله . . فنشبت لما ترى من عجائب خلقه ، ثم جاوزنا بإذن الله متصعدين إلى عليين حتى انتهينا إلى بحر من نار يتلظى نارا ويستعر استعارا ويموج موجا ويأكل بعضه بعضا ، ولناره شعاع ولهب ساطع وفيه دوى ومعمعة وهو هائل . . ثم جاوزناها بإذن الله متصعدين إلى عليين حتى انتهينا إلى جبال الثلج بعضها خلف بعض لا يحصوها إلا الله ، شوامخ منيعة النوى فى الهواء وثلجها شديد البياض له شعاع كشعاع الشمس فنظرت فإذا هو يردد كأنه ماء يجرى فحار بصرى من شدة بياضه وتعاضمنى ما رأيت من كثرة الجبال وارتفاع ذراها فى الهواء . . ثم انتهينا إلى بحر آخر من نار تزيد ناره أضعافا مضاعفة وتلظيا وأمواجا ودويا . . وإذا جبال الثلج بين النار ولا تطفئها . . ثم جاوزنا تلك النار متصعدين حتى انتهينا إلى بحر من ماء وهو بحر البحور لا أطيق وصفه لكم غير أنى لم آت على موطن من تلك المواطن التى حدثكم كنت فيه أشد فزعا ولا هولا منى حين وقف بى على ذلك البحر (١) .

— فمضى بي حتى انتهى إلى بحر من نور أبيض ، وإذا بملك ذلك البحر واسع ما بين كتفيه لو أن الطير المسرع يطير بين منكبيه لما بلغه في خمسمائة عام ، ثم زج بي في بحر من نور أخضر يتلألأ وإذا أنا بملك ذلك البحر لو أذن الله له أن يبلغ السماوات السبع والأرضين السبع في دفعة واحدة لكان عليه ذلك لعظمة خلقته ، ثم خرجت من ذلك البحر ولو وضع جميع ما خلق الله تعالى في السماوات السبع والأرضين السبع في يده لكان كخردلة في أرض فلاة ، ثم خرجت من ذلك البحر إلى بحر أسود فلما رأيته خررت على الررف ساجداً لله تعالى . . . وإذا بالنداء من ساحل البحر يا محمد إلى أقبل ؛ فأقبلت وإذا أنا بملك عظيم الحلقة على ذلك البحر يكيل الماء بمكيال ويزنه بميزان فتأديت السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا عبد الله فقال وعليك السلام يا حبيب الله (١) .

— ثم انتهينا إلى مكان آخر فرأيت بحراً عظيماً أخضر يتلألأ نوراً وأمواجه تضرب وعلى شاطئيه ملائكة لا يحصى عددهم إلا الله تعالى يسبحونه ويقولون سبحان الله المصور في الأرحام كيف يشاء . . . فقلت يا جبريل ما هذا؟ قال : هذا بحر يقال له الأخضر ثم انتهينا إلى بحر أسود أشد سواداً من كل شيء ورأيت فيه ملائكة كعدد التراب لا يحصى عددهم إلا الله سبحانه وتعالى ، فلما رأيت ذلك البحر أظلمت عيناى واقشعر جلدى ووقعت مغشياً على فقال جبريل أثبت يا محمد لأمر ربك ، ثم انتهينا إلى ملك عظيم له سبعون ألف رأس وفي كل رأس سبعون ألف وجه وفي كل وجه سبعون ألف فم وفي كل فم سبعون ألف لسان وفي كل لسان سبعون ألف لغة كل لغة لا تشبه الأخرى وتسميهم سبعان من له

نور فوق كل نور سبحانه من هو في ديوانه عال سبحانه من هو في علوه قريب (١) .

— أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره إن الله تعالى خلق العرش من نوره والكرسى ملتصق بالعرش وحول العرش أربعة أنهار نهر من نور يتلأأ ونهر من نار تطفى ونهر من ثلج أبيض ونهر من ماء ، والملائكة قيام في تلك الأنهار يسبحون (٢) ،

٢٦ — العوالم والأفلاك

— وأعلم أن جملة الأفلاك التي خلقها الله تعالى في هذا العالم ثمانية عشر فلكا ، الفلك الأول العرش المحيط ، الفلك الثاني الكرسي الفلك الثالث الأطلس وهو فلك مدرة المنتهى الفلك الرابع الهيولى الفلك الخامس الهباء الفلك السادس العناصر الفلك السابع الطبائع الفلك الثامن المكوكب وهو فلك زحل ويسمى فلك الأفلاك ثم المشتري والمريخ والشمس وزهرة وعطارد والقمر والأثير وهو النار ثم الهواء والماء والتراب الذي نعيش عليه : قال الله تعالى كل في فلك يسبحون (٣) ،

— رأيت الملائكة على هيئات مختلفة لا يحصى عددهم إلا الله قد انطبقت أنوار التجليات عليهم حتى لا يكاد أحد منهم يحرك جفن طرفه فمنهم من وقع على وجهه ومنهم من جثا على ركبتيه وهو الأكمل ومنهم من سقط على جنبه ومنهم من جمد في قيامه وهو الأقوى (٤) .

— فإذا فيه ملائكة قيام صفاً واحدا متراصين كلهم متضايقين بعضهم في بعض قد أحاطوا بالعرش واستداروا حوله فلما نظرت إليهم

(١) مخطوطة المراجع ص ٩٩ / ١٠٢

(٢) الجيلاني ٦٧ - ٢

(٣) ابن أبياس ص ٣

(٤) نفس المصدر ٦٦ - ٢

ورأت عجائب خلقهم كأني نسيت كل شيء كان قبلهم مما رأيت من الملائكة وما وصفت لكم قبلهم حتى ظننت أني رأيت عجائب خلقهم أني نسيت كل شيء ، وقد نهيت أن أصفهم لكم ولو كان أذن لي في ذلك فجهدت أن أصفهم لكم لم أطق ذلك (١) .

— سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خلق الله عز وجل ألف أمة منها ستمائة في البحر وأربعمائة في البر فأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد فإذا هلكت تنابت مثل النظام إذا قطع سلكه (٢) .

٢٧ — الأرض البيضاء مقر النفوس

— أما الطبقة الأولى من الأرض فأول ما خلقها الله تعالى كانت أشد بياضاً من اللبن وأطيب رائحة من المسك فاغبرت لما مشى آدم عليه السلام عليها بعد أن عصى الله تعالى وهذه الأرض أرض النفوس .. ثم يأجوج ومأجوج وهم في الجانب الجنوبي من هذه الأرض نسبتهم من الأرض نسبة الخواطر من النفس لا يعرف عددهم ولا يدرك حصرهم ولم تطلع الشمس على أرضهم أبداً . وهذه الأرض بيضاء على ما خلقها الله تعالى من مسكن رجال الغيب وملكها الخضر عليه السلام ، أهل هذه البلاد تكلمهم الملائكة لم يبلغ إليها آدم ولا أحد ممن عصى الله تعالى فهي باقية على أصل الفطرة (٣) .

— ورد في الخبر إن لله تعالى أرضاً بيضاء مسيرة الشمس فيها ثلاثون يوماً محشوة خلقاً من خلق الله تعالى لا يعلمون أن الله تعالى يعصى طرفة عين ، قلوا يا رسول الله أمن ولد آدم هم ؟ قل لا يعلمون أن الله تعالى خلق آدم قيل يا رسول الله أني غفل عنهم إبليس ؟ قال لا يعلمون أن الله

تعالى خلق إبليس ثم تلا قوله تعالى « ويخلق ما لا تعلمون » (١) .

٢٨ - الأرضين السبعة والملك قطرو فين وقلته ولقاء جبريل وإسرافيل

- اعلم يا حبيب الله أننى سميت ميكائيل لأنى موكل بالقطر والنبات أكيل بمكيال وأزنه بميزان وأرسله إلى السحاب إلى حيث شاء الله تعالى (٢) . .
والصرفت حتى أنبت جبريل عليه السلام وإذا هو قائم على حاله لم يتقدم ولم يتأخر .

- فلما نظرت إلى العرش فإذا ما رأيته من الخلق كله قد تصاغر ذكره وناهون أمره وانضع خطره عند العرش ، وإذا السماوات السبع والأرضون السبع وأطباق جهنم ودرجات الجنة وستور الحجب والنار والبحار والجبال التى فى عليين كحلقه صغيرة من حلق الدرع فى أرض فلاة واسعة تيماء لا يعرف أطرافها (٣) .

- أول شيء خلقه الله تعالى القلم من نور وقبل من لؤلؤة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض أى مسيرة خمسمائة عام (٤) .

٢٩ - صورة ديك العرش ورأسه فى سبع سماء ورجله فى تخوم الأرض
وملك للثلج والنار

- رأيت فى السماء الدنيا ديكا أبيض له زغب أخضر تحت ريشه كأشد خضرة رأيتها ورجلاه فى تخوم الأرض السفلى ورأسه ملتصقا عند العرش يسبح الله بالليل يقول سبحان الملك القدوس المتعال لا إله إلا الله الحى القيوم فإذا فعل ذلك سبحت ديكة الأرض وخفقت بأجنحتها وأخذت فى الصرخ ، فإذا سكن ذلك الديك سكنت الديكة كلها ، قال ومررت بملائكة نصفهم

(١) عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموحودات للقزوينى ج ١ ص ١٠١

(٢) لالى ٧٢/٧٤

(٣) ابن عباس ٢٨

(٤) ابن إياس ص ٣

من نار ونصفهم من ثلج يقولون اللهم يا من ألقت بين النار والثلج ألف بين قلوب عبادك المؤمنين (١) .

— ثم صعدنا فرأيت ديكاً أبيض رأسه تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة السفلى يسبح الله بصوت حسن يقول سبحان من يسبح له ساعات الليل وساعات النهار سبحان من يسبح له الخلق بأصنافها وكلما سبح يضرب بجناحيه ويخفق بهما ويصرخ بالتسبيح لله ويقول سبحان الملك القدوس الكبير المتعال لا إله إلا هو الحى القيوم فإذا فعل ذلك سبحت ديوك الأرض كلها جواباً له ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : فلم أزل منذ سمعته مشتاقاً إليه . ثم مررت بملك نصف رأسه نار والنصف الآخر ثلج وما بينهما رتق وهو ينادى بصوت له وهو يقول اللهم يا من ألف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين على طاعتك فقلت يا جبريل من هذا قال هذا ملك يقال له عنبر وكله الله على أكتاف السماوات والأرض وهذا قوله منذ خلقه الله تعالى (٢) .

— ومن ذلك الذى رأيت فى السماء ديك له زغب أخضر وريش أبيض ، بياض ريشه كأشد بياض رأيت قط وزغبه تحت ريشه أخضر كأشد خضرة رأيتها قط وإذا رجلاه فى تخوم الأرض السابعة السفلى ورأسه تحت عرش الرحمن ثاقب عنقه تحت العرش له جناحان فى منكبيه (٣) . (تابع تكملته فى الفقرة رقم ٩) .

٣٠ — جدار الجنة الذى كان عمده أول من يدخله ليرى خاصته
جنة الخلد

— وعلى الجنان حائط طوله فى السماء مسيرة خمسمائة سنة ، والحائط لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، ولبنة من در ولبنة من ياقوت ، ولبنة من زمرد

(٢) مخطوطة المراجع ص ٥٥/٥٦

(١) القشبرى ٥٧/٥٨

(٣) لال. ص ٦٣

أنخضر ولبنة من ياقوت أصفر ولبنة من زبرجد أخضر وملاطه المسك ،
وقد شرف فشرقه من نور يتلألأ يرى الرجل وجهه في الخائط (١) .

— فلم يزل يطوف بي حتى انتهى إلى سدره المنتهى فقال يا محمد هذه
الشجرة التي ذكرها الله تعالى فيما أنزل فقال عند سدره المنتهى لأنها كان
ينتهي إليها كل ملك مقرب ونبي مرسل لم يجاوزها عبد من عباد الله قط
غيرك وأنا في سبيلك مرني هذه وأما قبائها فلا . وإليها ينتهى أمر الخلائق
بإذن الله وقدرته (٢) .

— عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله بنى
الفردوس بيده وحظرها على كل مشرك وكل مدمن خمر ومنكبر ، وفي
رواية إن الله لم يمس شيئا من خلقه غير ثلاث : خلق آدم بيده وكتب
التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده ثم قال لها تكلمى فقالت : قد أفلح
المؤمنون (٣) ؟

— خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة
من زبرجدة خضراء ملاطها المسك وحصاؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران
ثم قال لها انطقى فقالت قد أفلح المؤمنون فقال الله عز وجل : وعزنى
وجلالى لا يجاورنى فيك بخيل (٤) .

— فأتى بي جبريل إلى باب الجنة قال : فضرِب الباب فأجابه خازنها قال :
من الباب ؟ قال : جبريل ، قال ومن معك قال : محمد صلى الله عليه
وسلم قال . وقد بعث محمد قال نعم ، ففتح الباب وإذا عرض الباب
مسيرة ألف عام وهو من ياقوتة حمراء تلمع بالأبصار (٥) .

— فقلت يا جبريل إني عطشان فقال يا محمد سر معى حتى أسقيك من الجنة

(٢) لالى ٧٨

(١) قشيري ٥١/٥٢

(٤) نفس المصدر السابق ، ص ١٠٨

(٣) ابن القيم في حادي الأرواح ص ١٠٧

(٥) مخطوطة المراج ص ٦٣١

وأريك ما فيها من النعم فتزداد بذلك زهدا في الدنيا ورغبة في الآخرة . .
فتفتح رضوان الباب فإذا هو من ذهب أحمر بمصراعين ما بين المصراع
والمصراع خمسمائة عام (١) .

٣١ - سعة الجنة ومكانها ونورها وتداخل دوائرها

— ثم أوصدني إلى الجنة ، وهي جنة واحدة قطعها الله على أربع جنات
ذواتا أفنان مدهامتان ، والجنة كلها مائة درجة بين كل درجتين مسيرة
خمسمائة عام ، فأول درجة من فضة دورها وبيوتها وأبوابها وأغلاقها ،
والدرجة الثانية ذهب أحمر دورها وبيوتها وأبوابها وأغلاقها والثالثة من
ياقوت ولؤلؤ وزبرجد دورها وبيوتها وأبوابها وأغلاقها ، وسبع وتسعون
درجة ما أخفى لهم من قرة أعين لم يطلع عليه بشر ، فأوسط الجنة عدن
يتفجر من تحت عدن عين منها يتفجر جميع أنهار الجنة ، وفي هذه الجنان
الثلاثة من الجنان في الكثرة عدد النجوم وورق الشجر (٢)

— ثم بدل الله تعالى الأرض التي عمل عليها المعاصي فينصب عليها من حميم
جهنم فيأتي بأرض من فضة بيضاء فينصب عليها من ماء الجنة ، وروى
عن عائشة رضى الله عنها قالت يا رسول الله يوم تبدل الأرض غير الأرض
أين يكون الناس قال عليه السلام يا عائشة سألتني عن شيء عظيم ما سألتني
عنه غيرك إن الناس يومئذ على الصراط (٣) .

— قال الله تعالى وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وفي
الأخبار إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى يا جبريل قرب الجنة للمتقين
وبرز الجحيم للغاوين فتصير الجنة إلى يمين العرش والجحيم إلى يمين
العرش . .

— ثم يقول الله تعالى يا رضوان أفتح أبواب الجنان ويا مالك أفتح أبواب

(١) المخطوطة الثانية المراج ص ٣٢٨ ب. (٢) قشيري، ٥١ .

(٣) دقائق الأخبار ٢٣ .

النيران ثم يجيء ملك الرحمة بالحلل وملك الموت بالأغلال والسلاسل وأثواب من القطران ثم ينادى المنادى يا أهل الجنة خلود بلاموت ويا أهل النار خلود بلاموت (١) .

— قال وهب إن الله خلق الجنة يوم خلقها عرضها كعرض السماء والأرض وطولها لا يعلمه أحد إلا الله فإذا كان يوم القيامة ذهب الأرضون السبع والسموات السبع وصار موضعهما سعة في الجنة فتسع إلى حد يسع أهلها (٢) .

٣٢ — قياس المسافات الكونية بين الأرض والسموات والحجب الإلهية

— خلق الله عز وجل سماء الدنيا وزينها وهي ماء ودخان وغلظها مسيرة خمسمائة عام وبين الأرض مسيرة خمسمائة عام وبينها وبين السماء الثانية مسيرة خمسمائة عام وخلق السموات السبع كلها كذلك غلظها خمسمائة عام ومسافة ما بين كل واحدة منها والتي تليها خمسمائة عام ، ومن فوق ذلك غمامة غلظها كغلظ سبع سموات وسبع أرضين ومن السماء السابعة إليها كما بين سبع سموات وسبع أرضين والعرش فوق ذلك في عليين لا يعلم منتهاه إلا الله تعالى (٣) .

— ورد عن مهمل بن سعد مرفوعاً إن بين الله وبين الخلق سبعين ألف حجاب وأقرب الحجب إلى الله تعالى جبريل وميكائيل وإسرافيل وأن بينهم وبينه أربعة حجب حجاب من نار وحجاب من ظلمة وحجاب من غمام وحجاب من ماء . وروى إن أقرب الخلق من الله تبارك وتعالى جبريل وميكائيل وإسرافيل وإنهم من الله تعالى لمسيرة خمسة آلاف سنة . وعن مجاهد قال بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب من نور وحجاب من ظلمة (٤) .

— ثم انتهينا إلى حجب الرحمن تبارك وتعالى وهي سبعمائة ألف حجاب

(٢) نفس المصدر ص ٤٠

(٤) اللؤلؤ ص ١٧/٢٨

(١) نفس المصدر ص ٣٠

(٣) التتالي ص ٩

عرض كل حجاب مسيرة ألف عام وهي حجب من الحديد وحجب من الرصاص ومن الثلج والنار والفضة والذهب واللؤلؤ والياقوت والنور والظلمة ، وكل حجاب يتلألأ نوراً يخطف الأبصار وعلى كل حجاب سبعون ألف ملك (١) .

٣٣ - شكل الجنة وانبثاق أنهار أربعة منها النيل والفرات وسيحان وجيحان من لبن وعسل وخمر وماء

- في صحيح البخارى : رفعت إلى سدرة المنتهى في السماء السابعة نبقها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان الفيلة ويخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان ، فقلت يا جبريل ما هذا قال أما النهران الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات . وفي صحيح مسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة ، وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أنزل الله من الجنة خمسة أنهار سيحون وهو نهر الهند وجحون وهو نهر بلخ ودجلة والفرات وهما نهران العراق والنيل وهو نهر مصر ، أنزلها الله من حين واحدة من عيون الجنة ، من أسفل درجة من درجاتها على جناح جبريل عليه السلام فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعل فيها منافع للناس في أصناف معاشهم (٢) .

- كان كعب الأحبار رضى الله عنه يقول نهر دجلة نهر ماء الجنة ونهر الفرات نهر لبنها ونهر مصر نهر خمرها ونهر سيحان نهر عسلها وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر (٣) .

- وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ليلة أسرى بي إلى السماء عرض على جميع الجنان فرأيت فيها أربعة أنهار نهر من ماء

(٢) حادى الأرواح ١٨١/١٨٣

(١) مخطوطة المراج ١١٢/١١٣

(٣) التذكرة ١٣٨

غير آسن ونهر من لبن لم يتغير طعمه ونهر من خمر ونهر من عسل
مصفي (١) .

— فأتى جبريل إلى باب الجنة فضرب الباب فأجابه خازنها وفتح لنا وإذا
عرض الباب مسيرة ألف عام وهو من ياقوتة حمراء تلمع بالأبصار
وإذا مكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله لكل شيء حلية
وحليسة العيش الطيب القناعة وترك الجفاء وترك الحسد ومجالسة
أهل الخير . .

— ثم انتهينا إلى الباب السابع فإذا مكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول
الله قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون من أحب أن يدخل
الدار فليتمسك بالصدق وحسن الخلق والكف عن أذى المسلمين (٢) .:

٣٤ — أسماء الجنان عدن ودار القرار والمأوى والخلد والفردوس والنعم ووصف ما بها

— قال ابن عباس رضى الله عنهما للجنان ثمانية أبواب من ذهب مرصع
بالجوهر مكتوب على الباب الأول لا إله إلا الله محمد رسول الله . .
وهي ثمان جنان ، أولها دار الجلال وهي من أولها أبيض وثانيها دار
السلام وهي من ياقوت أحمر وثالثها جنة المأوى وهي من زبرجد
أخضر ورابعها جنة الخلد وهي من مرجان أحمر وأصفر وخامسها
جنة النعم وهي من فضة بيضاء وسادسها جنة الفردوس وهي من ذهب
أحمر وسابعها جنة عدن وهي من درة بيضاء وثامنها دار القرار وهي
من ذهب أحمر وهي قصبة الجنان وهي مشرفة على الجنان كلها ولها بابان
ومصراعان مصراع من ذهب ومصراع من فضة ما بين كل مصراعين

(١) دقائق الأخبار ٤١

(٢) مخطوطة المراجع ص ١٣٤ - ١٣٥

كما بين السماء والأرض وأما بناؤها فلبنة من ذهب ولبنة من فضة وطينها المسك وترابها العنبر وحشيشها الزعفران وقصورها اللؤلؤ وغرفها الياقوت ، وفيها أنهار نهر الرحمة وهو يجري في جميع الجنان حصباؤه اللؤلؤ أشد بياضا من الثلج وأحلى من العسل وفيها نهر الكوثر وهو نهر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أشجاره الدر والياقوت وفيها نهر الكفور وفيها نهر التسليم والسلسيل والرحيق ومن وراء ذلك أنهار لا يحصى عددها (١) .

— ورد في الحديث إن المتحابين في الله تعالى لعلى عمود من ياقوته حمراء في رأس العمود سبعون ألف غرفة يضيء حسنها على أهل الجنة كما يضيء الشمس على أهل الدنيا يقول أهل الجنة بعضهم لبعض انطلقوا بنا حتى ننظر إلى المتحابين في الله تعالى فإذا أشرفوا عليهم أضواء حسنها على أهل الجنة عليهم ثياب خضر من سندس مكتوب على جبهتهم هؤلاء المتحابون في الله (٢) .

— أرض الجنة من ورق وترابها مسك وأصول أشجارها ذهب وورق وأفنانها لؤلؤ وزبرجد وياقوت ، والورق والثمر تحت ذلك ، فمن أكل قائما لم يؤذه ، ومن أكل جالسا لم يؤذه ، ومن أكل مضطجعا لم يؤذه ، وذلك قطوفها تذليل (٣) .

(١) دقاق الأخبار ص ٤١

(٢) التذكرة ص ١٤٤ ، ١٤٥

(٣) حادي الأرواح ص ١٧٠

٣٥ - وصف الحور العين ثيابهن وغلواهن وجمالهن ونورهن

— إن أول زمرة يدخلون الجنة من أمي على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، ثم هم بعد منازل أمشاطهم الذهب والفضة ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة ولكل منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم (١) ، فإن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها وذلك بأن الله عز وجل يقول : كأنهن الياقوت والمرجان ، فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيت من وراءه ، ينظر إلى وجهه في خدها أصفى من المرأة ، وإن أدنى لؤلؤه عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب ، ولو أن بعض بناتها بدا لقلب ضوءه ضوء الشمس والقمر (٢).

— إن في الجنة نهراً طول الجنة حافته العذارى قيام منقبات يغنين بأصوات حتى يسمعهن الخلائق ما يرون في الجنة لذ مثلها يقلن : نحن الخالدات فلانبيد ونحن الناعمات فلانبأس ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له (٣).

— قال ابن وهب إن الحور العين يغنين أزواجهن فيقلن نحن الخيرات الحسان ، أزواج شباب كرام ونحن الخالدات فلا نموت ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط ونحن المقيمات فلا نظعن ، مكتوب في صدر إحداهن أنت حبي وأنا حبك انمت نفسي عندك ، لم ترعيناى مثلك ، ليس دونك مقصد ولا وراءك معدل (٤).

— عن أبي هريرة أنه قيل « يا رسول الله أنطأ في الجنة ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده دحاحا ، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكرا (٥).

(٢) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٩٨٨/٩٩٠

(٤) نفس المصدر

(١) التذكرة ١٤٨

(٣) حادي الأرواح ٢٥٠

(٥) نفس المصدر ص ٢٣٨

— قال الرسول (ص) با جبريل قف بي على الحور العين فأوقفه عليهن فقال من أنتن فقلن نحن جوارى قوم كرام حلوا فلم يظعنوا وشبوا فلم يهرموا ونقوا فلم يدرنوا (١) .

٣٦ — وصف جنة النعيم برياضها وغرفاتها وهوسيقاها وبقيته درجات

الجنة المائة

— فنظرت فاذا أرضها بيضاء مثل الفضة ، حصباها من اللؤلؤ والمرجان وتراها المسك ونباتها الزعفران وأشجارها ورقة من فضة وورقة من ذهب والثمار عليها مثل النجوم المضيئة والعرش سقفها والرحمة حشوها والملائكة سكانها والرحمن جارها ، فأخذ رضوان بيدي وسرنا بين أشجارها وما فيها من سرور وعبود وحور عين وأبكار وقصور عاليات وولدان كأنهم الأقمار وخدم وحشم وكرم وأنعام ونعيم (٢) .

— ألا مشمر للجنة فان الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلأل وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر يطرد وفاكهة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة في حبرة ونضرة ودار عالية بهية .. وإن في الجنة لقصورا من لؤلؤ ، في كل قصر سبعون دارا من ناقوته حمراء ، في كل دار سبعون بيتا من زبرجدة خضراء ، في كل بيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، على كل فراش سبعون امرأة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لونا من الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة فيعطى الله المؤمن من القوة في غذاء ولحده ما يأتي على ذلك كله (٣) .

— في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها ، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فاذا سألكم الله تعالى فاسألوه الفردوس (٤) .

(٢) ابن عباس ٤١

(١) نفس المصدر ٢٣٤

(٤) نفس المصدر السابق ١٤٣

(٣) التذكرة ١٤٥

— ينزل الله تعالى في آخر ثلاث ساعات يبقين من الليل ، فينظر الله في الساعة الأولى منهن في الكتاب الذي لا ينظر فيه غيره فيمحو ما شاء ويثبت ، ثم ينظر في الساعة الثانية إلى جنة عدن وهي سكنه الذي يسكن فيه ولا يكون معه فيها أحد إلا الأنبياء والشهداء والصديقون ، وفيها ما لم تره عين أحد ولا خطر على قلب بشر ، ثم مهبط آخر ساعة من الليل فيقول ألا مستغفر يستغفرني فأغفر له . . حتى يطلع الفجر (١) .

— خلق الله جنة عدن بيده لبنة من حرة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجدة خضراء ، ملاطها المسك وحصاؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران ثم قال لها انطقي فقالت قد أفلح المؤمنون فقال الله عز وجل : وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل ، ثم تلا رسول الله « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (٢) .

٣٧ — نعيم من هو في أدنى الدرجات ، حجم أملاكه وعدد نسائه وتفصيل متعه

— ألا أخبركم بأسفل أهل الجنة درجة ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال رجل يدخل من باب الجنة فيتلقاه غلمانه فيقولون مرحبا بسيدينا قد آن لك أن تزورنا ، قال فتمد له الزرابي أربعين سنة ثم يظر عن يمينه وشماله فيرى الجنان فيقول لمن ما ها هنا ؟ فيقال : لك ، حتى إذا انتهى رفعت له ياقوته حمراء أو زبرجدة خضراء لها سبعون شعبا في كل غرفة سبعون بابا فيقال : ارقه ، فيرقى حتى إذا انتهى إلى سرير ملكه اتكأ عليه سمته ميل في ميل له فيه قصور ، فيسعى إليه بسبعين صحيفة من ذهب ليس فيها صفحة من لون أختها ، يمجذ لذة آخرها كما يمجذ للذة أولها ، ثم يسعى إليه بالوان الأشربة فيشرب منها ما اشتهى ، ثم يقول الغلمان : اتركوه وأزواجه فينطلق الغلمان ثم ينظر فإذا حوراء من الحور

العين جالسة على سرير ملكها عليها سبعون حلة ليس منها حلة من لون صاحبها فيرى مخ ساقها من وراء اللحم والدم والعظم والكسوة فوق ذلك فينظر إليها فيقول من أنت ؟ فتقول أنا من الحور العين من الالاقى خبثن لك ، فينظر إليها أربعين سنة لا يصرف بصره عنها ، ثم يرفع بصره إلى الغرفة فإذا أخرى أجمل منها فتقول : ما آن لك أن يكون لنا منك نصيب ، فيرتقى إليها أربعين سنة لا يصرف بصره عنها (١) .

— إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنته وأزواجه ونعيمه وخدمه وسروره مسيرة ألف سنة (٢) .

— إن أدنى أهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم واثنان وسبعون زوجة وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الحياية إلى صنعاء ، وله سبعة قصور قصر من ذهب وقصر من فضة وقصر من در وقصر من زمرد وقصر من ياقوت وقصر لا تدركه الأبصار وقصر من لون العرش ، فى كل قصر من الحلى والحلل والحور العين ما لا يعلم إلا الله عز وجل (٣) .

— والذى بعثنى بالحق ما أنتم فى الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم ، فيدخل رجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة مما ينشئ الله واثنتين من ولد آدم لهما فضل على من أنشأ الله لعبادتهما الله عز وجل فى الدنيا ، يدخل على الأولى منهما فى غرفة من ياقوتة على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ عليه سبعون زوجا من سندس واستبرق . فبينما هو عندها لا يعملها ولا تمه... فبينما هو كذلك إذ نودى إنا قد

(١) الترغيب والترهيب ص ٩٤١ / ٩٤٢ (٢) نفس المصدر ٩٤٣ .

(٣) التذكرة ص ١٥٧

عرفنا أنك لا تمل ولا تمل إلا أنه لأمى ولا منية ، إلا أن تكون له أزواج غيرها فتخرج فتأبهن واحدة واحدة كلما جاءت واحدة قالت والله ما في الجنة شيء أحسن منك ، وما في الجنة شيء أحب إلى منك (١) .

— إن أدنى أهل الجنة منزلة له سبع درجات وهو على السادسة وفوقه السابعة ، إن له ثلاثمائة خادم ويغذى عليه كل يوم ويراح بثلاثمائة صفحة من ذهب ، في كل صفحة لون ليس في الأخرى ، وإنه ليلد أوله كما يلد آخره . . وإنه ليقول يارب لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم لم ينقص ما عندي شيء . وإنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيجئ مشوياً بين يديك (٢) .

— إن في الجنة طائراً له سبعون ألف ريشة يجيء فيقع على صحيفة الرجل من أهل الجنة فينتفض فيقع من كل ريشة لون أبيض من الثلج والبن من الزبد والد من الشهد ليس منها لون يشبه صاحبه ثم يطير (٣) .

— الرمان من رمان الجنة يجتمع حولها بشر كثير يأكلون منها فإن جرى على ذكر أحدهم شيء يريد وجده في موضع يده حيث يأكل .

— إن في الجنة طيراً مثل أعناق البخت تطيف على يد ولي الله فيقول أحدهم يا ولي الله رعيت في مروج تحت العرش وشربت من عيون التسنيم فكل منى فلا يزال ذلك الطير بين يديه حتى يخطر على باله أكله فيخر بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منه ما أراد فإذا شبع تجمعت عظام الطائر ثم طار برعى في الجنة حيث يشاء (٤) .

(١) حادي الأرواح ص ٢٣٠

(٢) الترغيب والترهيب - ٤ ص ٩٧٦/٩٧٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٩٧٧/٩٧٨ (٤) التذكرة ص ١٥

- إن الرجل من أهل الجنة ليزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب ، يعانق كل واحدة منهم مقدار عمره في الدنيا (١) ،

٣٨- ترشيح الأكل والعينان النضاختان ووصف الولدان المخلدين

- يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يتمخطون ولا يتغوطون ولا يبولون ، طعامهم ذلك جشاء كريم المسك ، يلهمون النسيج والتكبير كما تلهمون النفس ، والذي نفس محمد بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في المطعم والمشرب والشهوة والجماع . وتكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كرشح المسك فيضمر بدنه (٢) .

- كان ابن عباس رضى الله عنهما يقول في قوله تعالى « ونزعنا ما في صدورهم من غل » إن أول ما يدخل أهل الجنة الجنة يعرض لهم عينان يشربون من إحداها فيذهب الله تعالى ما في قلوبهم من غل ، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون منها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم وتعرف فيها نضرة النعيم ، فلا تغير أبشارهم ولا تشعث أشعارهم أبداً ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم سلام عليكم طيبم فادخلوها خالدين ، ثم تلتقاهم الولدان فيطوفون بهم كما يطوف ولدان الدنيا بالرجل يبيح من الغيبة الطويلة ويقولون له أبشر بما أعد الله تعالى لك في الجنة كلها وكلنا ثم يذهب الغلام منهم إلى الزوجة من زوجاته فيقول لها قد جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به في الدار الدنيا فنقول له أنت رأيت ، ثم تستخفيها العجلة من الفرح حتى تقوم على أسكفة الباب ثم ترجع ، فيجىء فينظر فإذا زراى ميثوثة وأكواب موضوعة ، ثم يرفع رأسه

(١) الترغيب والترهيب - ٤ - ص ٩٨٦

(٢) حادى الأرواح ١٨٧/١٨٨

إلى سقف بنيانه فلو لا أن الله تعالى أقدره على رؤيته لذهب بصره . ثم يقول الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله (١) .

والذى نفسى بيده لأنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة ، عليها رجال الذهب ، شرك نعالهم نور يتلألأ كل خطوة منها مثل مد البصر ، ويتنّهون إلى باب الجنة وإذا شجرة ينبع من أصلها عينان ، فإذا شربوا من إحدهما جرت في وجوههم نضرة النعيم ، وإذا توضأوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبدا ، وإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب ، فيضربون الحلقة بالصقيحة فلو سمعت طنين الحلقة ، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل فتستخفها العجلة فتبعث قيمها فيفتح له الباب ، فلو أن الله عز وجل عرفه نفسه لخر له ساجدا مما يرى من النور والبهاء ، فيقول أنا قيمك الذى وكلت بأمرك ، فيتبعه فيقفو أثره غيأتى زوجته فتستخفها العجلة فتخرج من الخيمة فتعانقه وتقول . أنت حبي وأنا حبك ، وأنا الراضية فلا أسخط أبدا ، وأنا الناعمة فلا أبأس أبدا ، والخالدة فلا أظعن أبدا ، فيدخل بيتاً من أساسه إلى سقفه مائة ذراع مبنى على جندل اللؤلؤ والياقوت طرائق حمر وطرائق خضر وطرائق صفر ، ما منها طريقة تشاكل صاحبتهما ، فيأتى الأريكة فإذا عليها سرير ، على السرير سبعون فراشا ، عليها سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى منخ ساقها من باطن الخلد تجرى من تحتهم أنهار مضطردة ، أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من غسل مصفى لم يخرج من بطون النحل ، وأنهار من خمر لذة للشاربين لم تعصره الرجال بأقدامها ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه لم يخرج من بطون الماشية ، فإذا اشتبهوا الطعام جاءتهم طيور بيض ، فترفع أجنحتها فيأكلون من جنوبها من أى الألوان شاءوا ثم تطير فتذهب فيها ثمار متدلّية ، إذا اشتبهوا انشعب الغصن إليهم فيأكلون من أى الثمار شاعوا ، وبين أيديهم خدم كاللؤلؤ المكنون (٢) .

- فلما انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنائه . ثم طأطأ رأسه فنظر إلى أزواجه وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة ووزرائه مبثوثة ، فنظروا إلى تلك النعمة ثم انكثوا وقالوا : الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، ثم ينادى مناد . تحيون فلا تموتون أبدا ، وتقيمون فلا تظعنون أبدا ، وتصحون فلا تمرضون أبدا (١) .

٣٩ - شجرة طوبى وأغصانها وثمارها وأنواع الخمر وألوانها وصنوف مذاقها

- قال أعرابي يارسول الله هل في الجنة فاكهة قال نعم شجرة تدعى طوبى .. لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هراما ، قال فهل فيها عنب ؟ قال : نعم ، قال فما عظم العنقود منها قال مسيرة الغراب الأبقع شهرا ولا يفتر ، قال فما قدر الحبة منها ؟ فقال كالدار العظيمة ؛ فقال يارسول الله إن هذه الحبة لتشبعني وأهل بيتي قال نعم وعامة عشيرتك (٢) .

- نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر وفروعها ذهب أحمر وسعفها كسوة لأهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم وثمرها أمثال القلال والدلاء أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد لبس فيه عجم (٣) .

- إن في الجنة شجرة يقال لها طوى ، لو سخر الجواد الراكب أن يسير في ظلها لساير فيها مائة عام ، ورقها برود خضر ، وزهرها رياض صفر ، وأقباها سندس واستبرق ، وثمارها حلل ، وصعفها زنجبيل وعسل ، وبطحاؤها ياقوت أحمر وزمرد أخضر وترابها مسك وحشيشها زعفران ، ويتفجر من أصلها أنهار السلسيل والمعين والرحيق ، وظلها مجلس من مجلس أهل الجنة بالفونه (٤) .

(٢) التذكرة ١٤٠

(١) نفس المصدر السابق ص ١٥٠

(٤) حادى الأرواح ص ٢٦٨ .

(٣) نفس المصدر ص ١٤١

— كان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول في قوله تعالى «كان مزاجها زنجيلاً»
و «يسقون من رحيق» هو الخمر ختامه مسك ، وهو شراب أبيض مثل
الفضة يخبثون به آخر شرابهم لو أن رجلاً وضع أصبعه فيه ثم أخرجها لم
يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها ، ومثل بالرحيق من الخمر والزنجيل
لكون العرب كانوا يستطيعون خلطهما فحاطبهم بما كانوا يعرفون
ويحبون (١) .

— وقال عبد الله بن مسعود في قوله «ومزاجه من تسنم» يمزج لأصحاب
اليمن ويشربه المقربون صرفاً (٢) .

— قال كعب سألت رسول الله عليه السلام عن أشجار الجنة فقال : لا تيس
أغصانها ولا تنساقط أوراقها ولا ينفى رطبها وإن أكر أشجار الجنة شجرة
طوبى أصلها من در ووسطها من ياقوت وأغصانها من زبرجد وأوراقها
سندس وعليها سبعون ألف غصن أغصانها متصلة بساق العرش وفيها من
الثمار ما تشهى الأنفس (٣) .

— ثم انطلق يطوف في الجنة حتى انتهينا إلى شجرة لم أر مثلها فوقف تحتها
فرفعت رأسي فإذا أنا لم أر شيئاً من خلق الله تعالى مثلها ولها رائحة طيبة
لم أشم في الجنة مثلها فرفعت رأسي فإذا أنا بألوان ظرائف الجنة ما بين
أبيض وأخضر وثمارها مثل شيء عظيم فتعجبت منها وما رأيت من
حسنها فقلت يا أخى جبريل أى شجرة هذه قال هذه شجرة طوبى التى
ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن في قوله «طوبى لهم وحسن مآب»
وتكون أمتك في ظلها يوم القيامة وهى شيء عظيم ونعيم طويل (٤) .

— وإذا في الجنة شجرة عظيمة ليس في الجنة ثمرة إلا فيها من جميع الأنهار
المختلفة ، وأيس في الجنة قصر ولا بيت ولا دار إلا عليه غصن من أغصان

(٢) الانحاف ج ١٠ ص ٤٣

(٤) مخطوطة المراج ص ١٣٨-١٣٩

(١) التذكرة ص ١٦٢

(٣) دقائق الأخبار ص ٤٢

تلك الشجرة ، قضبانها من الفضة وأوراقها من الذهب حاملة بشمارأيض
من الثلج وأحلى من العسل وألين من الزبد فقلت يا حبيبي يا جبريل ماهذه
الشجرة ؟ قال . هذه شجرة طوبى تظل العابدين يوم القيامة (١) .

— ثم رفع إلى سدرة المنتهى ، وإليها ينتهى ما يهرج من الأرض فيقبض
منها ، وإليها ينتهى ما يهبط من فوق فيقبض منها ، وإذا هى شجرة يخرج
من أصلها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار
من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ، يسير الراكب فى ظلها
سبعين عاما لا يقطعها ، وإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا ورقها كأذان
الفيلة ، تكاد الورقة تغطى هذه الأمة وتظل الخلائق ، على كل ورقة فيها
ملك فغشيتها ألوان لا يدرى ماهى فتحولت يا قوتا وزبرجدا ، فما يستطيع
أحد أن ينعتها من حسنها (٢) .

٤٠ — يجلسون لسماع الأقاويص فتأتى قافلة الروية محملة بالهدايا

— وظلها مجلس من مجالس أهل الجنة بالفونه ومتحدث بجمعهم فبينما هم
يوما يتحدثون فى ظلها إذ جاءتهم الملائكة يقودون نجبا جبلت من الياقوت
ثم نفخ فيها الروح مزومة بسلاسل من ذهب ، كأن وجوها المصابيح
نضارة وحسنا ، وبرها خمر أحمر ومرعزى أبيض مخنططان لم ينظر
الناظرون إلى مثلها ، عليها رحائل ألواحها من الدر والياقوت ، مفصصة
بالؤلؤ والمرجان ، وصفافها من الذهب الأحمر ملبسة بالعبقري والأرجوان
فأنابوا إليهم تلك النجائب ، ثم قالوا لهم إن ربكم تبارك وتعالى يقرئكم
السلام ويستزيركم لتنظروا إليه وينظر إليكم وتحبونه ويحييكم ويكلمكم
وتكلمونه ويزيدكم من سعته وفضله ، إنه ذو رحمة واسعة وفضل

(١) المخطوطة الثانية ص ٢٢٩ أ برقم ٧٣٨ نيمورى دار الكتب المصرية .

(٢) النبطى ص ١٠٢ - ١٠٤

عظيم . فيتحول كل رجل منهم على راحلته ، ثم انطلقوا صفاً واحداً معتدلاً لا يفوق منه شيء شيئاً ولا يقرب أذن ناقة أذن صاحبها ولا تركب ناقة بركت صاحبها ، ولا يمرون بشجر من أشجار الجنة إلا أنحفهم بشمرها ورحلت لهم عن طريقهم ، كراهية أن ينثلم صفهم أو يفرق بين الرجل ورفيقه (١) .

— الظل الممدود شجرة في الجنة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام في كل نواحيها ، فيخرج أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون في ظلها ، قال فيشبه بعضهم ويذكر لهُ الدنيا فيرسل الله ريحاً من الجنة فتتحرك تلك الشجرة بكل لهُوكان في الدنيا (٢) .

— فبينما أنما في لذاتكما وسروركما وقد مضت الأحقاب من الدهور وما تشعران من اشتغال قلوبكما بنعيمكما إذ هجمت الملائكة بالسلام عليك وأنتك بالتحف والألطف من عند ربك . . فخرجت مع أولياء الله تحت ظل طوبى تتحدثون إذ أمر الله منادياً من ملائكته فتأدى أولياءه لينجزهم ما وعدهم من غاية كرامته وعظيم مسرته بأن يقربهم منه ويناحيهم بترحيبه . . فبيناهم كذلك وقد كادت قلوبهم أن تطير بأرواحهم في أبدانهم فرحاً وسروراً إذ أقبلت الملائكة يقودون بخائب بخت خلقت من الياقوت ثم نفخ فيها الروح مزومة بسلاسل من ذهب ، كان وجوههم المصاييح نضارة وحساً ، لاثروث ولانبول ، ذوات أجنحة ، قد علاها خزم من خز الجنة أحمر ومرعز من مرعزها أبيض مشرق في بياضه ، على ظهرها خططان حمرة في بياض على هيئة وتر النجائب في الدنيا . فتوهما بحسنا . أحسن ركب بخائب الجنان . . فلما استووا عليها واستويت على نجيبك معهم ثارت النجائب فثار

(١) حادى الأرواح ص ٢٦٨/٢٦٩

(٢) الغريب والترغيب ص ٤٦٦

عجاج المسك لو ثوبها فعلا ذلك ثيابهم وجمامهم.. ثم استوت النجائب صفاً واحدا معتدلاً فصاروا موكباً معتدلاً لا عوج فيه ولا ينقدم بعضهم بعضاً .. تهتز أحسام أولياء الله عليها من نعيمها وأكنافهم متحاذية في سيرهم وأخفاف روادحهم وركبها متحاذية في خيبتها ، فانطلقوا كذلك تثير روادحهم المسك بأخفافها وتهتز رياض الزعفران بأرجلها ، فلما دنوا من أشجار الجنة رمت الأشجار إليهم من ثمارها فصارت الثمار في أكفهم . وتزحزحت وتنحت الأشجار عن طريقهم لما ألهمها مولاها أن لا يتثلثم صفهم فينعوج بعد استوائه ويختلف بعد اعتداله ، ويفرق بين ولي الله ورفيقه فهم يسرون فرحين وقد شخصت قلوبهم بالتعلق إلى نظر حبيبهم فهم يسرون بالسرو وروبلتت بعضهم إلى بعض يتحادثون ويضحك بعضهم إلى بعض ، يتداعبون في سيرهم ويحمدون ربهم على ما صدقهم وأباح لهم من جواره (١)

٤١ - وصف الرؤية الإلهية وزيادة الحسنى والنعيم

— فلما دفعوا إلى الجبار تبارك وتعالى أسفر لهم عن وجهه الكريم ونجلي لهم في عظمته العظيمة تحيتهم فيها السلام ، قالوا ربنا أنت السلام ومنك السلام ولك حق الجلال والإكرام ، فقال لهم ربهم ، إني أنا السلام ومنى السلام ولى حق الجلال والإكرام فرحياً بعبادى الذين حفظوا وصبقى ورعوا عهدى وخافونى بالغيب ؛ وكانوا منى على كل حال مشفقين ه قالوا : أما وعزتك وجلالك وعلو مكانك ما قدرناك حق قدرك ولا أدينا إليك كل حقك فائذن لنا بالسجود لك ، فقال لهم ربهم تبارك وتعالى إني قد وضعت عنكم مؤونة العبادة ؛ وأرحت لكم أبدانكم ؛ فطما أنصبت الأبدان وأعنتم الوجوه فالآن أفضيت إلى روحى ورحمتى وكرامتى فسلونى ما شئتم وتمنوا على أعطكم أمانيكم فإني لن

أجزىكم اليوم بقدر أعمالكم ولكن بقدر رحمتي وكرامتي وطول
وجلالتي وعلو مكاني وعظمة شأني؛ فما يزالون في الأماني والمواهب والعطايا
حتى إن المقصر منهم ليتننى مثل جميع الدنيا منذ يوم خلقها الله
حز وجل إلى يوم أفناها. قال ربهم : لقد قصرتم في أمانيتكم ورضيتم
بدون ما يحق لكم فقد أوجبت لكم ما سألتكم وتمنيتم وزدناكم على
ما قصرنا عنه أمانيتكم ؛ فانظروا إلى مواهب ربكم الذي وهب لكم ؛
فلذا بقباب في الرفيع الأعلى ؛ وغرف مبذبة من الدر والمرجان ،
أبوابها من ذهب وسورها من ياقوت وفرشها من سندس واستبرق
ومنايرها من نور ؛ يثور من أبوابها وأعراضها نور كشعاع الشمس
مثل الكوكب الدر في النهار المضيء ؛ وإذا قصور شاذخة في أعلى
عليين من الياقوت يزهر بنورها ؛ فلولا أنه سخر لاتمع الأبصار ،
فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير
الأبيض وما كان منها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعقيق
الأحمر ؛ وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس
الأخضر ، وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان
الأصفر مموءة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء (١) .

٤٢ - قافلة العودة يجرها الولدان المخلدون ويتضحك معهم الملائكة .

- فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم قربت لهم براذين من الياقوت الأبيض
منفوخ فيها الروح بحسبها الولدان المخلدون ، ويبد كل وليد منهم حكمة
برزون ، ولحمها وأعنتها من فضة بيضاء مطوقة بالدر والياقوت ،
وسرجها سرر موضوعة مفروشة بالسندس والاستبرق ، فانطلقت بهم
تلك البراذين ترف بهم وتنظر رياض الجنة ، فلما انتهوا إلى منازلهم
وجدوا فيها جميع ما تطول به ربهم عليهم مما سألوه وتمنوه (١) .

(٢) الترمذ والرهيب ٤ ص ١٠١ - ١٠١٧

(١) نفس المصدر ص ١٠١٧

- ثم يبعث الله ريحاً غير موفية فتتسف كئائب من مسك عن أيماهم وعن شمائلهم ، فيأخذ ذلك المسك في نواصي خيولهم وفي مفارقهم وفي رؤوسهم ، فيتعلق ذلك المسك في تلك الحمام وفي الخيل وفيما سوى ذلك من الثياب ثم يقبلون حتى يذهبوا إلى ما شاء الله تعالى (١)

- إن أهل الجنة يركبون الرافراف الخضر فتسير بهم حيث شاءوا يحف بهم الولدان المخلدون ، فإذا ركبوا الرافراف التي هي كالخيل أخذوا إسرافيل في السماع فتتميل الناس يمينا وشمالا وخفضا ورفعاً من حلاوة سماع صوته . فلم يتخلف من حضوره شجرة في الجنة ولم يبق فيها ستر ولا باب إلا ارتج وانفتح ولم تبق حلقة على باب إلا طنت بأنواع الطنين كلها ، ولم يبق اجمة من آجام الذهب ولا قصبة فيها إلا زمرت بفنون الزمر ، ولم تبق جارية من جوارى الخور العين إلا غنت بأنواع الغناء وكلتكم جميع طيور الجنة ، ثم يوحى الله تعالى إلى الملائكة أن جلوبوهم وأسمعوا عبادي فيجاءونهم بالحنان وأصوات روحانية فتختلط هذه الأصوات كلها فتصير رجة واحدة ماسمعة بالذم منها ، ثم إن الله تبارك وتعالى يقول لداود عليه السلام قم عند ساق عرشي فمجدني فيندفع داود بصوت يغمر الأصوات كلها فتتضاعف اللذة وأهل الخيام على تلك الرافراف تهوى بهم وتصعد كيف أرادوا وقد حفت بهم أفانين اللذات والأغاني والسرور فذلك قوله تعالى « فهم في روضة مجرون » (٢)

٤٣ - عوالم من الجبال الكرمة والحدائق والحنان الأربعة

- فلما انتهوا إلى منازلهم وإذا على باب كل قصر من قصورهم أربعة

(١) حاشي الأرواح ص ٢٦١

(٢) التذكرة ص ١٦٣

جنان : جنتان ذواتا أفنان وجنتان مدهامتان وفيهما عينان نضاحتان
وفيهما من كل فاكهة زوجان وحوار مقصورات في الخيام (١) .
— إن في الجنة لغرفا من جوهر يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ،
فقال رجل لمن هي يا رسول الله ؟ فقال : لمن ألان الكلام وأطعم الطعام
وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام (٢) .

— سأل موسى ربه ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال ، هو رجل يحىء بعدما
أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : أى رب .
كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم فيقال له : أنرضى أن
يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت يا رب فيقول له :
لك مثله ومثله ومثله ، فقال في الخامسة : رضيت ربى فيقول : هذا
لك وعشرة أمثاله ولك ما اشئت نفسك ولدت عينك فيقول
رضيت ربى (٣) .

— في الخبر عن النبي عليه السلام أنه قال . ليلة أسرى بى إلى السماء عرض
على جميع الجنان فرأيت فيها أربعة أنهار نهر من ماء غير آسن ونهر من لبن
لم يتغير طعمه ونهر من خمر ونهر من عسل مصفى .. فقلت يا جبريل :
من أين نجىء هذه الأنهار وإلى أين تذهب ؟ فجاء ملك فسلم على وقال
يا محمد اغمض عينيك فأغمضت عيني ثم فتحها فاذا أنا عند شجرة
ورأيت قبة من حرة بيضاء ولها باب من ياقوت أخضر وقمعه من ذهب
أحمر لو أن جميع ما في الدنيا من الجن والإنس وقفوا على تلك القبة
لكانوا مثل طير جالس على جبل فرأيت هذه الأنهار الأربعة تجري من
تحت هذه القبة (٤) .

(١) الترغيب والترهيب ص ٤٠ ص ١٠١٧

(٢) التذكرة ١٤٥ (٣) حادى الأرواح ٢٧٦

(٤) دقائق الأخبار ص ٤١

— وقصور الجنة وغرفها قطعة واحدة صناعة الملك العلام وليس فيها قطع ولا وصل فيدخل الولى تلك القصور ويتفرج فيها مقدار سبعين عاما ويوجد فيها بساتين خيل لكل فرس منها لون مشرق وجناحان من الذهب . ولا يزال سائرا في وسط جنته حتى يرى قصورا من نور وأشجارا من جوهر وأنهارا من ماء ولبن وخمر وعسل وعليها قباب من الياقوت والزمرد والمرجان فيها خدام وحور وولدان فيمر لها على قناطر من جوهر وجبال من ياقوت (١) .

٤٤ — مذاق الثمار والفواكه وخيام الحور المقصورات وزيارة الله لهم

— الرمانة من رمان الجنة يجتمع حولها بشر كثير يأكلون منها ، فإن جرى على ذكر أحدهم شيء يريد وجده في موضع يده حيث يأكل ، وإن التمرة من تمر الجنة طولها اثنا عشر ذراعا ليس لها عجم (٢) .

— أليس الله يقول « في سدر مخضود » نخضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكه ثمرة ، فانها لتنبث ثمرا تفنق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ، ما فيها لون يشبه الآخر (٣) .

— والذي نفسى بيده إن فيها لتخلا جذوعه من ذهب وكرانيقه وجريده من ذهب ، وسعف كأحسن حال يراها أحد من العالمين ، وعراجين من ذهب وشماريخ من ذهب وأقماع من ذهب وثمار كالقلال أشد لنا من الزبد وأحلى من العسل (٤) .

— مامن عبد يصوم يوما من رمضان إلا زوج زوجة من الحور العين في خيمة من درة محبوبة مما نعت الله عز وجل بقوله « حور مقصورات في الخيام » على كل امرأة منهن سبعون حلة ليس منها حلة على لون الأخرى

(٢) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٩٧٩

(٤) التذكرة ص ١٤١

(١) الدر الحصان ص ٤٤، ٤٣

(٣) نفس المصدر السابق ٩٧٨

ويعطى سبعين لونا من الطيب ليس منها لون على ربح الآخر لكل امرأة
منهن سبعون سريرا من ياقوتة حمراء موشحة بالدر ، على كل سرير
سبعون فراشا على كل فراش أريكة ، لكل امرأة منهن سبعون ألف
وصيفة لخدمتها وسبعون ألف وصيف ، مع كل وصيف صحيفة من
ذهب فيها لون من الطعام يجد أحدهم للآخر منها لئلا لم يجدها لما قبلها ،
ويعطى زوجها مثل ذلك على سرير من ياقوتة أحمر (١) .

- بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤسهم فاذا الرب
جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم يزورهم فقال : السلام عليكم
يا أهل الجنة ، وهو قوله عز وجل « سلام قولا من رب رحيم » فلا
يلفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ما ذا موا ينظرون إليه حتى يحتجب
عنهم وتبقى فيهم بركته ونوره (٢) .

٤٥ - خازن الجنة على كرسي من نور وقرابها من المسك وخيلها
وطيورها

- ثم أخذ بيدي وسرنا حتى أتينا الجنة وإذا أنا بملك عظيم الحلقة حسن المنظر
بهى الوجه والنور بلوح من وجهه ، جالس على كرسي من نور وعليه
الحلى والحلل ، فقلت يا أخى جبريل من هذا ؟ قال : هذا رضوان خازن
الجنة ، فتقدمت وسلمت عليه ، فلما رأيته نهض مبتعيا ورد على السلام
وعاقتى وصافحتى وقال مرحبا بالتبى الناصح والأخ الصالح ، فقال
جبريل يارضوان خذ بيد حبيب الله وأره الجنة وما أعد الله له ولأمته ،
فأخذنى وأدخلنى الجنة ، فنضرت فاذا أرضها بيضاء مثل الفضة وحصبائها
من اللؤلؤ والمرجان وقرابها المسك ونباتها الزعفران وأشجارها ورقة من
فضة وورقة من ذهب والثمار عليها مثل النجوم المضيئة . . وسرنا بين

(١) نفس المصنوع ١٥٠

(٢) الترفيب والترهيب ج ٤ ص ١٠٢٥

أشجارها وما فيها من سرور وعيون وحور عين وأبكار وقصور
عاليات وولدان كأنهم الأقمار . . ورأيت قبة من لؤلؤة يضاء لها ألف
باب من الذهب (١) .

— نهر أعطانيه الله في الجنة أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيه طير
مثل أعناق البخت تطيف على يد أولياء الله وتقول لأحدهم . يا ولى الله
رعيت مروج تحت العرش وشربت من عون التسليم فكل منى فلا يزال
ذلك الطير بين يديه حتى يخطر على باله أكله فيخر بين يديه على ألوان
مختلفة فيأكل منه ما أراد فاذا شبع تجمع عظام الطائر ثم طار يرمى في
الجنة حيث يشاء (٢) .

— إذا دخل أهل الجنة جاءتهم خيول من ياقوت أحمر لها أجنحة لا تبول
ولا تروث ، فقلعوا عليها ثم طاروا بها في الجنة ، فيتجلى لهم الجبار ،
فلذا رأوه خروا سجدا فيقول لهم تبارك وتعالى : ارفعوا رؤوسكم فإن
هذا ليس يوم عمل ، إنما هو يوم نعيم وكرامة ، فيرفعون رؤوسهم فيمطر
الله عليهم طيبا ، فيمرون بكثبان المسك ، فيبعث الله على تلك الكثبان
ريحا فتهبها عليهم . وإن أهل الجنة ليتزاوون على العيس الجون ، عليها
وحال الميس ، تثير مناسمها غبار المسك ، زمام أحدها خير من الدنيا
وما فيها (٣) .

— يبعث أهل الجنة على صورة آدم في ميلاد ثلاث وثلاثين سنة جردا مردا
مكحليين ، ثم يذهب بهم إلى شجرة في الجنة فيكسون منها ، لا تبلى
ثيابهم ولا يفنى شبابهم ، صورتهم على صورة القمر ليلة البدر (٤) .

(١) ابن عباس ص ٤٠/٤١

(٢) التذكرة ص ١٥٤

(٣) حادى الأرواح ص ٢٥٧ - ٢٦٢

(٤) نفى المصنف ص ١٥٧-١٥٨

٤٦ - نهر يحتضن كل الجنان والخور ينبئن في الخيام وتتفتح عنهن كاللآلئ

- ورأيت نهرا ماؤه أبيض من اللبن وأحلى من العسل وأطيب رائحة من المسك على رضراض الدر والياقوت ، حشيشه المسك والزعفران وأشجاره من ذهب أحمر فقلت يا جبريل ما هذا النهر؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاك الله إياه وهو التسنيم ، يخرج من تحت العرش إلى دور أهل الجنة وقصورهم وغرفهم ويمزجون به أطعمتهم من الماء والعسل واللبن والخمر وتتفجر منه كل عيونهم (١) .

- إن فى الجنة نهرا يقال له البيدج ، عليه قباب من ياقوت تحته جوار ، يقول أهل الجنة انطلقوا بنا إلى البيدج فيتصفحون تلك الجوارى فإذا أعجب رجلا منهم جارية مس معصمها فتتبعه (٢) .

- إن فى الجنة نهرا يقال له البيدخ ، عليه قباب من ياقوت ، تحته جوار نابئات ، يقول أهل الجنة انطلقوا بنا إلى البيدخ فيجيتون فيتصفحون تلك الجوارى فإذا أعجب رجل منهم بجارية مس معصمها فتتبعه وتلبس مكانها أخرى ، وشعر الخور بمنزلة جناح النمر (٣) .

- كان الحكيم الترمذى رضى الله عنه يقول : بلغنا أن صحابة فطرت من العرش فخلق الله تعالى من كل قطرة خيمة مجوفة فيها حوراء لم ير أحسن منها ، وسعة كل خيمة منها أربعون ميلا على شاطئ أنهار الجنة وليس لهذه الخيام أبواب ولكن إذا دخل ولى الله تعالى الخيمة انصدعت الخيمة عن باب وذلك ليعلم ولى الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم ترها قبل ذلك (٤) .

(١) مخطوطة تيمور ص ١٢٧ (٢) حادى الأرواح ١٨٤

(٣) إتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ٥٤٣ ، ٥٤٤

(٤) التذكرة ص ١٦٣

— يدخل المؤمن وهو يتنعم ويتفرج في الجنة فيسير إلى وسط جنته فينظر إلى قصر من ذهب ودر فيه شجرة من جوهرة حاملة حلا وورقها حلل وفيها ثمرة أحلى من العسل ، فإذا أكلها بقيت حبثها فتخرج منها جارية مكتوب على خدها اسم صاحبها أحسن من الشامة على الخلدود وتقول السلام عليك يا ولي الله قد طال شوقي إليك ثم ينظرون بين تلك القصور إلى أنهار من لبن وعسل وعليها قباب من ياقوت ودر ومرجان فيها من الخدم والخور والولدان شيء كثير فيمكنك المؤمن في نعيم ولذة (١) .

٤٧— الحوريات يعرفن أزواجهن ويفرحن بلقائهن والأشجار تتدلى للأكلين

— تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يطيف ولدان أهل الدنيا بالحميم يقدم من غيبته ، فيقولون : أبشر بما أعد الله لك من الكرامة ، ثم ينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الخور العين فيقول : قد جاء فلان باسمه الذي يدعى به في الدنيا ، فتقول : أنت رأيت ؟ فيقول : أنا رأيت وهو ذا بأثرى ، فيستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على أسكفة بابها وتخرج من الخيمة فتعافقه وتقول : أنت حبي وأنا حبك . فيدخل بيتا من أساسه إلى سقفه مائة ذراع مبنى على جندل اللؤلؤ والياقوت .. تجري من تحته أنهار مضطردة .. فإذا اشتبهوا الطعام جاءتهم طيور بيض فترتفع أجنتها فيأكلون من جنوبها من أى الألوان شاءوا ثم تطير فتذهب ، فيها أشجار ذات ثمار

(١) ذرة العيون ومفرج القلوب المحزون السمرقندى ص ٤

(م ٢٢ - الثمناة الإسلامية)

متدلّية ، إذا اشبهوها انشعب الغصن إليهم فيأكلون من أى الثمار شاءوا ،
إن شاء قائماً وإن شاء متكئاً (١) .

— إن فى الجنة حوراء يقال لها اللعبة ، كل حورالجنان يعجب بها ويضربن
بأيديهن على كتفها ويقلن طوبى لك يا لعبة ، لويعلم الطالبون لك
بالجنوا ، بين عينيها مكتوب : من كان يبتغى أن يكون له مثلى فليعمل
برضاء ربى (٢) ولوبصقت فى الماء المالح لعذب ماء البحر كله .

— وفى حديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف حوراء
فقال : ولقد رأيت جبينها كالحلال ، طولها ألف وثلاثون ذراعاً ،
فى رأسها مائة ضفيرة ، ما بين الضفيرة والضفيرة سبعون ألف ذؤابة
والذؤائب أبيض من البدر ، وخلخالها مكمل بالدرد و صنف الجواهر ،
على جبينها سطران مكتوبان بالدرد والجوهر . فى السطر الأول :
بسم الله الرحمن الرحيم وفى السطر الثانى من أراد مثلى فليعمل بطاعة
ربى (٣) .

— قال : قلت يا جبريل أخبرنى كيف يخلق الله الحور العين ، فقال يا محمد
إن الله تعالى خلقهن من قضبان العنبر والزعفران مضروبات عليهن
الخيام ، أول ما يخلق منهن نهد من مسك أذفر أبيض عليه يلتئم البدن ..
من أصابع رجلها إلى ركبتيها من الزعفران ، ومن ركبتيها إلى ثديها
من المسك ومن ثديها إلى عنقها من العنبر الأشهب ومن عنقها إلى
رأسها من الكافور الأبيض ، عليها سبعون ألف حلة مثل شقائق
النعمان (٤) .

(١) حادى الأرواح ١٤٨ / ١٤٩ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٣٥ .

(٣) التذكرة ص ١٥٠ . (٤) نفس المصدر السابق ص ١٥٢ .

٤٨ - وصف سدرۃ المنتهى وبقی جبریل مع رضوان

ویمضی الرسول وحده

— ثم رفع إلى سدرۃ المنتهى ، وإليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط من فوق فيقبض منها ، وإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ، يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها .. الورقة منها تظل الخلائق ، فغشيتها ألوان لا يدرك ما هي ، فتحولت يا قوتاً وزبرجداً فما يستطيع أحد أن ينعته من حسناتها ، فيها فراش من ذهب (١) .

— فرفعت لنا سدرۃ المنتهى ؛ فأنهينا إليها وإذا ساقها ذهب أحر وقضبانها لؤلؤ أبيض ومرجان وعقيان وفضة ، على كل قضيب سبعون ألف ورقة ما بين الورقة والورقة مسبرة أربعين حاماً ، ورقها زمرّد أخضر مثل ريش الطاووس في الحسن ، الورقة منها تظل الدنيا ؛ على كل ورقة ملك كأن وجهه الورق مكتوب على جباههم سكان سدرۃ المنتهى .. ويقع نور العرش على سدرۃ المنتهى - فلا يقدر أحد ينظر إليه . وإن جبريل عليه السلام ينزل إلى نهر يقال له الشرق ؛ فيغتسل فيه ؛ فيخرج وينفض أجنحته فيقطر من أجنحته سبعون ألف قطرة ، يخلق الله من كل قطرة ملكاً . . وسدرۃ المنتهى حيث انتهى إليها الملائكة ما جاوزها بعد إلا محمد صلى الله عليه وسلم (٢) .

— ثم تقدمت أمامي فلم أر أخى جبريل معي ؛ فقلت يا أخى جبريل : أفي مثل هذا المكان يقارق الخليل خليله والأخ أخته ، فلم تركنني

(١) قصة الإسراء والمعراج الفطحي ص ١٠٢ وما بعدها .

(٢) معراج القشيري ٥٣ / ٥٤ .

وتخلفت عني ؟ فنأدى جبريل : يعز علي أن أتخلف عنك والذي بعثك
 بالحق نبيا ما منا إلا له مقام معلوم ، وأو أن أحداً منا تجاوز مقامه لاحترق
 بالنور (١) .

— فلم يزل يطوف بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى لأنه كان ينتهي إليها كل
 ملك مقرب ونبي مرسل . . فنظرت إليها فإذا ساقها في كثافة لا يعلمها
 إلا الله وفرعها في جنة المأوى وهي أعلى الجنات كلها . . وحملها من
 أصناف ثمار الجنة ضروب شتى وأصناف شتى وطعوم شتى . . وإذا نهر
 يجري من أصل الشجرة مأواه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ويجراه
 على رضراض من در وياقوت وبرجد حافته مبلل أذفر في بياض
 الثلج (٢) . .

٤٩ — ترتفع الحجب ويدنو قاب قوسين وتم الرؤية والمناجاة

— ثم ارتفع لي حجاب الفردانية وحجاب الرحمانية . . وحملني الرفرف
 ووضعني عند العرش فرأيت الحجب ساجدة والأصوات خامدة ولم أر
 شيئا يحتاج فعلمت أني واقف بين يدي الله عز وجل فغشيتني الهيبة فتقطرت
 من العرش قطرة فوقعت على لساني فلم أذق شيئا أحلى منها وعلمت بها علم
 الأولين والآخرين وسكن روعي وإذا بالنداء من العلى يا محمد قف أمامك
 فوقفت وألهمني ربي أن أقام التحيات لله والصلوات الطيبات لله فقال الله جل ثناؤه
 عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فقلت السلام علينا وعلى عباد الله
 الصالحين فتجاوبت الأفلاك والخور والأشجار والقصور والحجب والنور
 أشهد لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، قال الله تعالى : ترائي
 بعينك ، قلت : إلهي قد غشيتني الهيبة وغشيتني نور جلالك ولكن أراك
 بعين قلبي ، قال الله تعالى : يا أحمد عظم شأنك وعز سلطاني في ارتفاع
 مكاني أنا الله لا إله إلا أنا جبار الجبابرة وملك الملوك وقاضى القضاة

ورب الدنيا والآخرة ، أنظر إلى أى موضع رفعك . . ليس بينى وبينك رسول ولا ترجمان ولا ستر ولا حجاب ، يا محمد هل تدرى فيم يختصم الملائة الأعلى ؟ يا محمد هل تدرى ما الدرجات العلى ؟ قلت : أنت أعلم يارب بكل شيء وأنت علام الغيوب . قال : يختصم الملائة الأعلى في أفضل الأعمال وهى إسباغ الوضوء فى المكروهات والصلاة فى أول الأوقات والمشى إلى الصلاة فى الجماعات ، والدرجات العلى لإفشاء السلام وإطعام الطعام ، ثم قال : يا محمد هل تدرى أين أنت منى ؟ أنت منى كقواب قوسين أو أدنى ، هذه مفاتيح كنوز الأرض ، قلت : إلهى ما أصنع بها ، بحساب أم بغير حساب ؟ بعقاب أم بغير عقاب ؟ قال : أما الحساب فلا بد منه وأما العقاب فحاشاك منه ، قال الله تعالى : آمن الرسول : قلت نعم آمنت بك يارب ، قال ومن ؟ قلت والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . . قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير : قال . قد غفرت لك أسأل تعط : قلت : ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . قال : قد غفرت لك ولأمتك الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . قلت : ربنا لاتحملنا مالا طاقة لنا به واعف عما واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين قال : قد فعلت ذلك بك . بأمثلك . ثم أفضى لى بعد ذلك بأمر لم يأذن لى أن أعلمك بها (١) .

— فرفعت الحجب التى لا يعلم عددها إلا الله تعالى فأخلفتى الهيبة مما رأيت من الجلال والجمال والكمال فنوديت يا أحمد سر أمامك ادن منى فخطوت خطوة سرت بها خمسمائة عام فسمعت قوله لاتخف ولا تحزن فسكن قلبى من الرعب . . فقربت من حضرة سيدى ومولائى فأبصرت أمرا عظيما لاتدركه الأوهام ولا تصفه النواظر ولا تحصيه الأفتدة والخواطر . . فحار بصرى عند ذلك مما عانيت من الأنوار والهيبة والجلال

فغمضت عيني فرد الله تعالى بصرى إلى قلبي فأبصرت بقلبي ولم أر شيئاً
بعينى ولم يؤذن لى أن أحدنكم بأكثر من هذا ، فدنوت من ربى عز وجل
حتى كنت منه كقالب قوسين أو أدنى فوضع ربى سبحانه وتعالى يده بين
كتفى فوجدت بردها على كبدى فأورثنى علم الأنبياء والمرميين والأولين
والآخرين وما كان وما يكون ، وزال عني ما رأيته من الأهوال
والعجائب ، وملئت فرحاً وسروراً فأخذنى عند ذلك السبات فظننت أن
كل من السماوات والأرض قد ماتوا لا أرى ولا أسمع حساً ولا حركة
ثم رجع ذهني وعقلي إلى ثم تفكرت فيما أنا فيه من الكرامة والشرف
العظيم فنوديت يا أحمد ادن منى أنا ربك ، فقلت : إلهى وسيدى ومولائى
أنت السلام ومنك السلام ، فنادانى ثانية فدنوت منه فقال لى آمن الرسول
بما أنزل إليه من ربه . . وإن كنت قد أعطيت داود الزبور فقد أعطيتك
سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ، وأعطيتك الفاتحة وسورة البقرة وآل
عمران ما قرأهما أحد من أمته إلا غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد
البحر (١)

- فقال لى ربى : يا محمد اتخذتك حبيباً كما اتخذت إبراهيم خليلًا وكلمتك
كما كلمت موسى تكليمًا وأعطيتك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة
وكانا من كنوز العرش ولم أعطها لنى قبلك .. وأنزلت عليك سيد الكتب
كلها ومهيمنًا عليها وأنا فرقناه ورفعنا لك ذكرك حتى تذكر كلما
ذكرت . . يا محمد : هل تعلم ما الدرجات وما الحسنات : فقلت :
أنت أعلم يا رب ، فقال : الدرجات إسباغ الوضوء فى المكروهات ،
والمشي على الأقدام إلى الجماعات وانتظار الصلاة بعد الصلاة والحسنات
إفشاء السلام وإطعام الطعام والتهجد بالليل والناس نيام (٢) .

(١) مخطوطة تاريخ طلعت رقم ١٩٩٣ ص ١٢٣ و ١٥٠ بعدها .

(٢) مراج القشبرى ص ٤٩٣ ، ٦٠

٥٠ - فرض الصلاة والصيام وطلب التخفيف

- ولك عندى من الشفاعة فى أمتك حتى ترضى ، لأجيب لغيرك ، فقلت ،
إلهى وسيدى ، قد فرضت لى ولأمتى ، قال عليك وعلى أمتك خمسون
صلاه وصيام سنة ، فقلت يا إلهى وسيدى سألتك التخفيف عن أمتى ،
فقال : قد فرضت عليك وعلى أمتك خمساً وعشرين صلاة فى يوم
وليلة وصيام ثلاثة أشهر فى كل سنة . قال النبى صلى الله عليه وسلم
فسكت ولم أقدر أراجع ربه فى الكلام (١) .

- قال النبى صلى الله عليه وسلم فقمى وهمت بالنزول فنادانى على رسلك
يا أحمد ، قال : ها أنا بين يديك ، قال : يا محمد إني مفترض عليك
وعلى أمتك فريضة من أوقافها دخل الجنة ومن قصرها حاسبته عليها إن
شئت غفرت له وإن شئت عذبتة ، قال : فافترض على وعلى أمتى
بارب ، قال : افترضت عليكم خمسين صلاة فى كل يوم وليلة ،
فقلت : سمعاً وطاعة (٢) .

٥١ - موسى يشير عليه بطلب التخفيف عند عودته

- فرجعت أنا وجبريل من سماء إلى سماء حتى مررت بأخى موسى عليه
السلام فقال لى يا محمد ماذا أخذت من ربك وماذا فرض عليك وعلى
أمتك ؟ فقلت : فرض على وعلى أمتى خمساً وعشرين صلاة فى اليوم
والليلة وصيام ثلاثة أشهر فى كل سنة ، فقال : يا محمد أمتك لا يقدر
على ذلك فارجع إلى ربك وأسأله التخفيف عن أمتك ، فرجعت إلى ربه
تبارك وتعالى فقلت : يا إلهى وسيدى أسألك التخفيف عن أمتى فإنهم
لا يطبقون ذلك قال : يا محمد فرضت عليك وعلى أمتك صوم شهرين

(١) مخطوطة المراجع ص ١٢١ وما بعدها .

(٢) مخطوطة تاريخ طبرستان ص ١٣٨

وعشرين صلاة في كل يوم وليلة فرجعت إلى موسى فقلت له ذلك فقال يا محمد أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك واسأله التخفيف عن أمتك فرجعت إلى ربي عز وجل فقلت يارب أسألك التخفيف عن أمتي فلأنهم لا يطيقون ذلك فما زلت أختلف بين موسى وربي يحط خمسا بعد خمس حتى رجعت بخمس صلوات في كل يوم وليلة وصيام شهر واحد . . . ونوديت أن قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي ، هذه خمس وهي خمسون في أم الكتاب ، الحسنة بعشر أمثالها (١) .

— فلم أزل أسير حتى أتيت أخى موسى بن عمران عليه السلام فلما رأيته نهض قائما وقال : مرحبا بالصادق الأمين أمن عند ربك ؟ قلت : نعم قال : ما أعطاك ، قلت أعطاني وأرضاني ، قال : فما أعطى أمتك ؟ قلت أعطاهم وأرضاهم وفرض على وعليهم خمسين صلاة في اليوم والليلة قال موسى فارجع واسأله التخفيف فإني قد بلوت بني إسرائيل من قبلك وأمتك أمة آخر الزمان جسدهم ضعيف وعمرهم قصير لا يطيقون ذلك ، فاسأل ربك أن يخفف عنهم ، فقلت يا أخى ومن يخترق تلك الحجب التي اخترقها ؟ قال موسى : أسأله من هنا فإنه قريب مجيب فلم أزل أسأل ربي عز وجل وموسى يكلمني حتى فرض على وعلى أمتي خمس صلوات ، قال موسى اسأله التخفيف قلت يا أخى قد استعجيت من ربي فتاداني ربي جعلناها خمسا في العمل وخمسين في الميزان ما يبدل القول لدى (٢) .

٥٢ — الأشربة الأربعة ومغزاها

— فأنطلق جبريل فأتاني بأربعة أقداح ، في الواحد لبن وفي الآخر عسل وفي الآخر خمر وفي الآخر ماء ، فتركت الكل بتوفيق الله وشربت

(١) مخطوطة المعراج الأول ص ١٢ وما بعدها .

(٢) ابن عباس ص ٤٠/٣٩

اللبن ، وإذا بقائل يقول : بخ بخ : لو شرب محمد الماء لغوت أمته في الدنيا ، واو شرب العسل لهلكت أمته في الدنيا ، ولو شرب الخمر لكفرت أمته ، ولو شرب اللبن كله ما دخل أحد من أمته النار ، قلت : يا أخى جبريل : رد لى باقية اللبن لأشربه كله ، قال : جرى القلم بما حكم فمنهم شقى وسعيد (١) .

— وإنما شرب اللبن فهدى وهديت أمته ، ولو شرب اللبن كله ما دخل أحد النار من أمته (٢) .

— ثم تبعنى جبريل إلى بيت المقدس فاتبعت أثره ، فاستقبلنى وفى يده ثلاثة أقدح : أحدها ماء والثانى خمر والثالث لبن ، وإذا هاتف ينادى من فوق رأسى إن شرب محمد الماء غرق وغرقت أمته من بعده ، وإن شرب الخمر غوى وغوت أمته من بعده إلى يوم القيامة . فقال لى جبريل عليه السلام : اختر أيها شئت يا محمد ، فضربت ييدى لى اللبن وشربت إلا قليلا ، وإذا أنا بها تف ينادى عن يمينى هديت وهديت أمتك من بعدك . قال النبى صلى الله عليه وسلم وإذا بها تف آخر يقول : لو شرب محمد اللبن كله ما دخل أحد من أمته النار ، فقلت حبيبى جبريل رده على حتى أشربه ، فقال يا محمد هيات هيات ، قضى الأمر وجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم كان ذلك فى الكتاب مسطورا (٣) .

— وإذا هو قد أقبل ومعه ثلاثة أقداح فى الأول لبن وفى الثانى خمر وفى الثالث ماء ، فقال لى اشرب أيها شئت فأخذت اللبن فشربته إلا قليلا فقال لى جبريل : أخذت الفطرة كلها ، ولو أخذت الخمر لغوت أمتك ولو أخذت الماء لغرقت أمتك ولو شربت اللبن كله ما دخل أحد من أمتك

(١) مخطوطة تيمور ص ٣٣٩ ب . (٢) مخطوطة طلعت ص ١١٥٤ .

(٣) المخطوطة الأولى من رواية أنس ص ٢٨/٢٩

النار فقلت يا أخى رد على القدح فقال هيات يا محمد قضى الأمر وجف القلم بما هو كائن فقلت كان ذلك فى الكتاب مسطوراً (١) .

٥٣ - عين فى الجنة أو نهر لعله الكوثر

- الكوثر نهر فى الجنة ، حافته من ذهب ، ومجره على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج ، وفى رواية ابن عباس قال : هو نهر فى الجنة عمقه سبعون ألف فرسخ ، ملؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، شاطئاه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، خص الله به نبيه صلى الله عليه وسلم قبل الأنبياء (٢) .

- ورأيت إلى نهر ماؤه أبيض من اللبن وأحلى من العسل وأطيب رائحة من المسك على رضراض الدر والياقوت ، ترابه المسك وحشيشه الزعفران وعليه خيام من الدر والجوهر والزبرجد الأخضر وأشجار من الذهب الأحمر وقصور لا يعلمها إلا الله فقلت : يا جبريل ما هذا النهر ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاك الله إياه وهو التسنيم عين تخرج من تحت العرش إلى دور أهل الجنة وقصورهم وغرفهم يمزجون به أطعمتهم من الماء والعسل واللبن والحمر وذلك قوله تعالى « عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيروا » (٣) .

- ثم نظرت وإذا بنهر يقال له الكوثر على أطرافه خيام الدر وعلى حافته المسك وحصاه الياقوت واللؤلؤ والمرجان والزبرجد ورياض حوله وطينه من العنبر ومن جواره قباب الزبرجد الأخضر والياقوت الرطب ، كل قبة سعتها فرسخ فى فرسخ ، على كل قبة أربعة آلاف مصراع من ذهب أحمر ، أمام كل باب من أبوابها شجرة من فضة وأوراقها ذهب حاملة بشمار أبيض من الثلج وأحلى من العسل وألين من الزبد . . وإذا على نهر

(١) ابن عباس ص ٦ / ٧

(٢) الترهيب والترهيب ج ٤ ص ٩٥٩ / ٩٦٠

(٣) مخطوطة المراجع الأولى من رواية ابن سهل عن أنس ص ١٣٧

الكواثر أباريق من الجواهر أكثر من قطر المطر وأقداح بعدد نجوم السماء .
من شرب من ذلك الماء شربة لم يظماً بعدها أبداً (١) .

٤ - صورة الكون وشكل الأرضين ووصف الأولى

— فاذا أنا أنظر إلى واد تحت بيت المقدس يقال له وادى جهنم وإذا فيه من العذاب الشديد ما يذهب العقول ، وإذا ملك عظيم لم أر أعظم منه تخرج من فيه النار وهو كما بين السماء والأرض فناداه مالك يا صوحائيل قال ليلىك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقعت مغشياً على من شدة صوته ، فقال جبريل : اثبت لأمر ربك يا محمد واصبر ، فقلت الأمان الأمان يا جبريل ، من هذا الملك ، قال : هذا صوحائيل خازن النار سيريك ما أعد لأعدائه ففتح الطبقة العليا وعرضها خمسمائة عام فاذا هى فيها خلق لا يقدر على وصفهم إلا الله تعالى وإذا هى سبع طباقات بين كل طبقة خمسمائة عام وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وصارت الأرضون كلها على كف الملك صوحائيل وهو قاعد بين قرنى الثور ، والثور له سبعون ألف قائمة ، مشتكات متصلات بالعرش كما شاء الله تعالى ، والثور على ظهر الحوت والحوت على ظهر الماء والماء على الريح والريح على الظلمة والظلمة على السر والسر على القدرة والقدرة على الكون والكون على الكيفية والكيفية على طبق جهنم (٢) .

— إن الأرضين بين كل أرض إلى التى تليها مسيرة خمسمائة سنة ، فالعلاء منها على ظهر حوت قد التقا طرفاه فى سماء والحوت على صخرة والصخرة بيد ملك ، والثانية سجن الريح ، فلما أراد الله أن يهلك عادا قال يارب أرسل عليهم من الريح فدر منخر الثور فقال له الجبار تبارك وتعالى إذن

(١) مخطوطة تيمور رقم ٧٣٨ ص ٤٣٨ ب و ٣٣٩ أ

(٢) المخطوطة الأولى ص ١٤٥ ، مخطوطة

تكفأ الأرض ومن عليها ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم فهي التي قال الله تعالى في كتابه « ماتنر من شيء أتت عليه لإجعلته كالريم » والثالثة فيها حجارة جهنم والرابعة فيها كبريت جهنم ، قالوا يا رسول الله للناكبريت قال نعم والذي نفسي بيده إن فيها لأودية من كبريت لو أرسل على الجبال الرواسي لماعت ، والخامسة فيها حيات جهنم إن أفواها كالأودية تلسع الكافر فلا يبقى منه لحم ولا وضم ، والسادسة فيها عقارب جهنم إن أدنى عقربة منها كالبلغال المؤكفة تضرب الكافر ضربة تنسيه حر جهنم والسابعة صقر وفيها إبليس مصفد بالحديد يد أمامه ويد خلفه فإذا أراد الله أن يطلقه لمن يشاء من عباده أطلقه (١) .

— لما خلق الله الأرض كانت طبقة واحدة ففتقها وصيرها سبعاً وذلك قوله تعالى « أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » ثم بعث الله من تحت العرش ملكا فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتق ، إحدى يديه في المشرق والأخرى في المغرب باسطين قابضتين على قرار الأرضين السبع حتى ضبطها فلم يكن لقدميه موضع فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدمي الملك على سنامه فلم تستقر قدماه ، فأحضر الله ياقوته خضرأء من أعلى درجة في الفردوس غلظها مسيرة خمسمائة عام فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه . وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض وهي كالسكة تحت العرش ومنخر ذلك الثور في البحر فهو يتنفس كل يوم نفساً فإذا تنفس مد البحر وإذا رد نفسه جزر ، ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار فخلق الله تعالى صخرة خضرأء كغلظها كغلظ سبع سماوات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها (٢) .

(١) كنز العمال في ثبوت من الأقوال والأفعال لهندي ؛ مطبعة دائرة المعارف في حيدرآباد

ج ٢ ص ٢١٨ .

(٢) قصص الأنبياء المسي بالعراس للعلی ص ٣

٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - أطباق الأرض وسكانها

- روى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، وهي سبعة أطباق . الأرض الأولى هذه فيها سكانها ، والأرض الثانية مسكن الريح ومنها تخرج الرياح المختلفة وتتنصرف ، وفي الأرض الثالثة خلق وجوههم مثل وجوه بني آدم وأفواههم مثل أفواه الكلاب وأيديهم كأيدي الإنس وأرجلهم كأرجل البقر وآذانهم كأذان المعز وأشعارهم كأصواف الضأن ، لا يعصون الله طرفة عين ، ليس لهم أثواب ، ليلنا نهارهم ونهارنا ليلهم ، والأرض الرابعة فيها حجارة الكبريت التي أعدها الله لأهل النار تسجربها جهنم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده إن فيها لأودية من كبريت لو أرسلت فيها الجبال الرواسي لانماعت ، قال وهب بن منبه هي مثل الكبريت الأحمر الصخرة منها مثل الجبل العظيم والأرض الخامسة فيها أهل النار كأمثال البغال لها أذنان كأمثال الرماح لكل ذنب منها ثلاثمائة وستون فقار ، في كل فقار ثلاثمائة وستون فرقاً من السم كل فرق منها ثلاثمائة قلة من سم ، لو وضعت قلة من السم في وسط الأرض لمات أهل الدنيا من نتنه وفسد منه كل شيء . وفيها أيضاً حيات أهل النار كأمثال الأودية لكل حية منها ثمانية عشر ألف ناب ، كل ناب منها كالنخلة الطويلة ، في أصل كل ناب ثمانية عشر ألف قلة من السم لو أمر الله حية أن تضرب بناب من أنيابها أعظم جبل في الأرض لهدته حتى صار رمياً ، والأرض السادسة فيها دواوين أهل النار وأعمالهم وأرواحهم الخبيثة واسمها سجين والأرض السابعة جعلها الله مسكناً لإبليس وجنوده وفيها عشه في أحد جانبيه سمرموفي الآخر زمهرير وقد احتوشته جنوده من المردة وعناة الجن ومنها يث سراياه وجنوده فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة لبني آدم (١) .

— أما الطبقة الأولى من الأرض فأول ما خلقها الله تعالى كانت أشد بياضاً من اللبن وأطيب رائحة من المسك ، فأغربت لما مشى آدم عليه السلام عليها بعد أن عصى الله تعالى ، وهذه الأرض أرض النفوس ولهذا كانت يسكنها الحيوانات . . وهذه الأرض بيضاء على ما خلقها الله تعالى من مسكن رجال الغيب وملكها الخضر عليه السلام وأهل هذه البلاد تكلمهم الملائكة . . فهي باقية على أصل الفطرة .

— أما الطبقة الثانية من الأرض فإن لونها كالزمردة الخضراء تسمى أرض العبادات يسكنها مؤمنو الجن ليلاً نهار الأرض الأولى ونهارهم ليلاً لا يزال أهلها قاطنين فيها حتى تغيب الشمس عن أرض الدنيا فيخرجون إلى ظاهر الأرض يتعشقون بنى آدم تعشق الحديد بالمغناطيس ويخافون منهم أشد من خوف الفريسة للآساد . ودورة كرة هذه الأرض ألفا سنة ومائة سنة وأربعة أشهر وليس فيها خراب بل جميعها معمور بالسكنى .

— وأما الطبقة الثالثة من الأرض فإن لونها أصفر كالزعفران تسمى أرض الطبع يسكنها مشركو الجن فيها مؤمن بالله قد خلقوا للشرك والكفر يتمثلون بين الناس على صفة بنى آدم لا يعرفهم إلا أولياء الله تعالى لا يدخلون بلدة فيها رجل من أهل التحقيق إذا كان متمكناً بشعاع أنواره وأما قبل ذلك فلأنهم يدخلون عليه ويحاربهم فلا يزال كذلك حتى ينصره الله تعالى عليهم فلا يقربون بعد هذا من أرضه ومن توجه إليه احترق بشعاع أنواره ، ليس لهؤلاء عمل في الأرض إلا إشغال الخلق عن عبادة الله تعالى . ودورة هذه الأرض مسيرة أربعة آلاف سنة وأربع مائة سنة وستين وثمانية أشهر كلها عامرة بالسكنى ليس فيها خراب .

— وأما الطبقة الرابعة من الأرض فإن لونها أحمر كالدم تسمى أرض الشهوة ، دورة كرة هذه الأرض مسيرة ثمانية آلاف سنة وخمسين وستين سنة ومائة وعشرين يوماً كلها عامرة بالسكنى يسكنها الشياطين

وهم على أنواع كثيرة يتوالدون من نفس إبليس فإذا تحصلوا بين يديه جعلهم طوائف يعلم طائفة منهم القتل ليكونوا أدلة عليه لعباد الله ثم يعلم طائفة منهم الشرك ويحكمهم معرفة علوم المشركين ليوطن بغيان الكفر في قلوب أهله ويعلم طائفة المكر وطائفة الخداع وطائفة الزنا والسرقة حتى لا يترك معصية صغيرة ولا كبيرة إلا وقد أرصد لها طائفة من حفدته ثم يأمرهم أن يجلسوا فيعلموا أمثال ذلك ؛ ثم جعل بأيديهم سلاسل وقيوداً يأمرهم أن يجعلوها في أعناق من يحتكم لهم سبع مرات متواترات ليس بينها توبة ثم يسلمونه بعد ذلك إلى عفاريت الشياطين فينزلون إلى الأرض التي تحتهم ويجعلون أصول تلك السلاسل فيها فلا يمكنهم مخالفتهم بعد أن توضع تلك السلاسل في أعناقهم أبداً .

— وأما الطبقة الخامسة من الأرض فانها لون أزرق كالنيلة واسمها أرض الطغيان ودور كرتها سبعة عشر ألف سنة وسبعمائة سنة وعشر سنين وثمانية أشهر كلها عامرة بالسكنى يسكنها عفاريت الجن والشياطين ليس لهم عمل إلا قيادة أهل المعاصي إلى الكبائر وهؤلاء كلهم لا يصنعون إلا عكس ما يقال لهم .

— وأما الطبقة السادسة من الأرض فهي أرض الإلحاد لونها أسود كالليل المظلم ودور كرة هذه الأرض مسيرة خمسين وثلاثين ألف سنة ومائة وإحدى وعشرين سنة ومائة وعشرين يوماً يسكنها المردة ومن لا يتحكم لأحد من عباد الله تعالى .

— وأما الطبقة السابعة من الأرض فانها تسمى أرض الشقاوة وهي سطح جهنم خلقت من سفليات الطبيعة يسكنها الحيات والعقارب وبعض زبانية جهنم ودور كرة هذه الأرض مسيرة سبعين ألف سنة وأربعمئة واثنين وأربعين سنة وأربعة أشهر ، وحياتها وعقاربها كأمثال الجبال وأعناق البخت وهي ملحقة بجهنم ، أسكن الله هذه الأشياء في الأرض لتكون أنموذجاً في الدنيا لما في جهنم من عذابه .

وأعلم أن أطباق الأرض إذا أخذت في الانتهاء دار الدور عليها في الصعود كما أن أهل النار إذا استوفوا ما كتب عليهم وخرجوا لا يخرجون إلا إلى مثل ما ينتهي إليه حال أهل الجنة من كريم المشاهدة والتحقق بتحقيق المطالعة إلى أنوار العظمة الإلهية (١).

٦١ - ثقب من النار يذيب الأرضين السبع

— قال جبريل عليه السلام والذي بعثك بالحق نبياً لو أن مثل ثقب إبرة فتح منها جهة المشرق لاحترق أهل المغرب من شدة حرها، والذي بعثك بالحق نبياً لو أن ثوباً من ثياب أهل النار حلق بين السماء والأرض لما توا من حرها لما يجدون من نبتها والذي بعثك بالحق نبياً لو أن خراعا من السلسلة التي ذكرها الله تعالى في كتابه وضع على جبل لذاب الجبل حتى يبلغ الأرض السابعة.

— روى في الخبر أن الله تعالى أرسل جبريل عليه السلام إلى ملك النار بأن يأخذ من النار فيأتي بها إلى آدم عليه السلام حتى يطبخ بها طعاماً، قال مالك يا جبريل كم تريد من النار قال أريد منها مقدار ثمرة قال مالك يا جبريل لو أعطيتك مقدار ثمرة لذاب سبع سموات وأرضين من حرها قال مقدار نواتها قال لو أعطيتك ما تريد لم تنزل من السماء قطرة ولم ينبت في الأرض نبات ثم نادى جبريل للملئكة كم أخذ من النار قال الله تعالى خذ مقدار ذرة منها فأخذ جبريل منها مقدار ذرة ونمساها في النهر سبعين مرة ثم جاء بها إلى آدم عليه السلام فوضعها على جبل شاهق فذاب ذلك الجبل ثم رد النار إلى مكانها وبقي دخانها في أحجار وحديد إلى يومنا هذا (٢).

— فلذا أراد الله قيام الساعة أمر فلذا بالجبال تتطاير وتسبر مثل السحاب..

(١) باختصار الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل لعبد الكريم الجيلاني ، طبع صبيح ٢٠٠٦ ص ٦٧ وما بعدها .

(٢) دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار للعلامة عبد الرحيم اللقاضي ، طبع الحلبي ص ٣٤

ثم يكشف الله تعالى عن بئر في صقر فيخرج منها لبيب فتشتعل في
الأربعة عشر بجراً كما تشتعل النار في الصوف المنفوش ، فما تدع منها
قطرة واحدة وتدع الأرضين جملة سوداء والسماء كأنها عكر الزيت
والنحاس المذاب (١) .

— إن في جهنم لبئراً ما فتحت أبوابها بعد وهي مغلقة تستعبد منها جهنم
كل يوم مخافة أن يكون في البشر من العذاب ما لا طاقة لجهنم به ولا صبر
لها عليه وهي اللزك الأسفل من النار (٢)

— كان ابن عباس يقول الفلق سجن في جهنم إذا فتح بابه صاح
جميع أهل جهنم من حره (٣)

٦٢ — الأرضيون كالسفينة الحيرى على قرني الثور والحوت

— يروى أن الله تعالى لما خلق الأرض صارت واقفة في الهواء فحركها
الريح فاضطربت وماجت فشكت ذلك إلى ربها وقالت يارب قد ضعفت
قوتي واستخفني الريح وحركني فأوحى الله تعالى إليها إلى مؤيدك
بالأطواد وهي الجبال فاستقرت بعد ذلك الاضطراب ، ولما خلق الله
تعالى الأرض بعث إليها ملكاً من تحت العرش فدخل من تحت الأرضين
السبع وأخرج إحدى يديه من المشرق والأخرى من المغرب وقبض على
أطراف الأرض فلم يكن لقدميه قرار ، فأهبط الله تعالى ثوراً من الجنة
اسمه نون له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة من القرن إلى
القرن خمسمائة عام فاستقر قدم ذلك الملك على ذلك الثور فلم يكن
لأقدام الثور قرار فأنزل الله يا قوته خضراء من يواقيت الجنة غلظها

(١) الدرر الفاخرة في كشف علوم الآخرة للنزال طبع صبيح ص ٢١

(٢) التذكرة ص ١١٢

(٣) نفس المصدر ١١٩

خمسائة عام فاستقرت قوائم الثور على تلك الياقوتة الخضراء ، ثم خلق الله تعالى صخرة كغلتظ السماوات والأرض واسمها صيخور وفيها تسعة آلاف ثقب في كل ثقب منها بحر لا يعلم عظمه إلا الله فاستقرت تلك الياقوتة الخضراء عليها ، ولما لم يكن للصخرة قرار أهبط الله تعالى إليها حوتاً عظيماً من البحر السابع الذي تحت العرش ، ويقال اسم الحوت بهموت أو بلهوت فاستقرت تلك الصخرة على ظهر الحوت ، وقيل لا يقدر أحد أن ينظر إلى ذلك الحوت من يريق عينيه ولو وضعت بحار الدنيا كلها في إحدى منخريه لكانت كالخردلة في أرض فلاة ، فاستقر الحوت على الماء وصار واقفاً مكانه لا يتحرك إلا بالسجود كل يوم إلى يوم القيامة ، وقد وكل الله بذلك الحوت ملائكة يأتونه بغذائه في كل يوم على قدر شبعه فيأتونه من البحر المسجور بألف حوت كل حوت طوله مسيرة يوم وليلة ، أما الثور فوكل الله تعالى ملائكة بغذائه في كل يوم بألف شجرة من بساين القدرة طول كل شجرة مسيرة يوم وليلة (١) .

— ثم قالوا إن الأرض كانت تتكفأ على الماء كما تتكفأ السفينة على الماء فارساها الله بالجبال وذلك قوله تعالى « والجبال أرساها » وقوله « وألقى في الأرض رواسي أن تُميدبكم » (٢) .

٦٣ — والبحر عمده سبعة أبحر والأرض محوطة بجبل قاف

— وأما البحار الكبيرة المشهورة فسبعة وهي المحيط أي المحيط بالدنيا ، ويقال إن مسافته أربعة وعشرون ألف فرسخ وجميع البحار تأخذ منه ويسمى بالإكليل لأنه حول الأرض بمنزلة الإكليل من الرأس وبهذا

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن أبي عمير ٩/٨

(٢) قصص الأنبياء للثعلبي ٤/٣

البحر من العجائب ما لا يسمع بمثله ويخرج من هذا البحر ستة بحار
كبار أعظمها اثنان هما اللذان ذكرهما الله تعالى في القرآن في قوله تعالى
« مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » (١)

أول ما خلق الله الأرض هاجت وقالت يا رب تجعل على بنى آدم يعملون
الخطايا ويقولون الخبائث فاضطربت فأرسلها الله تعالى بالجبال فأقرها
وخلق الله تعالى جبلا عظيما من زبرجدة خضراء خضرة السماء يقال له
جبل قاف فأحاط بها كلها ، قال وهب إن ذا القرنين أتى على جبل قاف
فرأى حوله جبلا صغارا فقال له من أنت ؟ قال أنا قاف قال فأخبرني
ما هذه الجبال التي حولك فقال هي عروقي فاذا أراد الله أن يزلزل
أرضاً أمرني فحركت عرقاً من عروقي فتتزلزل الأرض المتصلة به . .
وإن ورائي لأرضاً مسيرة خمسمائة عام من جبال الثلج يحطم بعضها بعضاً
ومن وراء ذلك جبال من البرد مثلها لولا ذلك الثلج والبرد لاحتقرت
الدنيا من حر جهنم (٢)

واعلم أن البحار السبعة المحيطة أصلها بحران لأن الحق سبحانه وتعالى
لما نظر إلى الدرة البيضاء التي صارت ماء فما كان مقابلاً في علم الله
تعالى لنظر اللطف والرحمة صار طعمه عذبا وما كان مقابلاً في علم الله
تعالى لنظر الهيبة والكبرياء صار طعمه مالحاً . . ثم خرج من العذب جنول
ومن الملح ثلاث جداول (٣)

واعلم أن هذا البحر المحيط وما كان منه منفصلاً عن جبل قاف مما يلي

(١) بدائع الزهور ص ١١

(٢) قصص الأنبياء الطلبي ص ٤٠ .

(٣) الإنسان الكامل للجواني ص ٢٠ ص ٧٠

للدنيا فهو مالح وما كان منه متصلا بالجبل فهو وراء المالح فإنه البحر الأحمر الطيب الرائحة وما كان من وراء جبل قاف متصلا بالجبل الأسود فإنه البحر الأخضر وهر مر الطعم كالسم القاتل : وما كان منه وراء الجبل بحكم الانفصال والحيطة فهو البحر الأسود . واعلم أن أمواج هذا البحر كل موجة منها تملأ ما بين السماء والأرض ألف ألف مرة إلى مالا ينهى ولولا أن عالم القدرة يسع هذا البحر لما كان يوجد في الوجود بأسره . . فهو بحر الذات الذى حارت دونه الصفات (١)

٦٤ - بين أرضنا والأرضين السبع عالم الجن وطوره حاملة الأحجار

بل تدرون ما هذا العنان ؟ هذه زوايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه ، هل تدرون ما فوقكم ؟ فأنها الرفيع سقف محفوظ وموج مكفوف ، هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ بينكم وبينها خمسمائة سنة ، هل تدرون ما فوق ذلك ؟ فان فوق ذلك سمائين ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة حتى عدد سبع سماوات ما بين كل سمائين كما بين السماء والأرض ، هل تدرون ما فوق ذلك ؟ فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء التى تليه مثلما بين السمائين . هل تدرون ما الذى تحتكم ؟ فإنها الأرض ، هل تدرون ما الذى تحت ذلك ؟ فإن تحتها أرض أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة حتى عدد سبع أرضين ، بين كل اثنتين مسيرة خمسمائة سنة ، والذى نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بجبل إلى الأرض السفلى لمبط على الله ، ثم قرأ وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم (٢) .

(١) نفس المصدر السابق ص ٧٣ / ٧٤

(٢) كنز العمال في ثبوت سنن الأقوال والأفعال الهندى - ٣ ص ٢١٦ / ٢١٧ .

— قال كعب الأحبار إن بين السماء والأرض سحاباً لطيفاً وفوقه طيور بيض روثوسها كروؤوس الخيل ولها ذوائب كلوائب النساء ولها أجنحة طوال وليس لها في السماء ملجأ ولا في الأرض مأوى وأنها تبيض وتفرخ على السحاب في الهواء كما تفر الطيور في الماء (١) -

— وكانت الجن تأتي إلى السماء الدنيا فتسمع أصوات الملائكة لأنها مع أنها في عالم الأجسام والكثافة كانت ترتقى حتى تبلغ العالم الروحي وهو صفيح سماء الدنيا فتسمع بواسطة ذلك الارتقاء كلام الملائكة مسترقة السمع وترجع إلى مشركيها فتخبرهم بالمغيبات فهي الآن إذا رقت إلى ذلك المحل نزل بها الشهاب الثاقب فأحرقها (٢)

— قال الماوردي أصول الخلق أربعة أشياء الماء والتراب والهواء والنار ، فالماء والتراب ظاهران للخلق والهواء والنار خافيان عنهم ومعلوم أن النار مشتملة على نور ولهيب ودخان فالنور ضياء محض والدخان ظلمة محضة واللهب هو الماريج المتوسط وخلق الله الجن من مارج من نار فلهن نسبة إلى الملائكة بالنورانية ولهن نسبة إلى الشياطين بالظلمة الدخانية ولذا كان منهم المطيع والعاصي والمؤمن والكافر (٣)

٦٥ - الأمانة التي تحملها الإنسان

— روى أن أعرابياً دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث أصحابه فقال متى الساعة ؟ فمضى رسول الله في حديثه فقال بعض القوم سمع ما قال فكبره ما قال . حتى إذا قضى حديثه قال : من السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنذا يا رسول الله ، قال . فإذا ضيبت الأمانة فانتظر الساعة ، قال وكيف إضاعتها قال . إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة ،

(١) بدائع الزهور لابن أبي عمير ص ٥ (٢) الإنسان الكامل للجيلاني ص ٢٠ ص ٦٢

(٣) البيهقيت والجواهر في عقائد الأكابر للشمراي ص ٢٠ ص ١٠

- إن الأمانة نزلت في جلد قلوب الرجال يعنى وسط قلوبهم ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ... وترفع الأمانة من قلب الرجل وهوائهم ، فينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها كالمحل ، كجمر دحرجته على رجلك .. فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن فى بنى فلان رجلا أميناً وحتى يقال الرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان .. عندئذ تقوم الساعة (١)

- إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً (٢)

- تسبيح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم : إنه كان حليماً غفوراً (٣)

٦٦ - يحشر الناس وينصب الميزان

- عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا قلت يا رسول الله : الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٤)

- تشخص أبصارهم إلى السماء يقفون أربعين سنة لا يأكلون ولا يشربون ويعرق كل واحد منهم حياء من الله تعالى فمنهم من يبلغ العرق قدميه ومنهم من يبلغ ساقيه ومنهم من يبلغ بطنه ومنهم من يبلغ صدره ومنهم من يبلغ وجهه ، يسوقهم بأجمعهم إلى أرض المحشر عند بيت المقدس فى أرض يقال لها الساهرة (٥)

(١) التذكرة للقرطبي ص ٢٠٩ / ٢١٠ (٢) قرآن كريم سورة الأحزاب آية ٧

(٣) سورة الاسراء آية ٤٤ (٤) التذكرة ص ٦٦ (٥) دقائق الأخبار ص ٢٧

— أنا أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها شباباً كأنكم أبناء ثلاث وثلاثين ، واللسان يومئذ بالسريانة سراحاً إلى ربهم ينسلون مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر . . فتقفون في موقف حفاة عراة غرلاً أى غير مخنوتين مقدار سبعين عاماً لا ينظر الله إليكم ولا يقضى بينكم فتبكى الخلائق حتى تنقطع الدموع ثم تدمع دماً ويعرقون حتى يبلغ منهم الأذقان ويلجمهم فيضجون (١).

— فبينما هم كذلك إذ برز لهم العرش العظيم تحمله ثمانية أملاك قدركل ملك مسيرة عشرين ألف سنة . . حتى يستقر العرش في الأرض البيضاء التي خلقها الله تعالى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات . . فهناك نصب الميزان وهو كفتان : كفة من نور عن يمين العرش وكفة عن يساره من ظلمة ، ثم يكشف الجليل عن ساقه فيسجد الناس تعظيماً له وتواضعاً إلا الكفار فإن أصلابهم تعود حديداً (٢).

— يجمع الناس يوم القيامة في صعيد واحد ثم يطلع عليهم رب العالمين فيقول ألا ليتبع كل إنسان ما كان يعبد ، فيتمثل لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التصاوير تصاويره ولصاحب النار ناره فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون (٣)

٦٧ — توزن الأعمال وتشهد الأعضاء

— روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : ينصب الميزان يوم القيامة على عمد طول كل عمود منها ما بين المشرق والمغرب وكفة الميزان كأطباق الدنيا طولها وعرضها واحد وإحدى الكفتين عن يمين العرش وهي كفة الحسنات والأخرى عن يساره وهي كفة السيئات ، وبين الميزان كالجبال

(١) التذكرة ٦١ (٢) الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة للغزالي ٣٣

(٣) للتذكرة ص ٩٣

من أعمال الثقلين مملوءة من الحسنات والسيئات في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فيوثق بالرجل ومعه سبع وسبعون سجلا كل سجل مد بصره فيه خطاياه وذنوبه فيوضع في كفة الميزان ويخرج له قرطاس مثل الأتملة وفيه شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله فيوضع في كفة أخرى فترجح على الذنوب كلها ، فمن رجحت موازين حسناته بالخير والطاعات على سيئاته فهو في عيشة راضية في الجنة ومن خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هية نار حامية (١) .

— روى مسلم عن أنس كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : أندرون مم أضحك ؟ فقلنا : الله ورسوله أعلم ، فقال : من مخاصمة العبد وبه فيقول : يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ قال فيقول بلى ، قال : فيقول فاني لا أجز على نفسي إلا شاهداً مني ، قال : فيقول « كفى بنفسك اليوم عليك حسنيا » والكرام الكاتبين شهوداً ، قال فيختم على فيه فيقال للأركان انطلق فتنتطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول يعني لأعضائه — بعدا وسحقاً لكن فعنكن كنت أجادل — اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » (٢)

٦٨ — مراجعة لشكل السماوات والأرض وما يحملهما

— لما خلق الله تعالى الأرض بعث إليها ملكا من تحت العرش فدخل من تحت الأرض بين السبع وأخرج إحدى يديه من المشرق والأخرى من المغرب وقبض على أطراف الأرض فلم يكن لقدميه قرار ، فأهبط الله تعالى ثورا من الجنة اسمه نون له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة من القرن إلى القرن خمسمائة عام فاستقر قدم ذلك الملك على ذلك الثور ، فلم يكن لأقدام الثور قرار فأنزل الله ياقوته خضراء من يواقيت الجنة

(١) دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار لعبد الرحيم القاضى ص ٣٢

(٢) مختصر تذكرة القرطبي للشعراني ص ٨٢

غلظها خمسمائة عام فاستقرت قوائم الثور عليها . . ثم خلق الله صخرة كغلظ السماوات والأرض واسمها صيخور وفيها تسعة آلاف ثقب في كل ثقب منها بحر لا يعلم عظمه إلا الله فاستقرت تلك الياقوتة الخضراء عليها ، ولما لم يكن للصخرة قرار أهبط الله تعالى إليها حوتاً عظيماً من البحر السايح الذي تحت العرش اسمه بهموت أو بلهوت فاستقرت تلك الصخرة على ظهر الحوت . . ثم جعل الله تحت الماء الهواء وتحت الهواء الظلمة (١) .

— خلق الله تعالى جبلاً من زبرجدة خضراء خضرة السماء يقال له جبل قاف يحيط بالأرضين كلها وهو الذي أقسم الله تعالى به فقال « قوالقرآن المجيد » . . وبين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام وهي سبعة أطباق (٢)

— قال كعب الأخبار رضى الله عنه إن خلف جبل قاف سبعين ألف أرض من فضة ومثلها من حديد ومثلها من مسك وهي مشرقة بالنور وسكانها ملائكة ولا يرى فيها قمر ولا شمس ولا حر ولا برد طول كل أرض عشرة آلاف سنة وخلف ذلك بحر من ظلمة وخلف ذلك حجاب من ريح وخلف ذلك حية عظيمة محيطة بجميع الدنيا تسبح الله إلى يوم القيامة (٣)

٦٩ — ملخص لمشاهد الملكوت وعود إلى الصراط

— روى في بعض الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال . . خلق الله أرضاً بيضاء مثل الفضة وهي قدر الدنيا ثلاثين مرة وبها أمم كثيرة لا يعصون الله طرفة عين ، قالت الصحابة يا رسول الله من ولد آدم هم ؟ قال : لا يعلمهم غير الله ليس لهم علم بآدم قالوا :

(١) بدائع الزهور ص ٩/٨ (٢) قصص الأنبياء الثعلبي ص ٤ وقد تقدمت تفصيلات أخرى.

(٣) بدائع الزهور ص ٢٣

يارسول الله فأين إبليس منهم ؟ فقال ولا يعلمون إبليس ثم تلا قوله تعالى
« ويخلق ما لا تعلمون (١) » .

— خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يتفكرون ، فقال
فيم أنتم تتفكرون ؟ قالوا نتفكر في الخالق ، فقال لهم تفكروا في الخلق
ولا تفكروا في الخالق فإنه لا تحيط به الفكرة ، تفكروا في أن الله خلق
السموات سبعا والأرضين سبعا وتحت كل أرض خمسمائة عام وبين
السماء والأرض خمسمائة عام وتحت كل سماء خمسمائة عام وما بين كل
سماءين خمسمائة عام ، وفي السماء السابعة بحر عمقه مثل ذلك كله وفيه ملك
قائم لا يجاوز الماء كعبه .

— إن في السماء السابعة بحراً من نور يقال له الحيوان يدخل فيه جبريل عليه
السلام كل غداة فينغمس فيه الغماسة ثم يخرج فينتفض انتفاضة فيخرج
منه سبعون ألف قطرة من نور فيخلق الله من كل قطرة ملكاً فيومرون أن
يأتوا البيت المعمور فيدخلون فيه ويصلون ثم يخرجون فلا يعودون إليه
إلى يوم القيامة . . وسدرة المنتهى شجرة في السماء السابعة مما يلي الجنة
أصلها ثابت في الجنة وعروقها تحت الكرسي وأغصانها تحت العرش إليها
ينتهي علم الخلائق ، كل ورقة منها تظل أمة من الأمم ، يغشاها ملائكة
كانهم فراش من ذهب (٢) .

— يقول الله يا جبريل . انطلق فأخرج من النار من أمة محمد صلى الله عليه
وسلم فيخرجهم ضباطر ضباطر أي جماعات جماعات وقد امتحشوا من
النار فيلقيهم على نهر يقال له الحيوان فيمكنون فيه حتى يعودوا أنضر مما
كانوا ، وفي رواية فينبئون نبات الحبة في حميل السيل (٣) .

(١) بدائع الزهور لابن عباس ص ٢٣

(٢) قصص الأنبياء الثماني ص ١٠/٨

(٣) للتذكرة ٩٨٠ / ١٣٢

— لا يجوز أحد الصراط حتى يسأل في سبع قناطر ، فأما القنطرة الأولى فيسأل فيها عن الإيمان بالله وفي الثانية عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز وفي الثالثة عن صوم رمضان وفي الرابعة عن الزكاة والخامسة عن الحج والسادسة عن الغسل من الجنابة والوضوء وفي السابعة وهي أصعب القناطر عن ظلمات الناس . . وجههم تحت الجسور سوداء مظلمة يتطاير شررها على المارين ومنهم من يمر كالبرق أو كالريح أو كالحواد أو مشيا أو زحفا حتى يمر أحدهم في مائة عام . . والجسر أرق من الشعر وأحد من السيف وفيه كلاليب وخطاطيف . . ويكون الصراط يوم القيامة على المتقين مثل الوادى الواسع والروضة الكبيرة بحسب كثرة أعمالهم الصالحة . . وفي الآخرة صراطان أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم فإذا خلص من هذا الصراط الأكبر ولا يخلص منه إلا المؤمنون فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا (١) .

— إن من وراء الصراط صحراء فيها أشجار طيبة تحت كل شجرة عينا ماء انفجرتا من الجنة إحداهما عن اليمين والأخرى عن الشمال والمؤمنون حين يجوزون للصراط وقد قاموا من القبور قاموا إلى الحساب ووقفوا في الشمس وقرأوا الكتب وجاوزوا الميزان وجاءوا إلى تلك الصحراء شربوا من إحدى العينين فإذا بلغ ماء العين إلى صدورهم خرج كل ما كان فيهم من غل وغمس وحسد وزال عنها فإذا استقر الماء في بطونهم خرج كل ما كان فيها من فساد وداء وبول فيطهر ظاهريهم وباطنيهم ثم يجيئون إلى العين الأخرى فيغتسلون فيها فتصير وجوههم كالقمر ليلة البدر وتطيب نفوسهم وتطيب أجسامهم كالمسك (٢) .

— فإذا نجوا من هذه القناطر وخلصوا منها يشربون من حوض النبي صلى الله عليه وسلم فإذا شربوا منه زال عنهم التعب والشقاء والظلم ، ماؤه أشد

(١) بايجاز من مختصر تذكرة القرطبي للشعراني ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) دقائق الأخبار ص ٤٣

يباضا من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة واحدة لا يعطش بعدها أبدا طوله مسيرة شهر وعرضه كذلك (١).

٧٠ - توزيع الرزق والنعمة والعيوب في السماوات والأرض والشعوب

— إن الملائكة عشرة أجزاء ، فتسعة أجزاء الكروبيون الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون وجزء واحد الذين وكلوا بخزائن كل شيء ، والملائكة والجن والإنس عشرة أجزاء وتسعة أجزاء الملائكة وجزء واحد الجن والإنس ، والجن والإنس عشرة أجزاء ، تسعة أجزاء الجن وجزء واحد الإنس ، فاذا ولد من الإنس ولد ولد معه تسعة من الجن ، والإنس عشرة أجزاء فتسعة أجزاء بأجوج ومأجوج وجزء واحد سائر الناس ، ومافي السماء موضع إهاب إلا عليه ملك ساجد أو قائم (٢) .

— اعلم أن الله تعالى خلق جميع الأرزاق والأقوات المتنوعة في أربعة أيام وجعلها بين السماء والأرض مخزونة في قلب أربعة أفلاك . ثم جعل ملائكة الإنزال الموكلة بإيصال كل رزق إلى مرزوقه في السبع السماوات ثم جعل في كل سماء ملكا يحكم على من فيها من ملائكة الأرزاق ويسمى ملك الحوادث (٣) .

— روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قسم الحسد عشرة أجزاء تسعة في العرب وواحد في سائر الخلق ، والكبر عشرة أجزاء ، تسعة في الروم وجزء في سائر الخلق ، والسرقة عشرة أجزاء ، تسعة في القبط

(١) الدر الحسان في البعث ونعيم الجنان للسيوطي ص ٢٩ .

(٢) كنز العمال للهيتمي ج ٣ ص ٢٢٢ .

(٣) الإنسان الكامل للجيلاني ج ٢ ص ٥٩ .

وواحد في سائر الخلق ، والبخل عشرة أجزاء تسعة في فارس وجزء في
سائر الخلق ، والزنا عشرة أجزاء تسعة في السند وجزء في سائر الخلق ،
والرزق عشرة أجزاء تسعة في التجارة وجزء في سائر الخلق ، والفقر عشرة
أجزاء تسعة في الحبش وجزء في سائر الخلق ، والشهوة عشرة أجزاء
تسعة في النساء وجزء في الرجال ، والحفظ عشرة أجزاء تسعة في الترك
وجزء في سائر الخلق ، والحلدة عشرة أجزاء تسعة في البربر وجزء في
سائر الخلق ، والسخاء عشرة أجزاء فتسعة في السودان وجزء في سائر
الخلق وقسم الحياء عشرة أجزاء فتسعة في العرب وجزء في سائر
الناس (١) .

٧١ - ٧٢ - لها سبعة أبواب وجبالها وأنهارها وشجرها

أما النار فلها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم من الرجال والنساء
وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام
أكانت أبوابها كأبوابنا هذه قال لا ولكنها مفتوحة بعضها أسفل من بعض ،
من الباب إلى الباب مسيرة سبع مائة سنة ، كل باب منها أشد حرا من
الذي يليه سبعين ضعفا . أما الباب الأسفل ففيه المنافقون ومن كفر من
أصحاب المائدة وآل فرعون واسمه الهاوية . والباب الثاني فيه المشركون
واسمه الحميم ، والباب الثالث فيه الصابئون واسمه مقر ، والباب الرابع
فيه إبليس ومن تبعه والمجوس واسمه لظى ، والباب الخامس فيه اليهود
واسمه حطمة ، والباب السادس فيه النصارى واسمه معبر ، ثم أمسك
جبريل ، فقال عليه السلام : يا جبريل لم لا تخبرني عن سكان الباب
السابع ؟ فقال يا محمد أتسألني عنه ؟ فقال بلى ، قال يا محمد أهل الكبائر
من أمتك الذين ماتوا ولم يتوبوا (٢) .

— فكشف عن جهنم الغطاء فإذا هي سوداء مظلمة ممتزجة بغضب الله . .

(١) اللان المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي ج ١ ، ص ١٥٧ .

(٢) دقائق الأخبار ص ٣٥ .

ورأيت فيها سبعين ألف بحر من غسلين وسبعين ألف بحر من غساق
وسبعين ألف بحر من قطران وسبعين ألف بحر من رصاص منوب ،
على ساحل كل بحر ألف مدينة من نار ، في كل مدينة ألف قصر من نار ،
في كل قصر سبعون ألف تابوت من نار ، في كل تابوت سبعون ألف
صندوق من نار ، في كل صندوق سبعون ألف صنف من العذاب ،
ورأيت فيها حيات كأمثال النخل الطويل ، وعقارب كأمثال البغال ،
ورأيت فيها سبعين ألف بئر من الزمهرير (١) .

- إن جهنم سوداء مظلمة لاضوء لها ولا لخب ، لها سبعة أبواب ، على كل
باب منها سبعون ألف جبل ، في كل جبل سبعون ألف شعبة من نار ،
في كل شعبة سبعون ألف شق من نار ، في كل شق سبعون ألف واد من
نار ، في كل واد سبعون ألف قصر ، في كل قصر سبعون ألف بيت
من نار في كل بيت سبعون ألف حية وسبعون ألف عقرب ، لكل
عقرب سبعون ألف ذنب ، لكل ذنب سبعون ألف فقار ، في كل فقار
سبعون ألف قلة من سم فإذا كان يوم القيامة كشف عنها الغطاء فيطير منها
سرادق عن يمين الثقلين وسرادق آخر عن يسارهم وسرادق أمامهم
وسرادق من فوقهم وآخر من ورائهم فإذا نظر الثقلان إلى ذلك جثوا على
ركبتهم وصاروا يتنادون كلهم رب سلم (٢) .

- إن أدنى أهل النار عذابا لرجل عليه نعلان يغلى منهما دماغه كأنه مرجل ،
مسامحه جمر وأضراسه جمر وأشفاؤه لب النار ، وتخرج أحشاء جنبيه
من قدميه ، وسائرهم كالحب القليل في الماء الكثير فهو ينفور (٣) .

- قال ابن جريح : النار سبع دركات وهي جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم

(١) ابن عباس في الإسرائء والمعراج ص ١٧/١٨ .

(٢) التذكرة ١١٣ .

(٣) الترغيب والترهيب المنلرى ج ٤ ص ٩١٢ .

السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ، فأعلاها للموحدين والثانية لليهود والثالثة للنصارى والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس والسادسة للمشركين والسابعة للمنافقين ، فيجزى الله أتباع إبليس سبعة أجزاء ، فيدخل كل جزء وقسم دركة من النار ، ومراتب الكفر والمعاصي مختلفة فلذلك اختلفت مراتبهم في النار ، وجعلت سبعة لأن أهل النار سبع فرق ، وقيل على وفق الأعضاء السبعة من العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لأنها مصادر السيئات (١).

— إن لجهنم ساحلا كساحل البحر فيه هوام وحيات كالبعث وعقارب كالبعال الدم فإذا استغاث أهل النار طلبوا الساحل فإذا خرجوا إلى الساحل سلط عليهم تلك الهوام فتأخذ أشفار أعينهم وشفاههم وما شاء الله منهم تكشطها كسطا فيستغيثون منها ويطلبون الرجعة إلى النار فإذا ألقوا في النار سلط عليهم الحرب فيحك أحدهم جلده حتى يظهر عظمه وإن جلد أحدهم لأربعين ذراعا (٢) .

٧٣ — يؤخذ بزمام جهنم كالوحش العملاق

— ثم يأمر الله تعالى بأن يؤتى بالنار فترب وتفرع وتقول للمرسلين إليها من الملائكة أتعلمون أن الله خلق خلقا يعذبني به فيقولون لا وعزته ، وإنما أرسل إليك لتنتقمي من عصاة ربك ولمثل هذا اليوم خلقت ، فيأتون بها تمشي على أربع قوائم ، تقاد بسبعين ألف زمام ، في كل زمام سبعون ألف حلقة ، لو جمع حديد الدنيا كلها ما عدل منها حلقة واحدة ، على كل حلقة سبعون ألف زباني ، لو أمر زباني منهم أن يدك الجبال لدكها وأن يهد الأرض لهدها ، وإذا لها شهيق ودوى وشرور ودخان تفور حتى تسد الأفق ظلمة . . فإذا كان بينها وبين الخلق مقدار ألف عام انفلتت من

(١) يقظة أولى الاعتبار فيها ورد في ذكر النار وأصحاب النار للشيخ صديق حسن خان

أيدى الزبانية حتى تأتى إلى أهل الموقف ولها صلصلة وتصفيق وسحيق فيقال ما هذا فيقال جهنم انفلتت من أيدى سائقها ولم يقدرُوا على إمساكها لعظم شأنها فيجثو الكل على الركب حتى المتوسلون ويتعلق إبراهيم وموسى وعيسى بالعرش هذا قد نسي الذبيح وهذا قد نسي هارون وهذا قد نسي مريم ، ويجعل كل واحد منهم يقول يارب نفسى لا أسألك اليوم غيرها ، ومحمد عليه الصلاة والسلام يقول أمتى أمتى سلمها ونجها يارب وليس فى الموقف من تحمله ركبناه . وعند تغلبها تكبوم من الحق والغيط ، فيبرز صلى الله عليه وسلم ويأخذ بخطامها ويقول لها ارجعى مدحورة إلى خلفك حتى تأتيك أفواجك فتقول : خل سبيلى فانك يا محمد حرام على ، فينادى مناد من سرادقات العرش اسمعى منه وأطيعى له ثم تجلب وتجلب وتجل عن شمال العرش ويتحدث أهل الموقف بجذبها فيخف وجلهم وهو قوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (١) .

- روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها . . فيبئها هم كذلك إذ شردت عليهم شرده تفلتت من أيديهم فلولا أنهم أدركوها لأحرقت من فى الجمع (٢) .

- روى أن جبريل نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا جبريل فأين تكون للناس يوم القيامة؟ قال : يا محمد يكونون على أرض بيضاء لم يعمل عليها ذنب وتكون الجبال كالعهن المنفوش يعنى الصوف وتذوب الجبال من مخافة جهنم

(١) اللذة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة للزوال ص ٣٢ / ٣٣

(٢) للذكرة ص ١١٣

فى ذلك اليوم ، يا محمد إنه ليجاء بجهنم يوم القيامة تزف زفا عليها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك حتى توقف بين يدى الله عز وجل فيقول لها يا جهنم تكلمى ، فتقول : لا إله إلا الله وعزتك وعظمتك لأنتقمين اليوم ممن أكل رزقك وعبد غيرك ولا يجوزنى إلا من عنده جواز . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا جبريل وما الجواز يوم القيامة ؟ قال : أبشر أبشر إلا من شهد أن لا إله إلا الله ، فن شهد أن لا إله إلا الله جاز جسر جهنم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى ألهم أمتى قول لا إله إلا الله .

— إذا جمع الله الناس فى صعيد واحد يوم القيامة أقبلت للنار يركب بعضها بعضا ومعها خزنتها وهى تقول : وعزة ربى ليخلى بينى وبين أزواجى أو لأغشين الناس عنقا واحدا ؛ فيقولون ومن أزواجك فنقول : كل متكبر جبار (١) .

— يوثق بجهنم يوم القيامة وحولها سبعون ألف صنف من الملائكة كل صنف أكثر من الثقلين يحرونها بأزماتها ولجهنم أربع قوائم ما بين كل قائمة وقائمة ألف عام ، ولها ثلاثون رأسا وفى كل رأس ثلاثون ألف فم وفى كل فم ثلاثون ألف ضرس مثل جبل أحد ألف مرة وفى كل فم شفتان كل شفة مثل طباق الدنيا ، وفى شفتيها سلسلتان من حديد ، لكل سلسلة منهما سبعون ألف حلقة ويمسك كل حلقة مالا يعد من الملائكة فيوثق بها عن يسار العرش وهو قوله تعالى « إنها ترمى بشرر كالقصر (٢) » .

(١) مختصر تذكرة القرطبي للامام الشعرائى ص ١١٤ / ١١٥

(٢) دقائق الأخبار ص ٣٥

٧٤ - عود لوصف الميزان ورجحان الشهادة

- روى الترمذى وابن ماجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول لا يارب . فيقول : ألك عذر ؟ فيقول لا يارب . فيقول : بلى لك عندنا حسنة وأنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول احضر وزنك فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات : فيقال إنك لا تظلم ، قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع الله تعالى شيء عز وجل (١) .

- ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان وتطائر الكتب إلى الأيمان والشمال فان الناس بعد السؤال ثلاث فرق : فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم في النار فتبتلعهم النار وينادى عليهم شقاوة لا سعادة بعدها ، وقسم آخر لا سيئة عليهم فينادى مناد ليقيم الحمادون لله على كل حال فيقومون ويسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى وينادى عليهم سعادة لا شقاوة بعدها ، ويبقى قسم ثالث وهم الأكثرون خطيئاً وعمالاً صالحاً وآخر سيئاً وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى إن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم ، ولكن يأتي الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب ، فتطائر الصحف والكتب منظوية على الحسنات والسيئات وتوضع الجنة عن يمين العرش والنار عن يسار العرش ، وينصب الميزان بين يدي الله تعالى فتوضع كفة الحسنات مقابل الجنة وكفة السيئات مقابل النار ، وتشخص الأبصار إلى الكتب أتمتع في اليمين أو في الشمال ؛ ثم إلى لسان الميزان أي ميل إلى جانب

السيئات أو الحسنات وقيل صاحب الميزان جبريل عليه السلام الذى
يفصل بين الجن والإنس ويستقبل به العرش إحدى كفتيه على الجنة
والأخرى على جهنم ولو وضعت السماوات والأرض في إحداهما لو سعتين
وجبريل عليه السلام أخذ بعموده ينظر إلى لسانه، وهذه حالة هائلة تطيش
فيها عقول الخلائق . ويقوم الناس عند الميزان ألف عام فمن رجع ميزانه
بحسناته فاز ونجا في طرفة عين ، ومن خف ميزانه من حسناته وثقلت
سيئاته حبس عند الميزان ألف عام في الغم والحزن والعذاب والجوع
والعطش . وروى أنه يوثق بابن آدم يرم القيامة حتى يوقف بين كفتي
الميزان ويوكل به ملك فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق
بعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، وإن خفت ميزانه نادى بصوت
يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا ، وعند خفة كفة
الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار
فيأخلون نصيب النار إلى النار ، وإذا ثقلت حسناته خرج رافعا رأسه
يتبختر بين الخلائق ويتلأأ من جبينه الرضا والملائكة يمشون بين يديه
يزفونه إلى الجنة (١) .

٧٥ - هول القيامة يوم تذهل كل مرضعة

— روى في الآثار أن الله تعالى يحشر الأمم من الجن والإنس عراة أذلاء قد
نزع الملك من ملوك أهل الأرض ولزمهم الذل والصغار بعد عزم
وتجبرهم على عباد الله في أرضه . . فاذا ساقهم الملائكة زمرا وأفواجا
وجمعوا في صعيد واحد من إنس وجن وشيطان ووحش وسبع وطير
تحوهم الملائكة إلى الأرض الثانية وهى أرض بيضاء من فضة نورية
وصارت الملائكة من وراء العالمين حلقة واحدة فاذا هم أكثر من أهل
الأرض بعشر مرات . . والخلق تتداخل وينتزع بعضهم في بعض حتى

(١) إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين لزيدي وبهامشه الإحياء الغزال

يعلو القدم ألف قدم لشدة الزحام ويخوض الناس في العرق على أنواع مختلفة إلى الآذان وإلى الصدر وإلى الحلقوم وإلى المنكبين وإلى الركبتين . ، وكيف لا يكون القلق والعرق والأرق وقد قربت الشمس من رؤوسهم حتى لو أن أحداً مد يده لناها ويضاعف حرها سبعين مرة في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (١) .

— فإذا تكاملت عند أهل الأرض تناثرت نجوم السماء من فوقها وطمست الشمس والقمر فأظلمت عليهم الدنيا وصارت سماء الدنيا من فوقهم فدارت بعظمها فوق رؤوسهم وهي مسيرة خمسمائة عام حتى يقطع سمكها فيأشده هول صوت انشقاقها في أسمع الخلائق ثم تمزقت وانفطرت من هول ذلك اليوم ثم ذابت حتى صارت كالفضة المذابة ، فعندئذ يشيب الصغير وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد (٢) .

— ثم يقول الله تعالى يا اسرافيل قم وانفخ في الصور نفخة البعث فينفخ وينادى آيتها الأرواح الخارجة والعظام النخرة والأجساد البالية والعروق المتقطعة والجلود المتمزقة قوموا لفصل القضاء . فيقومون بأمر الله تعالى ينظرون إلى السماء قد مارت وإلى الأرض قد بدلت وإلى العشار قد عطلت وإلى البحار قد سجرت وإلى الزبانية قد أحضرت وإلى الشمس قد كورت وإلى الموازين قد نصبت ، يومئذ تبيض وجوه وتسود وجوه ثم ينظرون إلى الجنة وقد أزلفت علمت نفس ما أحضرت (٣) .

(١) الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة للغزالي ص ٢٧ / ٢٨

(٢) مختصر تذكرة القرطبي للشعراني ص ٦٦ وما بعدها .

(٣) دقائق الأخبار ٢٤ ص .

٧٦ - ٧٧ - ٧٨ وصف الصراط مرة ثانية بحسره السبعة

- فإذا تم وزن العباد يأمر الله ملكين بنصب الصراط على متن جهنم أرق من الشعرة وأحد من السيف على حافيته كالإلب معلقة تأخذ من أمرت بأخذها ، طوله مسيرة ثلاثة آلاف سنة ، ألف منها صعود وألف منها استواء وألف منها هبوط ، وجاء أن جبريل عليه السلام في أوله وميكائيل في وسطه يسألان الخلق عن أربعة أشياء ، عن عمرهم فيم أفنوه وعن شبابهم فيم أبلوه وعن علمهم ماذا عملوا به وعن مالهم من أين اكتسبوه وفيم أنفقوه ، ونور كل إنسان مقصور عليه لا يمشى فيه غيره ، وأول من يجوز الصراط محمد صلى الله عليه وسلم وأمه ثم عيسى وأمه ثم موسى وأمه ثم يدعى كل نبي وأمه حتى يكون آخرهم نوحا وأمه ، فمنهم من يجوز كالبرق الخاطف ومنهم من يجوز كالريح العاصف ومنهم أسرع من الخيل ومنهم من يمشو على ركبته ومنهم من يجوز كالطير ومنهم من يجوز ماشيا ومنهم من يسقط على وجهه في النار . ذكر العلماء أنه لا يجوز أحد على الصراط حتى يسأل على سبع قناطر : الأولى يسأل فيها عن الإيمان بالله وعن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا جاء بها مخلصاً جاز ، ويسأل في الثانية عن الصلاة فإذا جاء بها تامة جاز ، وفي الثالثة عن صوم شهر رمضان فإذا جاء به تامة جاز ، ويسأل في الرابعة عن الزكاة فإذا جاء بها تامة جاز ويسأل في الخامسة عن الحج والعمرة ، فإذا جاء بهما تامين جاز وفي السادسة عن الوضوء والغسل فإذا جاء بهما تامين جاز وفي السابعة - وليس في القناطر أصعب منها - عن مظالم الناس فإذا نجوا من هذه القناطر وخلصوا منها يشربون من جوض النبي صلى الله عليه وسلم : فإذا شربوا منه زال عنهم التعب والظمأ ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وريحه أطيب من المسك (١) .

(١) الدرر الحسان في البحث ونعيم الجنان للسيوطي ، طبع الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٥٥

— قال النبي عليه السلام إن الله تعالى خلق على النار جسرا وهر الصراط على متن جهنم مدحضة مزلفة عليه سبع قناطر ، كل قنطرة منها مسيرة ثلاثة آلاف سنة ، ألف منها صعود وألف منها استواء وألف منها هبوط ، أدق من الشعرة وأحد من السيف وأظلم من الليل . . كل قنطرة عليها سبع شعب ، كل شعبة كالرمح الطويل محدد الأسنان يجلس العبد على قنطرة منها ويسأل عما أمره الله تعالى به ، ففي الأولى يحاسب على الإيمان . . قال وهب إنه عليه السلام يدعو يارب سلم سلم أمتي فيركب الخلائق الجسر حتى يركب بعضهم على بعض ، والجسور تضطرب كالسفينة في البحر في الريح العاصف ، فتجوز الزمرة الأولى كالبرق الخاطف والزمرة الثانية كالريح العاصف ... والزمرة السابعة قدو يوم أو شهر أو سنة ، حتى يكون آخر من يمر على الصراط قنطرة خمس وعشرين ألف سنة من سني الدنيا ، والنيران تحت أقدامهم وفوق رؤوسهم حتى يجوزوها كالفحم سوادا ، ومنهم من يجوزها لا يخشى شيئا من أهوالها ولا يناله شيء من نيرانها حتى إذا جاوزها يقول أين الصراط فيقال له قد جزته من غير مشقة برحمة الله تعالى . وقد جاء في الخبر أنه إذا كان يوم القيامة تجيء أمة فإذا صعدت على الصراط التفت إليهم عليه السلام فيقول من أنتم فيقولون نحن أمتك فيقول هل كنتم على شريعتي فيقولون لا فيتبرأ منهم ويتركهم فيقعون في جهنم . . وفي الخبر يأتي قوم يقفون على الصراط ويقولون من ينجينا من النار ولا يتجاسرون على المرور فيأتي جبريل عليه السلام فيقول لهم ما منعكم أن تعبروا الصراط فيقولون نخاف من النار فيقول جبريل كنتم في الدنيا إذا استقبلتم بحرا عميقا كيف كنتم تعبرون ، فيقولون بالسفينة فيأتي جبريل عليه السلام بالمساجد التي كانوا يصلون فيها كهيئة السفن فيجلسون عليها ويعبرون الصراط فيقال لهم هذه مساجدكم التي صليتم فيها جماعة (١) .

(١) دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار للعلامة عبد الرحمن القاسمي ص ٣٢/٣٣

— إذا عصف الصراط بأمتي نادوا وا محمداه فأبادر من شدة إشفاف عليهم
وجبريل أخذ بحجزتي فأنادى رافعا صوتي رب أمتي أمتي لا أسألك اليوم
نفسى ولا فاطمة ابنتى ، والملائكة قياما عن يمين الصراط ويساره
ينادون رب سلم سلم . انتهى ، هذا وقد عظمت الأحوال واشتدت
الأهوال والعصاة يتساقطون عن اليمين وعن الشمال ، والزبانية يتلقونهم
بالسلاسل والأغلال وتناديهم الملائكة أما نهيتهم عن كسب الأوزار ،
أما خوفكم نبيكم من عذاب النار ، أما أنذركم كل الإنذار .. ففكريا أخى
فيما يحل بك من الفرع إذا رأيت الصراط ودقته وهو منصوب على جهنم
وهى سوداء مظلمة وشررها يتطاير على العباد ولها زفير وشهيق وغيظ
والخلائق يتساقطون فى النار كالنور ، ومنهم من يزل فتمسكه الخطاطيف
وتأكل جوانبه النار فلا يزال كذلك مقدار سنين (١) .

— روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم إذا كان يوم القيامة يخرج من النار شيء اسمه حريش يتولد من
العقرب رأسه فى السماء السابعة وذنبه تحت الأرض السفلى فينادى سبعين
مرة أين من بارز الرحمن وأين من حارب الرحمن فيقول جبريل عليه
عليه السلام ماذا تريد يا حريش ؟ فيقول أريد خمسة ، أين من ترك
الصلاة أين من منع الزكاة وأين من شرب الخمر وأين من أكل الربا
وأين من يتحدث بحديث الدنيا فى المساجد فيجمعهم فى فمه ويرجع
بهم إلى جهنم (٢) .

— إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعا وإن ضرسه مثل أحد وإن مجلسه
فى جهنم كما بين مكة والمدينة وإن فخلده مثل جبل البضاء ويسحب من
لسانه الفرسخ والفرسخين تطوّه الناس (٣)

(١) مختصر تذكرة القرطى للشمراى ص ٩٥ - ٩٦

(٢) التذكرة ١٢٢

(٣) دقائق الأخبار ص ٣٨

— إن في جهنم واديا يدعى أثاما فيه حيات وعقارب في كل فقار من ذنب ذلك العقرب سبعون قلة كل عقرب منهن قدر البغلة الموكفة تلدغ الرجل فينسى حر جهنم من حرارة لدغها (١) .

٧٩ - بعض مشاهد العذاب التي لا يطيق رؤيتها

— ثم أتى على قوم تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء ، قال يا جبريل ما هؤلاء ؟ قال : خطباء الفتنة ، ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم فيريد الثور أن يدخل من حيث خرج فلا يستطيع قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة فيندم عليها فيريد أن يردّها فلا يستطيع (٢) ،

— أصحاب الفروج الزانية يحشرون يوم القيامة وفروجهم توقد ناراً وأيديهم مغلوطة إلى أعناقهم تسحبهم الزبانية وتنادى عليهم فيتفرجون عليهم فتضيح النار من فروجهم روائح منتنة فلا يبقى بار ولا فاجر إلا قال اللهم العن الزناة ، وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به إلى السماء رجلاً ونساء محبوسين مع العقارب والحيات ، العقارب تلدغهم والحيات تنهشهم ، فوضع كل قبلة جرت بينهما تدقهم العقارب بمقارباتها وفي كل مقارة راوية سم تفرغ في لحم من تقرصه وهم معلقون بشعورهم قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هم الزانون والزانيات (٣) .

— من ملك نصاباً ولم يذكره جاءه يوم القيامة في صفة ثعبان عيناه تنقد ناراً وأسنانه من حديد فيجرى خلف مانع الزكاة فيقول له أعطني يمينك البخيلة حتى أقطعها فيهرب مانع الزكاة فيقول له أين المهرب من الذنوب

(١) المصدر السابق ص ١١٩ (٢) الترغيب والترهيب : ص ٨٥٩ .

(٣) قرّة العيون ومفرح القلب المخزون لأبي الليث السمري قندى ، طبع صبيح ص ١٠-١١

فيلحقه ويقطع يمينه بأسنانه ثم تعود كما كانت ثم يقطع اليسرى وكلما قطع بأسنانه صاح صيحه من الوجع يرتعد لها أهل الموقف (١) .

— ثم قال جبريل يا مالك : انفخ النار نفخة واحدة فطار فوداي وأظلم بصري ووقعت مغشياً على فظننت أنه ما بقي أحد من خلق الله تعالى إلا وهلك ، فقال لي جبريل أثبت لأمر ربك يا محمد إن الله أكرمك بما لم يكرم به غيرك (٢) .

— قلت يا مالك اطبق كدت أموت من شدة هذا العذاب ، فقال يا محمد قد رأيت وشاهدت . وقد يرى الحاضر ما لا يرى الغائب ، أبدأ أمتك وحذرهم لئلا يقعوا في هذا العذاب (٣) .

٨٠ — عودة إلى بيت المقدس وامتطاء للبراق ورجوع للبيت وحوار مع أهله

— فلما انتهينا إلى السماء الدنيا إذا الليل على حاله لم يتقدم ولم يتأخر ، فركبت وأتيت مكة ونزلت عن البراق فودعني جبريل وقال : يا محمد إذا أصبحت فحدث قومك بما رأيت من العجائب في هذه الليلة وبشرهم برحمة الله تعالى ، فقلت : يا أخي جبريل إني أخاف أن يكذبوني ، فقال جبريل : إن كذبوك صدقك أبو بكر فلا تبال بمن كذبوك بعده ، فنمت على فراشي إلى وقت صلاة الصبح (٤) .

— فرجعت حتى أتيت بيت المقدس فرأيت البراق مشدودة فصليت ركعتين وحمدت الله تعالى على ما من علي به ، ثم أدخلني جبريل بيت المقدس فنظرت إلى صور الأنبياء وصورة أبي بكر عن يميني وعمر عن شمالي ،

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٣ . (٢) مخطوطة المراجع الأولى ص ٩٤ .

(٣) مخطوطة تاريخ تيمور ٧٣٨ ص ٣٢٢ ب .

(٤) ابن همام ص ٤٣ .

فركبت البراق وأتيت مكة والليل على حاله ، قالت أم هانئ : فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم في ردائه وذهب حتى وقف على قريش (١) .

- فأخذ جبريل بيدي وهبط بي من سماء إلى سماء حتى وصلنا إلى سماء الدنيا وإذا أنا بالباب مفتوح والمعراج منصوب فهبطنا فرأينا البراق على حاله فسميت باسم الله وركبتها ، فأخذ جبريل عليه السلام بعنانها بأسرع من طبقة عين ، فعانقني جبريل عليه السلام وقال غدا إذا أصبحت حدث قومك بما رأيت من عجائب الله عز وجل في هذه الليلة وبشرهم برحمة الله تعالى ، قلت إنهم لا يصدقوني ، قال إن كذبك أبو جهل لعنه الله يصدقك أبو بكر الصديق ، ثم ودعني جبريل ورجعت إلى منزلي فلما أصبحت حدثت قومي (٢) .

- ورد في رواية أم هانئ .. قال : وأنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم ما رأيت ، فأخذت بثوبه فقلت : إني أذكرك الله إنك تأثروا قوماً يكذبونك وينكرون مقاتلتك فأخاف أن يسطوا بك . قالت فضرب ثوبه من يدي ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس (٣) .

- فتعلقت بردائه وقلت أنشدك الله تعالى يا ابن عم أن لا تحدث بهذا قريشاً فيكذبك من صدقك فضرب يده على ردائه فأنزعه من يدي فارتفع عن بطنه فنظرت إلى عكته فوق إزاره كأنه طي القراطيس وإذا نور ساطع عند فؤاده كاد يختطف بعصري فخررت ساجدة فلما رفعت رأسي إذا هو قد خرج (٤) .

(١) مخطوطة المعراج الأول ص ١٥٦/١٥٧

(٢) مخطوطة تاريخ تيمورص ص ٣٤١

(٣) الخصائص الكبرى للسيوطي - ص ٤٣٩/٤٤٠

(٤) نفس المصدر السابق ص ٤٤١/٤٤٢

٨١ - ٨٥ المرحلة الأخيرة من الرحلة وبراهين الصدق

- ثم خرجت إلى باب المسجد وكان من عادة أبي جهل الخبيث إذا مر على يقول يم نبيث يا محمد البارحة ؟ فمر على وسألني على حسب عادته ، فقلت له : أسرى بي ، قال : إلى أين ؟ فقلت : إلى بيت المقدس ثم إلى العرش وخاطبت الحق وخاطبني وأعطاني وأكرمني ، ورأيت الجنة وما أعد الله لأهلها من النعيم المقيم ، ورأيت النار وما أعد الله لأهلها من الزقوم والحميم . قال أبو جهل : يا محمد اكنتم هذا الأمر ولا تتكلم به وإلا كذبك الخلق ، فقلت له أكنتم أمراً أنعم الله به على وقد قال تعالى « وأما بنعمة ربك فحدث » قال أبو جهل : يا الله ، العجب من قولك ، هل تغفل أن تحدث قومك بما أخبرني به فقلت نعم ، فنادى - يا أهل مكة هلموا إلى ، فاجتمع أهل مكة كلهم ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً وقال يا معشر قريش اعلموا أن الله سبحانه وتعالى أسرى بي في هذه الليلة إلى بيت المقدس ثم عرج بي إلى السماوات السبع وشاهدت الأنبياء عليهم السلام ورفعت إلى العرش ودست بساط النور وخاطبت الحق وخاطبني ورأيت الجنة والنار ، وجعلت أصف هذا كله وأبو بكر الصديق يقول .. صدقت يا صفوة الله صدقت يا حبيب الله ، فقال أبو جهل . وصفت فأحسنتم فما أريد منك خبر السماء ولكن نريد منك خبر بيت المقدس كيف هو ، صفه لنا حتى نعلم أن كلامك حق وقولك صدق ، فأطرق النبي صلى الله عليه وسلم رأسه إلى الأرض لأنه دخل بيت المقدس بالليل ومر عليه راجعاً بالليل ولم ير له علامة ولا إشارة فأوحى الله إلى جبريل أن اهبط إلى بيت المقدس واقتله بأرضه وجباله وتلاله وأوديته وأزقته وشوارعه ومساجده وابسطه بين يدي حبيبي محمد . قال فعند ذلك هبط الأمين جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ببيت المقدس

فجعل النبي ينظر إليه ويصفه مكانا مكانا وموضعا موضعا حتى أطرقوا جميعا إلى الأرض وأبو بكر الصديق يقول : صدقت يا حبيب الله . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لما كنت أنا وأخي جبريل في الهواء رأيت من بني مخزوم فلانا وفلانا هم وركب عند جبل الأراك وقد ضل منهم جمل أورق فناديهم من الهواء إن جملكم في وادي النخل وهم عند طلوع الشمس من الغد يفلدون عليكم فإذا جاءوكم فاسألوهم ، فلما أصبح ذلك اليوم وكان الركب بعيداً ولم يقدرُوا أن يدركوا مكة عند طلوع الشمس قال فأمسك الله في ذلك اليوم الشمس حتى لحق الركب مكة إكراما وتصديقا لكلام سيد الخلق ، ولما طلعت الشمس دخل الركب مكة وأخبروا أنه ضل منهم بعير قالوا وكنا نبحت عنه فنادانا شخص من الهواء إن البعير في وادي النخل فأتينا الوادي فوجدناه كما ذكر لنا ، فلما سمع المسلمون ذلك فرحوا فرحا شديداً وضجوا بالتهليل والتكبير وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حوله وهو بينهم كالقمر وهم حوله كالنجوم وأسلم في ذلك اليوم أربعة آلاف رجل ، وعاداه أبو جهل وجحده وحسده وقال هذا سحر عظيم منك يا محمد . وأقبل النبي صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه بما رآه في السماوات والعرش من العجائب (١) ..

— فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر فكبر على الناس وقالوا والله الذي لا إله إلا هو إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة وتطرد شهرا مقبلة ، فيذهب محمد في ليلة ويرجع إلى مكة ، فرجع كثير من الناس عن الإسلام ممن كان قد أسلم ، فذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا : هالك من صاحبك ، يقول إنى أتيت الليلة بيت المقدس ورجعت إلى مكة في ليلة واحدة ، فقال لهم أبو بكر إنكم تكذبون عليه ، فقالوا بلى ها هو ذاك في المسجد يحدث الناس ، فقال أبو بكر : والله أن كان قال لقد صدق ، ما يعجبكم

من ذلك . إنه ليخبر بالخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار ، فأصلى به وهو أبعد من بيت المقدس ، فما تعجبون منه ، ثم أقبل أبو بكر حتى أتى النبي فقال له يا رسول الله . تحدث هؤلاء أنك قلت اني أتيت بيت المقدس الليلة وصليت فيه ورجعت قال نعم قال أبو بكر فصصفه الى ، قال الرسول فرفع لى بيت المقدس حتى نظرت إليه ، ثم جعل يصف لأبي بكر وجعل أبو بكر يقول صدقت صدقت ، أشهد أنك رسول الله حتى انتهى ، قال الرسول وأنت يا أبا بكر الصديق ، فسمى يومئذ صديقاً (١) .

— كنت في بيت أم هانئ بنت أبي طالب ليلة الإثنين في السابع والعشرين من رجب سنة ثمان من البعثة (٢) .

— فلما أصبح قطع وعرف أن الناس تكذبه ففقد حزناً ، فمر به عدو الله أبو جهل ، فجاء حتى جالس إليه ، فقال له كالمستهزئ . هل كان من شيء قال نعم ، قال ما هو ؟ قال أسرى في الليلة إلى بيت المقدس ، قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم ، فلم ير أن يكذبه مخافة أن يمجده الحديث إن دعا قومه إليه ، قال : أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني ؟ قال نعم . - فلما حدثهم إذا بهم ما بين مصفق وواضع يده على رأسه متعجباً ، وضجوا وأعظموا ذلك فقال المطعم بن عدي . كل أمرك قبل اليوم كان أمما غير قولك اليوم ، وأنا أشهد أنك كاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدراً شهراً وترغم أنك أتيت في ليلة .

فقال أبو بكر . يا مطعم ، بش ما قلت لابن أخيك ، جهته وكذبتة ،

(١) المراجع للقشيري ص ٥٥/٥٤

(٢) ابن عباس ص ٢

أنا أشهد أنه صادق ، فقالوا : يا محمد صف لنا بيت المقدس كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ، وفي القوم : من سافر إليه . فذهب ينعت لهم حتى التبس عليه النعت فكرب كربا ما كرب مثله ، فجىء بالمسجد وهو ينظر إليه حتى وضع دون دار عقيل فقالوا كم للمسجد من باب ولم يكن عدها فجعل ينظر إليها ويعدّها بابا بابا ويعلمهم وأبو بكر يقول صدقت (١) .

فلما أصبحت أخبرت قومي فكان أبو بكر كلما قلت كلمة يقول صدقت يا رسول الله ، ولما كذبتني قرّيش قالوا صف لنا بيت المقدس ، فحملته جبريل بإذن الله وصوره أمامي وصرت أصف لهم ما قد ائى فقال القوم لقد أصاب وقال أبو بكر رضى الله عنه صدق محمد أشهد أنه عبد الله ورسوله وإنه لمن الصادقين . وفي رواية أخرى قالوا له يا محمد إن كنت صادقا فأين لقيت غير بنى فلان ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكان كذا وكذا ، ثم قالوا فأين لقيت بنى فلان ومساعدتها ، وكنت عن عدتها مشغولا فرأيتها قد حملت إلى فأخبرتهم بها وكم فيها من راع وأيتها سائرة ، فانكسر منها جمل أورك ، فقالوا إذا قدموا عليكم فاسألوهم عن ذلك . ثم قالوا يا محمد أين رأيت غير فلان ؟ قال فى العقبة وهى أربعون بعيرا تسعة منها تحمل الحبوب وعشرة منها تحمل البسر وأحد عشر بعير يحمل الزيت يقدمها بعير بغارتين فاخرجوا إليها فلأنكم ترونها مقبلة الساعة ، فخرج الناس بجمعهم مبادرين لينظروا ما قال محمد صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر صدق الله وصدق رسوله الكريم ، فقالوا يا عتيق آمنت بما قال ؟ قال : كيف لأؤمن وقد رأيته حيانا ، ثم وجدوا ما قاله جميعا حقاً (٢) .

ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس فأخبرهم فقام مطعم بن عدى فقال : يا محمد

(١) قصة الإسراء والمعراج للعلامة نجم الدين النبطى ص ١٣١ وما بعدها .

(٢) مخطوطة المعراج رقم ١٩٩٣ تاليف طلعت بدار الكتب المصرية صفحات ١٥٥

وما بعدها .

لو كنت شابا كما كنت ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرائنا ، فقال رجل من القوم : هل مرت بلبل لنا في مكان كذا وكذا ، فقال نعم والله وجدتهم قد أضلوا بعيرا لهم فهم في طلبه ، قال : فهل مرت بلبل لبني فلان ؟ قال نعم وجدتهم في مكان كذا وكذا قد انكسرت لهم ناقة حمراء فوجدتهم وعندهم قصعة ماء فشربت ما فيها ، قالوا فأخبرنا ما عدتها وما فيها من الرعاء ، قال : قد كنت عن عدتها مشغولا فنام فأتى بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاء ثم أتى قريشاً فقال لهم ، سألتوني عن إبل بني فلان فهي كذا وكذا ، وفيها من الرعاء ابن أبي قحافة وفلان وفلان وهي مصحبتكم بالغداة على الثنية ، فقعدها على الثنية ينظرون أصدقهم ما قال ؟ فاستقبلوا الإبل فسألوا : هل ضل لكم بعير ؟ قالوا نعم ، قالوا : فهل كان عندكم قصعة ماء قال أبو بكر أنا والله وضعناها فما شربها أحد منا ولا أهرقت في الأرض فصداقه أبو بكر وآمن به (١) ،

— ذكر السيوطي أن أئقن روايات المعراج وأجودها حديث أنس الذي سلم من التعارض الذي لم يسلم منه غيره (٢) ،

(١) الخصاص الكرى للسيوطي ج ١ ص ٤٤٠

(٢) معراج القشيري ص ٢٧

فهرس المراجع العربية

د . إحسان صدق ود . حسين مؤنس :

تراث الإسلام ، تصنيف شاخت وبوزورث ، القسم الثاني والثالث سلسلة
عالم المعرفة ، الكويت ١٩٧٨

إخوان الصفا :

رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء ، أربعة مجلدات دار صادر بيروت .
١٩٥٧ .

د . إبراهيم عبد الرحمن محمد :

دراسات مقارنة ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٧٥

ابن إياس (محمد بن أحمد) :

بدائع الزهور في وقائع الدهور ، مطبعة صبيح بالقاهرة

بلر محمد عسل :

السراج الوهاج في الإسراء والمعراج ، مطبعة عباس بالقاهرة ١٩٣٧

البرزنجي :

السراج الوهاج في الإسراء والمعراج مكتبة القاهرة ١٩٧٣

ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي)

رحلة ابن بطوطة ، دار صادر بيروت ١٩٦٠

الثعلبي (ابن إسحق أحمد بن محمد إبراهيم)

قصص الأنبياء المسمى بالعرائس ، مكتبة ابن شقرون - القاهرة .

(م ٢٥ - الثقافة الإسلامية)

الجيلاني (عبد الكريم بن إبراهيم)

الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل . مطبعة صبيح بالقاهرة ١٩٥٥
د. حسن عثمان : ترجمة الكوميديا الإلهية لدانتي .

— الجزء الأول ، الجحيم دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٥

— الجزء الثاني ، المطهر دار المعارف ١٩٦٤

— الجزء الثالث ، الفردوس ، القاهرة ١٩٦٩

الدميري (الشيخ كمال الدين)

حياة الحيوان الكبرى ؛ دار القاموس الحديث ، بيروت

د . رجاء عيد المنعم جبر

رحلة الروح بين ابن سينا وسناني ودانتي ، مكتبة الشباب ، القاهرة
١٩٧٧

الزبيدي (المرتضى)

إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ، دار إحياء التراث
العربي بيروت

سعيد محمد حسن

حقائق الإسراء والمعراج ، القاهرة ١٩٧٧

السميرقندي (الشيخ نصر بن محمد إبراهيم)

— تنبيه الغافلين

— بستان العارفين ، مكتبة عيسى الحلبي ، بالقاهرة

— قرّة العيون ومفرح القلب المحزون . طبع صبيح بالقاهرة

د. مهدي القلماوي

أثر العرب والإسلام في النهضة الآوربية (في الأدب) ، الهيئة المصرية

العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)

-- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة

دار المعرفة - بيروت ، ١٩٧٥ .

- شرح الصلور بشرح حال الموتى والقبور ، مطبعة الحلبي القاهرة ، ١٩٥١ .

الشعراني (الإمام عبد الوهاب)

- مختصر تذكرة الإمام القرطبي ، طبع صبيح بالقاهرة ١٩٦٨

- اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكاير . دار المعرفة ، بيروت

- الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر ، دار المعرفة بيروت

صديق حسن خان

يقظة أولى الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار

تحقيق د . أحمد حجازي السقا . مكتبة عاطف بالقاهرة ١٩٧١

د . صلاح فضل

- منهج الواقعية في الإبداع الأدبي ، الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٨

- نظرية البنائية في النقد الأدبي ، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٧٨

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)

جامع البيان في تفسير القرآن . دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٢

د . عائشة عبد الرحمن

تحقيق رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣

ابن عباس

الإسراء والمعراج : مكتبة الجمهورية بالأزهر .

د . عبد الرحمن بدوي

- ترجمة كتاب « ابن عربي » لأمين بلاثيوس ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥

— دور العرب في تكوين الفكر الأوربي . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥

عبد اللطيف الطيباوى

— التصوف الإسلامى العربى ، بحث في تطور الفكر العربى . دار العصور

بالقاهرة ١٩٢٨

ابن عربى (محى الدين)

— الفتوحات المكية ، طبعة مصورة دار صادر بيروت أربعة أجزاء

وطبعة أخرى محققة بالقاهرة ، قدمها الدكتور عثمان يحيى صدر منها

سنة أجزاء عن الهيئة العامة للكتاب من عام ١٩٧٢ إلى عام ١٩٧٨

— ترجمان الأشواق . دار صادر بيروت ١٩٦٦

د . على حسن عبد القادر

تحقيق كتاب المعراج للقشيري ، القاهرة ١٩٦٤

الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد)

— الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة ، مطبعة صبيح بالقاهرة ١٩٧١

— إحياء علوم الدين ، على هامش الإنخاف للزبيدي . بيروت .

القاضي (عبد الرحيم بن أحمد)

— دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار ، طبع الحلبي بالقاهرة ١٩٥٥

القسطلاني (أحمد بن محمد بن أبي بكر الخطيب)

المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، دار الكتب العلمية ، بيروت

القزويني (زكريا بن محمد بن محمود)

عجائب المخلوقات والحیوانات وغرائب الموجودات ، دار القاموس

الحديث — بيروت .

القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن)

كتاب المعراج ، تحقيق د . علي حسن عبد القادر دار الكتب الحديثة
القاهرة ١٩٦٤

ابن القيم الجوزية (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر)

— مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة . دار الكتب
العلمية . بيروت .

— حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ، مطبعة المدني بالقاهرة .

ابن كثير (عماد الدين أبو النداء إسماعيل) .

تفسير القرآن العظيم . طبع عيسى الحلبي بالقاهرة .

د . لويس عوض

على هامش الغفران . دار الهلال بالقاهرة ١٩٦٦

المحاسبي (أبو عبد الله الحارث بن أسد)

كتاب التوهم . القاهرة ١٩٧٨ م

د . محمد الجوهري

علم الفولكلور ، دراسة في الأنثروبولوجيا الثقافية ، القاهرة

دار المعارف ١٩٧٧

د . محمد زهير السمهوري .

ترجمة كتاب تراث الإسلام تصنيف شاخت وبوزورث القسم الأول ،

سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ١٩٧٨

محمود شاكر

أباطيل وأسمار ، القاهرة ١٩٦٥

د . محمود علي مكي (بالاشتراك)

أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية . (في الأدب) الهيئة المصرية

للعمامة للتأليف والنشر ١٩٧٠

٣٩٠

ابن مخلوف

العلوم الفاخرة في النظر في أمور الدار الآخرة ؛ القاهرة ١٣١٧ هـ

المليباري (زين الدين)

— الجواهر في عقوبة أهل الكبائر ، مكتبة القاهرة ١٩٧٨

المنفري (زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي)

— الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ، مكتبة الجمهورية العربية

— مختصر صحيح مسلم ، تحقيق محمد ناصر الألباني ، الكويت ١٩٦٩

نجم الدين الغيطي

قصة الإمراء والمعراج . مكتبة الجندي ؛ القاهرة ١٩٧٠

النووي (الحافظ أبو زكريا محي الدين بن شرف)

— بستان العارفين . إدارة الطباعة المنيرية — القاهرة ١٣٤٨ هـ

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك)

السيرة النبوية ؛ تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإياري وعبد الحفيظ

شليبي ، القاهرة ١٩٥٥

الهندي :

كنز العمال في ثبوت سنن الأقوال والأفعال ، القاهرة ١٣١٢ هـ

اليافعي

روض الرياحين في حكايات الصالحين ، مكتبة ابن شقرون القاهرة

المراجع الاجنبية

Asin Palacios, Miguel.

« La escatologia musulmana en la Divina Comedia »,
Madrid 1961.

Gerulli, Enrico.

« Libro della Scala e la questione della fonti
Arabo - Spagnole della Divina Commedia. Citta del
Vaticano 1949.

Della Vida, Levi .

Nueva luz sulle fonti islamiche, della Divina
Comedia, en Al - Andalus. Madrid 1949,

Eliot, T. S.

« To criticiz the critic » Trad. Madrid 1967.
What is a clasic '' Trad. Barcelona 1965.

Escarpit, Robert.

« Sociologia de la literatura » Trad. Buenos Aires
1962.

Nicholson. R. A.

« A persian forerunner of Dante » Jurnal. of the
Bombay branche of The Royal Asiatic Society
XIX 1943.

Pichois, Claude. Rousseau, André-M.

« La littérature comparée », Trad. Madrid 1960.

Sanchez - Ablornoz, Claudio. .

« El Islam de Espana y el Occidente » Madrid 1974.

Sandino, José Muñoz .

« La escala de Mahoma » Trad. por Alfonso
El Sabio ». Madrid 1949.

Tylor, Koeber, Malinowski, White y Coodenough.

«El concepto de cultura. Textos fundamentales»
Barcelona 1975.

Vernet, Juan.

«La cultura Hispanarabe en oriente y occidente.»
Barcelona 1978.

Weisstein, Ulriche.

«Introducción a la literatura comparada» Trad,
Barcelona 1975.

Wellek, Rene.

«Concepts of criticism» Trad. Caracas 1968.

رقم الإيداع ١٨٠٦ / ٨٦ الترقيم السولي ٥ - ١٥٤ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشارقة

الشارقة ١٦ شارع خوادحجي - هاتف. ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقية، شارقة - تليفون 93091 SHROK UN
بيروت، ص ٨ - ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٢ - برقية، دمشق - تليفون SHROK 20175 LE

